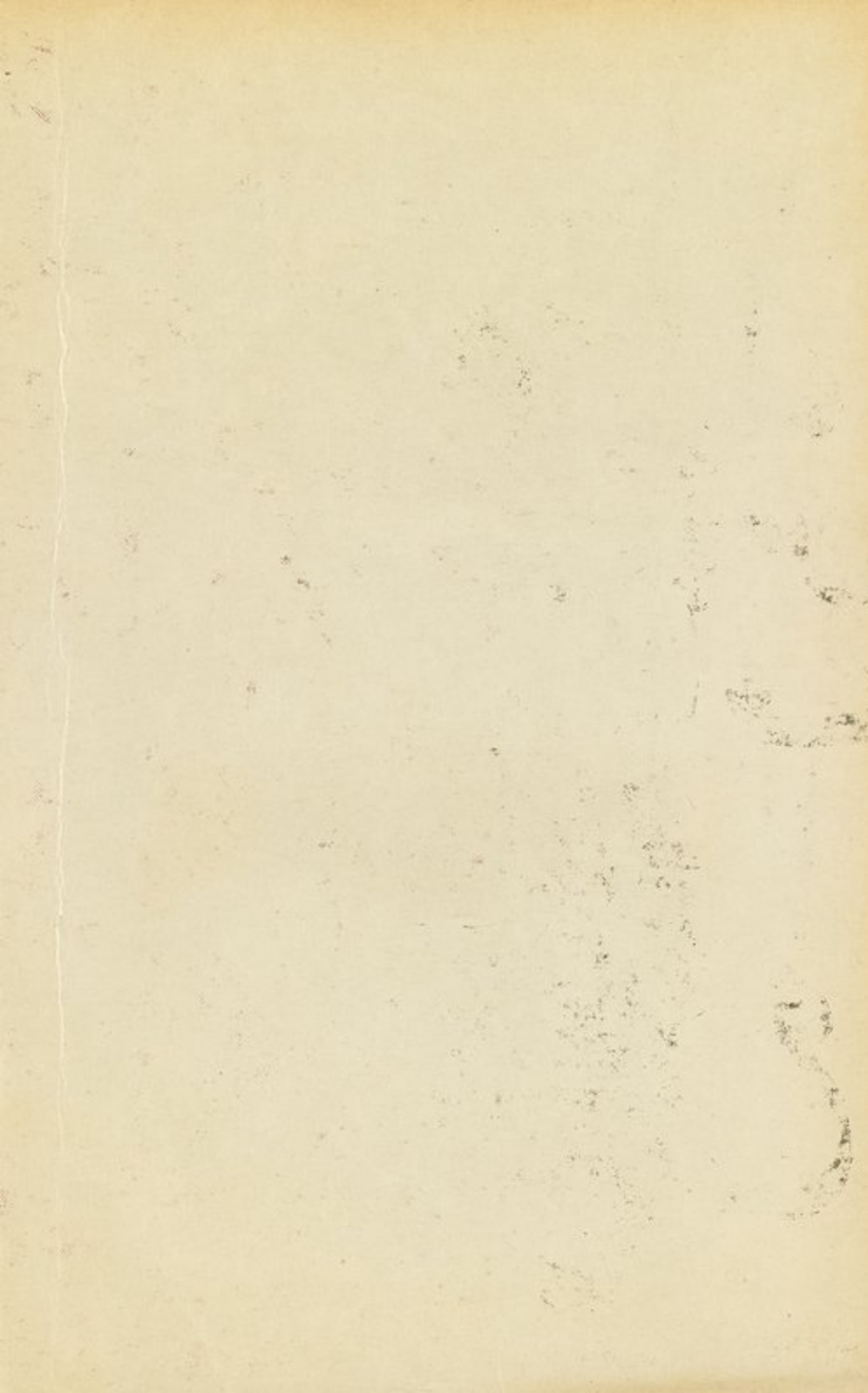


مذکرات

جمال مائسا

مع
ال
ع





Jemāl, pasha

منشورات دار البصري

Mudhakkirāt

Jamāl



تعريب - علي احمد شكري
تحقيق - عبد المجيد محمود

١٩٦٣

استعداد

بقلم الزعيم المتقاعد محمود بهجت سنان
 في شهر آب سنة ١٩١٤ اعلنت الامبراطورية العثمانية التعبئة العامة في
 جميع ارجاء امبراطوريتها تمهيداً لحوض غمار الحرب العالمية الاولى في جانب
 الالمان عملاً باحكام معاهدة التحالف المعقودة بينهما . مما جعل رجال العرب
 يطيلون البحث والتفكير في الخطة التي يسرون عليها خلال المرحلة الجديدة .
 فرأوا بعد انعام النظر والاحاطة بالموقف العام . ان يؤيدوا الدولة في نضالها
 ويشدوا ازرها في كفاحها . متغافلين عن كل اعتبار حزبي ونزعة قومية جاعلين
 مصلحة الوطن فوق كل مصلحة . وشملت التعبئة العامة للجيش في بلاد العرب من
 دون حادث يذكر . وقد اقترح زعماء الاتحاديين وفي مقدمتهم جمال باشا نفسه
 على ارسال وفود من رجالات العرب الى البلاد العربية يضمونها للحكومة ولاء
 العرب واقبال شبانهم على التجنيد ، وقد قسمت الامبراطورية العثمانية الى ست
 قيادات بالنسبة الى مناطق تحشدتها . فكان الجيش الرابع مقره في دمشق .
 وكانت دائرة نفوذه العسكرية والادارية تشمل البلاد المتحدة من جنوبي طوروس
 حتى اليمن اى انها كانت تضم ولايات اطنه وحلب والشام وبيروت وجبل لبنان
 والقدس والحجاز اى (مقاطعة كيليكيه وسورية ولبنان وفلسطين والحجاز)
 وتولى الفريق زكى باشا الحلبي وهو عربي قيادة هذا الجيش في ابتداء الحرب
 فتمت التعبئة في عهده ووضعت الخطط العسكرية تحت اشرافه ، على انهم ما لبثوا
 ان ابدلوه باحمد جمال باشا وزير البحرية يومئذ واحد اقطاب الاتحاديين .
 فغادر الاستانة يوم ٢١ / تشرين الثاني سنة ١٩١٤ قاصداً دمشق ، قبلها يوم
 ٥ / كانون الاول ودخلها باحتفال رسمي . واما زكى باشا فعين مرافقاً
 للامبراطور غليوم .

كان احمد جمال عضواً بارزاً من اعضاء (تركية الفتاة) الذين يمثلون
جمعية الاتحاد والترقي وكان بطلاً معروفاً من ابطال الدعوة الاسلامية . فكان
يخالف الداعين الى الوحدة الطورانية . ويجاهر عن اخلاص بايمانه بمزايا
القومية العثمانية المبنيه على التضامن الاسلامي وبمستقبلها . وكان يميل الى فرنسا
وقد اشتهر بكرهه للامان .

وكان لوصول جمال باشا الى دمشق وقع حسن في النفوس فقد جاء عاقداً
العزم على كسب السكان العرب لموااة تركية وموازرتها وعلى استمالة المسلمين الى
المشاركة الفعالة في الجهاد . وكان يريد ان يستخرج من الدعوة الى الجهاد اقص
ما يستطيع من فوائد . ولذلك كان من الطبيعي ان يولي وجهه شطر مكة يطلب
التأييد . وقد ارسل هو وانور باشا رسائل الى شريف مكة بهذا الصدد .

وتقرب جمال باشا من الاصلاحيين وسعى لاستمالتهم في اول عهده .
فاتصل برجالهم وزعمائهم وقرّبهم اليه وادناهم منه ، فاتخذ الدكتور عبدالرحمن
شهبندر طبيباً خاصاً له كما فتح ابوابه في وجه عبدالكريم الخليل . ونجح محمد
كرد على مبلغاً كبيراً من المال باسم جريدة (المقتبس) وجاد بمثل ذلك على
عبد الغني العريس . صاحب جريدة (المفيد) وكلتا الجريدتين من اعظم صحف
الاخلاصيين يومئذ فانظمتا الى الحكومة عملاً بالخطة المرسومة .

واخذ جمال يعمل جاهداً في توطيد التضامن التركي العربي بجميع الوسائل
الممكنة لمجاهة الحرب . وقد جاء في احدي خطبه « نورد بعض متطفاتها ،
ان البرنامج الذي عقد حزبنا عزيمته على تنفيذه لاصلاح حالة العرب لاوسع
كثيراً مما يخطر ببالكم ، ثم قال : واليوم اراني قادراً على ان اؤكد لكم ان
الاماني التركية والاماني العربية لاتعارضان . فالترك والعرب ليسوا سوى

اخوان في غايتهم الوطنية ربما اكمل بعضهم جهود بعض (١) وبينما كانت الاحوال تسير على هذا المنوال وكان الهدوء يرفرف على بلاد العرب والتعاون على اتمة بين الحكومة والشعب فوجيء الناس في اواخر شهر حزيران ١٩١٥ نبأ اعتقال البعض من زعماء العرب المقربين الى جمال ثم احالتهم الى ديوان الحرب العرفي ، وفي صباح يوم ٢١ آب ١٩١٥ شاهدت بيروت الرعيل الاول من زعماء العرب وعلقوا على اعواد المشانق ، وعلقت بعض المصادر اقدام جمال على ركوب هذا المركب باعتبارات سلبية وايجابية نلخصها بما يلي :

(١) - ميل زعماء تركيا الى التخلص من الحركة العربية والقضاء عليها وهي في المهد . وفرصة الحرب هي خير الفرص السانحة لتحقيق ذلك .

(٢) ما اثبتته الوثائق السرية التي نشرها البلاشفة سنة ١٩١٨ من سجل وزارة الخارجية الروسية عن وجود صلة بين جمال باشا والارمن في تلك الايام وتوسيطه اياهم لحل الحلفاء على الاعتراف به سلطاناً على تركيا مقابل قضائه على الدولة .

واما الاسباب الايجابية ففي مقدمتها المخابرات السرية الجارية بين حق العظم ومحمود الحمصاني بعد اعلان الحرب العالمية الاولى والتي صادرتها المراقبة وسلتها الى قائد الجيش .

وجملة القول اننا من الذين يعتقدون بان جمال لم يعمل ماعمله الا ليتخلص من العنصر العربي المنور . فلنترك القول الى جمال السفاح في مذكراته ليشرح فيها الحوادث تبريراً لسياسته في حق الارباء من العرب .

(١) القيت الخطبة في النادي الشرقي بمناسبة تكريم الشيخ عبد العزيز شاويش في اوائل كانون الثاني ١٩١٥ ، الثورة العربية الكبرى .

مقدمة المعرب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين وصلى الله على سيانا محمد وآله وصحبه أجمعين

وبعد فهذه مذكرات المرحوم أحمد جمال باشا التي كشفت الستار عن ألعيب السياسة الأوروبية في تركيا قبل الحرب وخلاها . وسيلحظ القارىء ان صاحب المذكرات لم يكن همه الأول عند وضعها الدفاع عن نفسه أو نفي ما عزي اليه من التهم بل ذكر الوقائع التاريخية كما هي . فاذا وجد بعينها ما يشم منه رائحة الدفاع فليس ذلك الا من قبيل الاستطراد فقط . واذا كان المؤلف لم يتعرض للدفاع عن نفسه فليس لنا نحن أن ننبري للدفاع عنه . بيد ان هذا لا يمنعنا من ابداء ما يعن لنا من الملاحظات .

(الثورة العربية)

مسئولية الحسين وأولاده

كثيراً ما عزا الناس الى جمال باشا أعمال الغطرسة والعنف والقتل والتعذيب وعدم المبالاة وغير ذلك حتى ان بعضهم سماه (بالسفاح) ولكن القارىء بعد استيعاب هذه المذكرات سيحكم معنا بان المؤلف تساهل اكثر مما كان ينبغي في كثير من المواقف التي كانت تقضي باستعمال الحزم والشدّة وانه حسب حساباً كبيراً لما سماه (الوحدة الاسلامية) مما جعله يتخذ بحيل الدسائس ويستعمل الرأفة مع من باعوا أنفسهم وضمانهم للعدو في حين ان الحكمة كانت تقضى بالتشدد خيفة الفتنة والأخذ بالأحوط .

خذ مثلاً لذلك مسلسلك مع (الحسين) وأولاده . فبالرغم من أن القران

العديده كانت تشير الى قرب اتفاس بلاد العرب على دولة الخلافة بعد أن لعب الذهب الانكليزي بعقول أولئك الاشراف الذين كانوا حرباً ووبالا على دينهم فانه سمح لفيصل بالعودة الى المدينة المنورة في الوقت الذي اشتد فيه تدمر واليها (بصري باشا) من مسلك (الشريف علي) حياله : نعم ان المؤلف ارسل القائد (فخري باشا) على أثر مغادرة (فيصل) له ليدبر مع بصري باشا وسائل الدفاع عن المدينة اذا ما هاجمتها : (جنود الشريف حسين) ولكن ألم يكن الأجدد به أن يعمل بهذه السكيلة المأثورة (الوقاية خير من العلاج) فيبقي (فيصلا) وكذا أخوه علي اذا استطاع أيضا - كرهائن للقضاء على دسائس أيهما ؟ ان برقية (الشريف حسين) الى (أنور باشا) التي اشترط فيها في مقابل وقوفه على الحياد اعتراف تركيا باستقلال الحجاز من تبوك الى مكة والعدول عن محاكمة من أظهرت المحاكم العسكرية خيانتهم من السوريين والعرب كانت دليلا ظاهراً على ان الرجل أصبح بحيث لا ينبغي للسياسي الخازم الركون اليه بحال ما . ثم ان تموين الانجليز لشواطئ الحجاز ونغوره ومهاجمة العرب للطراة الالمانية (امدن) وما عثر عليه (خلوصى بك) حاكم سورية العام من الوثائق الرسمية .

في القنصلية الفرنسية التي أدانت الكثيرين من الزعماء السوريين والعرب كل ذلك كان في نظرنا كافياً لتنبئه (جمال باشا) الى الخطر المنتظر واتخاذ الوسائل الحاسمة للقضاء على الثورة العربية في مهدها .

على ان افراط المؤلف في الثقة (بالشريف حسين) وأولاده واستبعاده ان يقدم أولئك الأدعياء الذين يزعمون انهم من سلالة الرسول عليه الصلاة والسلام على مناوأة دولة الخلافة وهي مشتبكة في حرب نتيجتها الحياة أو الموت أو يماثلوا العدو عليها وبشقوا عضا الاسلام ويشطروا العالم الاسلامي الى شطرين يبرى كل منهما لسفك دم الآخر واغفاله اتخاذ التدبير الكافية

لنكبح جماحهم اذا غررت بهم الوعود الاجنبية - تقول - ان ذلك كله لا يخلي
(الشريف حسين وأولاده) بحال ما من المسؤولية العظمى التي سيحاسبون
عليها غداً بين يدي الله تعالى حساباً عسيراً . ولم يكن للشريف عذر ما فيما
جنّاه اذ مهبطاً كان محضاً في شكواه وتبرماته فقد كان خليقاً به أن يمهل تركيا
الى أن تضع الحرب أوزارها ثم يطالبها وقتئذ بما يشاء لأن يطعنها غدرأ
تلك الطعنة النجلاء التي كادت تودي بالاسلام - لولا أن قبض الله تعالى
أولئك الأبطال الأماجد (مصطفى كمال باشا وجماعته) فرأبوا الصدع الذي
احدثته ثورة الشريف ومزقوا بشفار سيوفهم وأسنة رماحهم - معاهدة سيفر -
العانية وحطموا الأغلال التي أراد العدو تطويق الاسلام بها . على اننا لو
سلمنا جدلاً بوجاهة مطالب الشريف وانه كان محقاً في تدمره من مساوىء
الحكم التركي - فهل كان يخطر بباله ان دولة مستقلة ذات سيادة تسلم بمطالب
أحد رعاياها العاصين بلا مناقشة أو مفاوضة ؟ - هذا غير معقول طبعاً .
فهاهي ارلندا مثلاً - التي جاهدت نيفاً وسبعة قرون للتخلص من الحكم
الانجليزي ما كادت تنتهز فرصة اشتباك الامبراطورية الانجليزية في حرب
الابادة وتقوم بثورتها المشهورة في عيد الفصح سنة ١٩١٦ - حتى تحول
عطف الشعب الانجليزي عليها وعلى مطالبها الى سخط شديد اعتقاداً منه - ان
مثل هذا العمل ليس الاغدرأ وخيانة لا نظير لها فاطلق يد وزارة المستر
اسكويث لقمع تلك الثورة بمنتهى القسوة والعنف . فقامت هذه الوزارة
بمهمتها خير قيام وقبضت على الزعماء الارلنديين أمثال السر روجر كيسمنت
وشنقتهم شنقاً بتهمة الخيانة العظمى . كل ذلك لأنها كانت ترى أن سلامة
الامبراطورية الانجليزية - هو أول ما يجب الاهتمام به بقطع النظر عما اذا
كان الثوار الارلنديون محقين أو غير محقين في مطالبهم . فهل لامها أحد
على فعلها ؟ وهل اتهمها أحد بالقسوة والعنف ؟ وماذا عسى ان يكون مصير

الامبراطورية الانجليزية اليوم لو أنها توانت في قمع تلك الثورة أو سلمت بمطالب ارلندا؟ اما كانت على الاقل ينتظر ان تحذو حذوها سائر المستعمرات البريطانية الأخرى فتحل تلك الامبراطورية؟ اذن فكيف كان ينتظر الشريف حسين وأتباعه أن تلبى تركيا مطالبهم بلا مناقشة ولا جدال؟ ولماذا يلام (جمال باشا) لأنه شنق من شنق من الثوار السوريين والعرب بعد أن اثبتت المحاكم العسكرية خيانتهم محتدياً حذو انجلترا حيال الثوار الارلنديين؟ وهل لو سلمت تركيا بمطالب الشريف أكان ثمة ضمان أن لاتنهج أرمنييا وسورية والعراق والولايات الأخرى نهج الحجاز وتطالب هي بدورها الانفصال عن الامبراطورية العثمانية؟ الا ان التأريخ ما كان ليفتخر (جمال باشا) اهماله لو تواني في محاكمة أولئك الخونة الذين ثبتت صلتهم الدنيئة بالعدو . (فالشريف حسين) اذن كان يعلم جيد العلم ان المطالب التي طلبها من تركيا لا يمكن أي دولة ذات سيادة تليتها الا بالطرق الدستورية وهذه متعذرة في زمن الحرب . فاصراره عليها ليس الا عناناً مقصودة بل مؤامرة قديمة يدل عليها اعترافه نفسه في جريدة القبلة في الخطاب الذي أرسله الى احد الزعماء العرب حيث اعترف بأن رغبته منذ تبوئه عرش الأمانة هي تحرير العرب من الحكم التركي .

فهو واولاده وأشياعه من الثرار السوريين والعرب مسئولون عما أصاب الاسلام من المصائب والارزاء .

ومع ذلك فهل حتمق لبلاده أمانها بعد ثورته المشؤومة ؟

لقد تخلص من (النير التركي) وتمتع بنوع من الاستقلال لم يزد في شيء عما كانت تتمتع به بلاده من قبل وبدلاً من أن يستفيد من تصريح تركيا الأخير بالاعتراف باستقلال بلاد العرب استقلالاً تاماً نراه يزوج بنفسه الى أحضان الانجليز فيستعويض عن الاستقلال بلقب الملك الاكبر للحلف العربي

المزمع انشاؤه تحت الاشراف البريطاني ! - أفلهذا حارب تركيا وشق عصا
الاسلام ؟ ألا ! ليفتبط جلالته بهذه النتيجة ؟!

(دخول تركيا الحرب)

(مسؤولة انجلترا)

ولننظر الآن في اشتراك تركيا في الحرب ضد الحلفاء .

فلطالما سمعنا المستر (لويد جورج) و (المستر اسكويث) وغيرهما من
الساسة الانجليز و (المسيو بومبار) أخيراً في مؤتمر لوزان ينددون بدخول
تركيا الحرب في جانب المانيا ويعتبرون اغلاقها البواغيز خيانة تستحق عليها
العقاب الشديد . وان تعجب فعجب أمر أولئك الساسة الذين يعرفون
الواقع ويتجاهلونه - فان الأخير كان سفيراً لفرنسا في الاستانة سنة ١٩١٤
واطلع بنفسه على ما بذلته تركيا من المساعي العديدة للتقرب من دول
الاتفاق الودي حتى انها ارسلت المؤلف الى فرنسا بناء على دعوة منها سلبها
اليه (المسيو بومبار) نفسه لادراك تلك الغاية . ولكن ماذا كانت نتيجة كل
هذه المساعي ؟ - لاشيء ! فهل أبدت انجلترا وفرنسا رغبة ما في انضمام
تركيا اليهما ؟ كلا - بل الأمر بالعكس . اذن فللوم على تركيا بعد رفض
الدولتين السابقتين مصادقتها في التحالف مع المانيا . وقد شرح المؤلف هذه
المساعي باسهاب في سياق مذكراته . على ان المسؤولية عن تحول تركيا الى
جهة دول التحالف الثلاثي انما تقع على السياسة الانجليزية وحدها . فقد
كانت سياسة (دزرائلي) قائمة على التقرب من تركيا أولاً بصفتها دولة الخلافة
وثانياً لأنها الدولة الوحيدة في جنوب أوروبا الشرقى التي يمكن الاعتماد
عليها في الوقوف في أوجه المطامع الروسية في البحر الأبيض المتوسط . فحرب
القرم التي طالما من السياسة الانجليزية على تركيا بها لم تدخلها انجلترا حبا في

سواد عيون الأتراك بل لتقليم أظافر روسيا ومنعها من التطلع الى البحر المتوسط أو الى الهند .

ولكن (مستر غلادستون) - المشهور بنزعة الصليبية - قلب تلك السياسة رأساً على عقب ووضع لوزارات الأحرار التي أعقبته سنة للجري عليها ألا وهي طرد الأتراك من أوروبا بقضيمهم وقضيضهم .

ففي خلال وزارته في أواخر القرن الماضي تحرشت اليونان بتركيا ومع أن جيوش (ادم باشا) اجتاحت تساليا ودنت من اثينا رأينا (المستر غلادستون) يقف في مجلس العموم معلنا بأن ما أخذه الصليب من الهلال لا يعود الى الهلال بحال ما ! وبهذا خرجت تركيا المظفرة من الحرب صفر اليدين .

ثم ما كادت تبرخ شمس القرن الحاضر حتى شهدنا سلسلة اعتمادات مروعة على أملاك الامبراطورية العثمانية مما يناهى العهود المقطوعة في مؤتمر برلين بعدم مساس سلامتها . ومع ان جزيرة قبرص استولت عليها انجلترا في مقابل الوعد بحماية الأراضى التركية فان ايطاليا - دون أن تحسب حساباً لمعارضة انجلترا - انقضت على طرابلس بلا مسوغ وحرمت تركيا من الانتفاع بالمادة الواردة في معاهدة لوندرا في سنة ١٨٤٠ - التي تخولها حق المرور في الأراضى المصرية واستخدام جيوش والسفن المصرية على أثر اعلان مصر حيادها بعد تعيين (اللورد كيتشنر) معتمداً سياسياً في مصر بثلاثة أيام ! فتسنى بهذا لايطاليا ابتلاع تلك الولاية الغربية .

ولما أعدت حكومة الاتحاديين العدة وأبقت على الحدود البلقانية من الجيوش ما يكفي لصد غارات ولايات البلقان اذا حدثتها نفسها بغزو تركيا في خلال الحرب الطرابلسية بادرت وزارة (كامل باشا) بتسريح تلك الجيوش اعتياداً على وعد من السير (أدورد غراي) وتأكيده (لكامل باشا)

- صديق انجلترا - بان لاخطر مطلقاً على تركيا من جيرانها - . ولكنها
ما كادت تسرح جيوشها حتى انقضت عليها الولايات البلقانية فأعلن
(السير غراي) - وكان يتوقع هو وغيره فوز العثمانيين - بأن خريطة البلقان
لن تتغير . ولكن ما أسرع ما صرح بعد انتصارات البلغار (بأن ليس من
العدن حرمان الظافر من ثمار ظفره) ورفع (المستر لويد جورج) عقيرته
قائلاً - (ان الحرية ينبغي توسيع حدودها) يريد بذلك توسيع الولايات
البلقانية على حساب تركيا . فلما سقطت وزارة (كامل باشا) واسترد الاتحاديون
مدينة اورفه انزال (المستر اسكووث) في خطاب القاه في مدينة برمنجهام
بالطعن على تركيا وهدهدها اذا هي لم تتنازل للبلغار عن ادرنه - كما قررت
الدول العظمى - بان انجلترا تحبس عنها مساعدتها ولا تمدّها بالموظفين
الانجليز الذين وعدتهم بها . بل انه عرض فعلا ان تقوم الدول الأوروبية
بمظاهرة بحرية ضد تركيا . ولكن خابت مساعيها لرفض المانيا والنمسا
وايطاليا الاشتراك فيها .

وفيما كانت تركيا تصفي حسابها مع اليونان في أواخر الحرب البلقانية
ابتاعت من انجلترا البارجتين (السلطان عثمان) و (رشادية) لتضمن لنفسها
الغلبة على اليونان بعد ما اشترت هذه من السفن من انجلترا والولايات المتحدة .
ومع انها دعت ثمنها فوراً قبل ان تشتري انجلترا في الحرب فان هذه انتهزت
فرصة اعلان الحرب العالمية فوضعت يدها على البارجتين المذكورتين . فكانما
أرادت بعملها هذا ابقاء تركيا تحت رحمة عدوتها اليونان . فاتتهزت المانيا
تلك الفرصة وبادرت بعرض البارجتين (جون) و (برسلو) على الحكومة
التركية وهذه ابتاعتهما منها لانقاذ الموقف . فهل تلوم انجلترا الانفسها حيث
أعطت المانيا تلك الفرصة النادرة فأصبحت لها الكلمة النافذة في دوائر
الاستانة ؟ وان فيما ذكره المؤلف هنا من المفاوضات التي دارت بشأن

البارجتين (السلطان عثمان) و (رشاديه) لدليل على ان السياسة الانجليزية
في عهد وزارة (المستر اسكويث) خليفة (غلادستون) - لم تكن مشربة
بروح العواطف الودية نحو تركيا .

أما فيما يتعلق بالبواغيز فلا ندري كيف يسوغ لساسة الحلفاء أن يعتبروا
اغلاق تركيا لها بمثابة نكث للعهد مع انها لم تكن مرتبطة بمعاهدة مع احدى
دول الحلفاء ! ولم تغلقها الادفاعا عن حياتها فلا يمكن اذن اتهامها بالخيانة
ولكن الغرض يعمي ويصم .

نعم - ان الحلفاء عرضوا على الحكومة العثمانية في مقابل وقوفها على
الحياد حماية أراضيها لمدة ثلاثين عاماً ولكن التاريخ علمنا ان السياسة
لا تعرف عهوداً .

ولقد أخبرنا (جمال باشا) - بأن تركيا عرضت فعلا الانضمام الى دول
الاتفاق الودي في مقابل بضعة شروط ولكن هذه الدول طلبت اليها ارجاء
المناقشة فيها الى ما بعد الحرب وعوضاً عن أن ترحب باقتراح انضمام تركيا
اليها طلبن اليها الوقوف على الحياد .

على اننا لو افترضنا ان تركيا التزمت الحياد ووثقت من وعود الحلفاء
يسلامة أراضيها مدة ثلاثين عاماً - وتاريخ الحلفاء في حفظ العهود وليس
بما يمكن المباهاة به فماذا كان يمنع روسيا غداة انتصارها على المانيا من شق
طريقها الى الاستانة عاصمة تركيا المحايدة والاستيلاء عليها نهائياً تنفيذاً لوصية
بطرس الأكبر ؟ أكان من المحتمل ان فرنسا وانجلترا - حليفتي روسيا
بالأمس - تجردان الحسام في وجهها اليوم دفاعاً عن تركيا بدعوى انها كانت
محايدة وان العهود أعطيت لها يسلامة أراضيها ؟! كلام يمكن مثل ذلك
محتملاً قط . هذا فضلاً عن ان سياسة وزارات الأحرار بما فيها وزارة المستر
اسكويث كانت ترى - تنفيذاً لسياسة غلادستون - ان خير وسيلة لحل المشكلة

الشرقية هي ابادة تركيا من الوجود وهو ما قام عليه الدليل في معاهدة سيفر واحتلال الاستانة واطلاق يد اليونان الى غير ذلك من الأمور التي تناقض هدنة مودروس مناقضة تامة . هذا عدا المعاهدات السرية المبرمة بين انجلترا وروسيا لتمزيق تركيا وهي المعاهدات التي نشرتها حكومة البولشفيك على اثر سقوط القيصريّة .

فيتبين من هذا ان السياسة الانجليزية في عهد الاحرار هي المسؤولة عن تحول تركيا الى جهة المانيا وانضمامها الى التحالف الثلاثي في الحرب العظمى ويظهر ان المستر لويد جورج لم يع هذا الدرس - بدليل خطبته الأخيرة في مانشستر - بل ظل بعناده المشهور يوازر اليونان في مطامعها تنفيذاً لوصية غلادستون الى أن ظهر بطل الأناضول ونجر الاسلام الغازي مصطفى كمال باشا ففضى على أحلام الحالمين بانشاء دولة بيزنطية على أطلال الامبراطورية العثمانية . وفضح للعالم سياسة الاحرار الانجليز العدوانية مما جعل الشعب الانجليزي نفسه يضيق ذرعاً بالمستر لويد جورج . والآن وقد اختفت وزارة هذا الزعيم الصليبي وانهار نفوذ الاحرار الموالين للمستر اسكويث - هل تعود انجلترا الى سياسة درزائيلي فتخطب ود تركيا - ام أنها تلج في اتباع سياسة العدوان العتيقة واذن لاتلوم الانفسها - اذا رأت تركيا نفسها مضطرة من جديد الى الانحياز الى روسيا و المانيا ؟ لقد انذرت ولا عذر لمي أنذر .

فالسياسة الانجليزية هي وحدها المسؤولة عن خطة تركيا في خلال الحرب وما بعده وقد تصبح مسؤولة عنها في المستقبل اذا هي لم تبادر بالاقلاع عن سياسة التحرش والعدوان .

نعم اننا نلاحظ الآن شيئاً من التصلب في سلوك فرنسا حيال تركيا ونسلم بانها كانت تطمع منذ زمن بعيد في ابتلاع سورية ولكن يجب ألا يغرب عن البال ان معظم اهتمام السياسة الفرنسية في الخمسين عاماً الماضية كان منصرفاً الى السرين - وان انجلترا وروسيا هما اللتان قامتتا باكبر دور في الشرق الأدنى .

(المشكلة الأرمنية)

(مسئولية روسيا وانجلترا)

بقيت المشكلة الأرمنية - فصاحب الترجمة مع علمه بما ارتكبه الأرمن من المذابح ضد مواطنيه كما شهد بذلك الضباط الروس أنفسهم لا يلوم الا السياسة الروسية ويعتبرها مسؤولة عن الشحناء الموجودة بين الاكراد والأتراك والأرمن أولئك الشعوب الذين عاشوا نيفاً وخمسة قرون في اتم صفاء واهناً عيش . فهل يمكن بعد ذلك اتهام المؤلف بأنه مسؤل عن ذبح الأرمن الذين نفوا من بلادهم الى العراق ؟ مسكين هذا الشعب الأرمني ! فهو يطلب المستحيل ثم يتمسح بالدول الاجنبية راجياً تأييدهن له وقبل الحصول منهن على وعد صريح بالمساعدة ظهر بقلب المنجني لشعبين آخرين عاشا معه قروناً طوالاً في صفاء وهناء .

لقد لعبت السياسة الروسية برؤوس كثيرين من زعماء الأرمن الى حد ان الجيش الروسي لم يكذب في خلال الحرب على أرضروم حتى ذهبت لمساعدته الوحدات الأرمنية الفارة من الجيش العثماني . ومثل هذا العمل كان جديراً بأن يشير سخط العثمانيين على الأرمن خصوصاً بعد اعمال العرقلة التي قام بها مشاغبو الأرمن في مؤخرة الجيش العثماني . وهو ما حصل بالفعل وأدى الى سفك كثير من دماء الفريقين .

ولكن هل استفاد الأرمن شيئاً من ذلك الدرس القاسي ؟ كلا ! بل لا يزالون يطالبون بما يسمونه وطنياً قومياً في داخل تركيا وهو حلم يستحيل تحقيقه مادام هناك تركي واحد على قيد الحياة . فالشعب الأرمني انخدع في الماضي بالسياسة الروسية وينخدع اليوم بالسياسة الانجليزية والنتيجة في الحالين وبال علمه ولسوف يعرف في المستقبل القريب ان خير وسيلة له هي في مصالحة الأتراك والاكراذ جيرانه الطبيعيين .

على ان المؤلف اذا كان قد القى على السياسة الروسية المسؤولية عما نزل
بالأرمن في خلال الحرب فانه سكت عن الدور الذي لعبته السياسة الانجليزية
وما حاق بالأرمن في خلال المذابح المعروفة التي وقعت في عهد عبد الحميد
سنة ١٨٩٣ وسنة ١٨٩٦ .

وانا نسند للقارىء شيئاً مما كتبه المستر (ولفرد بلنت) المشهور في
مذكراته . فقد كتب في اليوم الثاني من مايو سنة ١٨٩٣ ص ١٣١ مانصه
بالحرف الواحد .

(يوجد الآن معي في القطار (المستر طومسون) معتمد الولايات المتحدة
في الاستانة . فقد منى اليه صديق (السير فورد) سفير إنجلترا في تركيا
خديثي (طومسون) ملياً عن ازمينه - قائلاً انه ارسل الى حكومته منذ أيام
تقريراً اضافياً عن احوالها . واكد بأن هناك ما يثبت ان الأرمن دبروا القيام
بشورة في يوم ٥ يناير سنة ١٨٩٣ ولكن أحد المتآمرين الأرمن أفشى السر .
وكانت الاعلانات الحاضرة للاهالي على العصيان مطبوعة كلها في إنجلترا وليس
لتركي ما ضلع فيها . ثم اخبرني أيضا ان عدد الأهالي الأرمن المحليين يقل
عن ثلاثة أرباع المليون في مقابل خمسة ملايين من المسلمين . اما الولاية
الوحيدة التي للارمن فيها أغلبية فهي ولاية قيصريه أصغر الولايات جميعاً
حيث يبلغ عددهم ثلاثة أضعاف عدد المسلمين . وقد كان لهم بعض الحق في
الشكوى من الاجحاف الذي لحق بهم من جراء استبداد (خورشيد باشا)
أحد قطاع الطرق السابقين الذي أصبح رئيساً للشرطة . أما الاجراءات التي
اتخذتها الحكومة ضد الثائرين فلم تكن قاسية أو عنيفة بحال ما . وقد
أفرجت عن جميع المعتقلين عدا مائتين وهؤلاء وعدته الحكومة العثمانية بعدم
معاقتهم معاينة صارمة وأبقتهم قيد المحاكمة . وكان (طومسون) يوالي
مساعدته في هذا السبيل بالاتفاق مع (فورد) وقد أخبرني بلهجة التأكيد بأن

أرمينيا ليس فيها المادة الكافية لجعلها أمة بين الأمم بالرغم من رغبة مسيحييها في ذلك . وان اخوانهم في روسيا لا يجمعون عن رفع راية العصيان لو استطاعوا لذلك سييلا . وان الكاثوليك الأرمن يشاركون اخوانهم في رغبة الحصول على الاستقلال وان الحركة كلها مدبرة في إنجلترا ولم تقم الا بالمساعدة الانجليزية .

وقال في صفحة ٢٣٢ بتاريخ ٤ اكتوبر سنة ١٨٩٥ مانصه :-

(... اخبرني (فيليب كرى) سفير إنجلترا في الاستانة بان لا جدال في ان الأرمن انما يعملون بأيعاز جمعية ثورية وهذه في رأيه تعمل بدورها بارشاد حزب النهاية الروسية . وان الشعب انما نشأ بسبب القبض على بعض الأرمن التابعين للجمعية وتعذيبهم في السجن . ومن جهة أخرى فان الجمعية قررت قتل كل أرمني يفشى أسرارها . ويظهر ان الأرمن يعملون كثيراً على مساعدة إنجلترا ويتحدثون بايجاد دولة أرمنية مستقلة تحت اشراف أحد أمراء الانجليز وكل هذا بالطبع ليس الاضرباً من المستحيل غير ان اللوم واقع لا محالة على رجالنا الذين يشجعون امثال هذا العصيان دون أن يكون في وسعهم تأييده فالابطاء في حل المشكلة الأرمنية وهو ما تطالب به إنجلترا وهو الذي دفع الجمعية الى اعمال اليأس وهي ورطة غريبة يرى فيليب استحالة التخلص منها الا بأحد أمرين - اما بخلع عبد الحميد أو موته - .

وفي صفحة ٢٣٤ من المذكرات لخص (المستر بلنت) في يوم ١٠ اكتوبر سنة ١٨٩٥ وهو عائد من الاستانة الى الاسكندرية المشكلة الأرمنية فيما يلي :-
أولاً - (ليحول السلطان دون ادراك ارمينيا استقلالها الذاتي بدعوى تفوق الاهالي المسيحيين في العدد في ولاية من الولايات شجع المسلمين القاطنين في الولايات الأرمنية على الاساءة الى الأرمن لملهم على المهجرة .)

ثانياً - (رفض مسيحيو الأرمن بايعاز جمعية سرية أسمها حزب النهليست الروسي دفع الضرائب في جهة - صصون - وهذا اعتماداً على عطف إنجلترا)
ثالثاً - (اصدر السلطان أمره بقمع مقاومتهم هذه كلفه ما كلفه) .
رابعاً - (قمع الحاكم العسكري التركي تلك المقاومة بمنتهى الوحشية) .
خامساً - (تدخلت في الأمر الحكومة الانجليزية برئاسة (روزبري)
وبايعاز من انصارها الأحرار وطلبت في رسائل عديدة الى (فيليب غراي)
الاهتمام بالمسألة .

سادساً - (رأت التيمس) ان الفرصة سانحة لتحول الانظار عن المسألة
المصرية فشرعت تضرب على النغمة الأرمنية) .
سابعاً - (أرسلت الحكومة الانجليزية دعوتين للحكومتين (الفرنسية
والروسية للاشتراك معها وهذا بناء على طلب (فيليب غراي) .
ثامناً - رحبت الحكومتان المذكورتان بدعوة الاشتراك اعتقاداً منهما
بان إنجلترا تريد حة قيمة تجزئة تركيا) .

ملحوظة - يظهر ان (روزبري) يرغب فعلا في هذه التجزئة .
تاسعاً - (سقطت وزارة (روزبري) . اما من حيث روسيا فتند انتقل
(البارون جيرس) الى العالم الآخر وخلفه (ليبانوف) ومن ثم طرأ تغيير
على سياسة روسيا) .

عاشراً - (الآن وقد أصبح - اللورد سالسبري - في وزارة الخارجية
فان روسيا وفرنسا ترفضان الموافقة على تقسيم تركيا أو القيام بعمل مشترك
مع إنجلترا) .

احد عشر - لكيما يجتنب (سالسبري) الاسئلة في البرلمان ويكتسب
الوقت استمر في طريقه منفرداً) .

اثنى عشر - أبدى السلطان شيئاً من المقاومة بعد أن وصلته التشجيعات

السرية من باريس و بطرسبورج و بطؤ سير المفاوضات التي كانت دائرة
في الاستانة) .

ثالث عشر - التي غلاستون خطته الشهيرة عن أرمينيا في مدينة
(تشيستر) وافتتحت الاكتتابات في إنجلترا .)

رابع عشر - أمر (سالسبرى) بارسال الاسطول الانجليزي الى
الدردينيل للابرام بأنه جاد في نواياه .

خامس عشر - اعتماداً على اقتراب الاسطول الانجليزي واعتقاداً بان
(سالسبرى) غير مازح وظناً بان إنجلترا في استطلاعها وحدها ارغام السلطان
على الاذعان دبرت الجمعية الأرمنية مظاهرة في الاستانة بعلم - فيليب -) .

سادس عشر - أمر السلطان بتفريق المتظاهرين الأرمن .)

سابع عشر - فرقت مظاهرة الأرمن بالاستانة بمنتهى الوحشية والقسوة .

ثامن عشر - ملحوظة : والذي ثبت في نفسي مما قاله (فيليب) لي هو

أولاً - انه لم يكن راغباً في التدخل في بداية حادث صمصون - ولكنه

فعل ذلك بناء على أوامر (روزبري) الخالصة .

ثانياً - انه مسئول عن فكرة الاشتراك مع فرنسا وروسيا .

ثالثاً - بانه بعد ان زج بنفسه في المسئلة جعلها خاصة بشخصه .

رابعاً - انه منذ الاشهر الستة الماضية على الاقل كان على تمام الاتصال

بالجمعية الثورية وربما كان يعمل بالاتفاق معها .

خامساً - ان مظاهرة ٣٠ سبتمبر كانت بعلمه وبتشجيعه ولو انه لم يكن

مسئولاً عن تسليحها . وينبغي أن أسجل انه هو الذي اخبرني بان تلك

الجمعية الأرمنية أسسها حزب النهليست الروسي وان غرضها لم يكن الاتحاد

مع روسيا بل استقلال أرمينيا تحت الحماية الانجليزية) - انتهى هذا قليل

من كثير لكنه كاف على كل حال لاقامة البرهان على ان مسؤولية السياسة

الانجليزية لا تقل عن مسؤولية السياسة الروسية فيما نزل بالأرمن من الكوارث والمتاعب .

وإنا لنشارك صاحب الترجمة في النصيحة التي أسداها للأرمن في آخر مذكراته وهي الإفلاع عن سياسة العدوان نحو تركيا وطنهم القديم ومصافاة الأتراك والإكراذ والعودة إلى سياسة الملاينة التي كانت ديدنهم في الماضي أولى من الإغترار بالدسائس الأجنبية التي إنما تستخدمهم لقضاء ليافات استعمارية .

وقبل أن نختم هذه المقدمة نرجو القراء الصفيح عن التحريف اللفظي في أسماء بعض الأشخاص والمدن العربية أو السورية أو التركية لأننا إنما نقلناها عن الإنجليزية .

(علي أحمد شكري)

ملاحظة

نشرنا فيما تقدم نص كلمة المترجم ولم نشأ أن نغير أي كلمة منها وذلك خدمة للتأريخ : راجين من الباحثين الكرام درس هذه القضية التاريخية التي تمس كيان الأمة العربية ، درساً وافياً ونحن على استعداد للنشر ما يرد إلينا من الباحث في كتاب مستقل .

- الناشر -

دار منشورات البصري

مقدمة المؤلف

يرجع أول عهد اشتغالي الشخصي بسياسة الامبراطورية العثمانية العامة الى الانقلاب الحكومي في يوم ٢٣ يناير سنة ١٩١٣ .

ففي عشية ذلك اليوم خرجت من دار تفتيش المواصلات (١) ويمت بوجهي شطر الباب العالي حيث تدفقت اليه الجماهير في سيل غير منقطع .

وقد عاد وفتنذ محمود شوكت باشا - الذي عين صدرأ أعظم منذ بضع ساعات - من سراي المابين فالتقى بي عند مدخل سراي الصدر الاعظم .

وما كاد بصره يقع علي حتى صاح بـ « هلم يا جمال بك فاني أريد أن تستلم في الحال منصب حاكم الاستانة العسكري فلا تتوان لحظة واحدة في اتخاذ

سائر الوسائل التي تظنها اللازمة لحفظ النظام والثقة في العاصمة) .

فتقلدي ذلك المنصب الرفيع ذي المسؤولية العظيمة - منصب حاكم الاستانة العسكري كان معناه - كما قدمت - اشتراكى بطريقة مباشرة في سياسة وطني

العزیز . ولهذا أرى نفسي مضطراً الى بدء مذكراتي من تلك النقطة .

جمال

(١) كنت وقتئذ مفتشاً عاماً لخطوط المواصلات في شطالجة

(الفصل الاول)

حاكم الاستانة العسكري - لم زمام الح-كم سنة ١٩١٣

عندما عهد الي محمود شوكت باشا القيام باعباء - حاكم الاستانة العسكري - كانت جثة ناظم باشا - لاتزال مطروحة في غرفة ياور الصدر الاعظم - بينما الصدر الاسبق كامل باشا - وكذلك شيخ الاسلام جمال الدين ووزير الداخلية رشيد بك ووزير المالية عبدالرحمن بك قد وضعوا في احدى حجر الصدارة بعيداً عن الاعتداء .

فبعد محادثة قصيرة مع طلعت بك الذي عهدت اليه وزارة الداخلية مؤقتاً قررنا أن ننقل جثة ناظم باشا الى المستشفى في جيلهان وأن يرسل كل من كامل باشا وجمال الدين أفندي الى منزله وأن نستبقى كلا من رشيد بك وعبدالرحمن بك في دار الحاكم العسكري عدة أيام لاتقاذهما من الغضب الذي امتلأت به صدور الثوار .

وفي هذه اللحظة كان الليفنتات كولو نيل ناجي بك صهر كامل باشا وصدقي من أيام التلذذ موجوداً بدار الصدارة . فتلقيته بقولي : - هون عليك فليس ثمة مجال للقلق ان حماك في أمان ويمكنك استصحابه الى المنزل فاذا أراءه الا تمتد اليه بأذى يد بعض المتحمسين من عامة الشعب فخير له ان يغيب عن الاستانة مدة من الزمن وينذهب الى أوروبا .

فشكرني ناجي بك بحرارة ووصل كل من كامل باشا وجمال الدين أفندي الى منزله دون وقوع حادث مكرر .

اما رشيد وعبدالرحمن فتمد جيء بهما الى الحاكم العسكري كما نقلت جثة ناظم باشا الى المستشفى في جيلهان . وقد ذهبت بنفسي الى دار الحاكم

العسكري حيث قضيت سحابة الليل وانا مشتغل باتخاذ كل الوسائل التي اقتضتها الحال لحفظ النظام . ولكيلا تقل قيمة قصتي بالتفاصيل التافهة لاراني بحاجة الى وصف تلك الوسائل وصفاً تاماً . ثم طلبت الى اطباء المستشفى أن يوافقني بتقرير عن حالة ناظم باشا كما أمرت باعداد تقرير مفصل عن حادثة مقتله .

دفن ناظم باشا

وفي اليوم الثاني ووري ناظم باشا التراب تنفيذاً للتعليمات التي أصدرتها واهتمت بأن تكون الجنائز بالغة منتهى التعظيم والاكبار فلذا أصدرت على أن يشترك في تشييعها كبار رجال العسكرية والوزراء والموظفون المملكون وكذلك الملحقون العسكريون الأجانب .

وكان الجو رديئاً ذلك اليوم وكنت في أشد حالات الانقباض والكتابة فان البلغاريين كانوا مرابطين أمام خطوطنا في شطالجة والاسطول اليوناني كان محاصراً الدردييل . كل ذلك في حين ان بوارج الدول العظمى كانت راسية امام بشكطاش متأهبات لاحتلال الاستانة في اي لحظة . أما نحن الذين لم نستطع لسوء الحظ ان ننزع بالطرق القانونية مقاليد الحكم من تلك الأيدي الضعيفة فقد راينا أنفسنا مرغمين ارغاماً على القيام بانقلاب حكومي ضاعت فيه وباللاسف روحا وزير الحربية الاسبق وقائد جيشنا العام . وبالرغم من كل مجهوداتنا وتضحياتنا العظيمة كان مستقبل وطننا لا يزال مخفوفاً بأشد الاخطار . ذلك هو ما جال بخاطري عندما شيعت رفات ناظم باشا الى قاع الضريح .

وفيما نحن نخترق ميدان جامع أياصوفيا التفت عفواً الى الماجور ماكور الملحق العسكري الفرنسي وكان سائراً بجانبني وقلت له : - (انظر يا صاحبي !)

ان الأوربيين وخدمهم هم المسؤولون عن هذه الضحية فان سلسلة أعمال الجور والاجحاف التي قتم بها حرصت الشعب التركي على دخول المعمة ودفعته الى القتال ليعيش عيشة حرة وينجو من العبودية والذل . وليت شعري هل تدري كم جنازة أخرى سنشيئها ؟ وقد لا يكون من الغرابة في شيء ان تسير في الغد خلف نعشى .

وقد تظاهر بعدم فهم ما أقصد وسألني أن أزيده ايضاحاً فلم أشأ ان أعرج على الدسائس الفرنسية من باب المجاملة وأفضت في شرح الدسائس الانجليزية والايطالية وخصوصاً الروسية مما اثار روح الثورة في جميع أطراف البلاد.

فمترحت له - كيف دفعت هذه الدسائس اهالي البلقان لعقد تحالف وأضفت الى ذلك قولى والآن حيث لا يزال من الممكن ان تنقذنا أية مساعدة مهما كانت ولو طفيفة سواء من انجلترا أو من فرنسا فهنا لم تكسفتيا بأن تضنا فقط بها بل نراهما لاتبجحان عن التشهير بنا على السنة رؤساء حكومتيهما مما دفع أولئك الأتراك المساكين بعد توالى هذه المحن والضربات الى قتل بعضهم بعضاً . وكان الملحق العسكري الانجليزي تيريل يتتبع مناقشتنا باهتمام زائد ولو انه لم يشترك فيها . فأجاب موكور (انك لعل صواب) وكان جوابه بلهجة لم يخامرني معها شك في صدقه . ثم عدنا الى سكوتنا وتبعنا ناظم باشا الى مقره الأخير .

العضو العام

وفي عشية يوم الانقلاب الحكومى قام رئيس الشرطة بعمل من الأعمال الاحتياطية بان قبض على أشهر أعضاء المعارضة وجاء بهم الى ادارة الشرطة وبالطبع كان يتعين ان يضع بصددهم قرار معجل وخصوصاً أن رشيد أو عبدالرحمن كانا لا يزالان محجوزين في دار الحاكم العسكري .

فبعد بحث المسألة مع عدة أصدقاء وخصوصاً مع طلعت قررنا أن
لا نتخذ ضدهم اجراءات قامعة وكذلك قررنا أن نسعى للوصول الى تفاهم
معهم . وقد أيد محمود شوكت باشا ذلك القرار تأييداً كلياً .

وعلى ذلك أرسلت في طلب عبدالرحمن بك الذي أراد محادثتي . فأكدت
له ولاخوانه ان لا خطر عليهم وان اعتقا لهم ليس الا وقتياً لا لغرض آخر
سوى حمايتهم من أن يعتدى أحد على أرواحهم وانهم سيعودون الى منازلهم
بعد يوم أو يومين . وزدت على ماتقدم نصحي لهم بمغادرة الاستانة والمعيشة
في الخارج لمدة من الزمن . وسمحت لهم باحضار الفراش والطعام من منازلهم .
وبعد مرور يومين أصدرت تعليمات بنقلهم الى منازلهم بحراسة ثلثة من رجال
الشرطة وبعد يوم غادروا الاستانة كما غادرها كامل باشا وجمال الدين أفندي .

وفي اليوم التالي لتقليدي لمنصب الحاكم العسكري ذهبت الى الدار التي
كانت الحامية ترابط فيها وزرت علي كمال بك ورضا نور و اسماعيل بك
نواب سينوب وكانوا معتقلين هناك . فأكدت لهم كل التأكيد أن لا خطر
عليهم فيما لو اقلعوا عن فكرة المعارضة في غير أوانها وقلت لهم ان الوطن
في مثل هذه الظروف الحرجة ينتظر مساعدة كل العقلاء ذوي النيات الحسنة
وانهم اذا وثقوا من حسن نيتي سيجدون بما أستطيعه ميداناً شريفاً للعمل .
فطلب علي كمال بك تعيينه في احد المناصب في أوروبا . وسألني الدكتور
رضا نور أن أمده بالمال اللازم لاتمام دراسته الطبية في باريس . اما اسماعيل
باشا فأقسم بشرفه ان لو سمح له بالاقامة في البلاد لأحجم عن معارضة الحكومة
الى أن تعود الأحوال العادية .

ثم أرسلت الدكتور رضا نور الى باريس بعد حصولي على الموافقة اللازمة
على النفقات التي طلبها . أما كمال فارسلته الى فينا بعد أن وقعت له تعويضاً
مالياً عن نقله . وقد وصلت الي منه عدة مكاتبات .

ولم تمر خمسة ايام على هذه المفاوضات مع زعماء المعارضين حتى صفا
الجو السياسي ولكن وزارة محمود شوكت لم تستقر وتوجه اهتمامها الى
المجهود الهائل الذي كان ينتظرها .

وبصفة كوني حاكماً عسكرياً الاستانة أصبح محتماً علي أيضاً ان أشغل
منصب القائد المشرف على أعمال قاعدة الجيش المرابط في شطالجة ولكي أقوم
بأعباء هذين المنصبين جعلت همي الأول حفظ النظام في المدينة ومنع تكرار
الانقلاب الحكومي ضد وزارة محمود شوكت باشا مهما كلفني ذلك من المجهود .
ويجب ألا اغفل ذكر أمرين احتياطين رأيت من الضروري اتخاذهما
الأول : - كان بالاستانة رهط من المهربين يبيعون التبغ المهرب (في علب
حكومية) في شوارع المدينة في جهات حمام السلطان وسركه جي ونل محمود باشا
وميدان بايزيد .

فلحظت علماً افلاس سلطة الحكومة في صيحة هؤلاء المهربين وندائهم
(أبو قرشين بقرش) - أضف الى ذلك ان هؤلاء الناس جرأوا على عرض
بضاعتهم في علب يستطيع الانسان أن يرى تمت قمها ولو بشكل غير واضح -
خيوط التبغ الأصفر . فلسكى أظنر للاهالي الملسكين بأس الحكومة لجأت
الى السلطة التي خولتها الاحكام العرفية للحاكم العسكري وأصدرت منشوراً
هددت فيه كل متجر بتجارة محظورة بالقبض عليه ونفيه من الاستانة .

وفي الاسبوع التالي أبعثت خمسة على الاكثر من هذه الطائفة وأصدرت
المحكمة العسكرية حكمها على بعض مهربين ضبطوا متلبسين بجريماتهم في كشك
لايعد كثيراً عن السراي . وكذات النتيجة أن أصبح النصب والاحتيال
الذين كانوا من الأمور العادية من الشواذ ومن ثم امكن لسكان الاستانة
والضواحي أن يتمتعوا بالطمأنينة التامة .

الثاني . كان بالاستانة عدد من الناس تمكنت من نفوسهم تلك العادة

الخبثه عادة ابداء نظرات غرامية للسيدات المسلمات كلما مررن بهم في المنزهات
أو في الفلك أو على القناطر أو في الطرق أو في الاسواق . وكان من بينهم
عدد من النسوة الطاعنات في السن اللاتي لم يحجمن عن التلطف بعبارات غير
لائقة بل أمسكن بتلايب السيدات المتأنقات ذوات البزة الحسنه .

وكننت على الدوام أبغض كل البغض مثل ذلك الاعتداء على السيدات كما
اننى لم استطع فهم السر في اغفال اتخاذ الوسائل الشديده لوقفه من قبل
والحقيقه ان انتشار هذه الرذيله واختفائها كانا متناسبين على الدوام مع
ضعف الحكومه وقوتها . فلما أصبحت حاكماً عسكرياً طلب الي عدد من
الآباء الذين لهم الحق في الشكوى أن اتخذ الاجراءت اللازمه لتغيير هذه
الحال . رأيت نفسى مضطراً مرة أخرى الى الالتجاء الى السلطة المخولة من
الاحكام العرفية للحاكم العسكري .

فأصدرت منشوراً هددت فيه الرجال الذين يستعملون ألفاظاً مهينه أو
يضايقون السيدات - بالنفى الى خارج البلاد . وبعد التمثيل باربعة أو خمسة
من هذا القبيل أصبحت نساؤنا احراراً في عبور الطرقات دون أن يخشين أي
اعتداء . وكانت هذه أول خطوة معينة أخذت في سبيل وضع تحرير المرأة
التركية على اساس ثابت .

وقد برهنت في خلال تقلدي منصب الحاكم العسكري على أنني من أشد
أنصار تحرير المرأة أو بالأحرى اننى شديد الاعتقاد بأهمية الدور الذي
يطلب من المرأة أن تلعبه لا في الحياة الاجتماعية فحسب بل في الشؤون العامة .
والحقيقه ان تشييعي لذلك التحرير استهدفتي لتأتم عديده مشى بها أشخاص
معينون فيما بعد . ومع ذلك فان الحركة النسائية التي بدأت في عهدي لم تعش
فقط بمرور الزمن بل انتشرت وتطورت باستمرار وأدت اكبر خدمة للوطن
في خلال الحرب واننى مقتنع تماماً بأن خير الوسائل وأسرعها لنشر عوامل

التدين في أي بلد من البلاد لا يتأق الا عن طريق المرأة . وان الشعوب التي
تبقى نساءها في حالة العبودية والاسترقاق انما تخطو خطوات واسعات في
سبيل الانحلال الذي لامفر منه .

محاولة قلب الحكومة

وبعد تعييني حاكماً عسكرياً للاستانة دعوت محريي الصحف المهمة التي
تصدر في العاصمة لمقابلي واخبرتهم ان صحفهم ستوضع تحت نوع من الرقابة
الخفيفة هذا فيما لو تعهدوا ألا ينشروا مقالات تخجل بالنظام العام . وطلبت
اليهم أن يكتبوا مقالات عامة باعثة على المساعدة وأن ينيروا الطريق للرأى
العام ويستثيروا القوات الجديدة التي يحتاج الوطن اليها للخلاص من الأخطار
الحديثة به . ولقد سمحت حتى بظهور احد الصحف المعارضة التي يرجع
عهد وجودها الى الوزارة السابقة . وقد تجاوزت صحف المعارضة أحياناً
التعليقات الصادرة اليها ولكن قصرت نفسى على لفت نظر محريها أو
مديرها المسؤولين .

وقد عملت الحكومة بهمة وعزم على بعث الروح العسكري الكامن في نفس
الشعب وتشكيل جيش يتمكن من صد البلغاريين المرابطين أمام خط شطالجة
في الحرب الثانية ضد الخلفاء البلقانيين . فأسست من جهة لجنة الدفاع القومى
وسعيت لحشد كل ما استطيع حشده من المواد الممكنة والموارد العسكرية
وعملت من جهة على رفع مستوى القوة المعنوية في الجيش وبذلت كل مجهود
في ايجاء رأى عام لمصلحة تركيا بين الدول العظمى .

وفي ذلك الوقت والى الساسة الانجليز والفرنسيون والروس الذين هبطوا
الاستانة خصيصاً مساعيمهم لملنا على عقد الصلح مع دول البلقان على قاعده
قبولنا لخط اينوس ميوبا والتخلي عن جزر الأرخيبيل .

ولما ذهبت يوماً لزيارة السفارة الفرنسية اختار السفير المسيو بومبار الذي كانت علاقتي معه ودية منذ كنت حاكمً أظنه ان يجعل هذا موضع مناقشتنا .

فالتقت الي قائلاً : - (عزيزي جمال بك) لم كل ذلك التشبث في سبيل الاحتفاظ بأدرنة والجزر ؟ لقد نجحتم في قلب الحكومة وأصبحتم القابضين على أئنة الحكم . اننا نعلم جيد العلم ان حزبكم هو أقوى الاحزاب في البلاد العثمانية وانكم على العكس من الحكومة السابقة لا ترددون في اتخاذ وتنفيذ القرارات التي نظنها نحن انها تخدم مصالح تركيا اجل خدمة . فعليكم ان تهتموا الآن اكثر من اهتمامكم في الماضي بتوطيد أركان السلام والنظام في بلدكم . ألا تظن ان الحكمة تقضى بأن تخصصوا الموارد المادية والأدبية التي تزمعون بعشرتها للاحتفاظ بأدرنة في سبيل الاصلاحات التي ترقبون ادخالها ؟ ان كل مالديكم في تلك المدينة لا يتعدى بضعة المساجد التاريخية الشهيرة واما من حيث الجزر فقد كان سكانها على الدوام من اليونانيين فقط .

وهنا شرعت أجيب السفير على أسئلته فأخذته من يده وذهبت به الى الحائط حيث علقت عليه خريطة الامبراطورية العثمانية . فبينت له ان الدفاع عن الاستانة لا يتأتى الا باشراف على شقة أرض دفاعية تمتد الى أدرنة . كما ان حماية الأناضول من هجمات اللصوص اليونانيين تتمضى حتما الاستيلاء على الجزر الواقعة بالقرب من شواطئنا .

ثم ختمت جوابي بهذه العبارة - (عزيزي مسيو بومبار اننا نعتبر مسألة ادرنة والجزر مسألة حياة أو موت لمستقبلنا وسنكون الى الأبد مدينين بالجميل لأية دولة أوروبية تنهض لمساعدتنا في هذا الأمر بل ان مثل تلك الدولة يمكنها دائماً ان تعتمد على صداقتنا . ان ذلك يكون انقلاباً عظيماً تتمكن بواسطته فرنسا من احراز السيطرة الأدبية في الشرق .

وهكذا فبينما الحكومة كانت تواصل السعي لاتخاذ ادرنة كانت الاخبار
تصل الي كل يوم دالة على أن المعارضين يدبرون انقلاباً حكومياً . وفي النهاية
اصبحت تلك الاخبار متعددة وخطيرة حتى رأيت نفسي مضطراً الى القيام
بعمل حاسم في هذا الصدد .

فساق القدر الى أيدينا ذات يوم شخصاً يدعى سردار صدقي أفندي من
أرضروم . وقد قبض على هذا الرجل وآخر معه متلبسين بطابع منشورات
في احدى المطابع بحي بيره .

وكان زعماء هذه العصاية يعملون تحت رعاية البرنس صباح الدين بك
ويتلقون تعليمات مباشرة من سكرتيره الخاص صدفت لطفى بك وهو من
اهالي البوسنة . أما غايتهم فكانت قلب الحكومة وجعل البرنس صباح الدين
بك صدرأ أعظم .

فقبضنا عليهم أجمعين . ولم نعر على صدفت لطفى بك الا بعد مضي زمن
حيث وجدناه في النهاية في منزل الهر لازار مترجم قنصلية النمسا والمجر .
فأمرت بالقبض عليه واعتقاله . ولما كانت هذه الاجراءآت مخالفة للامتيازات
رأيت نفسي مضطراً الى الحصول من محمود شوكت باشا على الأوامر اللازمة
فذهبت بصفتي اكبر ممثل مسئول للسلطات التنفيذية الى سفارة النمسا والمجر
مرتدياً ثيابي العسكرية وقدمت اعتذارى للكونت بلافيسني .

وقد دونت هذه الحادثة في السجلات تحت هذا العنوان (محاولة قلب
الحكومة) . أما الوثائق الرسمية التي وضعت بكل عناية ودقة فمحفوظة في
دار الحاكم العسكري ورئيس البوليس ووزارة الحربية . اما المعتقلون
فصدرت عليهم احكام مختلفة . وقد تركت الأمير صباح الدين جانباً مؤقتاً
لأن طلعت بك الذي كان وقتئذ سكرتيراً عاماً لجمعية الاتحاد والترقي والذي
كان باذلا كل جهد للوصول الى تفاهم مع الأمير طلب الي أن أوجل القبض

عليه ريثما نحصل على بيئنة لاتقبل الجدل في تهمة .

ولكن الأمير صباح الدين بك بالرغم العقاب الذي حاق بصدفت لطفي بك وشركائه وأصل دسائسه . وقد أفضى هذه المرة الى صديقه الحميم الدكتور نهاد رشاد بك بالقيام بتدبير الخطط اللازمة . فيادر نهاد رشاد بك الى الاتصال بطلعت بك للوصول الى حل وسط بين حزبنا وحزب الأمير صباح الدين وفي الوقت نفسه كان يدبر مؤامرة ترمى الى قتل طلعت بك ومحود شوكت باشا واشخاص آخرين . بيد ان المعلومات عن دسائسه كانت تصل الي كل يوم وهكذا كنت ارقب اعماله خطوة بخطوة . أما لعبة الدكتور المزدوجة فكانت محتفية تحت ظاهره الانيق حتى ان طلعت بك الذي كان يتفاوض معه لم يستطع أن يقتنع بدسائس هذا السيد على الرغم من انني كشفت له الستار عن سائر تفاصيلها . بل انه اتهم قلم الاستعلامات التابع لادارتي بالرغبة في خديعتي الى أن افدعته تماماً في النهاية بيئنة دامغة لاتقبل الجدل .

ففي ذات يوم تقرر ان يجتمع طلعت بك بالدكتور . وقد سبق هذا الاجتماع اجتماع آخر رتبته الدكتور مع شركائه . وكانما الدكتور ارتاح أشد الارتياح لسير المفاوضات مع أصدقائه حتى انه لما استأذن منهم في الانصراف ابتسم لهم ابتسامة ماكيا فيلية وقال : (الآن سنحدث طلعت في صدد التفاهم) . وقد عنيت جد العناية ان يرى هذا المنظر شخص لا يرتاب طلعت بك في صدقه بل يثق فيه كل الثقة . ومنذ تلك اللحظة فصاعداً لم يعد طلعت بك يشك في أقوالى .

ولا ريب في ان الخبر نمي الى الدكتور نهاد ففر قبل أن القي القبض عليه أيضا ولكنني أمرت بالقبض على بعض أشياءه فكانوا ثاني عصابة وفتت أمام المحكمة العسكرية .

ثم اختفى الأمير صباح الدين من على المسرح . وقد علمت فيما بعد انه تمكن بفضل حماية الميسر فز موريس المترجم الأول للسفارة الانجليزية والماجور يتريل الملحق العسكري من الالتجاء الى دار تقيم فيها أسرة انجليزية وبذلك أصبحت أيدينا مكتوفة .

ولم استطع أن أفهم كيف اختفى الأمير فجأة وتعلق بأذيال الفرار مع انه هو الذي دبر هذه المؤامرة وبكل جرأة . وبينما كنت فيما بعد عائداً مع طلعت بك من سياحتنا من الاستانة الى برلين وقد شرع يتكلم عن هذه الحادثة اذا ابتسم في وجهي وقال : - (لما جئتي بالبينة الدامغة على دسائس الدكتور والأمير تحققت انك لابد ان تصدر الأمر بالقبض عليهما فخذرت الأمير بطريق بعض كاتمي اسراره ونصحت له بأن يختفي باسرع فرصة . ذلك هو السر في فراره .

ومن عجائب الاتفاق اني أنا الذي أطلقت سراح الأمير في حوادث ١٣ - أبريل بعد أن التقي جيش الاعمال القبض عليه وجاء به الى وزارة الحربية فانني لم اكده اسمع باعتقاله حتى بادرت بالذهاب الى محمود شوكت باشا ولفت نظره الى أن هذه الاجراءت ضد الأمير غير مسموح بها . وقلت له حيث اننا قد جئنا الى الاستانة لمكافئة المشاغبيين ومقاومة المساعي الخبيثة التي يقوم بها ساسة الشوارع فليس من العدل في شيء ان نعامل هذه المعاملة الأمير وبعض الافراد الذين يخالفوننا في الآراء والاعتقادات السياسية . فلم يتوان الباشا في اصدار الأمر باطلاق سراحه في الحال . فذهبت من هناك الى غرفة الانتظار الكبرى التي كان الأمير جالساً فيها مع أمه السلطنة وأخبرت بعد الاعتذار انه أصبح طليقاً . ولكن بينما التحقيق في اعمال صدفت بك لطني واخوانه كان مستمراً وبينما نحن كنا نوالي البحث عن شركاء الدكتور نهاد اذا بالانباء تأتيني - بان الأمير كان احد المسؤولين عن حوادث ١٣ - أبريل

اما هذه المرة فقد تمكن من الفرار تحت حماية طلعت بك ولو لم يكن ثمة شك في اشتراكه في المعدات التي كانت تدبر للانقلاب الحكومي .

وفي ذات يوم بينا أنا أتخذ الاجراءات ضد الأمير وأشياعه (قبل فراره) اذ حضر الى دار الحاكم العسكري أخوه الأمير لطف الله بك يطلب مساعدتي في امر شخصي وفي سياق الحديث بدأت أتسكلم في شأن صباح الدين بك فقلت له : - (أريد أن تصنع معي معروفاً صغيراً وهو أن تبلغ أخاك صباح الدين رسالة مني . فان الأمير في كل دفاعه سواء أكان هنا أو في أوروبا يؤكد ان زعماء الاتحاد والترقي سفاكون يقطر الدم من أيديهم ومع ان هذه التهمة يناقضها الواقع تماماً لنفرض ان لها نصيباً من الصحة . واني من جهة اخرى اعتقد ان جميع المعارضين ومنهم الأمير صباح الدين يقطر من أيديهم الدم كما يقطر من أيدينا .

ولنبداً القصة من أولها . فهم هم الذين دبوا حوادث ١٣ - أبريل فالمسئولية عليهم فيما سال من الدماء وقتئذ وما سال بعد ذلك عند دخول الجيش الاستانة . زد على ذلك ان الأمير اشترك فعلاً في تشكيل (عصابة الضباط الشهبيرة) وكان له ضلع في ثورة البانيا فسموه يتحمل بعض المسئولية عما سال من الدماء . ومن جهة أخرى هو يصفنا بالقتلة . واني اطلب الى الأمير أن يعترف بهذه الحقائق ويتفضل بالاعتراف بأن هؤلاء الذين يلقبهم بالقتلة لم يتخذوا هذه الاجراءات الاحتياطية الا بظروف خطيرة . وعليه أيضاً ان يعترف ان حزبه هو الذي اتخذ الاجراءات القامعة فليعد نفسه ان اراد لوضع حل وسط يضمن لكلا الحزبين الاحتفاظ بآرائه السياسية والعمل في الوقت نفسه لمصلحة الوطن العامة كما يقضى عليه برنامج الحزبي) .

وبالطبع انبرى لطف الله بك للدفاع عن أخيه بشدة وأقسم انه أعجز من أن يغمس يديه في الدم وانه ليس له ضلع مافي كل هذه الحوادث . فقلت له

(اذن لايمكننى أن أبحث الامور معك لأنك تجهلها ولكن أرجو أن تخبرنى هل تستطيع حتى ان تبلغ اخاك هذه الرسالة ؟ . ذلك كل ما أطلبه منك) .

فوعده بذلك وقال (ربما استطعت القيام بما فيه الخير في هذا السبيل) وقد مر يومان أو ثلاثة ثم حضر الأمير لطف الله بك فأخبرنى انه بلغ أخاه رسالتى وهذا أجاب بأن التهم التي وجهتها اليه تناقض الحقيقة تماماً فاما اننى أردت تلويث سمعته واما اننى لم أتحر الحقائق عنه . اما أنا فما كنت أؤمن الا بمبدأ سياسي لاثاني له وهو المبدأ الذي جعل الأمير يناضل لأجل تحقيقه بكل الوسائل السلبية . وقد انتفض جزءاً من ذكر الدماء المسفوكة ولم يستطع أن يفهم كيف يدور بخلد انسان ان يعتبره من أنصار الثورة الدموية بل مدبرها . فلم يجد مناصاً بعد سماع ملاحظاتي كما بلغت اليه . من أن يعتقد ان هناك جواً مملوءاً بالعداء نحوه والحقده عليه فرأى ان خير ما يفعله هو الانسحاب مؤقتاً الى مكان أمين . فاجبته بقولي - « عندي اقتراح اريد عرضه على صباح الدين بك وهو أن نختار ثلاثة من عظام المحامين الانجليز فأطلعهم على ما عندي من الأدلة والبيانات على الأمير التي تستطيع ابرازها وعندئذ يحكمون اما أن يكون الأمير أحد مدبرى حوادث العصيان والحركات الثورية أو لا يكون . فاذا ثبتت ادانة الأمير قدمته للحاكم العثمانية » .

وبعد مضي أيام عاد الأمير لطف الله بك واكد لي أنه لم تتح له فرصة لمقابلة أخيه لعرض اقتراحي عليه . ولكن الحقيقة هي - ان الأمير صباح الدين اختفى في الليلة السالفة .

(أبك أحمد باشا)

وفي غضون التحقيق في الانقلاب الحكومى الذي كان اعداؤنا يدبرونه اذا بقلم الاستعلامات يلفت نظري فجأة - الى ان أبك احمد باشا الذي كان

وقتئذ قائداً عاماً لجيش شطالجه له ضلع في المؤامرة وانه أرسل الى ابن أخيه الأمير صباح الدين ورفاقه ووعد بمساعدتهم . وكنت على الدوام أعتقد أن أحمد باشا هو رجل شريف بل لا أزال أظنه كذلك للآن وانني اعتقد أن عظمة الوطن ورخاهه كانا أجل ماتمناه وانه وجه كل اهتمامه لادراكهما فلم احفل كثيراً لهذا السبب بالتقارير العديدة التي وضعها أمامي قلم الاستعلامات وظللت لا أتحوّل عن رأيي هذا حتى بعد استقالته وتعيين - أنور باشا وزيراً للحربية - عندما طلب اليه أن يعيش في دمشق . ولا أزال أتمسك بهذا الرأي الى الآن بالرغم من أن - آبك باشا - أصبح وزيراً في وزارة تضم بين اعضائها أمثال المارشال شاكر بك حضرة صبري وآخرين من زعماء الأحرار الائتلافيين وأكثرهم نفوذاً وهم الذين دبروا حادث الاعتداء على محمود شوكت باشا .

(الداماد صالح باشا)

وكان قلم الاستعلامات يبيدي نشاطاً تاماً . فظل يجيئني بالتقارير الضافية عن وجود مؤامرة ترمي الى قلب الوزارة وقتل محمود شوكت باشا وطلعت بك وشخصي بصفة خاصة أما المتآمرون فكانوا في هذه المرة تحت حماية وإدارة فتزموريس المترجم الأول للسفارة الانجليزية والماجور تيريل الملحق العسكري وقد علمت أيضاً ان محب بك مدير القسم السياسي في ادارة الشرطة على عهد وزارة كامل باشا والصاغ جركس كاظم والصاغ الاسبق شوكت اسماعيل من كوملجنة واشخاصا عديدين لهم ضلع في المؤامرة . فكلفت الشرطة السرية بمراقبة أولئك الاشخاص مراقبة دقيقة . وقد استلمت تقريراً أفنعي تماماً أن الداماد صالح باشا ورشيد بك وزير الداخلية الاسبق كانا من زعماء العصابة ولما كنت أعرف ان الداماد صالح باشا عضو في جمعية الأحرار الائتلافيين

استبعدت ان يكون له ضلع في مثل هذه الجريمة . وعلى كل حال قد اهتمت
بجماية شخص يمت للاسرة المالكة بالنسب و احميل بينه وبين الاشرار في مثل
هذه المؤامرة .

و ارسلت اليه أحد رجال الياور و طلبت اليه تحديد موعد لمقابلي في دار
الحاكم العسكري . فحضر في الميعاد المضروب . فبعد ان احسنت وفادته
و قلت له : - « أتسمح لي سعادتك أن أخبرك بصراحة بما يجول بخاطري ؟ -
ان بعض الناس الذين يريدون الانتفاع بالمزايا المادية والأدبية التي تصحب
اسمك الكبير وشخصك وصلتك بالأسرة المالكة يشتغلون سرأ بدس
الدسائس والاساءة الى اسمك . فقد قيل - ان جمعية سرية شكلت تحت رئاستك
وانهم تسعى لايجاد أنصار لها في الدوائر الملكية والعسكرية وان غايتها عزل
زعماء الحكومة الحاضرة في المستقبل القريب والقيام بحركة ثورية فن الواجب
علي أن اعتبر أن لا علم لسعادتك بكل هذا على الاطلاق ولكن أرجو ان
تعتمد ان اولئك الاشخاص حقية يعملون كما قصصت عليك وبذلك يلقون
على عائق سعادتك مسئولية خطيرة . فأرجو أن تقتنع بأنني أرى من وجب
المقدس أن أحميك من مساعيمهم خصوصاً بالنظر الى قرابتيك للاسرة المالكة
التي اخلص لها كل الاخلاص . ولهذا فاني أسألك بكل احترام أن تغادر
الاستانة وتقيم في اوروبا مدة من الزمن حتى لا تخوم الشبه حول اسمك
اذا رأت الحكومة اتخاذ وسائل فمالة ضد زعماء تلك المؤامرة . وفوق ذلك
ان رحيلك هذا يحرم هؤلاء المآمرين من العضد القوي الذي يبنون عليه آمالهم .
فأجاب على هذه الكلمات التي لم أقصد بها سوءاً بلهجة لاتتفق في شيء مع
آداب اللياقة وشرف المحتد . اذ قال : - اصغ أيها البك الأفندي - سأحادثك
بمنتهى الصراحة .

انني بفضل عظمة السلطنة أعيش هنا عيشة الهناء الخارقة للعادة وهي

حياة توافق مزاجي ولا احب أن تفوتني منها دقيقة واحدة . ولذلك أرا في
مضطراً لرفض اقتراحك (ذهابي الى أوروبا) . زد على ذلك اني لو اتبعت
نصيحتك وذهبت لأوروبا لاعتبر الناس ذلك بمثابة اعتراف مني فيبدأون
بتوجيه كل تهمة شنعاء الي . فما أنذا وهنا سأقيم . فلا تردد مطلقاً في أن
تفعل ما تظنه صواباً ولست آسف لشيء . الا لأنك أمرت باحضاري اليك
لتخيفني بهذه التهديدات .

وبعد أن طلبت الى باشا ألا يتناسى بالسكوية آداب المحادثة قلت له -
(يخيل الي يا باشا انك عظيم الثقة بقوة جماعتك الذين اعرفهم حق المعرفة
وانك مقتنع بأن أملاكك ستتحقق في القريب العاجل . انك تحدث نفسك
بانك تستطيع أن تنتظر تحقيق هذه الآمال دون التعرض لخطر ولسكني
أؤكد لك ان لدي قلم استعلامات شديد الانتباه فلا فائدة من المؤامرات .
وقد تنجح بعض الاعتقادات الفردية - أما قلب الحكومة فأمر مستحيل .
ولذا فاني أنصح لسعادتك ان تقبل اقتراحي . أما عظمة السلطنة فيمكنها أن
تصحبك الى أوروبا اذا رأيت وجوب ذلك . فليس من الصعوبة بمسكان أن
اسأل عظمة الصدر أن يحصل على موافقة جلالة السلطان وما يتبع ذلك من
الاجراءات . فان أبيت الا ان ترفض نصيحتي الخالصة فان الواجب يحتم علي
أن انكفئ بمراقبتك أشد مراقبة من الآن فصاعداً . واذن أرجو أن
لا تشكو أو تتضجر بقولك ان الحاكم العسكري يرسل الينا عيونهم لمراقبتنا .
فانتفض قائماً والشرر يتطاير من عينيه وقال :- (لا تردد لحظة في أن
تفعل ما تظنه صواباً . فلست بالرجل الذي يغلب على أمره بهذه السهولة) .
ثم تركني وانصرف . ومنذ ذلك اليوم أصدرت الأمر بمراقبة صالح باشا
باستمرار حتى اني لم تقمني فائمة بما كان يفعله .

وبعد مرور أربعة أيام أو خمسة حضر لزيارتي مسيو ويل المدير العام

لشركة الريجي . خياني بقوله انه عاد من أثينا في اليوم السابق وان أول زيارة قام بها هي هذه . وبعد تبادل الكلام في أمور نافهة ابتدرني بقوله (جمال باشا حقاً انني حائق عليك اليوم . فلقد أهنت أحد اصدقائي له في نفسي منزلة لا تقل عن منزلتك وعاملته بطريق لا تتفق بحال ما ومقامه الرفيع . انني أعني الداماد صالح باشا . انك اتهمته بانه زعيم مؤامرة - ونصحت له أن يذهب الى أوروبا . فليت شعري ما الذي حملك على توجيه هذه التهمة اليه . انني أعرف صالح باشا جيداً كما أعرف نفسي وانتي واثق تماماً بانه لن يشترك مطلقاً في مثل هذا العمل الشنيع) .

فبعد أن أصغيت لأقواله بكل سكون أجبته بقولي :- « دع عنك هذا التحمس يامسيو ويل . أنا أدرك جيداً انني فئت بكلمات قاسية للداماد صالح باشا بيد انني لم أفعل ذلك الا بعد روية وانعام نظر وان اهتمامي به ليس لمجرد شخصه كلا بل احتراماً لصلته بالأسرة المالكة التي يجب علي المحافظة على شرفها . ولكن يظهر ان الباشا وباللاسف واثق بنجاح رفاقه فهو لا يريد أن يعير نصيحتي الخالصة اذنا صاغية . فيتعين علي من الآن فصاعداً أن أمر بمراقبة صالح باشا مراقبة تامة . ولكيما تعرف ان العيون ترصده اني احديثك بأمر . فأسأله هل هو لم يستلم حديثاً خطاباً من شخص مجهول وانه طلب اليه أن يذهب الى حي بيراي . وبالطبع لم يذهب الباشا . ولكن لماذا ؟ لأنه عرف أنه مراقب فلم يشأ أن يدلني على مغاور شركائه . ان الباشا اذا لم يغادر الاستانة فانني أرخص لنفسي ان اتخذ من الاجراءات ما أراه واجباً لمعاملته بما يستحق . واذن لا يكون لك مجال للشكوى في هذا الصدد . »

أما المسيو ويل الذي أصغى الي تمام الاصغاء فقد استأذن وانصرف . ولكنه عاد في اليوم التالي فأخبرني ان الباشا حقاً وصل اليه خطاب من

شخص مجهول . وقد جاء فيه الاقتراح الذي أشرت اليه ولما كان يجهل المكان ومرسل الخطاب خشي أن يكون في الأمر دسيسة فرفض الدعوة . ولكنه مع كل ذلك كان مصراً على البقاء في الاستانة . ثم قال المسيو ويل : - د انتي لا أريد ان تكون لي أية علاقة بهذه الأمور الغامضة فان صداقتي للباشا هي وحدها التي دفعنتي أن اتكلم بشأنه بمثل ماتكلمت مع صديق آخر . أما وهو يرفض بتاتا استماع نصيحتك فلن اتدخل ثانية لمصلحته . وكل ما أسألك فعله هو ألا يجعله يذهب ضحية الدسائس والتأمم . وبالطبع ان نقتي برجاجة عقلك وحزمك لاحد لها .

أما المنزل الذي دعي اليه صالح باشا فمقد كان للصاغ جركس كاظم الذي وصل الى الاستانة قبل حادث الاعتداء بأسبوع وكان نزوله تحت حماية فيتز موريس والماجور تيريل . وبالطبع كان الباشا يعلم ذلك ولكنه كان يعلم أيضا أنه مراقب فلم يذهب الى الميعاد في ذلك المساء .

والحقيقة اني كنت شديد الاهتمام بانقاذ صالح باشا بيد انه رفض نصيحتي بهذا الاصرار الذي يلزم الواثقين من النجاح . ولكن تعنته أدى في النهاية الى حتفه . اني شديد الأسف لوقوع هذه المأساة وخصوصاً نظراً لفرط ولائي للأسرة المالكة فلا بد اني تسببت عن غير عمد في ادخال مثل ذلك الحزن المروع في قلب احدى الأميرات ولكن ماذا كنت افعل ؟ فان جريمته كانت اكبر من أن يفض الطرف عنها فلو انه عفا عنه بعد الحكم عليه لتزعزع نظام البلد وسلامه الى الأبد .

اسماعيل حقي بك الكومبلجيني

وفي هذا الوقت كان البوليس السري يراقب احد زعماء المعارضين ألا وهو اسماعيل بك الكومبلجيني فتمد كنت ممتنعاً تمام الاقتناع ان ذلك الشخص

الجريء يشير الريب وان البلاد ستجد منه متاعب خطيرة . بيد ان مشروع العمل الذي خططته اقتضى ان استخدم هذا الرجل بمهارة وحذق فلا اقبض عليه الا متى حصلت على البينة الدامغة التي تثبت اداته . وثبت عندي ان أعوانى من رجال البوليس السري لا بد أن يكونوا ضيقوا عليه المسالك ذلك لأنه جاء في ذات يوم في رئاسة أركان الحرب في حالة تهيج شديد (وكان ذلك قبل مصرع محمود شوكت باشا باسبوع) فقال :-

(نظراً لأن عيونك تراقبني يحق لى أن أقول - ان الحكومة ترتاب في . فاسمع الي يا جمال بك . اننى احادثك بصفة كونى رجلاً شريفاً واننى أؤكد لك اننى سأحفظ الوعد الذي قطعتة على نفسي عندما كنت معتقلاً . ولست أفوه بكلمة اعنى بها سوءاً . كما اننى لاضلع لى في السر أو في العلانية في أية حركة موجهة ضد الحكومة . وبما ان أعوانك يذيعون عنى أنباء لا أساس لها من الصحة وقد يكونون أرادوا خديعتك رأيت أن أحضر بنفسى لمحدثك بصراحة . واننى اقسم لك بشرفى اننى لا اشترك في أي عمل عدائى للحكومة ولا صلة لى بأولئك الذين يعملون ضدها .

ولما كنت أعلم علماً ليس بالظن ان ذلك الشخص هو أحد زعماء المؤامرة التي اخذت الآن شكلاً معيناً ضد محمود شوكت باشا عجبت بل اشمأزت نفسي كل الاشمزاز من حيث الرجل . وانى اذكر انه عندما أطلق سراحه من السجن بواسطتى بعد قلبه الحكومة في يناير أقسم بشرفه وبضميره أن يحجم عن المعارضة الى أن يتم عقد الصلح ويستتب النظام . فلم يكديمر شهر حتى كان الرجل يعمل صباح مساء وبكل ماني استطاعته لايمان جريمة مروعة . فلم أتمالك نفسي عندما سمعته يكرر الايمان الكاذبة من ابداء التذمر والاشمزاز وقلت له :- كفى ايماناً واقساماً يا اسماعيل بك فيمكنك أن تثق اننى لا أتهم احداً الا اذا قامت عليه البينة التي لا ريب فيها . والا لما فككت اعتقالك كما

فعلت . بيد اني أسديك محض النصيح حقيقة بالاتصل بيضعة اشخاص
جعلوا همهم تدبير الدسائس والا يصبح قلم الاستعلامات غير مرتاح لأعمالك .
اما الآن فيمكنك أن تنسحب .

فشكرني ومضى . وأراني اخطأت في ذلك . فلو انني كنت اكثر حزمأ
واصدرت الأمر بالقبض عليه في تلك اللحظة لما تمكن من الفرار بعد مقتل
محمود شوكت باشا . بل لما كان هناك أي شك في سوقه للبحاكة بعد الحقائق
التي أظهرها التحقيق في حادثة الاعتماد على شوكت باشا وتخلصت البلاد الى
الأبد من رجل رشاه اليونان للايقاع بوطنه .

وبينما انا أخط تلك الاسطر اذا بعيني تقسع في الصحف على نبأ تعيين
اسماعيل بك حقي الكومبلجيني وزيراً للداخلية في وزارة الداماد فريد باشا
بل انه تعين رئيساً لمحكمة فوق العادة تشكلت لمحاكمة زعماء جمعية الاتحاد والترقي
وكل ما أقوله الآن هو اتنا ربما رأينا في زمن وجيز كيف كان تعيين هذا
الرجل في ذلك المنصب الكبير خطراً على الوطن .

وبالرغم مما بذلته من الجهود فان اسماعيل بك هذا تمكن من الفرار
بعد مصرع شوكت باشا .

« كامل باشا »

وفي صبيحة ذات يوم قبل مصرع محمود شوكت باشا باسبوع أو عشرة
أيام حضر الي مبكراً مدير الشرطة عزمي بك واخبرني ان كامل باشا على ظهر
احدى بواخر شركة المساجيرو ماريتيم . وقد وصلت الباخرة في جنح الليل
ولسكن الباشا لم ينزل الى الشاطيء . فسانى عزمي أن أصدر له الأمر بالقبض
عليه فشكلفته بأن يرسل مدير القسم السياسي الى الباشا في الحال ويرجوه
ألا ينزل الى الشاطيء . بل يعود الى القطار المصرى على الباخرة نفسها . ولم

يمضي أكثر من نصف ساعة حتى حضر عزمي بك فأخبرني أن كامل باشا قد نزل الى الشاطيء فعلا أثناء الليل وذهب توأ الى منزله بحي استانبول . وكنت أعرف أن المتآمرين اعزموا إعادة كامل باشا الى الاستانة ولكني ما كنت اتوقع أن يكون لديه الشجاعة الكافية لتلبية دعوتهم . فوصول الباشا في الاستانة كان دليلا أكيدا على ان الثورة أصبحت على الأبواب . وبذلك أصبحت الحالة تتطلب أشد الاحتياطات المعجلة . فارسلت في طلب عزمي بك وكلفته أن يسير على البرنامج الآتي :-

سأرسل الى منزل كامل باشا ضابطاً من مركز قيادة الجيش ومعه بعض رجال الشرطة العسكرية وسأضع تحت تصرفكم أحد معاوني البوليس وعدداً كافياً من رجال الشرطة الملكية ثم يذهب الضابط والمعاون ورجاله الى منزل كامل باشا حيث توزع الرجال لمراقبة المداخل بحيث لا يستطيع شخص ما سواء كان من الأهل أو من الأجانب ان يتصل بسكان المنزل . ثم يطلب الضابط والمعاون مقابلة الباشا لتبليغه قرار الحكومة هذا وهو ان الحكومة ترجو دولته أن يعود للقطر المصري على ظهر الباخرة التي جاء عليها وحتى لو رست الباخرة هنا ثلاثة أيام فالمرجو منه أن يعود اليها بعد مضي اثنى عشرة ساعة على اكثر تقدير والافترى الحكومة نفسها مضطرة الى اتخاذ الوسائل الاحتياطية التي قد يراها دولته مزبحة لحاطره ، ثم يعود الضابط والمعاون بجواب الباشا . أما انت شخصياً فيجب أن تقيم داخل المنزل وتحول دون دخول أي شخص مهما كانت حيثيته .

وقد نفذت هذه التعليقات في الحال . واجاب الباشا بأنه متعب جداً ولا يستطيع تحمل متاعب سياحة أخرى في مثل هذه الفترة الوجيزة . على انه لم يرب سبياً ما يحمله الى اتباع هذا الأمر الحكومى غير القانونى . فلما وقفت على هذا الرد أصدرت الأوامر بتشديد المراقبة على المنزل بحيث لا يسمح لشخص

ما أن يدخل أو يخرج الى أن يغادر الباشا الاستانة .

وبينما هذه التعليمات كان معمولاً بها اذ حضر المترجم الأول للسفارة الانجليزية فيز موريس الى منزل الباشا لتحيته باسم السفارة . بيد ان رجال الشرطة منعوه من الدخول . فاستقر رأى ذلك السيد على اتخاذ وسائل اخرى لمنع نفي كامل باشا من الاستانة فولى وجهه في الحال شطر الصدارة حيث قابل محمود شوكت باشا باسم السفير وهناك أبدى دهشته من الحيلولة بينه وبين رؤية كامل باشا وهو صديق قديم للسفارة وان مثل ذلك العمل خليق أن يؤثر أسوأ تأثير في الرأى العام الانجليزي . فانكشف بعمله هذا عداؤه الشديد لنا . ولم ينتصف النهار حتى طلب محمود شوكت باشا بالتليفون أن اذهب لمقابلته في الحال .

وكان جالساً في غرفة الصدر الأعظم ومعه شوروك سولون محمود باشا وزير البحرية وكان خليل بك أيضا ينتظر مقابلة الصدر الأعظم . فدخلنا معاً . فالتفت الي شوكت باشا مكثباً وقال : « ما أطيب هذا الموقف الذي تقفه ! » يظهر أنك أبقيت كامل باشا أسيراً في داره فهل اعتزمت اكرامه على مغادرة الاستانة ؟ -

« - أجل يا صاحب الدولة . ان واجبي يقضى علي باتخاذ الاحتياط الذي تشير اليه . »

« ولكن أمرك ان تقف مراقبة منزله في الحال وتدعه وشأنه . وليترك للباشا حرية الاختيار في الإقامة هنا أو في الخارج . »

« انى أرى يا صاحب الدولة ! ان من الخطورة بمكان أن تلغي التعليمات التي أصدرناها و » .

فصرخ في وجهي « انك جندي ألسنت كذلك ؟ وها أنا اصدر لك أمراً فنفضه في الحال والاعاقبتك أشد عقاب . هل تريد أن تجعل الانجليز اعداء لي ؟

قلو أنك سمعت ما نطق به المترجم الأول لتحققت أنك مخطئ . . .

وقد كان من المستحيل علي ان اسائل الباشا عن الحق الذي يخول أحد ممثلي دولة أجنبية أن يتدخل في عمل تقوم به الحكومة ضد زيد أو عمرو من رعاياها لأن الباشا كان متهيجاً ولا يمكن مناقشته . فاعتظت أشد الغيظ لهذا السنخط الغير العادل على الاحتياطات التي رأيت من الضروري اتخاذها ضد كامل باشا نظراً لدسائسه الخفية فأجبت وقد اغرورت عيناى بالدموع (سأصعد بأمرك يا صاحب الدولة وغادرت الغرفة) .

وتبعنى شوروك سولون باشا وقد رأى شدة غيظي وصحبنى الى غرفة الانتظار المعدة للسفراء . فوقفنا صامتين بجانب النافذة نحو خمس دقائق وأخيراً قلت :-

« رأيت كيف عوملت ؟ أيستطيع أي انسان تحمل مثل هذه المعاملة الا اذا كان حب الوطن عالقاً بقلبه ؟ » .

فأجاب محمود باشا « انك مصيب ولكن لاتتعجل »

وبعد أن عادت الي سكينتي شكرت الباشا وأستأذنت في الانصراف . وعدت الى دار الحاكم العسكري وأرسلت في طلب عزمى بك وقلت له :-

« تنفيذاً لأمر صاحب الدولة الصدر الأعظم يجب استدعاء رجال الشرطة الذين يراقبون منزل كامل باشا وان تترك له الحرية التامة للاتصال بمن يشاء ولكن واجبي يحتم علي اتخاذ احتياطات واحد وهو ان يظل قريباً من المنزل أحد الشرطة العسكرية ومخبر سري لملاحظة من يدخل الدار ويخرج منها .

ثم كتبت خطابين لمحمود شوكت باشا . ذكرت له في أولهما - ان أوامره الخاصة بكامل باشا قد نفذت فعلياً . وفي الثاني طابعت اليه أن يقبلني من منصب الحاكم العسكري للاستانة نظراً لتضعضع حالتي الصحية من جراء العبء الثقيل الذي يصحب هذا المنصب . وكنت أعلم تمام العلم ان هذا الطلب

كان مضاداً لمصلحة الوطن ولسكن لم يكن لدي سوى هذا الحل لأنني إذا لم
أكن مطلق الحرية في اتخاذ ما يلزم من الوسائل أصبح عاجزاً عن حفظ الأمن
في العاصمة .

أما الباشا وكان قد ساوره الأسف على لهجته القاسية التي خاطبني بها فقد
طلب الي تلفونيا أن أذهب لمقابلته حتى قبل استلام خطابي . ولما كنت غير
راغب في مقابلته قبل أن يستلم استقالتي قد اعتذرت عن الحضور لأسباب
مهمة ورددت عليه بأني لا أستطيع أن أكون تحت تصرفه الا في المساء في
الوقت الذي يلائمه . فسكفني أن اذهب الى قصر الصدر الأعظم حوالي
الساعة التاسعة مساء .

وفي ذات اليوم عرضت استقالتي على مجلس الوزراء وسأل الباشا زملاءه
ماذا يفعل . فنصحوا له بصراحة أن يصر على بقائي في مناصبي . وقال الباشا
- ان هذا هو رأيه ايضاً بيد انه لا مفر من تخرج الحال اذا تشبثت بابعاد
كامل باشا وعلى كل حال هو يرغب في محادثتي أولاً . وفي هذا المساء قابلت
ابراهيم بك خياني بقوله - ما هذا الذي سمعته من انك لو فعلت لاستقلنا
جميعاً . وعارض ايضاً كل اصدقائي أما أنا فلم اجد الا أمرين لا ثالث لهما .
اما أن أكون مستقلاً وأتحمل كل المسؤولية عما أصدره من الأوامر واما
اعتزل العمل . فان الحالة الدقيقة في العاصمة ومسؤوليتي عن الأمن العام
يتطلبان مني الحرية المطلقة في العمل .

وفي الساعة التاسعة ذهبت لمقابلة الباشا في قصر الصدر الأعظم فمقابلني
مقابلة ودية .

ثم قال :- ماذا أخذت الأقوال التي فهمت بها بهذه الطريقة الجديدة :- ألا
تعرف اني أحبك كولدي . ومتى كان الأب قلق البال فلا يستطيع معاملة
أبنائه المعاملة التي يريد . فأرجو أن تعتبر الحادثة كمجرد محاجة بين والد

وولده نفل عنك غضبك علي ، .

فقلت : - (يا باشا حاشا أن تشك في انني حملت ما وجهته الي الاعلى
ماعنيته أنت . انني اعتبر نفسي ولدأ لك ولما كنت أعرف قدرك حق المعرفة
فانني أتحمّل منك أي معاملة ولو قاسية . وما حملني على طلب الاستقالة عنفك
معني بل الذي حملني عليه هو استحالة العمل في الظروف الحاضرة . ان دولتك
لا تعرف ما يدبر في طي الخفاء ولا تحيط علماً بالمؤامرات الثورية السرية . ولم
أشأ أن أقلق بال دولتك بمسائل تختص بأعمال الشرطة بل انني لا أزال أرى
هذا الرأي حتى الآن . ولكنني أؤكد لدولتك ان كامل باشا لم يحضر الي الاستانة
الا ليرقى الي كرسي الصدارة على جثتك . فحجىء الباشا ليس الا دليلاً أكيداً
على ان الثورة أصبحت على الأبواب . فارغامه على مغادرة الاستانة لا يراد به
الا قص أجنحة المؤامرة . ان دولتك تعلم جيداً أن أولئك الذين يجب
عليهم اتخاذ الاحتياطات اللازمة ضد التهديدات السرية ومحاولة الاعتداء
لا يعطون حرية اختيار الوسائل . انك لتذكر انك لما عيمنتني في مناصبي
الحاضر وعدتني باطلاق يدي من كل قيد - وها أنت الآن نظراً لتدخل
السفارة الانجليزية تدخلا غير مقبول تحظر علي اتخاذ الاحتياطات المهمة ففي
هذه الحال أراني عاجزاً عن مواصلة العمل .

فأجاب بعد تفكير طويل - (حسن !) اني أطلق يدك ولكن لا تأخذ
ضد كامل احتياطات أشد مما يلزم ولتسمح له بالبقاء هنا ثلاثة أيام .
وعلى ذلك سحبت طلب الاستقالة . ولما عدت الي دار الحاكم العسكري
طلبت الي عبدالله بك ابن كامل باشا وأحد أعضاء مجلس الدولة أن يقابلني في
اليوم التالي . فلي الدعوة فقلت له : « ان الباشا على كل حال يجب ان يغادر
الاستانة وان من المستحيل سحب الأوامر الصادرة وانه يجدر به ألا ينتظر
أية مساعدة من السفارة الانجليزية أو من أي ممثل أجنبي ثم زدت على ذلك بانه

ان لم يغادر المدينة يوم الجمعة على اكثر تقدير فلا بد من القبض عليه حيث
يحتمل ارساله الى الاناضول .

وبعد مناقشة طويلة وافق عبدالله على ما قلته موافقة تامة وغادرتني بعد
أن وعد أن يبذل جهده لحمل والده على الاقلاع عن معارضته السقيمة . ثم
عاد في المساء ليخبرني ان الباشا سيسافر بحراً في اليوم التالي . والحقيقة انه
غادر منزله في اليوم التالي - وكان يوم جمعة - ومع السير جير الدلوثر السفير
الانجليزي فر بالباب العالي وصعد الى الباخرة عند غلظة وفي مساء هذا اليوم
اقلعت الباخرة وكانت الانوار تتألق بها وهو على ظهرها .

مصرع محمود شوكت باشا

كانت الشواهد كلها - بقطع النظر عن تقارير أعوانى المخبرين - تشير الى
ان المتآمرين قد اكملوا عدتهم وان الهجوم العمومى سيبدأ فى بضعة الأيام المقبلة .
وقد بكرت بالذهاب الى وزارة الحربية يوم الأربعاء ١٥ تموز سنة ١٩١٣ م
وهو يوم القتل لأخذ التعليمات من الباشا ولفت نظر ياوره الى ضرورة
المحافظة عليه بنوع خاص عند ذهابه الى الباب العالي . ثم حدثت الباشا نحو
نصف ساعة وكان يبدو عليه الارتياع ذلك الصباح وشعر بظمأنية عظيمة من
جراة الاحتياطات التي اتخذتها . ولما كنت أحب ألا أزعجه قلت له عرضاً
- ان محاولة الاعتداء متوقعة فى ذلك الوقت على بضعة اشخاص فى اليوم التالي
أو اليوم الذي بعده . وزدت على ذلك قولى - ان هذه الاحتياطات كلها
لا يمكن معها منع الهجمات الفردية فلذا يجدر به أن يكون على أتم الحرص
أثناء اجتيازه الطرقات العامة . ثم شددت على ياوره بأن يكون شديد اليقظة
والحذر عليه .

فقال : « أنا فاهم والأمر لله » .

فتركته وذهبت الى الطابق الاعلى لمحادثة الماجور سعد الله والماجور كيفل بك في القسم الثالث من هيئة اركان الحرب . وأخذنا نبحث بعض القواعد . ولم يمض خمس عشرة دقيقة حتى سمعنا من ناحية ميدان وزارة الحربية - خمس ضربات متوالية أشبه بقرع أحد الطبول الكبيرة . ولما كنت أتوقع حدوث محاولة اعتداء في أي وقت سألت كمال بك هل هذه طلقات مسدس ؟ .

فقال : - لا اظن ذلك وأحسب بعض الناس ينفض سجادة أو يدق مساراً .

ولكن لم أرتح لهذا الجواب وتوقعت وصول أخبار سيئة بين لحظة واخرى . وما هي الا خمس دقائق حتى دخل خادمي الأمين رمضان مهرولاً وصاح - (لقد قتل الباشا ! لقد قتل الباشا الآن ! وكنت جالساً في مؤخرة الحجرة فصحت به « أي باشا تعني ؟ » ومن قتله ؟ وأين قتل ؟ » في ميدان بايزيد . في طريقه الى الباب العالي . ولا أعرف من القاتل .

وما كنت أهرول الى الدور الأسفل حتى رأيت محمود شوكت باشا محمولا والدم يسيل منه على درج السلم المؤدي الى حجراته . ولا تزال تقرع اذني حشرجته وهو في سكرة الموت . فوقفت هنيهة في الردهة وعلقت نظري بوجهه وقد علاه الاصفرار . ثم سألت نفسي الى أين يذهب في الواجب ؟ فوضعت خطة العمل في الحال . وكال أول واجب هو اللحاق بالجناة والقبض عليهم ثم الاسراع الى رئاسة الجيش لحفظ النظام في العاصمة . وبعد هنيهة حضر الي ياوري حليي فصحت به « هلم » ثم هرولنا الى وزارة الحربية . فذهبت الى دار الحامية لتعرف الأخبار الأولى . وما كدت أصل الى منتهي الطريق حتى قابلت ضابطاً من رجال الشرطة العسكرية فصرخت فيه « هل قبض على الجناة ؟ » فقال : - « لا أعرف » يا أفندي انني أبحث عن عسس »

فصحت ، وماذا تريد أن تصنع بالعسس . عد في الحال واقبض على الجناة قبل ان يتمكنوا من الفرار أو الاختباء ، قدش الضابط لعنف الأوامر التي اصدرها وعاد يهرول الى مكان الجريمة .

وما وصلت الى مكان الحادث بعد بضع دقائق على سيارتي حتى اخبرني انه القى القبض على شخص يدعى توبال توفيق الذي كان بلا ريب احدا الجناة . ولكن الآخرين - كما يقال - تمكنوا من الفرار في احدى السيارات . وعلى ذلك اضطرت باديء ذي بدء الى الاكتفاء بهذا النبا الأول ثم تمت شطر دار الحاكم العسكري واتخذت بضعة احتياطات عسكرية في حي بير واشقودرا واستانبول .

ولم يكديمر على ارتكاب الجريمة نصف ساعة حتى ظهر في شوارع العاصمة العسس العسكري البعض على ظهور الخيل والبعض على الأقدام وبعد ساعة صدر منشور يخبر الجمهور بوقوع الجريمة ويعلن اشتداد حالة الحصار في العاصمة . وخول العسس حق اتخاذ أشد الوسائل ضد من يحاول العبث بالنظام . ولما كنت أتوقع أن يذهب المتآمرون الى المايين فيزعجوا جلالة الملك خاطبت السكرتير الأول بالقصر تلفونيا واعطيته تعليمات معينة وطلبت اليه ان يخبر جلالاته بأننا اتخذنا كل الوسائل اللازمة .

وفي الوقت نفسه خاطبت تلفونيا عزت باشا نائب القائد العام في خادم كوى ولخصت له الحالة . ثم اخبرته بالخطوات التي اتخذناها لحفظ النظام وطلبت اليه أن يضع مؤقتاً تحت تصرفي كتيبتين من الفرسان كانتا معسكرتين في نسكنة داود باشا وان يرسل كتيبتين من المشاة من خادم كوى الى كوجك جكرجي للاشتراك في حفظ النظام العام . ثم خاطبت سعيد حليم باشا فاعلمته هو والوزراء الآخرين بأسرع ما يمكن لاتخاذ القرارات اللازمة .

بضعة قرارات احتياطية

ونظراً لكوني كنت أتوقع وقوع مثل هذا الحادث الشنيع كلفت موظفي ادارة الشرطة من قبل ان يكتبوا لي بياناً باسماء جميع الاشخاص الذين كانوا من المحتمل أن يستغلوا الموقف الحاضر من جميع الطبقات فينزعوا الى خلق الشغب في سائر أنحاء المدينة . فأصدرت الأوامر الى عزمي بك مدير الشرطة بأن يقبض في الحال اذا وقع اقل اضطراب أو ثورة على الاشخاص المذكورة اسمائهم في البيان فأخبرني عزمي بك بأن هذه التعليمات الصادرة اليه من زمن بعيد نفذت الآن وسألني أين يذهب بالاشخاص المقبوض عليهم . فقرر الرأي بيني وبين سعيد حلیم باشا الصدر الاعظم الموقت والحاج عادل بك وزير الداخلية على انه يجب لكيا تبقی العاصمة هادئة ابعاد أولئك المعتقلين الى سينوب واعطاؤهم المال الكافي لهم .

فطلبت الى ادارة السفن أن تعد باخرة لنقلهم في الحال وكلفت عزمي ان يقبض على الباقيين منهم في أثناء الليل حتى يمكن ابعادهم على ظهر الباخرة في المساء التالي كما اتى أمرت بالقبض على الداماد صالح باشا وآخرين ممن عرفت ان لهم ضلعاً في المؤامرة وتفتيش منازلهم بواسطة الشرطة .

دفن محمود شوكت باشا

وقد أردت أن تكون جنازة محمود شوكت باشا بالغة الحد الاعلى في الفخار والجلال لأظهر للدلا ان السكينة والنظام تامان في العاصمة بالرغم من مصرع الصدر الاعظم فطلبت الى كل السلطات المختصة ان ترسل خبر نعيه مع رفاع الدعوة لتشجيع جنازته الى عالية القوم وكبار موظفي الدولة وضباط أركان الحرب الذين كانوا موجودين في العاصمة . وأمرت ان تتبع الجنازة ثلة كبيرة من الجنود . وارسلت الدعوة لتشجيعها الى سفراء الدول الاجنبية وربابنة

وضباط البوارج الحربية التي كانت راسية في الميناء كما أرسلت أيضا الى
الملحقين العسكريين والبحرين وغيرهم . وزاد عدد المشيعين على خمسة آلاف
شخص وكان الجو صحواً وقد اكتظت الشوارع بالاهالي . ومما زاد في رهبة
الموكب ان كثيراً من النسوة تأثرن بجلاله فأخذن بالبكاء والعيويل . وقد
أدركت الغاية التي رميت اليها من تشييع الجنازة بهذه الصورة . أما أنا شخصياً
فسكنت أوثر أن اجوس خلال شوارع استانبول على رأس عسس من
الفرسان ولكن نظراً لرغبتني في ان انظر نظرة عامة الى المشهد دخلت بسيارتي
من شاطئ غلطة وتنقلت من طريق الى آخر مخترقا حي بانكالدي الى أن
لحقت بالجنازة بالقرب من كنيسة نوتردام دي سيون . أما التأثير فكان كما
رجوت ولكن ما كانت عينايتي تقع على نعش السياسي الراحل الذي كنت
أبني عليه كثيراً من الآمال حتى ساورتني الهموم وتملكني الحزن واليأس .
وبعد تشييع الجنازة حضر القائد سارو الفرنسي مدير الجندرمة لتهنئتي
على النظام التام الذي تمتعت به العاصمة . ثم قص علي فحوى مناقشة دارت بين
أمير البحر للاسطول الايطالي القائد باومان (الذي عهد اليه بتنظيم الجندرمة)
وقد سمعها على تل الحرية عندما كانوا في انتظار مرور المشهد . فقد قال أمير
البحر لبومان ما نصه : - (ان جرأة ذلك الرجل المسمى جمال بك خارقة
للعادة . ان المرء لا بد ان يكون من الشجاعة والاقدام بمكان وان يكون له ثقة
عظمية في الاحتياطات التي اتخذها لاعداد مشهد كبير مثل هذا يحشد فيه
سفراء الدول وربابنة البوارج الحربية وفي مكان ضيق ولم يمر بعد على ارتكاب
الجناية اكثر من يوم واحد بينما المجرمون لا يزالون بعيدين عن طائلة القانون .
فلو خطر لأحد الثوربين أن يلقي قبلة فأصابت واحداً أو اكثر من كبار
المشيعين لاحتلت العاصمة التركية فصائل من جنودنا المرابطة في البوارج . على
ان هذا الاحتمال عرض بالفعل على بساط البحث وأعدت لتنفيذه المعدات

اللازمة . ومع ذلك لم يقع ما يكدر . فلو اتسح لجمال بك أن يلقي القبض على
المجرمين في خلال يوم أو يومين لقام لبلاده بأجل خدمة ولاستطاع الاستفادة
من هذه النتيجة أن يطلب انسحاب أساطيلنا من العاصمة ومن البوسفور . وفي
رأى ان مقامنا هنا يدل على الفضول .

وقد وقعت الجريمة يوم الأربعاء وشيعت الجنازة يوم الخميس وما جاء
يوم الجمعة حتى استطعت - بعد تضحية ياوري حلبي بك الذي قتل - العثور
والقبض على زعماء المؤامرة وهم كاظم الجركسي وآخرون واحضارهم امام
لجنة التحقيق التابعة للحكمة العسكرية .

وقد أسفر التحقيق عن اتجاه الحزب بأجمعه وأعضائه فرداً فرداً الى ادارك
غاية واحدة هي حرمان البلاد من حكومتها والتخلص من زعماء جمعية الاتحاد
والترقي بواسطة هذه الاعتداءات الشخصية وبالضغط على جلالة السلطان لتعيين
المارشال شاكر باشا لمنصب الصدارة العظمى فاذا تم ذلك يشكل المارشال تحت
رئاسته وزارة وقتية ثم يسعى في خلال ثلاثة أيام أو أربعة أن يقضي القضاء
المبرم على كل المتهمين لجمعية الاتحاد والترقي حتى اذا خلا الجو منهم تشكلت
وزارة جديدة فيما بعد برئاسة كامل باشا أو الأمير صباح الدين .

ولست أخشى أن يشك أحد في صحة هذه البيانات . فانها تتأيد بشكل قاطع
متى نشر التقرير الذي وضعته لجنة التحقيق والنتائج التي وصلت اليها . ولو
قرأ الناس اعتراف صالح بك مترجم شركة الترام الذي كان له ضلع في الأعمال
التي قام بها ذوو الحثيات الذين اشتركوا في المؤامرة لما بقيت ثمة حاجة الى
أدلة أخرى .

ولا يزال صالح بك هذا على قيد الحياة وهو رجل شريف ونزيه . وقد
تغلبت علي الرغبة في توطيد أركان السلام في البلاد بصفة نهائية حتى بعد
معاينة قاتلي شوكت باشا وشركائهم فأرسلت صالح بك هذا الى أوروبا ببيعة

اقتراحات للاشخاص العديدين الذين صدر عليهم حكم الاعدام جزاء خروجهم على الحكومة . اما الاقتراحات فكانت بسيطة جداً . وهي تلخص في أن يكتبوا بخطهم فيشرحوا طريقة اشتراكهم منذ اعلان الدستور في الحركات الثورية المختلفة واعمال الاعتداء حتى اذا فعلوا ذلك استصدرت عفواً عاماً لهم . وقد كنت بالطبع أرمى بعلمي هذا الى اثاره الرأى العام في تركيا وفي الخارج واقامة البرهان على سخافة التهم التي تعزى الى رجال الاتحاد والترقي . ولما عرض عليهم هذه الاقتراحات صالح بك (الذي كان يعرف معرفة تامة مبلغ اشتراك كل منهم في المؤامرة) بدت عليهم الدهشة ولم يسعهم الا رفضها بعد ان اتهموا صالح بك بأن الحكومة رشته . ولكنني اكرر هنا اني لم اعط صالح بك قرشاً واحداً . ويدل اعترافه على ان المارشال شاكر باشا قبل منصب الصدارة بصفة وقتية وهو يعلم جيد العلم الغاية المقصودة من وراء ذلك وان بين الذين كان ينتظر منهم التأثير في جلالة السلطان لتعيينه لذلك المنصب نفراً من ذوي الحيشيات والمناصب الرفيعة في الدولة ولم تكن ثمة فائدة في اتخاذ اجراءات قانونية ضد أولئك الاشخاص ذوي الحيشيات اذ ان مثل ذلك العمل ربما زاد الحالة ارتباكاً فضلاً عن انه غير منتج .

وزارة سعيد حليم باشا

وقد تقرر بعد مصرع محمود شوكت باشا ترشيح الامير سعيد حليم باشا عن الحزب لمركز الصدارة . ولست أفهم السر في انتخاب جلالته لسعيد حليم باشا للصدارة بصفة مؤقتة ولا في اصداره الأمر بان تسير الوزارة دقة الأمور مؤقتاً . وعلى كل حال ما لبثت وزارة سعيد حليم باشا ان عدلت بعد بضعة أيام بدخول طلعت بك الذي عين وزيراً للداخلية .

خروج عن الموضوع

أما وقد بلغت هذه النقطة فاني أسأل السماح بخروج قصير عن الموضوع لوضع الأساس لبضع ملاحظات سياسية معينة سنتناولها هذه المذكرات فيما بعد .

فقد قامت ضجة كبيرة حول حكم الاعدام الذي صدر على الداماد صالح باشا وكانت المحاكمة قد انتهت ولكن الحكم لم يصدق عليه بعد من جلالته السلطان فسألني ذات يوم مستشار السفارة الفرنسية الميسو بوب الذي كان قائماً بأعمال السفير في اثناء تغيبه بالاجازة أن أذهب الى السفارة لمخاطبته في مسألة على جانب عظيم من الأهمية .

فابتدري بقوله (عزيزي جمال بك لقد استلمت هذه اللحظة برقية من الميسو بيشون وزير الخارجية . ولست في حاجة لأن أعرفك صداقة بيشون لتركيا واني على يقين من ميولك الودية نحو فرنسا ولذلك أردت الانتفاش برأيك في الخطة التي اريد اتباعها) .

أما البرقية التي سلمتها فكانت :-

« نعي اليها الآن ان صالح باشا بن خير الدين باشا التونسي قد اعتقل وحكم عليه بالاعدام . وقد أحدثت هذه الأنباء ضجة كبرى في تونس نظراً للمركز الرفيع الذي يشغله صالح باشا بين الأهالي . والحكومة الفرنسية متأكدة ان اعدام أحد رعاياها لا بد أن يحدث قلقاً عظيماً في تونس ولهذا لا مندوحة لها عن التدخل في مصلحة صالح باشا . فقابل الصدر الاعظم في الحال واطلب اليه بالحاح أن يطلق سراح صالح باشا وألا يقيم العقبات في سبيل ذهابه الى تونس . فوجت عند تلاوة تلك البرقية وادركت الآن السر في رفض صالح باشا الاصغاء الى نصائحي له بالعدول عن تنظيم المؤامرة .

وكلمات تجلت الحقيقة امام عيني تملكني الاسف على بلادنا المسكينة . وبعد
طول التفكير قلت للسيو بوب (انك تعلم عطفي الشديد على فرنسا كما تعلم
أيضا انني بالرغم من الانتقادات المرة التي امتلأت بها الصحف الفرنسية على
سياستنا حديثاً بذلت كل مجهود لاجياء روح الصداقة لفرنسا . فاذا أردت
أن تنفر الرأي العام في الاستانة بل في الشرق بأسره ليس أسهل عليك من
التدخل . ويجب أن اعلمك الآن بأن تدخلك لن يصادف نجاحا ما فان
صالح باشا لم يحكم عليه الا بعد ان قام على ادائه الدليل القاطع . أما تنفيذ
حكم الاعدام عليه وعلى شركائه فيمتظر التصديق الشاهاني . اننا وايم الله سئمنا
ان نرى الحكومة تخضد شوكتها بارتكاب أمثال هذه الجرائم . وقد اعزمتنا
هذه المرة ان نوقع الجزاء على مرتكبي الجناية مهما عظمت حيثيتهم . ولنا
وطيد الأمل في أن يكبح تشدنا ذلك جماع الذين تحدثهم نفوسهم بارتكاب
مثل هذه الجريمة في المستقبل . فالضغط الذي تزمع استعماله مع الصدر الاعظم
لن ينقذ صالح باشا من مخالب الموت فضلا عن ان الرأي العام سيتهم السفارة
الفرنسية بتشجيع الساعين لقلب الحكومة في الاستانة وهذا لا بد أن يتولد
منه نقور دائم بين البلدين وعندني ان خير ما تفعله هو ان تنصح الميسو
بيشون بالعدول عن فكره . .

فوافق الميسو بوب على هذا الرأي وفي الواقع لم يذهب مطلقا الى
الصدر الاعظم .

وبعد أن صادقت الارادة الشاهانية على الحكم تقرر ان يكون التنفيذ
في اليوم التالي . وما حانت الساعة الحادية عشرة مساء حتى دعاني الميسو بوب
لمقابلته بالذات في الحال . وما كاد بصره يقع علي حتى سلني وهو متهيج
تهيجا شديدا برقية اخرى من الميسو بيشون . ويظهر ان وزير الخارجية
أغضبه رد القائم بأعمال السفارة بعدم التدخل فأصدر أوامره الصريحة بمقابلة

الصدر الاعظم في الحال وانقاذ صالح باشا مهما كان الثمن . ولما كنت غير ميال في أن أزيد تهيج المسيو بوب قلت له : - (لقد أرف الوقت ياعزيزي فان الارادة الشاهانية صادقت على الحكم الذي سينفذ في وقت الشروق . ولقد فات وقت مخاطبة الصدر الاعظم في هذا الصدد هذه الليلة . لأن الحكم سيكون قد نفذ بالفعل قبل أن يمكن استصدار امر آخر بالغائه . على انني لا أستطيع أن أفهم السر في عناد المسيو بيثون وما هو الدافع له على توجيه قوارص اللوم اليك بدلا من شكرك على نصيحتك الغالية ، وهنا أخذ المسيو بوب على عاتقه كل المسؤولية فرفض مرة أخرى أن يتدخل تدخلا كان يعرف تماما أنه عقيم . وفي اليوم التالي نعى اليه ان الحكم قد نفذ . وقبل اعدام صالح باشا بأيام أمرت بالقاء القبض على أخويه طاهر ومحمود خير الدين بك لأنني كنت واثقا من ان طاهر وخير الدين بك كانا أشد ختلا وخطرا من صالح باشا . فأرادت السفارة الفرنسية التدخل لمصلحتهما . وقد علمنا ان لذلك التدخل صبغة شبيهة بالرسمية فاشترطنا في مقابل الافراج عنهما ألا يتدخل هذان الرجلان مطلقا في الشؤون التركية وأن يتركا الجنسية التركية ويعتقما الجنسية الفرنسية وأن يذهبا الى فرنسا . وقد تمت الاجراءات الرسمية المعتادة على هذا الأساس .

وكانت هذه آخر ما قدمه أولاد خير الدين من الخدمات للشعب التركي . واني أومل الا نسمع بذكرهما الى الأبد (١) .

ولم هبط الينا هذان السيدان من تونس ؟ ألم يكن الأجدد بهما أن يقفا مواهبهما على تحرير وطنهما من النير الفرنسي ؟ ولسوف نرى - هل في استطاعة المسيو بيثون أن يتدخل لانقاذهما من الجيلوتين (المشنقة) .

(١) علمت فيما بعد ان طاهر خير الدين عاد الى الاستانة وعين وزيراً

للزراعة بعد منحه لقبه مير ميران (فيا للعجب) .

وقبل أن اختم هذه العجالة يجب أن أضيف كلمة واحدة . وهي ان الاشاعة
الدينية الذائعة بأني ذهبت أنا وطلعت بك الى المابين للضغط على جلالته اذ
كان متردداً في التصديق على الحكم ليست الافرية لانصيب لها من الصحة .
فقد أرسل في اليوم نفسه الى الباب العالي تقرير الصدر الأعظم وملحقاته
مضافا اليه التصديق الشاهاني .

(الفصل الثاني)

نشوب الحرب البلقانية الثانية وانتهائها

(استرجاع ادرنة)

لم يضطر محمود شوكت باشا في اقتتاح وزارته الى توقيع الصلح الابتدائي
وقبول خط انيوس مبدئياً الا بعد فشل هجوم شاركوى وسقوط قلعة ادرنه
ويانيه واشقودره في البانيا . ولم يمر على مصرع الباشا الا زمن قصير حتى
اندلعت السنة الحرب البلقانية الثانية حتى زحفت الصرب واليونان ورومانيا
على بلغاريا .

فتحتم علينا أن نستخدم هذا الموقف الجديد لمهاجمة البلغاريين بأنفسنا
لنسترجع ادرنه وكان اعضاء الحزب على بكرة أبيهم يظنون ان الحكومة قد
وصلت بالفعل الى هذا القرار وأملوا بحق ان يتحرك الجيش في الحال لادراك
تلك الغاية فبذل السير أدورد غراي - وزير خارجية انجلترا - الذي كان
واقفاً على حقيقة ميول الاستانة في هذا الصدد كل مجهود وتدخلت السفارة
الانجليزية لاقناع الباب العالي بالعدول عن تلك الخطوة . بل أنه لجأ الى استعمال
التهديد في مجلس العموم . وكانت وزارتنا نفسها مختلفة في الرأي .

ولن تبرح من ذهني الحادثة الآتية : فقد ذهبت مساء يوم جمعة الى سعيد
حليم باشا في بني كوي وكان الوزراء جميعاً عنده حيث كان مجلس الوزراء

منعقداً . وقبل وصولي تناولوا بالبحث عدة أمور ثم خرجوا الى شرفة القصر
الحجرية المطلة على البحر لترويح النفس فقال عثمان نظامي باشا لزميله محمود
باشا وزير البحرية وكان واقفاً بجانبه : (انني اذا استطعت اقتناع الحاضرين
هنا بالعدول عن فكرة استرجاع ادرنة أكون قد قدمت لبلادي أجل خدمة)
فتأففت من سخافة هذا الرأي الذي يناقض تماماً مصلحة الوطن .

وفي احدى الحجج وجدت سعيد حلیم باشا ومعه طلعت بك وقد علتها
الكآبة . فالتفت إلي سعيد حلیم باشا قائلاً : (لقد فشلنا كل الفشل في حمل
الاجلبية على الموافقة على التدخل فترانا في حيرة لا ندري ماذا نفعل ؟) .

واخبرني طلعت بك لانه يستطيع تسوية المسألة المالية في اليوم التالي
بعد اجتماعه بالمسيو ويل المدير العام لشركة الريجي . وفعلاً بحث الامر معه في
اليوم الثاني بحضور فوعسد المسيو ويل باقرض الحكومة مليوناً ونصف
مليون جنيه في مقابل مدة امتياز الريجي مدة خمسة عشر عاماً وبناء على قرار
من مجلس الوزراء قبل وزير المالية رفعت بك ووزير الداخلية طلعت بك
هذه الشروط . وهذا يفسر مسألة مدة امتياز شركة الريجي وهي المسألة التي
ظل مجلس النواب مدة عامين أو ثلاثة يعتبرها احدى جرائم جاويد بك .

واني واثق تماماً بأن الحكومة التي تقبل تلك الشروط في مثل ذلك الظرف
العصيب لا تستطيع بحال ما أن تنقض ما ارتبطت به .
وذهب طلعت بك في سيارته في اليوم نفسه الى خادم كوي لاستطلاع
رأي عزت باشا نائب القائد العام في وزارة الحربية .

فصرح عزت باشا بأن هناك مسألتين على جانب عظيم من الاهمية بيد
أنه مستعد لاصدار الامر للجيش بالرحف اذا اطمانت نفسه بصدد هاتين
المسألتين وهما :

أولاً : أيمتثل أن يؤدي الارتباقات السياسية التي تنشأ عن زحف الجيش

الى ايقاع البلاد في خطر شديد ؟) .

ثانياً : ألدينا المال الكافي لمؤونة الجنود ؟

وعندئذ انبرى طلعت بك فشرح موقف الاقلية في الوزارة حيال النقطة الاولى وأضاف الى ذلك أن المسألة المالية قد سويت بسبب مد امتياز شركة الريجي . ثم عاد في اليوم التالي بعد مصادقة عزت باشا . وبالرغم من كل ذلك كان اغلب الوزراء يعتقدون ان الزحف ستنشأ عنه عواقب وخيمة لتركيا .

وفي صبيحة اليوم التالي ذهبت مع مدحت شكري بك لمقابلة الوزراء الذين كانوا لا يزالون مترددين . فوضحت لهم اننا نضيق حقنا الادبي في ادارة دفة الحكومة بل يجب علينا تقديم استقالتنا في الحال اذا تركنا هذه الفرصة لاسترجاع أدرنة تذهب دون انتهازاها لأن ذلك كان عين السبب الذي حملنا على قلب الحكومة السالفة والذي من اجله قتل نائب القائد العام ووزير الحربية .

فاقتنع البعض واعلن البعض عزمهم على الاستقالة . فقلنا لهم ان الواجب يقضى عليهم بأن يظهروا اخلاصهم لقضية الوطن بالبقاء في مراكزهم . وبعد لأي ما امكن احراز اغلبية قبل التثام مجلس الوزراء . وفي هذا القسم من مذكراتي لم أخول حق التصريح بالاسماء .

ولم يكن اشترأكي في هذه المسألة إلا بصفتي أحد زعماء حزبنا ولأنني كنت على اتم اتصال وامن صداقة مع الوزراء التابعين للحزب . ولم يكن كما ادعت احدي الصحف فيما بعد بقصد التأثير واستعمال القوة ضد الوزراء فكما انني لم اسمح للغير بالتدخل في شؤون ادارتي سواء كانت صغيرة أم كبيرة كذلك لم اشأ التدخل في شؤون لا تخصني وقصرت نفسي دائماً على الاعراب عن رغباتي أو اسداء النصح الودي لزملائي . وبهذه الوسيلة استطعت الاحتفاظ بمودتهم . ويمكنني بهذه المناسبة أن ادحض في أي وقت كل ما قيل مناقضاً

لذلك وحسبك المثل الآتي : فان الوجوه المبتسمة التي عاد بها الوزراء من مجلس الباب العالي الذي كانوا يخشونه ملائنا جميعاً بالثقة . ولما صدر لجيشنا الامر بالزحف لاحتلال أدرنة اخبر وزير خارجيتنا الدول العظمى في مذكرة ارسلها الى سفرائنا في الخارج بأن غاية الجيش هي تحرير ادرنة وان الزحف سيقف متى تحققت هذه الغاية وانه لن يعبر الشاطيء الا بمن لنهر مارتيزا بحال من الاحوال . وعندني أن هذه المذكرة كانت خطأ سياسياً أولاً لاننا لا يمكننا أن نقتنع باسترجاع ادرنة لأن الضرورة تقضى أن يبقى المارتيزا نهراً تركياً كما يتعين أن ترد الينا ده أعاج بصفتها الحد الطبيعي على ساحل بحر ايجة .

وثانياً ان سلامة ادرنة تقتضى أن يبقى بايدينا ديموتيكسا وسافاتقي والاراضي المجاورة . واذا تذكرنا أيضاً ان ٨٥٠ بالمائة من سكان كوميلجينة واسكتش وما جاورهما مسلمون علنا ان واجنبنا المقدس يقتضى السعي لاسترداد هذين المكانين . وبالطبع لم يكن من المستطاع التأكد من نجاح هذا المشروع ولكن اصدار هذه المذكرة التي قيدت الحكومة من اول الامر بوعده صريح لا يدل بحال من الاحوال على بعد النظر .

وسأبين فيما بعد كيف أن المندوبين العثمانيين في مؤتمر الاستانة حاولوا للتغلب على خصومهم أن يبنوا قضيتهم على اساس الموقف الحاضر ولكن الوعد الصريح المعطى من قبل لم يمكنهم من ابداء سبب منطقي معقول للرفض

(سياسة انجلترا)

وما كادت الحكومة العثمانية تعزم تحرير ادرنة وتصدر الاوامر للجيش بالزحف حتى الفت السياسة الانجليزية القناع عن وجهها وظهرت بمظهرها الحقيقي . فواصلت مجهوداتها عن طريق السفارة الانجليزية للباب العالي لمنع الجيش العثماني من عبور اينوس ميديا . واعلن السير ادورد غراي في مجلس

العموم بأن الأتراك لو حاولوا استغلال هزيمة بلغاريا بواسطة الضرب لاسترداد أدرنة بالرغم من معاهدة لوندرا لسوف يجازون أشد الجزاء ويستهدفون لخطر فقد باقي املاكهم في اوربا لاجل الاستانة نفسها .

وقد ظهر جلياً من المذكرة المرسلة الى الباب العالي ومن الخطاب التي القاها السير ادورد غراي ان سياسة انجلترا كانت عدائية نحو الحكومة التركية وانها كانت تنتهز كل فرصة لتعقيد الامور في وجه الأتراك وانها اعترفت أن تستفيد من العقبات التي حالت دون الاتحاد الداخلي في تركيا .

ولا بد أن يدهش القارىء اذا علم ان روسيا وقت احتلالنا لأدرنة كانت ميالة اليها كثيراً . وقد قضيت وقتاً طويلاً للوقوف على الاسباب التي حدثت بروسيا أن تعمل بهذه الطريقة العلمية ضد مصالح بلغاريا .

فلما عهد إلي بوضع اساس صالح للتفاهم بين تركيا وبلغاريا وشرعت ذات يوم اجراءات المندوب البلغاري توشيف أشرت الى تلك العبارة وسألته رأيه فيها فقال : (ان الروس يعتبرون الاستانة ميراثهم الطبيعي فاول شيء يهتمون به هو أن تسقط الاستانة في ايديهم ومتى سقطت وجب أن يكون الى جانبها جزء كبير من الارض يكفل حمايتها . فلو ظلت أدرنة في ايدي الأتراك فإن الروس سيستولون عليها أيضاً فاذا ما ارادوا غزو بلغاريا فسيكون لجيشهم المدى الواسع للناورة .) وقد ظهر لي ان هذا التفسير معقول ومقنع .

وكانت فرنسا ضمن من عارض في استردادنا لأدرنة لأن السياسة الفرنسية كانت خاضعة للسياسة الانجليزية . فارسل السفير الفرنسي الى الباب العالي مذكرة شفوية أعرب فيها عن عدم موافقة الحكومة الفرنسية على زحف الجيش التركي وفي الوقت نفسه اندفعت الصحف الفرنسية الى استهجان المشروع بأشد لهجة . ولكننا والله الحمد تمكنا من احتلال أدرنة برغم كل هذه العقبات وفي

النهاية اضطرت بلغاريا ان تعترف بالامر الواقع في معاهدة الاستانة .

(الحكومة الموقفة في تراقية الغربية)

فلما زحف الجيش على أدرنة أصدرت الحكومة مذكرة اكدت فيها بصريح العبارة بأن الجنود لا يعبرون المارتيزا . ولكن بالرغم من هذه الحقيقة تمكن بضعة اشخاص بما لهم من النفوذ الكبير في الجيش من اقناع الحكومة وهيئة اركان الحرب بأن ذلك الوعد ليس في أوانه وحملوها على أن يغمضا اعينهما عن اعمال تلك الهيئة غير الرسمية المسماة (التشكيلات المتخصصة) وبهذه الوسيلة اصبحت يد تلك الهيئة مطلقة في ضفة النهر البعيدة فنجحت تلك التشكيلة بواسطة الزحف السريع مع حسن القيادة في احتلال تراقية الغربية باسرها الى حد سهل قره صو .

أما تراقية الغربية فاقليم شاسع يحتوي على قضائي - اورطه كوي وكيريديا علي وسنجقي دوده أعاج وكوميلجينه وولاية أدرنة وبيدين ٨٥ في المائة من سكانها بالدين الاسلامي . وكان زعيم تلك التشكيلة المتخصصة التي احتلت ذلك الاقليم سليمان بك العسكري الذي توفي في ذلك الحين . واما اركان حربه فكانوا الصاغ جركس رشيد وازميرلي أشرف واخاه سامياً وفهمي بك (الذي مات) وآخرين .

فدعا سليمان بك العسكري أعيان المسلمين الى عقد مؤتمر وهذا أعلن انشاء حكومة اسلامية موقفة في تراقية الغربية وجعل عاصمتها مدينة كوميلجينه وعين رئيس كوميلجينه المشترك رئيساً للحكومة الجديدة . ووضعت القوات المسلحة تحت تصرف سليمان بك العسكري .

وقد ظل نظام الاقضية الذي كان على عهد الحكم التركي معمولاً به وعين لكل قضاء رئيس وقائد للجيش . أما رؤساء الاقضية فكانوا تابعين لرئيس

الحكومة الموقفة بينا القواد المحليون كانوا يتلقون التعليمات من سليمان بك
العسكري . وقد كان هذا الرجل أدارياً نشيطاً لولا أنه كان على شيء من صلابة
الرأى وشدة التفاؤل .

وقد عاد علينا مشروع تراقية الغربية هذا - الذى ندين بتحقيقه لذلك
الرجل الممتاز ذو الشجاعة النادرة والاخلاص المتناهى - باعظم الفوائد فى
مؤتمر الاستانة ثم عندما جاء دور البحث لوضع أساس التحالف التركى
البلغارى فيما بعد .

ثم انحلت هذه الحكومة الموقفة فى منتصف شهر سبتمبر بعد أن لبثت
مدة شهرين وذلك بناء على القرارات التى وضعت فى مؤتمر الاستانة . ولم
يكن حلها إلا بعد مصاعب كثيرة .

فقد أراد بعض زملاء سليمان بك العسكري بالرغم من تعهدات حكومة
الاستانة ان تظل (الحكومة الموقفة) باقية بل فكروا فى الالتجاء الى السلاح
لمقاومة الاحتلال البلغارى . وكانت الحكومة التركية وعدت بلغاريا من جهة
اخرى أن تتدخل لتحتل جنودها اقليم تراقية الغربية بلا مقاومة . وفى مقابل
ذلك منحت بلغاريا مسلمي تراقية الغربية امتيازات قانونية واسعة وتعهدت
بألا يكونوا عرضة للاعمال الوحشية أو الانتقامية . ووعدت أيضاً باعلان
العفو العام فى الحال .

فمقاومة المسلمين بالسلاح للاحتلال البلغارى لم تكن لتعود عليهم
بالخسران فقط بل كان يحشى معها ضياع تلك المزايا السياسية والاقتصادية
العديدة التى احرزناها لهم .

ولما نئس سليمان بك من التغلب على معارضة زملائه ارسل الى الاستانة
الخطاب التالى :

(إذا لم يستطع جمال بك حاكم الاستانة العسكري الذى يشق فيه زملائى

والذي يمكنه أن يستعمل نفوذاً أديماً عظيماً عليهم أن يحضر هاهنا في الحال ليشرح خطة الحكومة وتعهداتها فلا بد من أن تصطدم الجنود البلغارية التي تزحف الى تراقية الغربية بالمقاومة المسلحة . واذن لا مفر من سفك الدماء . وعند وصول هذا الخطاب الى الاستانة بخمس ساعات حضر سليمان بك العسكري شخصياً الى العاصمة . وبعد اجتماعه بوزير الخارجية ووزير الحربية ووزير الداخلية تقرر أن أذهب بنفسى الى كوميلجينة واسكتش لاقنع الضباط بنظرية الحكومة . وفي الوقت نفسه اخطرنا الحكومة البلغارية بحقيقة الحال بواسطة توشيف الذي كان قد عين مندوباً وكان موجوداً في الاستانة . فطلبنا الى توشيف أن يرسل أمراً الى قائد الفرقة المكلفة باحتلال تراقية الغربية بالأبداً يبدأ أعماله العسكرية قبل انفاذ كل وسائل الاقناع مع (الحكومة المؤقتة) أي أن يصبر ريثما تصل اليه انباء معينة منى . ثم غادرت الاستانة وسافرت عن طريق أدرنة وديموتيكاً ودهده أغاج الى كوميلجينة واسكتش . وفي اليوم التالي قابلت سليمان بك العسكري وحادثت قواد القوات الوطنية . فسوينا كل الشروط التي يسير عليها الاحتلال البلغارى ثم ارسلت هذه الشروط رأساً الى القائد البلغارى فقبلها بأسرها وبذلك بدأ الاحتلال وبعد اسبوع عدت الى الاستانة .

(مؤتمر الاستانة)

بعد استردادنا أدرنة ارسلت بلغاريا التي ألقت نفسها وحيدة فريدة المسيو ناشيفتش الى الاستانة يستعلم بطريقة شبيهة بالرسمية شروط الصلح التي تبيل لمنحها . وكان ذلك الهرم الوقور - وهو من أنصار ستامبولوف من اقدم المتشيعين واكثرهم ميلاً لفكرة الوصول الى التفاهم بين بلغاريا وتركيا . وبعد عدة مباحثات شبيهة بالرسمية تبين لنا أن ذلك السيد ليس لديه تفويض تام

باجراء مفاوضات الصلح وما هو الا قليل حتى حضر الى الاستانة وقد بلغارى لبدء مفاوضات معاهدة الصلح بين تركيا وبلغاريا . وكان الوفد بزعامه القائد سافوف وبعضوية الميسو توشيف وناشيفتش . أما الوفد التركي فكان برئاسة طلعت بك وعضوية تشوروك سولون محمود باشا وخليل بك . والتحق بالوفد البلغارى لجنة استشارية مكونة من الخبراء العسكريين والماليين والقانونيين كما التحقت بالوفد التركي لجنة مثل هذه ولها مثل اختصاصاتها فعينت أنا وعصمت بك (1) البكباشى بهيئة اركان الحرب مستشارين عسكريين . فعهد الوفدان المنوطان بتعيين الحدود الينا بوضع التفصيلات . ويجدر أن اذكر هنا انى بذلك أقصى جهد لابقى لتركيا ديموتيكاً مع قطعة كبيرة من الارض وراءها واحصل على عدة حقوق لمسلمي تراقية الغربية وخصوصاً الاتراك الذين توطنوا فى بلغاريا .

(المعاهدة الدفاعية الهجومية)

(بين تركيا وبلغاريا)

وقد أظهر أعضاء الحكومة البلغارية روح التسامح الذي يستحق الإعجاب وبينما أنا أبحث عدة شؤون مع طلعت بك فى بدء المؤتمر الثالث اذا بالقائد سافوف التفت الينا قائلاً : (لنسرع ايها السادة بانجاز أعمالنا لننتقل الى بحث شؤون أخرى اكثر أهمية . فانى لم آت هنا للساومة فى عدة امتار من الارض أو فيما اذا كان من الضروري أن تبقى بيد تركيا أو بيد بلغاريا . فان لمهمتى ارتباطاً بمشروع خطير كان تحقيقه امنيته العظمى خلال السنوات العديدة السالفة واعنى بذلك عقد معاهدة تركية بلغارية . وقد جئت الى هنا لتحقيق المشروع) .

(1) هو نفس عصمت باشا بطل الاناضول . (المعرب)

فهو المنسوبان البلغاريان الآخران رؤوسهما موافقة له ولما كنا نعرف أن القائد طبعه المساومة لم نعر كلباته اهتماماً كبيراً وجعلنا نحاول عند وضع شروط الصلح أن تنص بقدر استطاعتنا على عدة مزايا وفي النهاية اذركنا غايتنا ولما قاربت المؤتمرات دور الانتهاء عاد القائد بشكل اوضح الى مسألة المعاهدة والمزايا المتبادلة التي تعود على كلا الطرفين اذا طبقت حرفياً فوافق سعيد حليم باشا وطلعت بك وخليل بك عند ختام مؤتمر الصلح على أن أصبح القائد سافوف الى جزيرة الامراء وهناك نضع النصوص الاساسية لمعاهدة هجومية دفاعية بين تركيا وبلغاريا .

وخوفاً من اثاره الشكوك تقرر أن تعلن ان القائد الذي اضناه التعب من جراء الحروب البلقانية - طلب الى الحكومة التركية أن تسمح له بالاستشفاء زمناً قصيراً في جزيرة الامراء وانه سينزل في احد فنادق تلك الجزيرة ضيفاً على الحكومة .

وتقرر أيضاً أن أذهب ذات يوم الى الجزيرة وادعو القائد لتناول الغداء في منزل نجمي الدين ملا ومن ثم نسمح بعد الغداء الى احدي الحجر المنعزلة ونبحث الاساس لعقد معاهدة التحالف .

وقد نفذت هذه الاجراءات وشرعنا مع القائد سافوف في وضع الهيكل الذي تقوم عليه معاهدة هجومية دفاعية بين تركيا وبلغاريا .

وبعد بضعة أيام ذهبنا ذات ساعة الى منزلي في جهة شيشلي لبحث المواد المختلفة الواردة في مسودة المعاهدة وادخال التعديلات اللازمة ووضع صيغتها النهائية . وكان حاضراً عن بلغاريا القائد سافوف والمسيو توشيف بينما أنا وطلعت بك وخليل بك مثلنا تركيا .

أما المعاهدة الدفاعية فتلخصت في هذا المبدأ وهو : (اذا هاجمت أحد الطرفين المتعاقدين دولة أو اثنتان من دول البلقان فعلى الطرف الثاني أن ينهض

بلا شرط ولا قيد لمساعدته بكل ما لديه من الموارد .

وأما الهجومية فقضت : (انه إذا قام أحد الطرفين المتعاقدين بعد موافقة الطرف الثاني بمهاجمة إحدى دول البلقان وهاجمته في أثناء القتال دولة أخرى فعلى الطرف الثاني ان يقدم كل المساعدات اللازمة . أما إذا اضطر أحد الطرفين المتعاقدين الى اعلان الحرب على دولة واحدة من دول البلقان فعلى الثاني أن يتبع سياسة الحياد الودي نحوه) .

أما من حيث المزايا الارضية التي يمكن الحصول عليها في حرب مشتركة فقد تم الاتفاق على النقطة الآتية : (اذا استولت بلغاريا على قوله ودراما فتكون هذه أعاج لنا . واذا مدت بلغاريا حدودها الى نهر ستروما فتحصل على موناستير واورشيدا من جهة واسكوب من جهة أخرى فتكون لنا تراقية الغربية حتى وادي قره صو واذا استولت بلغاريا في النهاية على سلانيك وكارافيريا وفودينا نأخذ خط ستروما فيجري خط حدودنا بين نفروكوب وأزليك بدلا من اتباع أعالي النهر الى مضيق كريسنا فنضم اليها قضاء رويدجوز السابق ونصل الى الحدود التركية البلغارية القديمة عند دوسيات) . وقد وقع الاتفاق كل من الفريقين مع ابداء التحفظ الآتي : وهو ان الاتفاق تعوزه الصيغة الالزامية بعد .

ثم عاد القائد سافوف الى صوفيا ليجت نصوص المعاهد مع رئيس الوزارة رادوسلافوف ووزير الخارجية غناديف وليحصل على موافقة الملك . وقد أكد لنا القائد انه سيرجع الى الاستانة بعد مضي ثمانية أيام أو عشرة على أكثر تقدير ومعه التعديلات البلغارية فيكلف المسيو توشيف (الذي عين مندوبا في الاستانة) بتسليمها اليها خفية . بيد أنه مضى على عودته عدة أسابيع ولم تصل اليها أنباء من صوفيا كما أن مستر توشيف لم يشر الى الموضوع بكلمة واحدة .

وبعد أن صادق الطرفان على معاهدة الصلح استؤنفت العلاقات السياسية مع بلغاريا وعين فتحي بك السكرتير العام للجنة سفيراً في صوفيا . وكان فتحي بك عالماً بمشروع التحالف التركي البلغاري ومؤيداً له . فلم يكذب يصل الى صوفيا حتى سأل الحكومة البلغارية ما هي حقيقة الموقف ازاء معاهدة التحالف التي تم الاتفاق عليها مع القائد سافوف في الاستانة . وبالرغم من محاولاته العديدة لم يظفر فتحي بك بجواب مرض في هذا الصدد . والحقيقة انه لم يمكن الوقوف على السر في مراوغة بلغاريا في هذا الامر مع انها كانت تبدي في خلال مؤتمرات الصلح رغبة شديدة في ابرام هذه المعاهدة .

ومن جهة أخرى وخلافاً لنصوص معاهدة الصلح والوعود الشفوية العديدة التي وعدوها فان البلغاريين شرعوا باستعمال القسوة مع مسلمي تراقية الغربية وحاولوا رد البومماكي عن الاسلام بالقوة . فاخبرنا فتحي بك بأنه لا يستطيع ازاء هذا اللون المعيب أن يبقى بعد ذلك في منصبه بصوفيا ولتسهيل المفاوضات حول هذه النقطة وانقاذ مسلمي تراقية الغربية من التعرض لقسوة البلغاريين من جديد وايضاً لبحث مسألة المعاهدة وتسويتها تقرر أن يجتمع طلعت بك وخليل بك من جهة ورادوسلافوف وغناديف من جهة أخرى في احدى المدن البلغارية . وقد وعد الوزيران البلغاريان في ذلك الاجتماع بمعاملة المسلمين معاملة حسنة وأن يرسلوا الى الاستانة في القريب العاجل مندوباً خاصاً ومعه اقتراح الحكومة البلغارية .

وبعد أيام وصل الى الاستانة في نوفمبر سنة ١٩١٣ الكولونيل جيكونوف نائب رئيس هيئة اركان حرب بلغاريا . وكان الكولونيل حاد الذكاء متوقد القريحة عالي التربية ولما أعلن توشيف نبأ وصوله قال انه يتمتع بشقة رادوسلافوف وحزبه وكنت وقتئذ وزيراً للناقصة بيد أننى - كما سمعت الاشارة الى ذلك - اشركت مع طلعت بك وخليل بك في المؤتمرات الخاصة

بالمعاهدة التركية البلغارية . ولما حانت ساعة الاجتماع ذهبنا الى دار الوكالة
البلغارية التي كانت في حي تقسيم . وهناك فوجئنا باقتراح بلغاري مدهش من
حيث علاقته بالمزايا الارضية وهو :

ما دام ذلك الجزء من مقدونيا الذي يمتد الى نهر ستروما وموناستير
واوشريدا لا يكون جزء من بلغاريا فلا يستطيع البلغاريون أن يمنحونا
ميناء دده أعاج كما انهم لا يوافقون على اعطائنا قره أعاج الا بعد استيلائهم
على سلانيك .

وبعد عدة اجتماعات بالكولونيل جيكوف وضعنا الشروط الاولية التي
يمكننا شكلا وعقلا قبولها كأساس للمعاهدة .

وكان التحالف مع بلغاريا على جانب عظيم من الاهمية لنا فقد كان من
المحقق أن تشب الحرب بيننا وبين اليونان عاجلا أو آجلا . ذلك بأن من
المستحيل أن نرضى بالتنازل لليونانيين عن جزر بحر ايجه مثل ليموس ومدله الي
وصاقس فكان من اللازم اذن أن نتخذ الاحتياطات الكافية بحيث لا تكون
بلغاريا في صفوف أعدائنا مرة اخرى اذا اندلعت السنة الحرب بيننا وبين
اليونان . ومن جهة اخرى قد كنا نعلم أن البلغاريين غير راضين عن الحالة
في مقدونيا ولكيما يحققوا أمانهم الوطنية فلا مناص لهم من التماس مساعدتنا
ولهذا أردنا أن نستفيد كل الاستفادة المستطاعة من هذه الحالة بحيث لا نعرض
انفسنا من جديد لخطر تحالف بلقاني آخر .

وإذا ما استطعنا ان ندخل رومانيا الى حظيرة التحالف التركي البلغاري
ان نضمن لها مثلا عدم هجوم بلغاريا ضد اقليم دوبروجا الذي اصبح بأسره
في ايدي رومانيا امكننا اذن ايجاد كتلتين متعارضتين في شقتي شبه جزيرة
البلقان الشرقية والغربية وبذلك نستطيع ان نطمأن على سلامتنا فلا نصبح
بعدها تحت رحمة اية دولة بلقانية صغيرة .

فمن هذه الوجة التي كان تحقيقها امانى حزب تركيا الفتاة كنا نعلق اهمية
كبيرة على مخالفة بلغاريا ولهذا السبب نفسه اردنا ان نصل الى تفاهم سريع .
ولما كانت احدى خواص السياسة البلغارية او بالاحرى احد الامور
البارزة في الطبع البلغاري ان استخلص كل فائدة مستطاعة ويستغل حتى اكثر
الحلفاء اخلاصاً وامانة تبين لنا ان الحكومة البلغارية ستطيل امد المفاوضات
الى اقصى حد على امل ان يأتي وقت نرى انفسنا فيه في خطر ومضطرين الى
توقيع المعاهدة في خلال اربع وعشرين ساعة وهى المعاهدة التي اصبحت
ناقصة بعد التعديلات والتغييرات العديدة التي ادخلت عليها وقد سعت بلغاريا
ان تبقىنا في هذا الموقف الى وقت اعلان الحرب العالمية وبعد ان تم الاتفاق
مع الكولونيل جيكوف على الشروط الاساسية لم اعد اهتم بالمسألة بتاتا .
وقد علمت فيما بعد ان البلغاريين لما استأنفوا المفاوضات معنا ومع
امبراطوريتي الوسط في خلال الحرب رغبة في الاشتراك معنا لم يعيروا مادة
من المواد المستثناة في الاصل اى اهتمام ولم يأبوا فقط ان تمتد حدودنا في
تراقية الغربية بل رفضوا فعلا بحث المواد الاخرى إلا بعد ان قبلنا منهم
ديموتسكا وقره اغاج ومصطفى باشا وقطعة ارض يزيد عرضها على كيلومتر
واحد على شاطيء المارتيز الايسر وبما انى سأتناول موضوع علاقتنا مع
بلغاريا متى جاء دوره في هذه المذكرات ارجيء الكلام عليه الآن .

(التحالف مع السوريين والعرب)

انى اعتقد أن في بلادنا - حتى بين شبابنا النابيين - نقر بمن قلبوا المسألة
العربية على جميع وجوهها ولحظوا الغاية الشاخصة امام ابصار اولئك الزعماء
المطالبين ببحث تلك المسألة . وسأبحث تلك المسألة بتفصيل متى حان وقت
الكلام في هذه المذكرات على اعمالى عندما عينت قائداً للجيش الرابع وسأقصر

بحثي الآن على بضعة امور حدثت اثناء وجودي في منصب الحاكم العسكري .
ففي عهد وزارة كامل باشا تمكن بعض العرب بحجة المطالبة بادخال
اصلاحات في بلادهم وبتصريح من الوالي ادهم بك من عقد مجلس وطني في
بيروت . وقد اشاروا فيه الى نوع الاصلاحات المطلوب ادخالها في سورية
وسائر الولايات العربية . فلما تولت وزارة شوكت باشا مقاليد الحكم حلت
ذلك المجلس نظراً الى التغييرات التي حدثت في الوقت نفسه في اشخاص الولاية
من جهة والى اعتبارها ان ذلك المجلس غير قانوني من جهة اخرى . واصدرت
الحكومة منشوراً قالت فيه : بما أن للبرلمان وحده حق وضع قواعد الادارة
الداخلية لا يمكن النظر في الامور التي قررها مجلس بيروت .

ثم اشتدت الدعوة للاستقلال في سورية وبيروت وتطورت تطوراً
اخذت معه سطوة الحكومة تتدهور حتى ان بعض الاشخاص بلغت بهم الجرأة
الى حد كتابة اسم الحاكم العام (ابو بكر حازم) في بطاقة ووضعها في رقاب
كلابهم . وفي دمشق ذهب شكري العسلي ومحمد كرد علي الى الوالي ماديني
عارف بك وطلبوا طرد السكرتير العام للولاية بدعوى انه لم يفهم نحوى عريضة
قدمت اليه مكتوبة بالعربية فطلب ترجمتها الى التركية . ولم يتركوا فرصة إلا
انتهزوها للتورط في مثل هذه الاعمال السخيفة .

وانبرت الصحف السورية على بكرة ايها اللطعن على الحكومة بأوقع
العبارات وملأت أعمدها بأحط الاهانات ضد الجنس التركي . وقد أصدر
الشيخ رشيد رضا من اهالي طرابلس الشام في مصر صحيفة ملاها بالعبارات
المثيرة ضد زعماء حزب الاتحاد والترقي جعلت كل من يقرأها عدواً لتركيا .
وبينما الحكومة مشغولة بالحرب البلقانية اذ صرف ضباط الفرقة العربية
المرابطة في جزيرة غاليبولي اهتمامهم الى تعصيد وسائل الابتزاز السياسي التي
قام بها الوطنيون العرب في الاستانة بدلا من القيام بواجبهم .

ثم ارادوا عقد مؤتمر عام من العرب بالرغم من رفض الحكومة
ولكن لما توقعوا أن تحول الحكومة هذه المرة بينهم وبين رغبتهم وتتخذ
الاجراءات القانونية ضد زعمائهم قرروا بعد موافقة - أو بالاحرى بعد
اغراء الحكومة الفرنسية - أن يجتمع المؤتمر في باريس وطلبوا في منشورهم
الذي اذاعوه في سائر انحاء البلاد العربية ارسال مندوبين الى المؤتمر .

وكان مدبروا هذه الحركة عبد الحميد الزهراوي - مبعوث حماة في ذلك
الوقت - وعبد الغنى العريسي - صاحب جريدة المفيد البيروتية - وعبد الكريم
الخليل رئيس النادي الادبي . وبهذه الطريقة وتحت الرعاية الفرنسية غير
المؤتمر شكله ودستوره واستقر في الازهان وقتئذ ان تدخل فرنسا في
سورية أصبح قريباً .

ولم أعبا حينذاك في هذه المسائل العربية . بل كان كل اهتمامي أن يعرف
الملا أن الدسائس الاجنبية تبذر بذور الشقاق بين عنصرين اسلاميين كبيرين
وهما العنصر التركي والعنصر العربي .

ورغبت أيضاً أن نلجأ الى بعض رجال العرب ذوي الخيئات الكبيرة
من نعتمد على وطنيتهم وحماسهم الديني لينبؤنا عن المطالب العربية التي يمكننا
أن نقبلها من دون أن نعرض المصالح المشتركة ووحدة العالم الاسلامي للخطر
ثم نتخذ بعد ذلك الاجراءات اللازمة لتنفيذ تلك الاصلاحات : ولحسن الحظ
كان هذا رأى الحكومة أيضاً فارسلت الى باريس مدحت شكري بك وآخرين
لمفاوضة الزعماء العرب الذين عقدوا المؤتمر على أمل ايجاد قاعدة للتفاهم .
وقد التأم المؤتمر بالفعل ولكن نظراً لأن اجتماع مدحت شكري بك وزملائه
بالزعماء العرب اكسب المسألة صيغة أخرى انحل المؤتمر بعد أن بسط
لشكري بك بعض امانيه الغالية .

وجاءني طلعت بك ذات يوم في دار الحاكم العسكري فاخبرني اننا

مدعو ان لزيارة الشيخ عبدالعزيز جالوش يوم الجمعة المقبل على أمل ايجاد قاعده للتفاهم مع العرب . وسنرى رئيس الجمعية العربية السرية السياسية وبما أننى كنت من اكبر المشجعين لايجاد مثل ذلك التفاهم ونظراً لخبرتى العظيمة بالشؤون العربية حينما كنت حاكماً عاماً فى بغداد قد قررت الحكومة أن اشترك فى ذلك الاجتماع .

وفى اليوم المحدد ذهبت الى الاجتماع . فبرز لنا شخص قصير القامة لا يزيد عمره على الثلاثين ربيعاً اسم اللون ذو عينين واسعتين براقتين تدلان على الذكاء والاقدام . هذا هو عبد الكريم الخليل مندوب جمعية العرب السرية السياسية . ثم بدأت المفاوضات بعد الغداء .

فقلت له يخيل الى ان جل مرادك أن يقبل بعض أفراد العرب عندة وظائف رئيسية فى الاستانة ثم قلت لى نفسى مكسباً أن الاصلاحات العربية اذا حكمنا عليها بأراء اولئك الزعماء لا يكون لها معنى البتة سوى قضاء لباثة اشخاص معينين علقمت نفوسهم بالمناصب والابهة . ومع ذلك شرعنا فى وضع اتفاق يتضمن القواعد الآتية :

أولاً تسليم الاعمال الادارية الى السلطات الوطنية طبقاً للقانون الخاص بإدارة الولايات .

ثانياً : يكون التعليم الثانوي والابتدائى فى المدارس الوطنية العربية .
ثالثاً : تستعمل اللغة العربية فى المدارس العربية بعد اجراءات قانونية معينة
رابعاً : أن تضاف الصيغة العربية لاعلانات الحضور للهاكم كما تضاف الى الاحكام المدنية والجنائية .

خامساً : تكون العرائض المقدمة للسلطات الرسمية باللغة العربية .
سادساً : يعين بعض العرب فى مجلس الاعيان ومجلس الدولة ومحكمة الاستئناف ومشيخة شيخ الاسلام ودار الافتاء .

وقد اجتمعنا بعد الكريم الخليل وعبد الحميد الزهراوي مراراً في فندق
كروكويجي بيرا وبحثنا النقاط السابقة طويلاً . وقد نفذت هذه الاصلاحات
بأسرها بعد أن وافقت عليها الحكومة . ولكن طلعت بك وحده كان معارضاً
في تعيين عبد الحميد الزهراوي في مجلس الاعيان نظراً لأن كثيراً من العرب
كانوا يعدونه متقلباً . وكثيراً ما حضر الي عبد الكريم وسألني أن اسوي
الامر مع طلعت بك . وفي النهاية تحققت رغبة الزهراوي ولكن نظراً لأنه
كان طامحاً الى منصب شيخ الاسلام لم يقنع بتعيينه في مجلس الاعيان .

ومن ذلك الحين فصاعداً أصبحت لعبد الكريم حيثة كبيرة واتحل
لنفسه لقب (مفتش عام الجمعية اللامركزية السورية) ولكنه لم ينجح في
الانتخابات لمجلس النواب برغم مساعي اعوانه وفاز عليه مرشح حزب
الولايات العربية .

وبما اني الآن بصدد المسألة العربية لا استطيع اغفال امر اعتبره على
جانب عظيم من الاهمية فقد كان انور باشا وزيراً للحربية وكنت وزيراً للنافعة
وكان عزيز علي بك المصري البكباشي في هيئة اركان الحرب . فلم يستطع
الاخير - وهو من أشد الناس طمعاً واكثرهم غروراً - أن يرى نفوذ
عبد الكريم الخليل وعبد الحميد الزهراوي يفوق نفوذه عندما كانت المسألة
العربية معروضة على بساط البحث . فوصلت به الجرأة الى أن اعلن أن العرب
لا يقنعون بالاتفاق السابق وانهم انما يطلبون الاستقلال الداخلي وان يكون
لهم جيش خاص وان تكون الحكومة ثنائية بينهم وبين الاتراك على انموذج
الملوكية الثنائية في النمسا والمجر ولو أن العرب في الواقع ذهبوا الى ابعد من
المجريين في طلبهم أن تكون لغة جيشهم الرسمية هي اللغة العربية .

ثم اضاف الى ذلك قوله (فاذا كانت هذه هي امانى العرب فلماذا لا
يعملون لتحقيقها ؟ لقد ارادوا الحصول لانفسهم على مراكز سامية ولذلك

قنعوا بالاصلاحيات التافهة المنوي ادخالها ليسوا إلا خوذة ابلادهم ولسوف
يجزون الجزاء العادل فيما بعد) .

وكننت تعرفت بعزيز علي بك هذا وقت تخرجه من المدرسة الحربية
حوالي سنة ١٩٠٤ برتبة يوزباشى . وقد أظهر همة شديدة في مطاردة العصابات
البلغارية في أفضية بترك وعثمانية ومقدونيا . واشترك فيما بعد في قتال العصابات
اليونانية والبلغارية والالبانية وانضم قبل اعلان الدستور الى جمعية الاتحاد
والترقي فخدمها خدمات جميلة .

ولما زحف الجيش على الاستانة بعد الثورة الرجعية في ١٣ أبريل - نيسان
كان عزيز بك على رأس احدى فصائله فهاجم ثكنة ثوبهوس بعد الاستيلاء
على كبرى (جسر غلطة) واظهر مهارة عظيمة في مطاردة الثائرين . ولم اكن
الى تلك اللحظة أعرف ان له صلة بالعرب وايضا قابلني - قابلني بكل وقار
وخاطبني بلهجة الادب .

وذهبت مرة الى الاستانة في غضون وجودي في منصب حاكم أطننة
فقابلت عزيز علي بك فتبادلنا بضع ملاحظات عن (الخطابات الشهيرة من
بيروت وسورية) التي نشرها احمد شريف بك مراسل جريدة اقدم . ولما
ذكرت له ان مثل تلك الخطابات تثير عواطف مضرة بالوحدة العثمانية وسلطة
الخلافة الاسلامية في الولايات العربية - أجابني عزيز بك بلهجة الكبرياء
قائلاً : (ان العرب لعلى حق فليت شعري ماذا صنعتم ايها الاثراك لنا ؟ سوى
سعيكم في افنائنا واهانتنا واحتمقارنا - حتى تتوقعوا المعاملة الودية من جانبنا
هل نسيتم انكم في الاستانة اذا ناديتكم كلباً ناديتموه بلفظة (عربي ! عربي !)
وان اردتم أن تصفوا شيئاً عويصاً غامضاً - قلم انه - (يشبه شعر العرب)
وكأنكم لم يكفكم كل هذا فتعمدتم في اليوم التالي لاعلان الدستور اثاره خواطر
العرب ، أفلم تعينوا في الجيش السوري مشيراً من سلالة هولاكو ورجلايحتقر

بغداد والعراق - تترياً لا خلاق له ورسول الجحيم؟ انكم تعلمون جيد العلم
كيف يسخط العرب على التتر فليس ثمة معنى لتعيين عثمان باشا لقيادة الجيش
الخامس إلا اذلال العرب) .

فعر تني الدهشة لسماح هذه السخافات من رجل نابه كعزيز بك وعزوت
قذفه في عثمان باشا الى حقد شخصي قد يكون ناشئاً عن خلاف قام بينهما وهما
في مقدونيا . اذ في ذلك الحين كان عزيز بك يعمل في احدى المصالح العسكرية
في كوتشانا . وبينما عثمان باشا حاكم جبهة اسكوب كان قائماً باعمال التفتيش اذ
خاطب عزيز بك بلهجة قاسية . ولما كان من عادة الباشا التهكم في الخطاب أجابه
عزيز بك جواباً حاداً . فذهل الباشا لصدور مثل هذا الرد علناً فقرر احتفاظاً
بكرامته استعمال الشدة مع عزيز بك واصدر أمره بالقبض عليه . ومنذ ذلك
الحين تولدت البغضاء في نفس عزيز بك ضد عثمان باشا .

فاجبت عزيز بك بأن الاتراك وخصوصاً اترك الاناضول ينظرون
بعين الاكبار الى العرب وان من الخطأ الارتباب في ذلك لمجرد ترديد بضعة
أقوال مألوفة . وان اشخاصاً مثله متعلمين اذا سمحوا لانفسهم بالتأثر بالضغينة
الشخصية كانت النتيجة اذن أن يصبح الامر فوضى وفي ذلك الخطر كل الخطر
على العالم التركي .

وبعد تلك المحادثة ارسل عزيز بك بناء على طلبه الى اليمن للالتحاق
بجيش عزت باشا . وقد علمت فيما بعد انه اكثر من الظنطنة بأمانيه العربية
وكان سيباً في مشاغب كثيرة لعزت باشا كما اني علمت ايضاً انه ذهب في غضون
الحرب الطرابلسية الى سيرانيةمة وقام هو وانور ومصطفى كمال بك بدفاع مجيد
عن مدينة بنى غازى .

ولما كنت على يقين من ان لعزير بك هذا حيثية كبيرة بين ثوار العرب
كان جديراً بي أن الفت النظر بصفة خاصة الى خدماته واغلاطه التي لها ارتباط

بماضيه . فقد نمي الي انه لما كان بطرابلس لم يطق أن يرى انور بك رئيساً له
فبذل كل ما في وسعه لجعله مبعوضاً لدى الضباط العرب .

ولكن أنور لم يعبأ بكل ذلك . ولما أبرمت معاهدة الصلح مع ايطاليا
وعاد انور الى تركيا للاشتراك في الحرب البلقانية سلم القيادة لعزير بك
واوصاه بتكوين حكومة عربية .

بيد أن عزير بك ما لبث أن نفر منه سيدي احمد الشريف السنوسي ثم
ضباط العرب فاعتزم العودة الى الاستانة . ولم يكن له في ذلك الوقت مأرب
خاص سوى التظاهر بالعداوة لانور في حضرة الضباط الاتراك واصدقائه
الاقدمين وبإثارة الخواطر ضد الاتراك بحضرة الضباط العرب .

ولما عين أنور في النهاية لوزارة الحربية اظلمت الدنيا في عيني عزير بك
فانه لم يستطع صبراً على أن يبقى وهو الذي كان زميلاً لانور في المدرسة الحربية
وقام بأعمال نافعة وأظهر قسطاً عظيماً من الوطنية بكباشياً بسيطاً في هيئة
اركان الحرب بينما منافسه صار وزيراً للحربية فادى به الى استنتاج هذه
النتيجة السيئة وهي ان اشتراكه في العمل مع الاتراك لم يعد عليه بالربح أو
يكسبه مجداً . اذاً (فلتحميا الثورة العربية !!) .

وقد بلغت دسائس عزير بك مبلغاً خطيراً حتى نفذ صبر انور باشا .
فاصدر امره بالقبض عليه وارسله للمحكمة العسكرية بتهمة اختلاس (٣٠) ألف
جنيه سألها له انور قبل مغادرته طرابلس بصفتها من اموال الحكومة .

وما كاد يذيع نبأ القبض على عزير بك حتى علت الضجة بين الشبان العرب
في الاستانة وكنتم وقتئذ وزير العمل . فواصل اعضاء النادي العربي سعيهم
لدى الوزراء وارباب النفوذ . واتانى من ضمن الوفود وفد مكون من خمسة
من شبان بيروت ودمشق بزعامة الدكتور أسعد هيكر البعلبكي ورجاني ان
استعمل نفوذي لاطلاق سراح عزير المصري . وقد اكدوا لي ان اطلاقه

يؤثر تأثيراً حسناً في شبان العرب المتعلمين . وكانت وزارة الحربية ارسلت الحكم الى الباب العالي واقترحت أن تخفف الارادة الشاهانية حكم الاعداد الى السجن المؤبد وفي مساء اليوم الذي اذيع فيه عرض ذلك الحكم المعدل على جلالة السلطان للتصديق عليه اقيمت مأدبة فخمة في دار السفارة الفرنسية دعي اليها الوزراء وبعض السفراء الاجانب وكثير من اعيان الفرنسيين . وكنت أنا وأنور باشا من ضمن المدعوين فبعد الفراغ من العشاء انتقلنا الى غرفة الجلوس وخاض بعض الحاضرين همساً في مسألة الحكم على عزيز بك . فجاء إلي المسيو جورج ريموند المراسل الحربى جريدة الستراسيون وخاطبني قائلاً :
(سيدي القائد اذا حكم بالاعداد على عزيز بك لمجرد التشاحن واختلاف في الرأي بينه وبين انور باشا عندما كان في طرابلس فكل ما يستطيع ان اقول هو أن للقانون في هذه البلاد المقام الثاني بجانب العمل بالاهواء الدال على التعسف وقد بلغني ان التهمة الموجهة لعزيز بك هي اختلاس اموال عهد اليه بها للدفاع عن الوطن لتسلم بأنه من ثوار العرب وان آراءه تخالف آراء انور باشا ولكنه على التحقيق ليس لصاً . واني واثق من انك تستطيع انقاذ عزيز بك من العقاب الذي لا يستحقه .

وبعد جورج ريموند جاء عدد من اصدقائي الاتراك والفرنسيين من عسكريين وملكيين يسألونني التدخل لمصلحة عزيز بك ولم يكن من الصعب معرفة ما جال بخاطرهم من نظراتهم الى انور باشا (الذي كان موجوداً) فكأنها كانت تقول (ها هو الرجل الذي لا يتردد مطلقاً في اشباع سورة الانتقام بالفتك بضابط جليل قاتل معه في طرابلس جنياً الى جنب !) .

فادركت في الحال ان الرأي العام كان اشد سخطاً على انور باشا منه على عزيز بك . فاصبح من الواجب علي أن اساجلة البحث . وفوق ذلك رأيت ان عزيز بك من اشجع الثوار العرب واكثرهم امانة . وقد خطر لي أن من

العبث ان نعلن عفواً عاماً عن جميع الثوار الآخرين ونحرم عزيز بك من الانتفاع به . فلهذا السبب اهتممت حقيقة بانقاذه . فلما عدت الى الدار كتبت الخطاب الآتي لانور باشا :

(عزيزي انور)

بالرغم من البيانات العديدة التي جمعتها المحكمة العسكرية ضد عزيز بك وبالرغم من ان الحكم صدر عليه فعلاً فان الرأي العام غير ساخط إلا عليك . فالسخط عليك بهذه الطريقة يحدث لك ضرراً اكثير بكثير من الضرر الذي يلحق عزيز بك من جراء سجنه بضعة سنين . فارجو أن تبذل جهدك في الحصول على العفو الشاهاني عنه وانا ابعده عن الاستانة على ألا يعود اليها .

وفي اليوم التالي اخبرني انور باشا تلفونياً ان جلالته أصدر عفوه عن عزيز بك ثم حضر الي اخوه وقد وصله الخبر ومعه جورج ريموند يشكراني فاخبرته بوجود سفر اخيه الى مصر في الحال وعدم التدخل مطلقاً في السياسة التركية .

وقد علمت فيما بعد أن عزيز بك بالرغم من حلفه بشرفه وضع نفسه تحت تصرف الشريف حسين في خلال الحرب العالمية عندما ثار ضد الخلافة وساق عمداً العالم الاسلامي الى الموقف المزري الذي يقفه اليوم !!

(البعثة العسكرية الالمانية)

لا أظن أن هناك رجلاً واحداً في اوروبا وامريكا يعرف حقيقة الظروف التي جاءت بالبعثة العسكرية الالمانية الى الاستانة لتنظيم الجيش التركي . وتدل العبارات العديدة التي ينشرها اعداؤنا على ان وصول البعثة كان في ابان وجود انور باشا في وزارة الحربية مما تعتبره جريمة لا تغتفر . ولكنني سأسجل الحقيقة هنا .

فان شوكت باشا لما رسخ في ذهنه استحالة هزيمة البلغاريين وامضى شروط الصلح التمهيدية التي وضعت في لوندرا والتي اعطتنا خط اينوس ميديا كفاصل بيننا وبين بلغاريا وكذلك اعطتنا جزيرتي امبروس وكينيدوس اعتراف حشد الجنود الوطنية وتحويلها لادراك الاصلاح الداخلي هذا اذا كان يراد ألا تزداد البلاد - وقد كانت متعبة - ضعفاً على ضعفها وعلى هذا خول مندوبينا حق امضاء الصلح التمهيدي .

وكان يرى اننا في حاجة قصوى الى الاموال ولذلك فكر في عقد قرض كبير من احدى الدول العظمى . فالتجأ اولاً الى المانيا ولكن هذه اخبرته ان حالة سوق النقود في برلين لا تسمح بعقد قرض تركي جديد ونصحت له بالأى يعتمد بحال من الاحوال على المانيا في المسائل المالية و اشارت عليه بأن يلجأ الى فرنسا .

فقدرت الحكومة بناء على ذلك اتباع تلك النصيحة وارسلت جاويد بك الى باريس . ولم يكن جاويد بك من اعضاء الوزارة ولمكننا كنا ننظر اليه باعتبار روح الجهود التي يقوم بها حزب الاتحاد والترقي في سبيل التنظيم في الدائرة السياسية المالية فعين رئيساً للوفد العالي الذي نيط به بدء المفاوضات في المواد المالية الواردة في الصلح التمهيدي .

ولكن شوكت باشا رأى ان مسألة القروض الاجنبية لا تسكني وحدها لتوطيد مركز الدولة المالي ولهذا انصرف اهتمامه الى الغاء الامتيازات المالية وهي المسألة الوحيدة التي يمكن بها تنظيم الميزانية من جديد . واعطيت التعليمات لجاويد بك بالسعي لهذا الغرض .

وانتقل شوكت باشا بعد ذلك الى تسوية بعض مسائل كانت سيياً في اختلاف الرأي بيننا وبين حكومات اجنبية معينة و اخص بالذكر حكومتى روسيا وانجلترا .

ومن اهم تلك المسائل في ذلك الحين مسألة الحدود الايرانية وهي مسألة
قصدت انجلترا وروسيا أن تؤولاها تأويلا غريباً . فاهتم الباشا شخصياً يبحث
المسألة بحذافيرها وطلب الى الحكومتين ان تحذوا حذو تركيا فتعينا لجننتين
لتقرير الحدود وترسلاهما الى مكان النزاع .

ثم التفت الى مسألة تنظيم الجيش والاسطول . وكان لدينا فعلاً بعثة بحرية
انجليزية فاتصل شخصياً برئيسها وطلب اليه التعجيل باعادة تنظيم الاسطول
ومن حيث تنظيم الجيش فاني اقص هنا الحقائق والتفصيلات كما بسطها امامي
شوكت باشا شخصياً .

فلقد اعتاد الباشا في أبارت وزارته أن يقضى الليل بأسره بل وينام في
الباب العالي . ولما كنت انا أيضاً اقضى الليل في دار الحاكم العسكري كان
يخاطبني تليفونياً بين آن وآخر في المساء واحياناً كنت اذهب اليه متى فرغ
من اعماله المتعبة طول اليوم . وفي غضون تلك الزيارات كان يدي لي بافكاره
وخططه ويستطلع رأبي .

وفي ذات ليلة قال : (اني اظن ان كل ما عملناه حتى الآن لاعادة تنظيم
الجيش لم يكن سوى مجرد ترفيع . وما كان اختيارنا لمن جئنا بهم لاصلاح
الجيش سواء في العهد الحميدى أو في عهد الدستور الا اختياراً عرضياً لا على
اساس معين . فلم تفكر مطلقاً في استحضار بعثة جديدة ذات برنامج حكيم كاف
واف وان ينتخب اعضاؤه بنسبة مقدرتهم على تنفيذ ذلك البرنامج .

انظر الى اليونانيين مثلاً : لقد كانوا أمهر منا عندما عهدوا للانجليز
بتنظيم اسطولهم وللفرنسيين بتنظيم جيشهم كما ان فنزيلوس احتفظ لنفسه
بوزارتى البحرية والبحرية . وقد آباد بلا رحمة كل من جرأ على اقامة أى عقبة
في سبيل البعثتين كما انه لم يأبه مطلقاً باتمقادات خصومه السياسيين وهو دائم
الاتصال برئيس البعثتين ليصدع بكل ما يطلبان . فكانت نتيجة ذلك وجود

الجيش اليونانى الذي عرفنا كيف نحترمه فى غضون الحرب البلقانية والاسطول
الذي لا يمكن أن يقاس به الاسطول الذي كان لليونان فى خلال الحرب
التركية اليونانية .

وعندى أن اجل خدمة قدمها فنزيلوس لوطنه هى تنظيم القوات المسلحة
ومواجهة السياسة بحجة دامغة . بل بالحجة البالغة الوحيدة لتحقيق الامانى
الوطنية وانى اريد أن اقوم لبلادي بمثل هذه الخدمة . فلدينا الآن فعلا بعثة
بحرية انجليزية وسأسعى للانصال برئيسها فأسأله عما يطلب لضمان نجاح بعثته
واقفده فى الحال .

(أما من حيث الجيش فلا ينبغي أن نتردد الآن فى انتهاج الاساليب الالمانية
فإن اكثر من ثلاثين عاماً يعلم المعلمون الالمانيون جيشنا كما ان جميع ضباطنا تدرّبوا
على القواعد الالمانية ولجيشنا دراية تامة بروح التدريب والتربية العسكرية .
فمن المستحيل تغيير ذلك كله الآن . وعلى ذلك قد اعترفت استحضار بعثة
عسكرية المانية ذات سلطة واسعة واذا احتاج الامر عيّن قائداً المانياً بقيادة
أحد الفيالق التركية واولي الاعضاء الالمان وضباط الكتائب قيادة كل وحدة
فى ذلك الفيالق وبهذه الوسيلة انشئ فيلقاً يكون بمثابة النموذج للفيالق الاخرى
وعلى اعضاء وضباط كتائب الفيالق الاخرى أن يلتحقوا بهذا الفيالق المخصص
لمدة معينة لاتمام تدريبهم وزيادة تمرينهم . وسأطلب أن يصحب هذه البعثة
اخصائىون فنيون لتنظيم كل فروع وزارة البحرية وهيئة اركان الحرب
والمدارس الحربية والمصانع . ولما كنت اعتقد ان ليس ثمة احتمال لاشتباكنا
فى الحرب قبل مضى زمن طويل عزمنا على تخفيض الجيش بقدر المستطاع الى
العدد اللازم فى زمن السلم وبذلك نستطيع الاقتصاد الذي يمكننى أن اهدى
العالم التركي بجيش سيكون بالطبع قليل العدد ولكننه من جهة اخرى سيكون
على اتم نظام وتدريب . ومتى اندلعت السنة الحرب فليس من الصعب مضاعفة

عدد ذلك الجيش . واني الآن استطلع رأي الالمان في الشروط التي يطلبونها
لارسال مثل هذه البعثة وأرى الالقي ترك تحديد الشروط لهم) .
تلك هي حقيقة الظروف التي دعيت بموجبها بعثة القائد ليمان فون ساندرس
للحضور الى الاستانة للقيام بمهمة تنظيم جيشنا . فليس لانور باشا يد ما أو
علاقة مطلقاً بها .

وبعد انتقال شوكت باشا الى دار البقاء كان عزت باشا خلفه في وزارة
الحربية متشعباً بهذه الفكرة نفسها فحذا حذو سلفه في ابان وجوده بالوزارة
وطلب الاتفاق الخاص بالبعثة وصدق عليه . وفي يوم وصول الجنرال ساندرس
وبعثته الى الاستانة كان عزت باشا ينتظرهم في المحطة والحقيقة ان انور لم يتقلد
منصب وزارة الحربية إلا بعد وصول البعثة بستة اسابيع .

وكان انور باشا اول من اشار الى الصعوبات الواجب التغلب عليها
اذا اريد أن يعهد الى الفون ساندرس باشا بقيادة الفيلق الاول . فانه استحسن
جعل رئيس البعثة مفتشاً عاماً بدلاً من جعله قائداً لاحد الفيالق . وقد حدث
ذلك التغيير بناء على اقتراح انور باشا وحده لا طوعاً للضغط الفرنسي الروسي
الانجليزي كما ذاع وقتئذ .

وكنت يوم وصول البعثة الى الاستانة قائداً للفيلق الاول وبهذه الصفة
كانت بيدي السلطة العسكرية العليا في حالة الحصار . فبعد يومين طلب إلي تسليم
القيادة الى فون ساندرس ونظراً لاستحالة جعل قائد الماني حاكماً اثناء حالة
الحصار لجأنا الى وسيلة اخرى . وهي ان فائق باشا كان وقتئذ حاكماً فمقرر
تعيينه حاكماً للقلعة وتخويله سلطة قائد فرقه والاشراف على حالة الحصار . وعينت
موقتاً لاسباب سأشرحها فيما بعد وزيراً للنافعة . وقد صدر الامر الشاهاني
بهذا التعيين في اليوم التالي لوصول البعثة . وفي اليوم التالي ذهبت الى مركز
قيادة الفيلق الاول وسلمتها رسمياً للجنرال فون ساندرس .

واحسب ان هذه التفاصيل تقضى على افتراءات السفير مورجيتناه وفي صحيفتي ٤٤ و ٤٥ من مذكراته القائمة على معلومات غير صحيحة .

وكأنما كان وصول البعثة طليعة للحملات العنيفة التي حملتها علينا روسيا وفرنسا وانجلترا . أما الحجة التي جعلتها روسية في مقدمة اسباب احتجاجها فكانت تتلخص في انه (اذا عهد لضباط المانيين بقيادة الجنود المعينة للاحتفاظ بالبواغيز فمن المحتمل أن يزداد تحصينها وان مثل ذلك العمل الناشئ عن مجرد الارتياح والمقصود به روسيا بصفة خاصة معناه عزو أغراض غامضة الى تلك الدولة) .

وحذا الانجليز والفرنسيون حذو الروس . واحتج السفير الفرنسى وزميله الانجليزى بحجة السفير الروسى واندفعت صحافة البلدين لخدمة الصحف الروسية . وبهذه المناسبة أسأل خصومنا السياسيين هذا السؤال وهو (امثل هذه الوسائل نظهر انجلترا وفرنسا نياتهما الحسنة نحونا وهى النيات التي طالما طنطنوا بها صباح مساء) .

لقد اردنا تنظيم جيشنا فطلبنا الى المانيا أن تقوم بهذه المهمة . اننا وضعنا الخطة لادخال وتحقيق ذلك المشروع . وقد حضرت البعثة العسكرية الالمانية الى الاستانة وكانت النتيجة زيادة موارد الجيش الدفاعية وخصوصاً في البواغيز . على انه كان من المتوقع ان تعارض روسيا في المشروع لانها تعتبر نفسها الوارثة الطبيعية للاستانة وكانت تعتقد أنها ستستبكي يوماً ما مع تركيا في تطاحن مروع على مقربة من الاستانة . فهل كان عملها ذلك الذى يعتبر تدخلا في الشؤون الداخلية - لدولة مجاورة - يمكننا بدون موافقة انجلترا وفرنسه ؟ كلا ! أفلا يحق لنا أن نعتقد - خصوصاً لو تذكرنا ان العويل الافرئسى الانجليزى فاق العويل الروسى - ان الاتفاق الثلاثى كان وقتئذ اعتراف اعطاء روسيا الاستانة ؟ يا لله ! وانى لاحس بقشعريرة كلما تذكرت تلك

الايام . ولا يستطيع أن اصف المشاق التي قاسيتها في المناقشات العديدة التي دارت بيني وبين فوركور الملقق العسكري الفرنسي وبومبار السفير الفرنسي وبوب مستشار السفارة والقائد باومان مفتش الجندرية والمajor ساروا .
فقد ختمت المناقشة معهم ذات يوم بالعبارات الآتية :

(تأملوا ايها السادة كيف ان اعتقادكم غير معقولة ! انه لا حاجة بكم لأن تدعوا انكم تعترضون هذه الاعتراضات دون معرفة حقيقة الحال . انكم تعلمون كما تعلم ان لنا الحق في دعوة البعثة العسكرية الالمانية . اما كون الضباط الالمان اكفاء أو غير اكفاء لتنظيم جيش من الجيوش فهي مسألة جدلية لا علاقة لها بموضوعنا الحاضر لاننا نعتقد اعتقاداً جازماً في كفاءتهم ولهذا وقع اختيارنا عليهم . ولكل دولة من الدول ثلاث قوات مسلحة وهي الجيش والاسطول والشرطة . وقد عهدنا للامان بتنظيم الاولى وللانجليز بالثانية وللفرنسيين بالثالثة . اذن فلم النزاع ؟ اتريدون ان نعهد للروس بتنظيم جيشنا؟ اني اسألكم ان تنعموا النظر فيما يقوله الروس . انهم يقولون : (لو تولى الضباط الالمان قيادة الفيلق الاول لزادت تحصينات البواغيز زيادة كبرى) ومعنى ذلك هو اننا لو طلبنا الى انجليترا أو الى فرنسا اعطاءنا بعثة كهذه وعلى نفس الشروط فمن المحتم أن يعترض الروس الاعتراض نفسه لاني لا يمكنني أن اعتقد أن الضباط الانجليز أو الفرنسيين لو تولوا قيادة الفيلق الاول يفتحون البواغيز عمداً امام الجيش الروسي اذا اقتضى الحال لعمرى ان احتجاجاتكم هذه تبعث في نفوسنا الارتياب في حسن نياتكم نحونا !) .

ولما لم يكن في وسع اولئك السادة المجادلة في هذه الحقيقة ولم يستطيعوا الجواب اعترفوا ضمناً بخطئهم بأن قالوا : (اذن فاذا تنتظر ؟) تذكر اننا قبل كل شيء حلفاء روسيا فيتعين علينا تأييد مطالبها ! ومن جهة اخرى فالالمان أعداء لنا فيتعين علينا ايضاً أن نتخوف من كل ما يعملونه بل مع

افتراض عدم وجود الخطر فان واجهنا الوطني يحتم علينا مقاومة الالمان في كل ما يدعونه لانفسهم !

(تعييني وزيراً للنافعة)

(من منتصف كانون اول سنة ١٩١٣ - الى شباط سنة ١٩١٤)

(استلام الاعمال)

اتبعت وزارة الامير سعيد حليم باشا برناج وزارة شوكت باشا بحذافيره أي انها قررت اجتناب الارتباكات الخارجية بقدر المستطاع وتوجيه كل موارد البلاد للاصلاحات الداخلية . ولكن لم يكن معنى ذلك ان الامير ترك فرصة استرداد أدرنة تمر دون اتمامها . كما انه نجح في عقد معاهدة الاستانة مع بلغاريا ومعاهدة اثينا مع اليونان وفيما بعد معاهدة الاستانة الثانية مع الصرب التي اصبحت اكثر دول البلقان طمعاً .

ولكيما تضمن الوزارة نجاح الاصلاحات الداخلية تعين عليها أن تضع حداً للسائل التي ثار ثائرها بين آن وآخر نظراً للخلاف بين الاجناس مما هباً لدول البلقان الصغيرة فرصة الاحتجاج الشديد .

أما فيما يختص بالبلغاريين فبعد ضياع مقدونيا لم يبق للامبراطورية العثمانية سوى بضع قرى مبعثرة على خط الخطوط الشمالي لسنجق قره كليسة في ولاية أدرنة . وفي هذا الوقت بقى عدد من الاقراك موزعين في بضع جهات معينة من الاراضي البلغارية بالقرب من الحدود التركية . وقد اضيف الى معاهدة الاستانة ملحق معاهدة سرية وقعت عليه بلغاريا نصت على وجوب تنقل البلغاريين المقيمين في الاراضي التركية الى بلغاريا ونقل الاقراك الذين

في بلغاريا الى تركيا وقد تم ذلك التبادل بشكل ارضى الطرفين .

وكان اهم ما شغل بالنا في المسائل الخاصة بالجنسيات المشكلة التي اعترضتنا من جراء وجود عدد كبير من العناصر اليونانية موزعة على طول شاطئه . ولاية آيدين فلم يكن ثمة ريب في ان اليونانيين بعد انتصاراتهم السهلة في الحرب البلقانية واحتلالهم مقدونيا لغاية دراما من جهة واستيلائهم على الجزر الواقعة بالقرب من ساحل آسيا الصغرى (مدهلى وصاقس ولينوس) من جهة اخرى سيوجهون مجهوداتهم الى بسط نفوذهم على ولاية آيدين . فنعماً لوقوع مشاكل داخلية اذا اشتبكنا مع اليونان في حرب عاجلة أو آجلة (وهو امر لا مفر منه ما لم تحل مشكلة الجزر) فقد اقترحنا على الحكومة اليونانية استبدال هؤلاء الرعايا بالرعايا المسلمين الذين تخلفوا في مقدونيا اليونانية وارادوا الهجرة الى تركيا . ولم يكن فنزيلوس ميالا لهذا الاقتراح لانه كان بمثابة تخفيف لحدة المطامع السيئة التي كان يخفيها عنا .

ثم اخذت العواطف الوطنية تقوى بين القبائل التركية وبدأنا نحس النتائج وخصوصاً في ولاية آيدين حيث شرع مئات الالوف من مهاجري المسلمين الذين ذاقوا الامر من مظالم الصربيين والبلغاريين واليونانيين ففروا الى الامبراطورية العثمانية في الاصطدام باليونانيين المقيمين في تلك الجهة .

فاستنكرت الحكومة اعمالهم نظراً للصعاب التي لا بد أن تنشأ عنها فان الدول الاوربية التي اعتادت التمدق بالعواطف الانسانية متى كان التدخل ضد تركيا ظلم صامتات حيال فظائع اليونانيين والصربيين والبلغاريين الذين ذبحوا بطرق وحشية ما ينيف على خمسمائة الف من الاتراك معظمهم من النساء والعجزة والاطفال . ولما نشرت لجنة التحقيق المسماة بـ لجنة كارينجي تقريرها الخاص عن هذه الفظائع لم تكن ثمة بين صحف اوربا واميركا بأسرها صحيفة واحدة - اللهم إلا بضع صحف اشتراكية - فاهت بكلمة عطف واحدة .

عن اولئك المسلمين البائسين الذين قتلوا كالذباب .

وقد اتخذ السفير الامريكى مورغنتاو المذابح الارمنية التي وقعت في
خلال الحرب العالمية سبياً لصب اللعنات والمثالب على رؤوس الاتراك مما
ترفع عن نقله هنا . وينم كل سطر في مذكراته على ما في صدره من الحقـ
والعداوة لتركيا . وما كان اجدره بتعيين لجنة للتحقيق في مذابح مقدونيا ثم
يعيد تلاوة مذكراته ليرى اكان باستطاعته تبرير اتهاماته ؟

فلما فر الوف المسلمين بعد الذي قاسوه من الظلم والجور الى وطنهم ولم
يجدوا مأوى يقيمهم زمهرير الشتاء بل على العكس وجدوا أنفسهم كل يوم
معرضين لاهانات اولئك الذين كانوا سبياً في شقائهم لم يملكوا انفسهم ولم
يستطيعوا ضبط عواطفهم فثارت فيهم عواامل الانتقام وحملوا على متون
الشطط الى حد ما . ولم تفت اليونانيين فرصة استخدام هذه الحوادث الى
اقصى حد يمكن فانهم - ما لبثوا أن طنطنوا بها وملأوا العالم صياحاً وادعوا
أن الاتراك يهددونهم ولاذ بعضهم بالجبال . وقد اشعل بعضهم النار في عدد
من القرى الاسلامية وذبح عدداً كبيراً من المهاجرين مما اثار نائر الحمق في
صدور المسلمين وهنا بدأ فنزولوس ينغق نعيقه الممقوت الذي دوى في انحاء
العالم فتخرص المتخرصون وقالوا : (ان الاتراك يذبجون اليونانيين في ولاية
آيدين برضاء الحكومة ومساعدتها) .

ولحسن الحظ ألح طاعت بك الذي كان اسرع من فنزولوس على سفراء
انجلترا وفرنسا والمانيا والنمسا أن يرسلوا تراجعتهم لاجراء تحقيق مشترك في
مكان النزاع . فقررت هذه اللجنة الحقائق التي لا يسع المستر مورغنتاو إلا
الاعتراف بصحتها مهما كلفه ذلك . ومعنى هذا انها أقامت البرهان على ان
الاهالي لم يمسهم أذى وان المهاجرين البائسين الذين اتهموا بارتكاب الجرائم
هنا وهناك قد عاقبتهم الحكومة العثمانية عقاباً صارماً .

واشترط فنزيلوس ان يأخذ المهاجرون امتعتهم ويستبدلوا ما لا يمكن نقله ولكنه قبل في النهاية رأى طلعت بك ووافق على الشروع في المفاوضات على قاعدة ارسال الرعايا اليونانيين من سكان ساحل ولاية آيدين الى اليونان والسماح لمسلمي مقدونيا بالاقامة فيها اذا ارادوا .

وبعد أن وجدنا قاعدة للاتفاق مع الصرب كما بينت آنفاً اعترنا تسوية اكثر مشا كلنا الداخلية تعقداً ألا وهي المشكلة الارمنية . وقد رأيت ان افرد باباً خاصاً فيما بعد لهذه المسألة المعقدة .

(العلاقات الاقتصادية)

(مع فرنسا وانجلترا)

حينما كان شوكت باشا صدرأ أعظم ذهب حتى باشا الصدر الاعظم الاسبق الى لوندرا لتسوية عدة مسائل تختص بخليج البصرة والمناطق السبع المختلف عليها بين اليمن وعدن وفي الوقت نفسه ذهب جاويد بك الى باريس وكان الغرض من بعثته :

أولاً — السعي لعقد قرض كبير .

ثانياً — الغاء الامتيازات المالية .

أما فيما يختص بالقرض فقد اشترطت فرنسا شروطاً لم يكن في استطاعتنا قبولها بحال من الاحوال . واني اذكر بعضاً منها :

أولاً — لا تنشئ ادارة السكة الحديدية الحجازية خطوطاً جديدة في سورية أو فلسطين .

ثانياً — تقف ادارة السكة الحجازية في الحال انشاء الفرع من افوليمح عن طريق جنائن نابلس الى القدس - (مع انه كان قد انشىء بالفعل) وهو الفرع التابع لخط حيفا درعا والذي وصل الى سياستيه .

ثالثاً — تمنح فرنسا امتياز سكة حديد عريضة من أفوليج الى نقطة على خط - ياقا - القدس لم تعين بعد .

رابعاً — تمنح فرنسا أيضاً امتياز سكة حديد عريضة يكون أحد طرفيها محطة رباق على خط دمشق - حماه - والطرف الثاني محطة أفوليج ويمر الخط بشواطئ بحيرتي الحولة وطبرية .

خامساً — ليس للحكومة العثمانية أي حق في أن تقبل على خط حيفا درعا أجوراً قد تزامم الاجور على خط بيروت - دمشق - حوران . وعلى الحكومة العثمانية أن تعطي شركة سكة حديد دمشق - حماه عوضاً عن خط دمشق - حماه .

سادساً — يبقى امتياز انشاء أي خط شرقي دمشق - المدينة - ورياق - حلب لفرنسا وحدها .

سابعاً — يبقى امتياز توسيع اواني السوربية وهي ياقا وحيفا وطرابلس للرأسمالين الفرنسيين وحدهم .

ثامناً — يجب على الحكومة العثمانية أن تشتري ثانياً حق تشغيل سكة حديد اليمن وان تدفع تعويضاً للشركة .

تاسعاً — تمنح فرنسا امتياز سكة حديد صامسون - سيواس .

عاشرأ — تعفى من كافة الضرائب جميع المباني والممتلكات والضياع بكافة انواعها التابعة لمدارس الاديرة الفرنسية الجديدة .

أحد عشر — يشتري بالربيع المستحق على القرض السلاح اللازم للجيش من فرنسا وحدها .

على هذه الشروط وغيرها أرادت فرنسا أن تقرضنا بضعة ملايين من

الفرنكات بسعر (٩) بالمائة تدفع على قسطين .

وأما من حيث الغاء الامتيازات المالية فان فرنسا رفضت بتاتاً أن
تتناقش في الامر . واشترطت أن تمنحها عدة امتيازات اخرى ثمناً لسماحتها
لنا بزيادة الضريبة من (١١) بالمائة الى (١٤) بالمائة على امتياز الكحول
والكبريت وورق السيجار وزيادة الانارة التي يدفعها التجار الاجانب والسماح
بادخال تمر يفة خاصة بالمدينة .

ولم تتقدم المفاوضات إلا بشق الانفس حتى اوشك جاويد بك أن
يقطع الامل نظراً لبطء حكومة الاستانة في ارسال الرد وأيضاً لاعتبات التي
كانت فرنسا تضعها في طريقه .

وكان بين الوزراء وقتئذ عثمان نظامي باشا وزير النافعة . ومع ان
معظم هذه المسائل كانت تتعلق بوزارته فقد كان من عادته الاكتفاء بتحويل
كل مسألة منها على المصلحة المختصة وارسال رأي المصالح المختلفة من الوجهة
القانونية والنفعية فيما بعد الى الباب العالي . ولما كانت حالة البلاد العامة تتطلب
الانحياز والسرعة لم تؤد الطرق البيروقراطية التي اتبعها نظامي باشا إلا الى
سخط الحكومة والحزب عليه . وبما أن الحزب قرر قبول برنامج جمعية الانحياز
والترقي باسرع ما يمكن صحت عزمته على أن تتخلص الحكومة من ذلك
الرجل الذي لا اشباع له في الحزب والذي عارض في استرداد أدرنة مبادل
على قصر نظره .

ومنذ تعييني حاكماً عسكرياً للاستانة لم اضع الفرصة في التقرب بين
الفرنسيين والأتراك . ونظراً للعلاقات الحبيبة التي تمكنت بيني وبين السفارة
الفرنسية بل بين رجال الجالية الفرنسية بوجه عام اقتنع اخواني بأني لوعهد

إلي يبحث مسائل الاشغال العمومية و تسويتها لارتاح الفرنسيون جدا لارتياح
فألحوا بشدة في قبولي منصب وزارة النافعة .

فليت طلبهم لعلمي اني سأسلم قيادة الفيالق الاول الى القائد فون
ساندرس ولنا كدي اني بدخولي الوزارة أستطيع خدمة بلادي خدمة عظمي
ونظراً لاهمال نظامي باشا في تسوية المسألة الفرنسية بالسرعة المطلوبة
ولعدم استطاعة الحكومة الانتظار الى اجل غير مسمى اقترح عليه البعض
أن يعتزل العمل ويقدم استقالته . فوافق في الحال وعينت مؤقتاً في مكانه .
ولم يمض غير شهر على استقالته حتى عينت نهائياً لوزارة النافعة .

فكان اول ما عملته أن سويت في وقت قصير جداً جميع المسائل المعروضة
على الوزارة لاستطلاع رأيها وهي المسائل التي عدتها فرنسا شرطاً أساسياً
للقرض . وفي الحال عرضت الوزارة على الصدر الاعظم تسوية لا تستطيع
فرنسا نقسار رفضها . فتكملت بفضل تلك التسوية مساعي جاويد بك بالنجاح
في النهاية وتم عقد القرض .

(سكك حديد ايطاليا)

في عهد وجودي في وزارة النافعة قامت عدة مصاعب بيني وبين السفارة
الايطالية حول سكك حديد ايطاليا . ويذكر القاريء ان ايطاليا كانت محتلة
بعض جزرنا منذ الحرب الطرابلسية رودوس و استانبكوج وغيرها وانها
تعهدت بردها للحكومة العثمانية فلما اشتملت الحرب البلقانية نسيت ايطاليا ان
تجلبو عن الجزر وتذرت بحجة منع اليونان من احتلالها . فلما ختمت معاهدة
لوندر الاولى الحرب البلقانية وطالبنا بمودة الجزر راوغت ايطاليا وأبدت

حججاً ومعاذير جديدة . فمثلا ادعت ان الشريف السيد أحمد السنوسي مازال
متمرداً وبما أن الضباط الاتراك ما زالوا في خدمته فأننا لم نوف عهدونا لها
فأقمنا لها البرهان على بطلان دعواها وعلى ان طرابلس ليس فيها جندي تركي
واحد وان الحكومة العثمانية لا تقدم مساعدة ما للسيد السنوسي . فأحالت
إيطاليا الامر على الرأي العام في بلادها وادعت انها لو ردت تلك الجزر
لتركية بدون مقابل لكان لعملها ذلك اسوأ اثر .

فغضبنا لتلك المراوغة ثم تجدد النزاع ابان وجودي في وزارة النافعة
فحضر الي في ذات يوم الماركيز غاروني سفير إيطاليا واخبرني بأن حالتيان
افندي احد الرعايا الاتراك وبهض اشخاص آخرين يعملون باسم فريق من
الرأسماليين الايطاليين اعترضوا أن يطلبوا إلي أن امنحهم امتياز سكة حديد
في شمالي أضايا ومن مقرري الى موغلا وقد رجاني أنت تسمح الحكومة
بالبدء باعمال المساحة الاولية للسكة المذكورة ونقوم بحماية المهندسين والعمال
فاجبته بحدثة ان الحكومة لا تفكر في الوقت الحاضر في انشاء سكك حديدية
في شمالي اضايا أو بين مقري وموغلا .

فأثار ذلك الجواب المسكت دهشة السياسي الحاذق فقال : (ان مسح
الارض لا يعني انشاء سكة حديدية ولا نريد سوى التأكد مما اذا كان من
المستطاع انشاء مثل تلك السكة . فإذا كانت النتيجة مرضية امكن الحكومة
العثمانية أن تبت في الامر فيما بعد . على أن بأيدينا تمهداً كتابياً من الحكومة
ينحول للايطاليين حق مسح الاراضي . اما رفضي وزارة النافعة فن الغرابة بمكان)
فلما اجبت السفير بأن ليس ثمة مثل ذلك التمهيد في سجلات الوزارة
اطلعتني على ورقة فيها توقيع وزير الخارجية سعيد حليم باشا ولم تكن لتلك

الوثيقة أية قيمة رسمية اخبرت السفير بأننا نرفض بتاتا .
وهنا قال : (لا أظنك يا عزيزي جمال باشا مصيباً في اجابتي بهذه الصفة
في تلك المشكلة المعقدة وفي الوقت الذي ابذل فيه كل جهد لنعيد اليكم الجزر
التي احتلتها ايطالية . انك تعلم مبلغ اهتمام الجمهور في ايطاليا لمسألة سكة حديد
اضاليا . فلو اعلنا في صحفنا ان المهندسين الايطاليين شرعوا يمسحون الارض
لكف الرأي العام عن اقامة المصاعب في وجه الحكومة بخصوص الجزر نظراً
لحصول الحكومة على مزايا مادية في مقابل التضحية التي تقتضيها اعادة
الدوديكانيز . وبهذه الطريقة تصبح الجزر في ايديكم مرة اخرى) .

فازددت غضباً وقلت : (انك تنسى ايها السفير ان الرجل الذي يعيد
لآخر ملكا كان يديره ليس محقاً في أن يطلب تعويضاً عن ذلك . ان علي
الحكومة الايطالية أن تعيد لنا تلك الجزر تنفيذاً لعهودها . ولست أدري
كيف يستخط شعب على حكومة أو يقيم في وجهها المصاعب اذا هي اخذت
تنفذ عهوداً قطعتها باسمه . فليت شعري ماذا يظن الرأي العام التركي في وزارتنا
اذا رأى ان تركيا التعسة هذه التي كانت ضحية هجمات لا عددها في خلال
السنين الاربعة الماضية والتي جردت من ٩٩ في المائة من املاكها الاوربية
وسائر املاكها في افريقيا أصبح يتعين عليها أن تعطي عوضاً مقابل استرداد
جزر خولتها لها المعاهدة ؟

انني وزير النافعة ومن الواجب علي أن أحصل لوطني الاعمال التي يعتبر
تنفيذها لازماً لرفاهيته بطريقة تقتضيها الحاجة . أما فيما يختص بالمشروعات
التي من قبيل العوض السياسي فليست من اختصاص وزارتي ويجب البحث فيها
مع وزير الخارجية أو الصدر الاعظم . وبما أن رأينا مختلفان في هذا الامر
فاني آسف لعدم امكاني اعطاءك الجواب الذي تريده) .

وقد ابلغت هذه المحادثة فيما بعد لسعيد حليم باشا وانور باشا وزير الخريفة

وطلعت باشا وزير الداخلية . فاقروني على ما فعلت . وفي اليوم التالي جاء إلي
نفر من الصحفيين الذين سمعوا بما جرى طالبين محادثتي فارسلت في طلب يونس
نادي محرر صحيفة تصوير افكار وحادثته .

وقد قوبلت المقالة الحاسمة التي ظهرت وقتئذ تحت عنوان (لا تعويضات
ولا امتيازات) بالارتياح والسرور التام في كل الدوائر واقبل اصحابي
لتهنئتي على هذه التصريحات الجليلة . وفي اليوم الذي نشرت فيه المقالة الآتفة
الذكر طلب المركز غاروني الذي قام لها وقعد مقابلة الصدر الاعظم . فشكا
مر الشكوى من سلوكي معه وقال : ان تأثير المقالة في ايطاليا سيكون سيئاً .

واجتمع مجلس الوزراء في ذلك اليوم . وعند دخولي على الصدر الاعظم
لمحت علامات القلق على وجهه . وكان طلعت باشا حاضراً . فاستقبلني سعيد باشا
وخاطبني بلهجة الأمر قانلاً : (اذن انت يا باشا كنت تحادث الصحفيين بصد
سكة حديد ايطاليا .

فقلت : (نعم ! ولم لا ؟ فهل قلت شيئاً لا يتفق والواقع ؟) .

(كلا ! ولكني لا أظن انك محق فيما فعلت) .

(هل تسمح لي دولتكم ان اقول ان ذلك خطأ . ان الوزير له الحق أن
يصدر بياناً للصحف متى استصوب ذلك في أي مسألة تتعلق بمصلحته خصوصاً
اذا كانت لا تمس اسرار الدولة أو تعرض سياسة الحكومة العامة للخطر .

ان السؤال الذي سألتني به المحرر هو هذا : هل ازمعت الحكومة اعطاء ايطاليا
تعويضاً في شكل امتياز لانشاء سكة حديد ايطاليا لاسترداد جزر بحر ايجه ؟) فقلت

(كلا !) أفليس جوابي حقاً ؟ هل للحكومة التي برئاسة دولتكم رأي غير هذا ؟

كلا على ما اعلم . فاذا كان كذلك فالسفير على غير حق في شكواه) .

فلم يحر الامير جواباً . ولا اظنه غفر لي تصريحي هذا للصحفيين
الذين بضايقونه .

وبعد هذا الحادث بأيام قليلة حضر الى دار الوزارة السفير الانجليزي السير لويس ماليت وقال انه وصل الى علمه ان الحكومة العثمانية توشك أن تمنح ايطاليا امتياز سكة حديد اضماليا وان مثل ذلك العمل يعتبر تهجماً على حقوق شركة سكة حديد آيدين الانجليزية .

فامرت بالتحري عن ذلك . فتمحقت أن الشركة الانجليزية اعطيت - فضلاً عن الترخيص لها في مد خطوطها الى بوردور وسبارطا وتسير بواخرها في بحيرة ييشير - وعداً صريحاً رسمياً بالألا ينشأ خط آخر الى البحر المتوسط في داخل دائرة معينة في جنوبي تلك المنطقة وبذلك تضمن الربح الوافر بلا مزاحم .

فلما عرضت الامر على سعيد حلیم باشا أعرب لي عن سروره لاني لم امنح ايطاليا شيئاً .

وفي النهاية وجدت وسيلة اخرى للتفاهم مع السفير الايطالي اذ اخبرته برغبتى في ارسال لجنة فنية رسمية من مهندسى السكك الحديدية للتثبت نهائياً بما اذا كان من المستطاع انشاء خطوط حديدية من اضماليا ومقرى الى داخل البلاد فتظاهر السفير بالارتياح لذلك الاقتراح مع ان الحقيقة كانت على العكس من ذلك وثم مسألة اخرى سويتها خلال وجودى بوزارة النافعة وهى وضع حد للخلاف الذي ثار ثائره بين شركة انشاء الشوارع ولجنة الوزارة الفنية . فبدلاً من العمل بحزم لتسوية المشكلة حصر كل من الفريقين همه في دحض حجج الفريق الآخر بتعننت اثار الارتياح بحجة أن المجلس البحرى لا بد أن يفحصها أولاً .

أما الحكومة فكانت على يقين بأن الحرب مع اليونان لا مفر منها فى القريب العاجل وان الفراغ من تنظيم الاسطول وتدريبه بمنتهى السرعة أمر من الاهمية بمكان لأن السرعة فى تنظيم الاسطول كانت الزم منها فى الجيش .

ولهذا السبب اقترح الصدر الاعظم وانور باشا وطلعت باشا ان ابادل شوروكسولو محمود باشا فتبل الباشا واصبحت وزيراً للبحرية .

(تنظيم وزارة البحرية وفروعها)

فكانت باكورة اعمالى فى تلك الوزارة مقابلة امير البحر لمبس رئيس البعثة البحرية الانجليزية مقابلة طويلة . فسألته اعطائى بياناً بالاقترحات التى عرضها منذ تعيينه فى تلك الوظيفة مع ايضاح ايها اكثر اهمية . ثم كلفت مدير دار الدفاتر ان يجمع سائر التقارير الخاصة بتنظيم الاسطول التى وضعها امراء البحار لمبس ووليامز وجامبل الموجودة فى المجلس البحرى والاقسام الاخرى وشرعت فى فحصها بنفسى . أما اقتراح لمبس الرئيسى فكان متعلقاً بضرورة اصلاح فروع وزارة البحرية فوجدتنى متفقاً معه فى هذه النقطة . وقد شكوا لمبس كما شكوا اميرا البحر اللذان تقدماه من المجلس البحرى . وانفقت آراؤهم على ان رؤساء المصالح باحجامهم عن تحمل المسؤولية عن الشؤون المهمة التى تختص بمصالحهم يحيلونها على المجلس البحرى الذى قد تمر شهور عديدة دون ان ينعقد حتى اذا انعقد بالفعل ازيجته تكس الوثائق المطلوب اليه بحثها فيمنع بفحص بعضها ثم يتأجل ثانية تاركا اكثرها اهمية فى صندوق الوثائق . وبهذه الطريقة تنجى رؤساء المصالح عن مسؤوليتهم .

فصممت على الغاء المجلس البحرى فى الحال .

وكان أشد ما شكاه منه لمبس ادارة وكيل البحرية . وفى الواقع فان امير البحر الانجليزى كان يعتبر رستم باشا وكيل البحرية أشد اعداء اصلاح الاسطول العثمانى عتواً وصلابة .

وقد اخبرنى انه طالما نجح فى ضم بعض رؤساء الادارات الى رأيه فى أمر من الامور ثم لا يلبثون ان يعودوا بعد مقالة رستم باشا بنتائج تتعارض

مع ما اتفقوا عليه قائلين :

انهم لا يستطيعون ابرام امر يخالف رأى رئيسهم . وقد اعرب لمبس عن سخطه الشديد على القسم الرابع ومديرى الحساب والمراجعة . فليس ثمة أمل فى عمل شىء فى وزارة البحرية قبل أن تنظم تنظيمياً تماماً هذه المصالح التى تشبث تشبثاً اعمرى بالوسائل البيروقراطية العتيقة .

ثم شرعت بعد هذا التحقيق الشفوى فى دراسة المشروع الوافى الذى رفعه لمبس وجامبل لاصلاح الوزارة . وبناء على الاقتراحات التى تضمنها المشروع مضافاً اليها اقتراحاتى الشخصية بدأت باعداد قواعد الاصلاح . فقررت الغاء المجلس البحرى ووكالة البحرية . كما قررت تقسيم الوزارة الى اربعة اقسام مضافاً اليها قلم المفتش الطبى وقلم الحسابات . ويلقب رئيس القسم الاول بلقب رئيس هيئة اركان البحر . ويسوى كل من رؤساء الاقسام المسائل الخاصة بقسمه ويعرض على مسؤوليته الخاصة قراراته على الوزير للوافقة عليها . وفى المسائل التى قد يكون لها ارتباط باكثر من قسم واحد ولو انها تخص بادىء ذى بدء بقسم معين - يتعين على رئيس القسم تسويتها بالاشتراك مع رؤساء الاقسام الاخرى . وعلى رؤساء الاقسام أن يعلبوا رئيس هيئة اركان البحر بكل المسائل الخاصة باقسامهم .

اما رئيس هيئة اركان البحر فمسؤول عن اصلاح الاسطول وجعله متأهباً للحرب وتعليم وتدريب هيئة الضباط بل باستخراج معدات الحرب وادارتها وله حق الوقوف على المعلومات اللازمة الشفوية أو التحريرية الصادرة من السلطات المختصة وان يعلمهم بأراء هيئة اركان البحر .

وبعد أن تم مشروع الاصلاح رأيت اصداره فى قالب قانون موقت . وفى النهاية تخلصت من الوكيل رستم باشا واميرى بحر آخرين وفايق باشا والمفتش الطبى وبضعة يوزباشية وقواد ونائبي قواد .

فمر لمبس لهذه التغييرات الحاسمة واعرب عن ثقته في تنفيذ الاصلاحات
المرضية في البحرية في اسرع وقت ممكن .

ثم قسمت الموانئ التي كانت حتى الآن تحت اشراف أمير البحر المشرف
على ميناء الاستانة الى ست مناطق واوجدت لأول مرة ادارة بحرية في صامصون
واستامبول وازمير وبيروت . ووضعت موانئ البحر الاحمر تحت اشراف
قومندان البحر الاحمر وموانئ البصرة ودجلة والفرات تحت اشراف قومندان
خليج البصرة . اما الغرض الذي رميت اليه من وراء تلك الادارات البحرية
فكان وقف التهريب على السواحل العثمانية بايجاد مصلحة لحفر السواحل ثم
مراقبة ربابنة الموانئ مراقبة دقيقة مستمرة وقد كانوا حتى الآن بلا مراقبة .
ولادراك هذه الغاية انطت بالمدفوعات التي ابتعناها حديثاً من فرنسا والآخرى العتيقة
التي كانت لنا - الطواف حول سواحل البحر الاسود والبحر المتوسط وشواطئ
سوريا والبحر الاحمر وقد وضعتها جميعاً تحت تصرف المديرين البحريين .

ولولا شهبوب نار الحرب العالمية بعد ذهابي الى وزارة البحرية بخمسة
اشهر حصلت السلطات المختصة بجمع الضرائب غير المباشرة وامتيازات الدولة
على ربح عظيم من تنفيذ هذه الاجراءات ولا تقطع التهريب انقطاعاً كلياً .
وانتخبت المديرين البحريين من اكثر كبار الضباط نشاطاً ولفت نظرهم
الى أهمية المراقبة التامة المتواصلة . وقد ساعدت التقارير التي وصلت منهم
على التثبت من يتعين عزله من ربابنة الموانئ كما حسرت اللثام عن سوء حالة
السفن المرابطة في الولايات .

ثم عينت في مكان الربابنة الذين وردت اسمائهم في القائمة العامة ضباطاً
من ذوى السمعة الحسنة والكفاءة في العمل الذين لم يصل نجاحهم في الاسطول
الى المستوى المطلوب منهم .

واعترفت تقسيم الضباط البحريين الى اقسام ثلاثة : الاول يشمل الضباط

القادرين على الخدمة في الاسطول . والثاني : يشمل الضباط الذين يخدمون في السفن المكلفة بحراسة الشواطئ . والثالث : يشمل الضباط المختصين باعمال الموانئ . وقررت جريان التبادل بين الضباط في داخل هذه الاقسام . فضباط القسم الاول الذين لا يصلحون له ينقلون الى القسم الثاني وضباط القسم الثاني ينقلون الى القسم الثالث الذين لا يصلحون مطلقاً فيستغنى عنهم نهائياً .

يبد أن الحرب العالمية حالت لسوء الحظ دون تحقيق ذلك البرنامج جملة وتفصيلاً . وهنا ينبغي أن اسوق بضعة امثال :

فالوها : حدث بعد ذهابي الى البحرية ببضعة اسابيع فقد كلفت احدى المدفيعات بالسفر وحددت بنفسى التاريخ والساعة . وكان الراي قد استقر في زمن شوروك باشا على وضعها تحت تصرف قومندان البحر الاحمر . وفي عشية اليوم الذي تقرر أن المدفعية تبحر فيه صعدت بصحبة لمبس الى ظهرها وقد كانت راسية بالقرب من طريق توقين . ثم طلبت الى امير البحر أن يفحصها ويخبرنى بلا تردد هل المدفعية حقيقة في حالة مرضية تؤهلها للسياحة الطويلة التى ستقوم بها ؟

فاخبرنى لمبس بانها - فيما عدا بضعة اصلاحات طفيفة - صالحة لتلك السياحة . فسالته الربان - هل لديه المؤونة والملابس الصيفية والنقود اللازمة ؟ - فادى هذا السؤال الى تبين النقص فى المؤونة والملابس . وكنت ارى من الزم اللوازم أن تحتوى خزانة السفينة على ما يسد العوز المالى لمدة ثلاثة اشهر على الاقل حتى لا تعترض الضباط مصاعب مالية فى الطريق . فطلبت الى الربان أن يرسل وكيله وصرافه الى الوزارة لسد النقص اثناء الليل ليستطيع السفر فى الميعاد المضروب فى الغذ . ثم عدت الى الوزارة بنفسى وطلبت فتح المخزن فى الليل وتسليم المؤونة والملابس الصيفية اللازمة وامرت بالرغم من معارضة موظفى الحسابات - باعطاء المدفعية مبلغاً على الحساب .

واول ما عملته عند ذهابي الى الوزارة في الصباح هو انني سألت هل
سافرت المدفعية فعلا؟ فعلت مع الدهشة الشديدة انها لم تطلع بعد. فارسلت
في طلب الربان في الحال وسألته عن السر في عدم سفره.

فقال: يا افندم! ان وكيلي وصرافي لم يعودا للمدفعية بعد فلم اجراً على
السفر بدونها! .

فعاقبته في الحال بتخفيض مرتبه الى النصف وعينت آخر في مكانه.
ووضعت اسم الوكيل في القائمة العامة وكلفت الصراف باستصحاب المدفعية مع
انه كان قد عاهد نفسه ألا يذهب الى البحر الاسود بحال ما.

(مثل آخر)

كان يوم عيد قبل نشوب الحرب العالمية. فاردت ان استعرض ضباط
الاسطول وبجارته فاصدرت الاوامر اليهم بالحضور جميعاً في ساعة معينة في
الميدان المقابل لوزارة البحرية. وقد امطرت السماء في صبيحة ذلك اليوم فلم
يتمنى ذلك من الذهاب في الوقت المعين الى مكان الاستعراض لابساً ملابسي
الرسمية ولكن لم يحضر أحد.

وماكدت اغادر سيارتي حتى خرج طاهر بك قائد الاسطول العام
ولقيت من ضباطه من مصلحة القرن الذهبي فلما سألته السبب في تخلف رجال
الاسطول عن الحضور أجاب قائلاً:

(يا افندم! حسبت أنك ستتخلف نظراً لرداءة الجو وعلى ذلك لم آت
بالرجال تفادياً من بللهم على غير طائل!) .

فامرت باعتقال طاهر بك لمدة ثلاثة ايام لتخوفه من البلل وبعد اسبوع
كلفته بالاستقالة.

(مثل آخر ايضاً)

في خلال سنة ١٩١١ زرت الاستانة لامور تتعلق بالجيش الرابع . وكانت البينة قد قامت على ارتكاب أحد الضباط البحريين جريمة النصب لاكثر من مرة ولسوء الحظ وقع ذلك في الوقت الذي بدأ فيه تدهور القوة المعنوية في الجيش والاسطول . فاردت أن امثل بالمجرم فسلبته للمحكمة العسكرية . وطلبت محاكمته باقصى السرعة .

ولسكن المحكمة ابرأته رغم أدلة الاثبات العديدة مع اني ورؤساؤه كنا واثقين من جرمته . فاضطرت طبعاً الى احترام الحكم الذي نطقت به المحكمة العسكرية بيد انني مع ذلك قررت وضعه في عداد المستقيمين .

ثم خفضت مرتب اسماعيل بك (رئيس المحكمة العسكرية) وبعض اعضائها الى النصف لقصورهم وعدم تقدير المسائل الخاصة بالشرف العسكري .

(المثل الاخير)

عدت الى الاستانة بعد تسريح قواد الجيش الرابع - فان الصلح مع روسيا كان قد امضى واستأنفت السفن التجارية حرية العمل في البحر الاسود . فرأيت من اللازم اعداد المدرعة (رشيد باشا) التي كانت تستعمل من قبل مخزناً للرجال القائمين بأعمال تمرينية على ظهر السفينة (ياوس) . وبعد مشاق عديدة حصلت على السفينة من أمير البحر العام وامرت بارسالها الى الميناء الداخلية وفي الغد حضر إلي واصف باشا الوكيل واخبرني بأن (رشيد باشا) التي اصلحت اصلاً تماماً منذ عدة ايام في حالة سيئة وطلب إلي أن أضع حداً لاهمال الربابنة والقواد وإلا كان انحلال الاسطول في القريب العاجل ! مرأ مقضياً . فارسلت في الحال في طلب رئيس القسم الثاني فاكد الخبر . فكلفت رمزي باشا قومندان القرن الذهبي أن يصعد على سطح (رشيد باشا) ويكتب

تقريراً وافياً عن حالتها وان ينبئني عن اسماء الاشخاص المسؤولين بين رجال السفينة عما وصلت اليه .

وفي اليوم التالي قدم تقريره الذي اثبت مسؤولية الربان ووكيله . فذهبت توأ الى السفينة بنفسى ومعى واصف باشا وحامد بك .

فتمتنت بملاحظتى الشخصية ان البحارة قد رسموا وخطوا أشياء فاحشة على ابواب حجر الضباط وان هؤلاء سمحوا بذلك وان حجرة طعام الضباط اصبحت فى حالة لا توصف .

فامرت فى الحال بعزل الربان واعتقال وكيله لمدة اسبوعين واذعت منشوراً بأنه لو وقع مثل ذلك مرة أخرى فى أى سفينة لكان الجزاء طرد الربان والوكيل من الخدمة فى الحال .

ان الربان حتى الذى كان ينتظر العودة الى منصب قومندان السفينة (ياوس) مع انه كان ضابطاً على جانب عظيم من الامانة والعلم والجد كان قليل الخبرة بما تتطلبه مهنته البحرية واحسب انه لم يقدر تماماً ان القومندان مسؤول عن كل شىء وعن كل شخص على ظهر سفينته .

وقد ساد بين ضباط البحرية رأى فاسد مؤداه ان الوكيل هو المسؤول وحده عن النظافة والنظام وغير ذلك مما يلزم للسفينة .

وهذا الرأى صحيح الى حد ما . بيد أن الوكيل مسؤول امام ربانه فقط وهذا بدوره مسؤول لدى قائد الفرقة أو القائد العام . ويظهر أن كثيراً من ضباطنا البحريين لم يدركوا بعد أن المسؤولية النهائية اذا لم تحصر فى الربان فليس ثمة وسيلة لضمان وحدة القيادة فى البحر . وقد زعم بعض قصار النظر ان السبب الحقيقى فى عزل الربان حتى هو لصداقته المتينة مع الضباط الالمان ومن الصعب أن يتصور الانسان خرافة أشد كذباً من هذه . ومن الحق نسبة مثل هذه التهمة لى وانا الذى كنت اعتبر من اشد انصار النظام ومن القائلين

بضرورة توثيق عرى الصداقة بين الضباط الاتراك والالمان .
وكثيراً ما لجأت الى هذه الوسائل كلها رغبت في رفع المستوى الادبي
بين ضباط البحرية . وسأتناول تلك النقطة بتفصيل عند عودي الى داري
حيث أمكن وقتئذ من الاستشهاد بالسجلات فاستطيع اتمام مذكراتي
وخصوصاً فيما يتعلق بالفترة التي كنت في خلالها وزيراً للبحرية .

تعجيل بناء (السلطان عثمان) و (رشادية)

وتعخير المصانع والموانئ

(انشاء دار لصنع السفن في ازميت . التوصية على بوارج حرية)

لم اكد استلم زمام الاعمال في وزارة البحرية حتى شرعت في اصلاح
مدرعاتنا (بارباروس) و (طورغود) و (مسعودية) وتجديدها بقدر
ما سمحت به مواردنا الضعيفة وكنت اقوم يومياً بنفسى بالاشراف على اعمال
الاصلاح ووجهت اهتامى كله الى ازالة أي عائق قد يقف في الطريق . وكان
جل اهتامى ان ارى (السلطان عثمان) التي أوشك أن يتم بناؤها في احواض
انجلترا تمخر عباب بحر مرمره واحدد وقتاً معيناً لاستلام المدرعة (رشادية)
التي اوصينا بها قبل نشوب الحرب مع ايطاليا والتي كثيراً ما أجل اتمامها
من وقت الى آخر .

ولم تستطع المصالح المختصة لاكثر من ستة اشهر أن تجيب واصف بك
ورؤوف بك جواباً شافياً على طلبهما ادخال بضعة تغييرات في (السلطان
عثمان) و (رشادية) واذ كنت ارغب في تعرف الحقيقة بنفسى طلبت الى
رؤوف بك وواصف بك اللذين كانا في لوندرة أن يحضرا الى الامستانه .
وكنت قد جمعت كل الوثائق التي ارسلتها المصالح المختصة فامرت باحضار

جميع الخبراء للوزارة وبعد البحث مع أمير البحر لميس أعطيت كلا منهم
التعليقات المطلوبة ثم حررت خطاباً الى شركتي السفن وطلبت اليهما تحديد موعد
تسليم (السلطان عثمان) و (رشادية) .

ولما كان رؤوف بك قد كتب إلي طالباً ارسال بعض البحارة لمعاينة
(السلطان عثمان) وللتثبت من آلائها المعقدة قمت في الحال باختيار فريق من
صغار الضباط والبحارة وارسلتهم الى انجلترا على ظهر (رشيد باشا) برئاسة
الربان اسماعيل قومندان القرن الذهبي .

وطلبت الى رؤوف بك وواصف بك ان يكفيا عن المطالبة بادخال
تغييرات اخرى في هاتين البارجتين حتى تستطيع الاحواض في النهاية تسليمها
الينا في التاريخ المحدد ثم ارسلت الضابطين الى لوندرة .

وفي مدة شوروك باشا بدأت المفاوضات مع شركتي فيكرز وارمسترونغ
لتحويل دار سفن القرن الذهبي الى دار سفن حديثة وانشاء دار سفن (على
أحدث طرز) واحواض عائمة في خليج ازमित . وقد جهزت بالفعل
الرسومات الخاصة بذلك .

ونظراً لاهمية هذه المسألة قررت تسويتها نهائياً فطلبت الى الشركتين
أن ترسلا مندوبين عنهما الى لوندرة وعلى ذلك ذهب الى العاصمة الانجليزية
المستر فنسنت كيلارد أحد اعضاء اللجنة الادارية ومدير الشركتين المذكورتين
وقد عين الكونت اوستروروج - أحد محامي اسلامبول - مستشاراً
قضائياً للشركتين وعينت وزارة البحرية النائب حاجيان افندي ليكون
مستشاراً لها .

وبعد اجتماعات متعددة - حضرها ايضاً مستشارونا القضائيون - وضعت
صيغة العقد النهائية . ومع اني اعترف ان العقد تضمن بضعة أمور كان فيها
شيء من الغبن لنا قد عظم سروري لاعتمادني انه لن يمضي وقت طويل حتى

نرى لدينا داراً لصناعة السفن وأحواضاً للبناء وموانئ ومصانع من أحدث طرز . وكانت العادة التي رسخت في نفسى منذ دخولي الخدمة هي تنفيذ ما تقره الحكومة بلا تواني .

وقد تكرر بعد إبرام الاتفاق مع فيكرز وأرسترونغ أن يعهد بتجديد مصنع القرن الذهبي الى لجنة مكونة من ممثلي وزارة البحرية والشركتين السالفتي الذكر تحت زعامة مدير عام انجليزي . وفي يقيني - برغم ما يزعمه الغير - أن ذلك المشروع لو نفذ بحذافيره لعاد على البلاد بالفوائد الجمة . أما نزاهة المدير العام ومقدرته والكفاءة التي اظهرها فقد ملأت نفسى اغتباطاً وسروراً وكنا على اتفاق تام فيما يتعلق بالمشروعات الوقيية (لتحسين المصانع والاحواض) التي اعدتها بعد وصوله الاستانة بقليل . ولاضربن مثلاً على استقامته فالعقد المبرم بين الشركتين والحكومة قضى أن تقدم هذه الاخيرة المال اللازم لبناء دار المصنع الجديد في خليج ازميت .

فبعد بحث استغرق شهرين التفت لي المدير العام قائلاً :

(ان موقع هذه الدار التي في القرن الذهبي جيد بصفة خاصة حتى أني لا أرى سبباً مطلقاً لنقل دار صنع الاسطول العثماني الى ازميت . فلو انقلب البناء الحاضر الى مصنع حديث وادخلت على الاحواض بعض تحسينات لاصبح من المستطاع بناء اكبر دريدنوط (بارجة) في احواض القرن الذهبي بعد اربعة اعوام على اكثر تقدير . وعلى ذلك استحسن اغفال انشاء دار صناعة ازميت وحصر كل مجهوداتنا في تحسين دار صناعة القرن الذهبي وفي استطاعتنا ان ندرك تلك النتيجة بقليل من المال . واني اعدك بالسعي لاقناع الشركتين بهذا الرأي .

ولسوء الحظ نشرت صحفنا في بدء الحرب العالمية اشاعة كاذبة تلقته عن الصحف الالمانية . ومؤداها ان المدير العام نزع من سفننا تنفيذاً لتعليمات البعثة البحرية الانجليزية - الاجزاء المهمة في الوقت الذي أوشك فيه أن يتم

اصلاحها وبذلك جعلها غير صالحة للعمل . وكنت حين ظهور تلك الاشاعة في مركز الجيش الرابع . ولما كنت اعلم أنها تناقض الواقع تماماً (لأن البعثة البحرية الانجليزية وضباط الشركتين الذين تكفلوا بتنظيم دور صناعة سفننا وجعلها حديثة قد قاموا بمهمتهم بكل امانة واخلاص الى اليوم الذي غادرونا فيه) طلبت الى انور باشا أن يكذبها باسم وزارة البحرية لأنه كان وقتئذ قائماً بشؤونها مؤقتاً .

ولا اعلم حتى هذه الساعة ان كان التكذيب نشر فعلاً أو لا . ولسوء الحظ انتشرت تلك الفرية بسرعة مدهشة وقد رأيت من ظهورها في صحف عديدة انها كانت سبباً في الخملات الشديدة التي وجهت ضدنا وضد الالمان .

واني لأراني ملزماً أدياً أن اؤكد هنا مرة اخرى ان ضباط البعثة البحرية الانجليزية بقيادة أمير البحر لمبس والمهندسين والعمال الانجليز الذين اظننا بهم تنظيم دارصناعة السفن بالقرن الذهبي قاموا بواجبهم بمنتهى الامانة أما ثقتي بامانتهم فقد بلغت الى حد انني عهدت اليهم وضع خطوط الطور بيل في الدردنيل والبحر الاحمر كما كلفتهم بالبحث عن خير المناطق لمثلها بالالغام وخير الوسائل لبثها . وقد احدثت بحاشية لمبس ضابطاً تركيا وضابطاً من سفن الطور بيل .

وقد وضعت خطوط الطور بيل الأولية في الدردنيل بناء على هذا الاتفاق واذ أردت أن يؤدي كتابي هذا الى اظهار الحقائق يتعين علي ذكر الحادثة الآتية : وهي أنه في الوقت الذي أصبح فيه من المتوقع اقبال البواغيز حضر إلي لمبس ذات ليلة وقال :

(اذا كنتم تظنون من اللازم اقبال البواغيز بالالغام فعندي اقتراح أريد عرضه عليكم . ذلك انه يمكنكم أن تبشوا ما شئتم من الالغام عند مدخل الدردنيل ولكن يستحسن ابقاء البوسفور مفتوحاً ويتعين توزيع العوامات

فيه حتى يظن انه مليء بالالغام ثم تصدر التعليمات لكافة السفن بأنه خطر عليها
- نظراً لاعلاق البوسفور بالالغام - العبور إلا بمساعدة الدليل . أما الروس
الذين لا يعرفون ان ليس ثمة الغام فلن يجرأوا مطلقاً على اختراق البواغيز .
وقد لجأ الالمان في عام ١٨٧٠ الى هذه الحيلة اذ اعلنوا انهم بثوا الالغام على
طول شاطيء البحر الشمالي مع انهم في الواقع لم يضعوا لغماً واحداً ولكن
ذلك الاعلان كان كافياً لادخال الذعر في الاسطول الفرنسى فظل مبتعداً عن
الشاطيء . اما اذا بثتم الالغام في مضائق البحر الاسود فقد يفلت احدها من
مرساه بفعل التيار القوي فينحدر الى القرن الذهبي فاذا أصاب احدى بواخر
النقل أو الركاب ووقعت كارثة اذن تسكونون حملتم انفسكم مسؤولية عظيمة
في نظر الرأى العام في جميع اوروبا .

فشكرت أمير البحر على تحذيره ذلك واخبرته ان الانسان لا يمكنه أن
يعول دائماً على نجاح مثل تلك الحيل كما انه لا يمكن مقارنة البوسفور بشاطيء
البحر الشمالي فان اسطول العدو لو وصل الى عله حقيقة الواقع واخترق
البواغيز كانت النتيجة ضرراً عظيماً لا يمكن اصلاحه .

ولست ابحت هنا فيما اذا كان أمير البحر عرض اقتراحه مراعاة للحالة
السياسية في ذلك الوقت أو انه كان فقط يعرب عن رأيه الفنى ولكن نظراً
لثقتى بزاهته وكونه لم يقترح الاقتراح عينه فيما يختص بالدردينيل (حيث
كانت للاسطول الانجليزى القوة الساحقة) فانتفى ميال الى اعتقاد - ان هذا
الاقتراح انما أملته الاعتبارات الفنية وحدها .

وكان الشطر الثانى من مفاوضاتنا مع مديري فيكرز وأرمسترونغ اللذين
حضرا الى الاستانة التوصية على دريد نوط من احدث طرز وطرادين خفيفين
وست نساكات وغواصتين .

أما الاتفاقات المتضمنة للطلاب التى طلبها خبائرونا الفنيون وخبراء

لمبس فقد وضعتها الشركتان . ثم امضى الفريقان العقود ووزعت صور منها .
وأوصينا ايضاً بالذخيرة اللازمة لالسفننا العميقة فحسب بل للناورات وتدريب
جيوشنا وللحرب عليها نفسها . وسمينا الدریدنوط (الفاتح) ونيط بالقومندان
حمدي بك مباشرة بناؤها . وحدد نهائياً تأريخ اختبار السرعة القصوى
(للسلطان عثمان) وقوة مدفعتها .

وكان جل غرضنا من هذه الاجراءات أن يكون لنا اسطول متفوق على
اسطول اليونان في أقرب فرصة . وقد بذلت ما استطعت من جهد في ازالة
المصاعب التي كانت تحول دون تحقيق هذا المشروع .

وحوالي هذا الوقت أبدت فرنسا رغبة في بناء سفن لنا . وبعد مناقشة
مع ممثلي شركة احواض ومصانع حديد البحر الابيض المتوسط الذين دعوتهم
الى الاستانة وصينا بصنع نساكات كما ابرمنا مع شركة كريسو اتفاقاً على
بناء غواصتين .

وتقرر أن يتم بناء الدریدنوط (فاتح) في اثنين وعشرين شهراً وان
تم القطع الاخرى الموصى عليها في انجلترا وفرنسا حوالي ذلك التأريخ تقريباً
أما الدریدنوط (سلطان عثمان) فتقرر أن تسلم اليانفي نهاية تموز سنة ١٩١٤
و (رشاديه) في افتتاح سنة ١٩١٥ . وسيكون لنا في سنة ١٩١٦ بمقتضى هذا
البرنامج اسطول جديد مكون من ثلاث سفن من طرز دریدنوط وطرادين
خفيفين واثنتي عشرة نساقة واربع غواصات كما سيكون لدينا اسطول آخر من
وحداتنا العميقة واذن يصبح لنا الاسطولان أقوى بكثير من الاسطول اليوناني
وبالاتفاق التام مع لمبس أعددنا برنامجاً واسعاً لتدريب وتعليم البحارة
الذين سيلتحقون بالسفن المشار اليها ولكن اتجه اهتمامنا الاول الى اصلاح
سفننا القديمة وتجهيزها للبحر باسرع ما يمكن .

وكان ذلك هو أول اهتمام المدير العام الانجليزي الذي كان قد استلم مام

العمل ، وأخيراً في يوم ٢٢ تموز سنة ١٩١٤ شاهدت اسطولنا المكون من
(المسعودية) و (بزباروس) و (طورغود) ينحدر من ميناء القرن الذهبي
مع نسافاتنا القامية وسفن الطوربييل . فارسلت السفن الى الجزر التي تقرر أن
تبدأ عندها تمريناتها البحرية بقيادة لميس .

وقد اقلقت بمجهوداتنا هذه باليونان . فشرعت تقوي اسطولها
واوصت في فرنسا على بناء سفينة دريدنوط تسلم اليها بعد مضي عامين وفي
المانيا ست نسافات وست سفن للطوربييل . ولم يكن ثمة خطر علينا من بناء
هذه السفن نظراً لأن (السلطان عثمان) ستصل الاستانة في منتهى اغسطس
وبذلك يكون لنا التفوق على الاسطول اليوناني . ثم مضى لاكثر من خمسة
أشهر أو ستة حتى يزداد هذا التفوق ونصبح الراجح لأن (الفاتح) ستوازي
الدريدنوط التي اوصت اليونان بصنعها في فرنسا . وقد شعر اليونانيون بحرج
مركزهم فبدلوا كل مجهود لمنع وصول (السلطان عثمان) الى الاستانة .

وبعد وصول (الجوبن) في منتصف شهر مارس في سنة ١٩١٤ ارسلت
انجلترا قائدها العام لاسطول البحر المتوسط أمير البحر دي رويك لتقديم
تحياته لجلالة السلطان .

فقدم على ظهر البارجة (انفسيل) ولست اذكر بالتحقيق - هل سألني
أمير البحر في غضون زيارته الرسمية لوزارة البحرية أو في الاجتماعات العديدة
التي عقدت بيننا فيما بعد عن الاجراءات التي اتخذناها لوصول (السلطان عثمان)
بسلام الى مياه الاستانة .

فقد أخبرني ان اليونانيين فزعون لوصول (السلطان عثمان) الى المياه
التركية . وانهم يريدون كل ما في استطاعتهم لحماية انفسهم من ذلك الخطر .
وقد صمموا بناء على ما تلقته من المعلومات أن يغرقوها في بوغاز جبل طارق
هذا اذا فشل مقصدهم في تحطيمها قبل اتمام اختباراتها النهائية في انجلترا واذا

اخفقت تلك المحاولة الاخيرة فيها جمونها بجميع اسطولهم حال وصولها الى المياه اليونانية . اذن فعليكم بالحرص التام ان اردتم الحصول على سفيتكم .

أما اليوم فاني لا أرتاب في أن الغرض الذي رمى اليه أمير البحر من وراء نصيحته هذه هو ادخال الذعر في نفسى الى حد العدول عن المطالبة بحضور (السلطان عثمان) الى الاستانة قبل ان يتم بناء (رشادية) ولكنى ظننت وقتئذ أن نصيحته أملتها الصداقة وانه لم يرد الا لفت نظري الى عظم المخاطر لاعداد الوسائل اللازمة للتغلب عليها .

والحقيقة ان التقارير التي وصلت الي من اعوانى في انجلترا وفي اليونان - بقطع النظر عن نصيحة أمير البحر - جعلت من اللازم اتخاذ كل الوسائل الاحتياطية لضمان سلامة (السلطان عثمان) اثناء سفرها من انجلترا الى الاستانة وبعد البحث مع لمبس تقرر أن يطوف اسطولنا في بدء اغسطس في البحر المتوسط حيث يقابل (السلطان عثمان) عند خط العرض الذى يمر بجزيرة كسريد .

وفي غضون زيارتى لفرنسا بمناسبة المناورات البحرية الفرنسية ارسلت في طلب رؤوف بك من لوندرة لمقابلتى في باريس وأسرت اليه تعليمات وضعها لمبس بصفته قائداً عاماً للاسطول . وقد عينت في هذه التعليمات الطريق الذى تسلكه (السلطان عثمان) عند اجتيازها بوغاز جبل طارق والموعده الذى تقابل فيه اسطولنا .

ولكن الحكومة البريطانية وضعت لسوء الحظ يدها في ٢١ تموز على الدریدنوط (السلطان عثمان) وبذلك جرى القلم في صحيفة القدر ألا تحقق الراية العثمانية على تلك البارجة العظيمة .

(محاولة ايجاد تفاهم فرنسي تركي)

ذكرت بايجاز من قبل كيف أن جمعية الاتحاد والترقي بعد الحرب البلقانية قررت التنحي عن السياسة السلبية القديمة وانتهاج سياسة ايجابية في الشؤون الخارجية والداخلية وكانت حجتها ما تبين للبلا بأن تلك السياسة هي الطريق الاوحد لانقاذ تركيا من المتاعب التي كانت تهددها من كل جانب ولتقويتها واعطائها المركز اللائق بها بين الامم .

ويخيل لي ان من اللازم أن آتي من جديد على النقاط الاساسية في السياسة الايجابية التي دفعت بالحكومة الى الاشتراك في الحرب العالمية .

أما من وجهة السياسة الداخلية فقد كان اهم ما شغل بالنا تقرير حقوق الاقلية - وهي عبارة مألوفة - وايجاد تفاهم ودي بينهم وبين الاكثرية . وقد استطعنا أن نضع أساساً للتفاهم مع العرب كما اشرت الى ذلك من قبل . واذا جاز القول بأنه لم يرض سائر الساسة العرب فلا جدال في أن غالبية مسلمي العرب الذين كانوا قلباً وقلباً منتمين للقضية الاسلامية اعتبروه كافياً .

وقد سويت مسألة الجنسية فيما يتعلق بالبلغاريين واصبح الانسان لا يرى بلغارياً واحداً في داخل حدود الامبراطورية العثمانية :

ومن جهة اخرى فان اليونانيين الذين وصل بهم الحق الى حد تسمية ملكهم بقسطنطين الثالث عشر وطمحوا الى احياء الدولة البيزنطية لم يتركونا في شك ما بأن ساعة الحساب الختامي معهم قد دنت فاصبح يتعين علينا اعداد الوسائل الاحتياطية من الآن حتى اذا حانت الساعة لا نصبح تحت رحمة خونة اليونانيين في داخل حدودنا .

فشرعنا في استبدال الرعايا اليونانيين في ولاية آيدين بمسلمي مقدونيا والجهات الاخرى وقررنا الدأب على تنظيم وتنمية الجيش والاسطول . ثم

سعيها لابرارم الاتفاقات مع الدول الاجنبية .

ولكن المسألة الارمنية كانت أهم مشاكلنا الداخلية . ووددت لو استطيع اقتناع القراء بكل ما لدي من الادلة بانها كانت المشكلة التي رغبت جمعية الاتحاد والترقي في حلها قبل غيرها من المشاكل بطريقة ترضى الارمن وتعود عليهم بالفائدة واني لاستطيع تقديم هذه الادلة كما يمكن أن آتي على الاسباب التي سدت طريق النجاح . ولكن أفضل ارجاء الخوض في هذه المسألة المهمة الى فصل خاص بها .

ولا يكاد انسان يسمع بمشكلة ارمنية إلا ويرى من ورائها مشكلة روسية ففي اجتماع لجنة بني كوى (المسكونة من تراجمة الدول العظمى الاولين) التي نيط بها اختيار نوع الاصلاح المراد ادخاله في ارمينيا اعتاد الترجمان الاول الروسي التثبيت بالحد الاعلى بينما زميله الالماني اشار باتباع الحد الادنى . واكتفى ترجمانا انجلترا وفرنسا من جهة والنمسا وايطاليا من جهة اخرى بالقيام بدور الوسيط . ولم تستطع اللجنة بعد اجتماعات عديدة الوصول الى نتيجة حاسمة فعرضت على السفارات التي تمثلها برناجماً اعلى وبرناجماً أدنى . ثم استمر البحث فيما بعد في الباب العالي بين سفيرى المانيا وروسيا وبين الصدر الاعظم بينما بقية السفراء انسحبوا من الاشتراك الجدي في المسألة قائلين أنهم يقبلون أى قرار يصل اليه السفيران اللذان يمثلان الحد الاعلى والحد الادنى .

فانفتحتنا تلك المسألة بأننا اذا اردنا حقيقة اتقاء شر روسيا فليس لنا وسيلة سوى اكتساب عطف فرنسا وانجلترا وخصوصاً الرأى العام فيها . ولم يكن يختر بيالنا مطلقاً أن يشب لظى حرب أوروبية وبالاولى لم يكن بدور بخلدنا ان المانيا قد تعلن الحرب على روسيا من اجلنا . بل كل ما جال بخواطرنا هو : (ماذا كانت المانيا تصنع عندما سمحت لحليفها بالقضاء على

أوهامنا بضمها البوسنة والمهرسكك بعد إعلان الدستور ببيعة ايام ؟ اليس
ايطاليا التي هاجمت طرابلس بغتة هي حليفة المانيا ولو لم تكن حليفة موالية ؟
ألم تعلن ايطاليا انها انما احتذت حذو النمسا ؟ ان الالمان يريدون أن يستغلونا
اقتصادياً فهم لا يترددون مطلقاً - مهما عظم الثمن - لمنع ما قد يهدد مصالحهم
فكل ما يرمون اليه من التدخل في مشكلة الاصلاحات الارمنية ليس إلا منع
النفوذ الروسي ان يمتد الى ما وراء سكة حديد بغداد . وفيما عدا ذلك لا يعقل
أن ينهض الالمان لمساعدتنا فيما لو تهددنا خطر .

ذلك هو ما ظنناه . وفضلا على ما تقدم - ألم تعلن المانيا في الوقت الذي
أردنا فيه الحصول على المال اللازم لانعاش تركيا ونهوضها بأنها عاجزة عن
مساعدتنا ونصحت الينا بالاحتفاظ بالعلاقات الحسنة مع فرنسا وابقاء الباب
الذي نلججه للحصول على الاموال من مصارف باريس مفتوحاً .

فلهذه الاعتبارات اعترنا أن نوطد العلاقات الحسنة مع فرنسا أولاً ثم
مع انجلترا وأن نقيم لها الادلة الاقناعية على أن غايتنا الوحيدة هي ادخال
الاصلاح في بلادنا ولنقتبث من حمايتها لنا اذا هاجمتنا روسيا .

وكننا شديدي الاهتمام بأن تسفر المفاوضات بين وزارة الخارجية
وحق باشا عن تسوية نهائية لسائر المسائل التي كانت موضوع النزاع بيننا وبين
انجلترا وكننا قد حددنا منطقتي النفوذ الانجليزية والتركية في خليج البصرة وفي
الشقة الجنوبية لشبه جزيرة العرب وسوينا مشكلة عدن بطريقة ارضت انجلترا
ولم نعارض في طلب انجلترا الخاص بمد سكة حديد بغداد الى البصرة
ولافي طرق الملاحة في نهري الدجلة والفرات . ومنحنا شركات انجليزية
امتيازات البترول في العراق وامتياز مد سكة حديد آيدين وانشاء عدة خطوط
جديدة وتحسين مينائي طرابزون وحصون وجثنا - كما ذكرت آنفاً - بمدير
عام انجليزي وعدة مفتشين من الانكليز لاصلاح وزارة الداخلية وتنظيم الخدمة

الملكية . وعين المستر جريفز - الذي أقام في تركيا زمناً طويلاً - مفتشاً عاماً
ونيط اصلاح نظامنا الكمركى بالسير ريشارد كروفورد وقرر تعيين عدد من
المفتشين الانجليز في الكمارك .

ولا ننس أننا اذا زدنا نفوذ البعثة البحرية الانجليزية التي دعوناها
لتنظيم اسطولنا واننا بدأنا نجنى ثمار مجهوداتها . وقد أعرب لي السير لويس
ماليت السفير الانجليزي - الذي تمكنت بيني وبينه عرى الصداقة - عن شكر
لمبس لي واعتماده في المستقبل الباهر الذي ينتظر الاسطول التركي .

وعهدنا بتنظيم دور صناعتنا الى شركتين انجليزيتين وأصبحت اللجنة
الادارية تحت زعامة السير ادم بلوك وهو رجل اشتهر منذ زمن بعيد بتشييعه
لمبدأ الصداقة بين تركيا وانجلترا .

وطالما أعرب لي السير بلوك عن ارتياحه لعمل وزارة البحرية بالاتفاقية
المبرمة بينها وبين الشركتين بدقة تامة حتى أصبحت المسألة بسبب ذلك على
أساس متين .

غير أن انجلترا أبت لسوء الحظ - نظراً لمعارضة روسيا - تلبية طلبنا
بارسال موظفين انجليز لادارة الولايات التي يقطنها الارمن .

واذ كنا نعزو نفور الشعب الانجليزي من حزبنا السياسى الى الدسائس
التي قام بها المترجم الأول فزموريس والملحق العسكرى تيريل على عهد السفير
الاسبق السير جيرالدوثر بادر الامير سعيد حليم باشا بسؤال السفير الجديد
السير لويس ماليت، في التوسط في نقل هذين الرجلين من الاستانة فوعد السفير
بانجاز الطلب في الحال وهكذا غادرا بلادنا بعد شهر . وتوطدت من ذلك
الحين العلاقات الودية بيننا وبين السفير الذى كان وديع الاخلاق أميناً شفوفاً
فوثقنا الروابط الخاصة وسعينا لازالة ما علق بنفوس الانجليز من سوء
التفاهم حيال الاتراك مؤملين أن نجد وسيلة نعيد بها انجلترا الى سياستها

السالفة التي كانت ميالة الى مساعدة تركيا وتقويتها ثم تحولت بعد التفاهم
الانجليزي الروسي .

وفضلاً عن ما بذلناه في الاستانة من المجهودات لتوطيد العلائق الودية
مع السفير وحاشيته وعدد من رجال الجالية الانجليزية لم ندخر وسعاً لاجتاد
صلات ودية مع رجال امثال السير توماس باركلي وهو من أشد المعارضين
في التفاهم الانجليزي الروسي ومن انصار فكرة الصداقة الانجليزية التركية
وكثيرين غيره من كبار الانجليز .

وعلى العموم فإن الحكومة عملت هي واعضاؤها بلا انقطاع بطرق
رسمية وغير رسمية لتقوية الصداقة مع الانجليز كما انها لم تدع فرصة إلا انتهزتها
لاجتاد تفاهم مع فرنسا .

فقد عهدنا منذ زمن طويل الى الجنرال الفرنسي باومان لتنظيم الجندرية
ووسعنا على التوالي دائرة نفوذه . ولكيما نرضى فرنسا طلبنا اليه القيام بتنظيم
الجندرية في لبنان الذي كان له مركز خاص .

ولما كان انشاء الطرق في داخل الامبراطورية العثمانية يبط بشركة فرنسية
استخدمت وزارة النافعة عدداً من المهندسين الفرنسيين وقررت زيادة مرتباتهم
ولكيما ننظم منزلنا المالي خولنا لجنة الاصلاح المالي نفوذاً واسعاً وهي
التي قبلناها منذ عهد قريب وبذلنا ما في استطاعتنا حتى لا يعرض على مجلس
المبعوثين قانون مالي إلا بعد موافقتها .

وبما أننا قصدنا من وضع موظفينا الماليين تحت المراقبة المستمرة أن
أن نغرس في نفوسهم الشعور بالمسؤولية والواجب عيناً فرسياً اسمه الميسو
جولي مفتشاً عاماً لوزارة المالية وشددنا ازره بعدد من المستخدمين الفرنسيين .
وقد بلغت بنا الرغبة في اكتساب صداقة انجلترا وفرنسا الى حد أننا
ما كنا لنتردد لحظة حتى في أن نتوط ببعثة فرنسية لتنظيم جيشنا لو ان ذلك كان

مستطاعاً بوجه ما ولكنه كان في الواقع أمراً مستحيلاً . - أولاً - لأن عدداً كبيراً من ضباطنا آتموا تعليمهم في المانيا وتمرن الباقون منهم طبقاً للاساليب العسكرية الالمانية . ومن الامور التي أجمع عليها الخبراء استحالة تغيير نظام الجيش بعبء وعلى الاخص ادخال النظم الجديدة فيه بعد أن تم تعليمه وتدريبه طبقاً لاسلوب خاص والا أدى ذلك الى فوضى كبرى . - وثانياً - لأن طلبنا رسمياً من المانيا في وزارة شوكت باشا أن ترسل الينا بعثة عسكرية لتنظيم جيشنا . فلم يعد في وسعنا أن نتردد بعد .

وفضلاً عما سبق قد كان من الحق بمكان أن نعضب دولة لا تقصد بنا شراً لا لشيء سوى ارضاء حكومات آخر ربما كن تفكرن في الايقاع بنا . فلهذه الاعتبار لم نرغب في الغاء ما تقرر بشأن الجيش وضرربنا بالوضوء التي اعقبت وصول بعثة المارشال فون ساندرس العسكرية عرض الحائط .

وبينما نحن نقدم للحكومة الفرنسية كل المزايا المادية التي طلبتها في مقابل القرض اذ سعينا من جهات اخرى لتحويل الرأي العام الفرنسي لمصلحتنا . من ذلك أننا بالرغم عما قد يعترض به علينا من الوجهة الفنية من الحصول على بوارج حريية من طراز مختلفة لم نتردد في التوصية على ست نسافات في أحواض الهافر وغواصتين في شركة كريسوت ارضاء لفرنسا . كما أننا بادرننا بالتوصية على صنع عدة مدافع جبلية فرنسية بعد ان اكد لنا خبيرنا القائد حسن رضا باشا تفوقها على مدافع كروب . زد على ذلك اننا عهدنا الى الخبراء الفرنسيين باشاء مدرسة للطيران البحري وابرمنا مع شركة فرنسية اتفاقاً على صنع اثنتي عشرة طائرة مائية .

واخيراً كونت بنجاح تام جمعية سميتها (جمعية الصداقة الفرنسية التركية) وقررت ان تجتمع بالتعاقب في الاستانة وفي باريس وكنت في اثناء انعقادها في الاستانة اراس جلساتها أما في باريس فكان يرأسها الميسو كربي

وزير الخارجية سابقاً .

وعينت بوضع قانونها لجنة في الاستانة سميتها اللجنة التأسيسية . وكان بين اعضائها ليف من كبار الفرنسيين والترك . ولما تم وضع البرنامج وأخطرت اللجنة وزارة الداخلية بمراميتها واغراضها أقامت حفلة الافتتاح في غرف النادي بدار الاتحاد الفرنسي في حي بيلا . وهناك بدى في انتخاب اللجان الفرعية . وكان البرنامج شاملاً حيث لو نفذ بحذافيرها لكان خير أداة لتحسين العلاقات الفرنسية التركية تحسناً تاماً في عام أو عامين .

وفي ذات يوم - حوالي منتصف تموز سنة ١٩١٤ - زرت السفارة الفرنسية فاذا بالسفير المسيو بومبار قد فاجأني بهذه العبارة :

(ان الحكومة الفرنسية ترحب بالمجهودات العديدة التي بذلتها لتحسين العلاقات الفرنسية التركية وترغب في دعوتك الى فرنسا للتعرف بك وتقديمك رسمياً الى الشعب الفرنسي . فهل تود الحكومة التركية أن ترسل اليك دعوة لحضور المناورات البحرية الفرنسية التي ستبتدىء في منتصف شهر تموز ؟ انني أريد التثبت من موافقتك قبل عرض الامر على الصدر الاعظم) .

فاجبته بأنني اقبل الدعوة بارتياح تام فيما لو رضى الصدر الاعظم وصرح جلالة السلطان .

ولم تمض إلا أيام قلائل حتى ابلغ المسيو بومبار الباب العالي رسمياً دعوة الحكومة الفرنسية .

وفي نفس هذا الوقت حدثت جناية سيراجيفو . فسألت الصدر الاعظم تزويدي بالتعليمات اللازمة عن الخطة التي اتبعها في باريس وخصوصاً عند اجتماعي بوزير الخارجية .

فاجابني قائلاً : (انك تعلم آراءنا السياسية جيد العلم فلا يفوتك أن تؤكد في كل مناسبة مقدار ما نعلق من الاهمية على صداقة فرنسا والمزايا التي

تؤمل احرازها من السياسة الفرنسية في صدد التسوية المنتظرة لمشكلة الجزر
وهي المسألة التي تهمنا أهمية حيوية . فعملياً أن تبذل كل وسعك في لفت نظر
وزير الخارجية الى تلك المسألة الحساسة) .

ثم غادرت الاستانة مع ضابطين بحريين في اواخر حزيران قاصداً
باريس رأساً فوصلت اليها في اوائل تموز .

وفي باريس رأيت رؤوف بك وواصف بك وكنت امرتهما بمقابلتي
ولما أعطيت رؤوف بك التعليمات لتحديد موعد اختبارات السرعة وتجربة
مدفعية (السلطان عثمان) بأقرب فرصة مستطاعة أخبرني انه لحظ وجود حالة
عقلية غريبة بين الانجليز . فهم لا يفتأون يتتخلون المعاذير كل يوم لتأخير
انجاز المدرعة وتسليمها . فاجبته بأن الحالة تقضى علينا باستعمال اليقظة التامة
في تلك المسألة اذ من الضروري الحصول على المدرعة بأسرع ما يمكن .

وقد ابلاغنا الشركة المكلفة ببناء المدرعة السالفة الذكر انها لا تستطيع
في الوقت السابق تعيينه تركيب مدفعين من المدافع الاربعة عشر التي تتكون
منها مدفعية المدرعة . فاصدرت لرؤوف بك عدة تعليمات في ذلك الصدد
واجبت على خطاب الشركة قائلاً : اننا نسمح باجراء الاختبارات بدون المدفعين
المذكورين اللذين يمكن تركيبهما في الاستانة وكلفت رؤوف بك بالعودة
الى انجلترا وأبقيت معي وواصف بك .

وبعد يومين قضيتهما في باريس ذهبت الى طولون فقابلت أمير البحر
لايرير القائد العام للاسطول الفرنسي . فاصطحبني الى مدرعته (كوريت)
ولا انسى ما حيت تلك الايام الثلاثة بلباليهن التي قضيتها مع الاسطول بالقرب
من شاطيء الريفير البديع . كما اني لا استطيع أن اوفي أمير البحر حقه من
الثناء على ما اظهره نحوى من الكرم والخفاوة .

ثم استعرضنا البحارة . وبعد مضي الايام الثلاثة ودعت أمير البحر

وعدت بطريق السكة الحديدية فتمضيت اربعة ايام في زيارة مصانع المدافع والبنادق و محال بناء الغواصات و عدت الى باريس . ولم تفتني زيارة احواض الهافر قبل ١٤ تموز

و في غضون اقامتي في باريس قابلت وزير الخارجية فيمفاني عدة مرات فنظر إلي في المقابلة الثانية نظرة ذات مغزى و فاجأني قائلاً :

(يا صاحب السعادة رغماً عن رغبتى الشديدة في مباحثتك في عدة أمور على جانب عظيم من الاهمية - ان المناقشات الدائرة في مجلس النواب تشغلني الى حد لا استطيع معه الالتفات الى أي شيء آخر . فمن المهم جداً أن اصحب رئيس الجمهورية الى روسيا . بيد أن الاشتراكيين سيعارضون في ذلك و سيرفضون حتما التصويت للاعتماد اللازم للسياحة . وقد زودت المسيو مارجيرى مدير الشؤون السياسية في الوزارة بالتعليقات الكافية و طلبت اليه أن يبحث كل شيء مع سعادتك . و اكون شاكراً لك لو تفضلت بتلبية رغبته في مقابلتك) .

فظننت أن آمالي و رغباتي اصبحت وشيكة التحقيق و طرت فرحاً لذلك الطلب . و ما اسرع ما قابلته في زارة الخارجية .

فاول ما ابلغنيهِ المسيو مارجيرى - هو أن الحكومة و الشعب قابلا بابتهاج تام المساعي التي بذلتها لايجاد تفاهم بين تركيا و فرنسا و ان ما علق من سوء التفاهم بنفوس الشعبين يمكن أن يقال انه زال تماماً .

فقاطعته قائلاً : (اسمح يا جناب المدير بالدخول في الموضوع رأساً انك تعلم تماماً الضعف الذي اعترى الامبراطورية العثمانية عقب الهجمات العديدة التي قام بها اعداؤها . فهي لم تخرج من الحرب البلقانية منهوكة القوى فحسب بل انها ارغمت على تضحية كل اراضيها في اوروبا عدا معظم الجزر و اتنا الآن نوالي السعي لدمل الجرح الدامى وبعث روح جديدة في الشعب .

على ان الحالة السياسية الحاضرة تكاد تجعل كل هذه المساعي ضرب لاذب .
فترانا مسوقين للتخلص من ذلك الموقف الخطير .

اننى اريد أن اخوض أولاً فى مسألة الجزر التى هى موضوع النزاع
بيننا وبين اليونانيين . فاتم تظنون أن الكياسة تقضى بتعزيم اليونانيين
وايلائهم عطفكم على أمل الاستفادة منهم فى المستقبل . ولكنك لو تفضلت
بالقاء نظرة على الخريطة لرأيت أننا قد نكون يوماً ما انفع لكم منهم . ان
الحكومة العثمانية تظن أن الغاية التى ترمى اليها سياسة فرنسا وانجلترا هى
تفليق دولتى الوسط بحلقة حديدية . وهذه الحلقة مفرغة فيما عدا الجنوب الشرقى
فلو انظمت تركيا الى مشروع الحلفاء لاضطرت بلغاريا التى تجد نفسها وقتئذ
فى عزلة فى البلقان الى الانضمام أيضاً .

فان ارادت فرنسا أن تكون الحلقة مفرغة فلتفكر فى تسوية مسألة
الجزر . عليكم أن تضمونا الى تحالفكم وان تقونا فى الوقت نفسه عواقب
الايثار التى تهددنا من جهة روسيا . انكم ان ايدتمونا فى مجهوداتنا أصبح
لكم حلفاء أمناء فى الشرق !! إن جنابة سيراچيفو قد تؤدي كما يخيل لى الى
حرب عالمية . فمن الاهمية بمكان فى ظروف كهذه أن يبت فى هذه الامور
باقصى السرعة !) .

وكان اقتراحى صريحاً جلياً . فينبغى فى مسألة الجزر وضع تسوية تقبلها
اليونان و تركيا على السواء ويعقب ذلك عقد تحالف مع تركيا . ووقتئذ تفقد
المانيا كل صلة بالشرق .

فاطرق المسيو مارجيرى مفكراً ثم سألنى عن التسوية التى نريدها
للجزر فاجبته ان من الممكن منح الارخبيل بما فيه جزر الدوديكانيز (التى
ينبغى أن تردها ايطاليا لنا) استقلالاً ذاتياً تحت السيادة العثمانية وتخصيص
ايراداته للقيام بشؤونه . وفى الاستطاعة منحه امتيازات اخرى مع معافات

سكانه من الخدمة العسكرية . وفي النهاية أجاب المسبو مار جيري قائلاً :
(أرى ان الاقتراح الذي عرضه فيما يخص بالجزر جدير بأن ينظر
إليه بعين جدية . لأن تسويتها - كما يتراهى لي - ممكنة على هذه القاعدة .
وأراك قد أصبت المرمى في الطوق الحديدي الذي نريد وضعه حول
امبراطوريتي الوسط . بيد أنه لا بد لنا قبل عقد محالفة معكم من الحصول على
موافقة حلفائنا . وموافقتهم هذه مشكوك فيها . ان اقتراح الحكومة التركية
هو بلا جدال في غاية الصراحة وسأعرض ملاحظاتيك هذه على حلفائنا قبل
أن اصحب رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء في سياحتهما الى روسيا . وسنرسل
حتماً الى سفيرنا كل التعليمات اللازمة متى وصلنا نحن وحلفاؤنا الى قرار نهائي
ولسوء الحظ لا تستطيع الحكومة الفرنسية في الوقت الحاضر أن تشرع في
عمل ما على انفراد) .

ولا يخفى علي ان ذلك الجواب لم يكن سوى رفض مقنع فأدركت تماماً
أن فرنسا كانت تعتقد أن من المستحيل أن نفلت من محالب روسيا الحديدية
فلذلك ضنت علينا بالمساعدة .

وفي مساء ذلك اليوم سألتني صديقي جورج ريموند الذي لازمني ايها
ذهبت في خلال وجودي في فرنسا عما اذا كنت مرتاحاً لنتيجة الاجتماع .
فاجبته باختصار :

(أنني لم يكن يدور بخدي أنني سأحبط ذلك الجبوط الخزي) .
وعندما غادرت باريس في يوم (١٨ تموز) عائداً الى الاستانة سلمني
جورج ريموند ونحن في المحطة نشرة صغيرة بقلم كاتب فرنسي رمز الى نفسه
باسم مستعار وقد جاءت فيها هذه الفقرة .

(لقد حضر جمال باشا الى باريس وشهد مناورات اسطول البحر المتوسط
وبالفت السلطات الرسمية والشبهية بالرسمية في اكرام وطاقته حتى انه انعم عليه
بوسام الشرف . كل ذلك حسن ا و لكن ما تمة تلك الوعود العملية التي يعود
بها الى بلاده التي يحبها ويحملها فوق كل شيء ؟ لطالما سمعنا أن جمال باشا هو
أحد كبار الانراك المفتونين بحب بلادهم . فالحجالات العديدة التي انهالت
عليه لا يمكن أن تكون أنسته المزايا التي جاء اليها مؤملاً بحبها . فإذا عاد
اليوم الى بلاده دون أن يكون قدم لها خدمة فلا يحق لنا أن نتبرم اذا رأيناها
يلجأ في المستقبل الى وسائل قد لا ترتاح لها فرنسا) .

فما أصدق فراسة ذلك الكاتب الفرنسي ؟

وما كادت أصل الى الاستانة حتى رفعت الى الصدر الاعظم والى
أصدقائي تقريراً مفصلاً بمحادثتي مع المسيو مارجريري والنتائج التي استنتجتها .

(المحالفة التركية الالمانية)

لم تبرم المحالفة التركية الالمانية في خلال الحرب كما اعتقد كثير من
الناس . نعم انها امضيت في الثاني من شهر آب سنة ١٩١٤ ولكن المفاوضات
كانت مستمرة بصددتها قبل الحرب بزمن .

فبعد عودتي الى الاستانة بايام سألني طلعت باشا قائلاً :

(ما رأيك يا باشا لو أن المانيا اقترحت علينا عقد محالفة على شروط
كيت وكيت ؟ أتوافق ؟ ألا ترى أنت أيضاً أننا لا يمكننا التمويل على فرنسا
في شيء ؟ والآن وقد رفضتنا فرنسا هل ترفض اقتراح المانيا ؟) .

فاجبت : (لا أظني ارفض محالفاً يتخذ تركيا من عزلتها الحاضرة) .

وفي غضون الاستعراض العسكري العظيم الذي اقيم في يوم ٢٣ تموز
بمناسبة العيد الوطني اقترب مني السفير الالماني البارون فون فامجينهم قائلاً :
(بربك انظر يا جمال باشا الى النتائج المدهشة التي احرزها ضباطنا في
هذه المدة القصيرة ! فلديكم الآن جيش تركي يمكن مقارنته بخير جيوش العالم
المنظمة . وقد اجتمعت كلمة الضباط الالمان على اطراء الشجاعة الاديبة التي لدى
الجندي التركي . والواقع ان البرهان قام عليها الى اكثر مما كنا نتوقع . اذن
فنعبر اتنا احرزنا انتصاراً باهراً لو استظننا ان نسمي انفسنا حلفاء حكومة
لديها مثل ذلك الجيش المنظم !) .

ولم يدر بخلدي وانا اقدم شكري للسفير ان المفاوضات كانت دائرة
منذ زمن بعيد لعقد محالفة تركية المانية .

ولم تمر إلا أيام قلائل حتى رأيت وأنا آخذ في امتطاء سيارتي أمام
المنزل في جهة شيشلي سيارة اخرى جلس فيها انور باشا وطلعت باشا وخليل
بك وقد دارت حول حديقة عثمان بك الى الشارع المؤدي الى منزل انور باشا
وكانت آتية من جهة ماسلوك . فعمجبت كيف يجيئون الى ذلك المكان في هذا
الوقت وكان يجيئهم على ما يظهر من ناحية قصر الصدر الاعظم في بني كوي .
فتبادر الى ذهني في الحال ان اصدقائي ربما كانوا يتناقشون في أمور لم يشاؤوا
اطلاعي عليها .

ولم يكن حدث الى الآن ما يدعو الى الشك . فلما عدت الى المنزل
سألت انور باشا تليفونياً الى أين كان ذاهباً في تلك الساعة المتأخرة . فاجاب
انه كان يقطع الوقت بزيارة الصدر الاعظم واذ قابل طلعت باشا وخليل بك
عادوا معاً فقويت شكوكي بسبب رده هذا .

تم دعيت بهر ظهر اليوم التالي لحضور مجلس الوزراء الذي عقده
الصدر في قصره . فلما ادركت كشك ايا باشا هطلت السماء مدراراً وعلا الريح
حتى لم استطع متابعة السير في سيارتي ولم تشهد الاستانة مثل هذه العاصفة
منذ زمن بعيد . فعدت الى وزارة البحرية وذهبت الى بني كوي في زورتي البخاري
فبادرتي الصدر قائلاً : (اين كنت يا جمال باشا ؟ فانا لبثنا في انتظارك
أمدأ طويلاً وقد انصرف الوزراء منذ برهة . ولما علمنا من الوزارة بأنك
قاصد الى هنا خشينا أن يكون أصابك أمر من جراء العاصفة . واني سأقص
عليك نبأ أحسبه سيكون موضع دهشتك . فهل في استطاعتك التمكن به ؟)
وبعد تفكير قصير قلت : (يجبل الى انه يتعلق بما قررته أنت وانور
باشا وطلعت باشا وخبيل بك في اثناء غيبي ولكن لا علم لي به) .

فقال : (ان الحكومة الالمانية عرضت علينا عقد مخالفة ونظراً لأن
الاقتراح في مصلحة الوطن فدوقعنا اليوم عقد الاتفاق مع السفير فوق فأنجهم
فهل توافق على ذلك ؟

فاضطربت حواسي لتلك الانباء الخطيرة التي لم اكن متأهباً لسماعها
وقلت : (اذا كانت نصوص المعاهدة تنفق حقيقة ومصالح الوطن فيمكن
اعتبارها نجاحاً سياسياً باهراً) .

فقال : (انها معاهدة تراعي مصالح الطرفين وتضمن حقوقهما بطريقة
لم تعرف عن حكومة ما) .

ثم تراجع الى مكتبه واستخرج من أحد أدراجه صورة المعاهدة التي
تضمنت عدة مواد . فقرأتها وتحققت انها عقد جليل بين حكومتين مستقلتين
على اساس المساواة في جميع الحقوق .

ثم تساءلت (وما رأى النمسا ؟) .

فقال : (بعد انصراف زملائي بزمن قليل وقيل بجيمك بنصف ساعة تسلمت خطاباً من السفير بالافيسيني اخبرني فيه أن حكومته توافق على كل ما جاء في العقد الذي أبرمناه مع المانيا . واليك الخطاب) .

فلم أملك نفسي من التساؤل (وإيطاليا ؟) .

فقال : بما أن المانيا لم تعلم بعد إيطاليا بدخولنا في التحالف الثلاثي فليس لدي الآن معلومات ما في هذا الصدد . وستمهد المانيا الطريق أولاً ولا يخامرني الشك في أن إيطاليا ستقبل محالفتنا كما قبلتها النمسا) .

ثم تساءلت عن السبب الذي حدا باخفاء امر المفاوضات عني مع انها لابد أن تكون دارت منذ مدة قبل أن تؤدي الى هذه النتيجة .

وقدم الصدر الاعظم بهذا السؤال قائلاً : انه هو الذي أدار بنفسه دفعة المفاوضات وانه لم يشأ أن يفضي الى زملائه بشيء ما قبل ان تأخذ المسألة شكلاً معيناً وانهم لم يعرفوا شيئاً مما دار إلا في ذلك اليوم فقط . ثم قال : (ولا يزال جاويد بك يجهل الامر جهلاً تاماً . وقد سأله أن يجيء الى هنا وهو الآن في طريقه الينا ومتى حضر أطلعه على المعاهدة) .

فسأله : (اذن كان الوزراء كلهم واقفين على جلية الخبر) .

فقال : (نظراً لوجود بعض الوزراء قد يهولهم مثل ذلك المشروع المهم الى حد أن ييوحوا بهذا السر الذي يعتبر من امرار الدولة - وهو امر غير مرغوب فيه أصلاً في الوقت الحاضر - قد رأيت من الواجب ان اخبرك انت وسماحة شيخ الاسلام وخليل وطلمت وجاويد وأنور فقط واخفى الامر عن الوزراء الآخرين واحسبك تعرف ضرورة السير بمحذر تام في مثل هذه

المسائل الدقيقة . والآن وقد أحطت علماً بكل شيء هل لك أن تصارحني برأيك
طاجته قائلاً : (أسأل الله أن يجعل ذلك في مصلحة الوطن والخير
فيما وقع) . ولم أتوان في تهنئة الصدر الاعظم على ابرامه تلك المعاهدة التي
كانت بلا سراة ذات مغزى تاريخي عظيم .

وقد شغلت جد الاشغال بهذا الحادث المهم بل استطيع أن اقرر انني
لم اذق طعم التوم في تلك الليلة . فقد استعرضت امامي الحالة السياسية العامة
وسألت نفسي عن بواعث الحكومة الحقيقية لأنني رأيت نفسي أزاء حالة
لم تخاطر بيالي حتى الآن .

وكانت الشواهد كلها تدل على أن التصادم العنيف بين دول التحالف
التلاتي والاتفاق الودي أصبح لا مفر منه . فلو بقينا احراراً غير مقيدين
حتى ذلك الوقت امكنا بمحض ارادتنا الانضمام الى الفريق الذي يمرض علينا
شروطاً ملائمة . اما الآن فقد بمتنا في الامر مقدماً ووقع الاختيار على الشريك
ونتيجة ذلك هي اتنا حرماننا حرية الاختيار . فهل الفريق الذي اخترناه
هو الذي يحقق اماننا الوطنية ؟ وهلا كان من المتوقع لو انتظرنا الى حين
اعلان الحرب أن يمرض الفريق الآخر اقترحات اكثر ملائمة ؟ الا كنا
نؤدي لوطننا خدمة أجل بقبولنا تلك الاقتراحات ؟

فلما بنا بالرغم من كل ما أبدته جبالنا من العطف الظاهري لم تهض
لمساعدتنا فعلا بل اوصتنا على الدوام بالاحتفاظ بالعلائق الودية مع فرنسا .
فليت شعري ما الذي يحملها الآن على محالفتنا ؟ وفوق ذلك لماذا تمرض علينا
تحالفاً يخول الحكومة الثمانية نفس المنزلة التي لالمانيا والنمسا ؟ ما الذي حدا
بهاتين الدولتين الى تقديم تلك التضحية ؟ هذه الاسئلة كلها جاشت بنفسي

الاجابة عليها . .

و بعد لأي استنتجت النتيجة الآتية : ان هناك حقيقة لا يستطيع أحد انكارها وهي ان روسيا هي العدو الوراثة للامبراطورية العثمانية وان اقصى ما تطمح اليه هو الاستيلاء على الاستانة ومن المستحيل حملها على الدول عن هذه الامنية . فعد معاهدة برلين ادركت روسيا ان الاستيلاء على الاستانة اصبح مستحيلا فحوت اطعامها نجاه الهند . ولما سدت السياسة الانجليزية الماكرة هذا الطريق امامها ولت وجهها شطر الشرق الاقصى ، بيد ان اليد التي مدتها روسيا نجاه بورت آرثر انهار عليها اليابانيون فوسعوها ضرباً ولكما حتى اضطرت روسيا الى سحبها فلم يبق أمامها بعد كل هذه التجارب سوى ان تمود الى تحقيق حلمها الاذلي فجعلت تمد المعدات الماثلة لاكتساح تركيا المسكينة وهي الغنمة التي منت نفسها بها منذ مئات السنين أما حليفاتها فبدلاً من معارضة مشروعها ذلك وافقتاها عليه . وقد تغيرت الظروف عما كانت عليه وقت حرب القرم ومعاهدة برلين . فأنجلترا المسيطرة على وادي النيل كانت تنظر الى مشروعات المانيا الاقتصادية في خليج البصرة بعين القلق الذي فاق قلقها من جراء مطامع روسيا في الاستانة او في الاناضول . وقد تقرر ان تمنح روسيا الاستانة عوضاً عن العراق . ولم تكن فرنسا لتقف حجر عثرة في سبيل تقسيم تركيا متى اطلقت يدها في سوريا .

فالخطة الاساسية التي عملت بها روسيا التي بدأت ترى قرب تحقيق مطامعها كانت تنحصر في عزلة تركيا وعمل كل ما يقضي الى ضعفها .
ليس ذلك اذن هو الباعث الوحيد لرفض الميسو مارجريري - أو بالاحرى الميسو فيفاني - اقتراحاتي ؟ ولمعري لم يكن في استطاعة فرنسا

وأنجلترا اذا رغبتا ارضاء روسيا ان تفعلنا غير ذلك . هذا هو السبب في اني
- انا الذي لم اتوقع اية فائدة من المانيا - لم اقبل الا بالرفض الصريح من
فرنسا التي التجأت اليها لاعطائنا ضماناً ضد روسيا . وقد اعلنت إنجلترا عند
رفضها ارسال الموظفين الذين طلبناهم للولايات الشرقية في آسيا الصغرى انها
لا تفعل ما يخالف الرغبات الروسية . زد على ذلك ان احدى الاماني العزيزة
التي شغلت بال إنجلترا هي أن ينتقل لقب (خليفة الاسلام) من السلطان
العثماني الى فرد عادي في احد البلاد الواقعة تحت نيرها . والحقيقة ان سلطة
السلطان التركي قد اقلقتها كل القلق في السنوات الاخيرة .

فلهذه الاعتبارات سميت للحصول على معارضة فرنسا وإنجلترا فيما
لوهاجتنا روسيا . وفيما انا غارق في تلك الخيالات اذ بزملاني تعرض عليهم
اقتراحات مهمة وصریحة وهي التحالف مع دول التحالف الثلاثي او بالحري
التحالف مع المانيا .

فالمانيا تلك الامبراطورية القوية البأس تعرض علينا عقد تحالف على
قاعدة المساواة - ونحن الذين سعينا منذ ستة أشهر للتخلص من عزلتنا
والانضمام الى فريق من الدول - فحاولنا عبثاً ان نمقد مع بلغاريا تحالفه . فبينما
انفسنا ان نحرز بمقتضاها مزايا عديدة .

اما انا شخصياً فقد اتبعت سياسة ودية حيال دول الاتفاق الثلاثي
ومع ذلك فهل كنت اجد من القوة المعنوية ما يكفي لرفض مثل ذلك الاقتراح
لو انه عرض علي شخصياً . وهل يكون مثل ذلك الرفض الا ضرباً من الجنون
فلنبحث المسألة بهدوء وصراحة .

ماذا كان موقف فريقى الدول حيال تركيا ؟

هذه انجلترا بين دول الاتفاق أصبحت لها السكبة في القطر المصري ولن
تألو جهداً في - الحصول على العراق بل فلسطين أيضاً وتوطيد نفوذها في جميع
انحاء شبه جزيرة العرب .

وأما روسيا فإن عداها لتركيا أشهر من أن يلتبس الانسان الادلة عليه
فهذه الاعتبارات لانشير الى حسن النيات حيال تركيا . واذا نظرنا الى دول
التحالف الثلاثي رأينا أن النمسا وايطاليا لم تبق لها مطامع اخرى نحو تركيا
فقد قدما لنا كل ما استطاعته من الاذى . فلم تبق بهما حاجة الى مطمع جديد
وكل ما يمكن أن يقال : ان ايطاليا ربما حدثت نفسها بأمر تتعارض ومصالح
دول الاتفاق الودي (في شواطئ ارضاليا وفينيقيا مثلا) .

أما المانيا فهي بقطع النظر عما يقال عكس تلك الدولة الوحيدة التي
ترغب في رؤية تركيا عزيزة الجانب . ولا يمكن ضمان مصالحها الا بتقويتها .
فهي لا تستطيع أن تستولي على تركيا كما لو كانت مستعمرة لأن المركز
الجغرافي والموارد الالمانية يجعلان ذلك مستحيلا . فلما نيا تعتبر اذن تركيا
بمثابة حلقة في سلسلتها التجارية ولهذا أصبحت من اشد أنصارها ضد حكومات
الاتفاق التي حاولت تمزيقها خصوصا لأن تصفية تركيا كان معناه تطويق
المانيا بصفة نهائية . والفضل في كون جنوبي المانيا الشرقي لا يزال مفتوحاً
لتركيا وحدها . فالطريق الوحيد الذي تدرأ به المانيا ضغط الطوق الحديدي
هو اذن في منع تمزيق تركيا .

وهكذا أصبحنا حيال فريقين من الدول اراد أحدهما ابقاءنا تحت نيره
وأراد الفريق الآخر التقرب منا لادراك بضع مزايا معينة في المستقبل ولا برام
معاهدة على اساس المساواة في التعهدات والحقوق .

فهل كان الرفض ممكناً ؟

فالمرزايا تلك المعاهدة - هي ان دول البلقان الصغيرة لن يجترىء

بحال ما على التدخل في شؤون حكومة تنتمي الى مثل ذلك التحالف القوى وهذا يكفل لنا العيش بسلام .

والمزية الثانية - هو انه لا يمكن احدي دول الاتفاق الودي أن تفكر في الاستيلاء على بلادنا خشية نشوب الحرب الاوروبية العامة . زد على ذلك ان علماء المانيا وخبراءها التجاريين يصححون تحت تصرف تركيا . وبذلك لا يمضي زمن طويل حتى تتخلص من قيود الامتيازات .

ومع أن هذه المخالفة تجعلنا اعداء لدول الاتفاق الودي عند نشوب الحرب الاوروبية فان ذلك لا يضيرنا متى امكن تأخير التصادم الى خمسة أو عشرة أعوام حتى يتم تعزيز حصون البواغيز وشواطئنا المختلفة وتقوية الجيش واستقلال بلادنا الى حد لا يمكن معه التردد في الاشتراك في مثل تلك الحرب أما لو استعرت نار الحرب في خلال اسبوع أو اثنين أو شهر أو شهرين - أفلا نجد انفسنا في موقف خطير - نظراً الى أن ضعفنا الحاضر - اذا اشتبكنا في حرب ضد روسيا وانجلترا وفرنسا ؟

ألا يجوز أن تكون مبادرة المانيا لعقد مخالفة معنا لأنها تشعر أن الحرب واقعة في القريب العاجل ؟

ليس ثمة شك في ذلك ! فان الذي يدفع بالمانيا الى عقد تحالف معنا على اساس المساواة في الحقوق وبذفس الشروط الواردة في عقد التحالف الثلاثي لا يمكن أن يكون لشيء سوى انزعاجها لتأهبات خصومها . فلا بد أن تكون شعرت بوجود تقوية مركزها بكل وسيلة مستطاعة . والا فلا يعقل أن تحمل دولة رشيدة مثل المانيا على كاهلها عبئاً ثقيلاً كتركيا حياً في سواد عيون الاتراك أو رغبة في تقديم خدمة للسلطان التركي !! .

اذن فنشوب حرب اوروبية عامة في القريب العاجل يعتبر نكبة علينا . ومع ذلك لو وزنا المزايا والمضار لتبين لنا ان البلاد تستفيد بلا ريب

من عدم رفض المشروع . فلو كنت في مكان زملائي لفعلت ما فعلوا أي لقبلت تلك المخالفة بلا تردد . وكنت احتاط في نفس الوقت في وضع بضعة تحفظات في المعاهدة كأن اشترط لقبولنا الموافقة ان الحرب الاوروبية مثالا لو نشبت في غضون عامين من تاريخ توقيع المعاهدة وتبادل الوثائق فان تركيا تحتفظ بخطة الحياد الودي حيال دول التحالف الثلاثي وتتعهد بمساعدتها أديبا بتعبئة الجيش واقفال البواغيز في وجه السفن التجارية والحربية . فاذا استمرت الحرب اكثر من عامين تتعهد تركيا بالاشتراك فيها ضد دول الاتفاق الودي أما لو نشبت الحرب العامة بعد عامين من تاريخ التصديق على المعاهدة فان تركيا تتعهد بتنفيذ شروط المخالفة في الحال .

وبالطبع لا نستطيع البت فيما اذا كانت المانيا توافق على هذه الشروط أو ترفضها .

وبعد امعان النظر طويلا وتحليل كل شيء من جميع وجوهه رددت لنفسى العبارة التي قلتها للصدر الاعظم وهي : (اسأل الله أن يجعل تلك المخالفة في مصلحة الوطن) وفي النهاية اقررت هذه الحالة الجديدة تماما . ولما كانت مذكراتي هذه بينت لكل من كان له أذن تسمع متى وكيف ابرمت المخالفة بين الحكومة العثمانية والمانيا يمكن الانسان أن يسخر بما نشره للعالم المستر مورجنتاو السفير الامريكى وما ندلستام المترجم الاول للسفارة الروسية من السخف الذي لم يستند إلا الى لفظ العامة .

(بعد نشوب الحرب العالمية)

(اعلان الحرب وتمتة الجيوش التركية)

لما رأَت النمسا ان المذكرة الصربية غير مرضية عبأت بعض قواتها فلما أجابتها روسيا بالتعبئة العامة - التي حدثت بالمانيا - وفرنسا الى التعبئة لم يبق

ثمة شك في اننا أيضاً سنشتبك في الحرب الاوروبية العامة .

وبعد أن اعلنت المانيا الحرب على روسيا في اول آب سنة ١٩١٤ وجدنا انفسنا ملزمين بحكم المعاهدة التي لم يحف مدادها بعد على خوض المعركة في الحال . لأن المخالفة حتمت اشتراكنا مهما كانت اسباب الحرب . فتعين علينا الاشتراك بكل قوتنا في القتال الذي خاضت غماره المانيا والنمسا . ومع ذلك أردت تأجيل دخولنا الحرب الى ابعد حد مستطاع . فبسطت آرائي هذه في مجلس الوزراء الذي كان ينعقد كل مساء في قصر الصدر الاعظم في بني كوى (برناسته وبحضوري أنا وانور وطلعت وخليل وجاريد) .

وبما قلته ان اشتراكنا في الحرب قبل اتمام تعبئة جيوشنا لن يكون عديم الفائدة لالمانيا فحسب بل يكون بمثابة انتحار لنا . فلو قام الانجليز والفرنسيون والروس الذين يعلون جيد العلم - أن ليس لدينا جندي واحد في الدردنيل أو الاستانة أو الحدود الروسية بهجوم فجأى ضد الدردنيل والبوسفور في نفس الوقت الذي تزحف فيه روسيا على ارضروم فان جيشنا بعد سقوط الاستانة - وارضروم وتوغل روسيا في الاناضول عن طريق سيواس - يصبح عاجزاً عن اتمام التعبئة اثناء الحرب قسقط الامبراطورية العثمانية والحرب لا تزال في مهدها !

وقد اعترف زملائي برجاحة هذا الرأي واقنعوا به السفير الالماني . فقررنا بعد البحث الذي دار في مجلس الوزراء أن نعلن حياد تركيا ونشرع في التعبئة العامة للاحتفاظ بالحياد ضد الفريقين . وفي الحال شرعنا في تنفيذ هذا القرار . وقد وافق على خطتنا هذه زملاؤنا الذين لم يعرفوا شيئاً عن مخالفتنا مع المانيا والتعهدات التي تضمنتها وعدوا التعبئة العامة عملاً احتياطياً سديداً .

وبعد اصدار امر التعبئة بثلاثة ايام اسندت ليلي قيادة الجيش الثاني مع بقاى

في وزارة البحرية .

وما بزغت شمس يوم ٢ - آب - أي بعد أن دفعت تركيا آخر قسط من ثمن المدرعة (سلطان عثمان) حتى اصدر وزير حربية إنجلترا أمره بأن لا توضع عليها الراية العثمانية وصادرها هي والمدرعة (رشادية) ولن انسى ما حيت ما استولى علي من الغم عندما سمعت تلك الانباء المزيجة . وهنا ادركت أن النصائح التي تظاهر أمير البحر رويك قائد اسطول البحر المتوسط باسنادها لي عند زيارته للاستانة والمصاعب التي لا حصر لها والتي اقامتها شركة ارمسترونغ في طريق اتمام المدرعة - لم تكن سوى معاذير انفضحت من ورائها نية إنجلترا التي كانت ترمى منذ زمن بعيد الى الاستيلاء عليهما .

ولو افترضنا ان للحكومة الانجليزية الحق في مصادرة المدرعات التي تبني في احواضها في زمن الحرب لما كان لها أن تفعل ذلك معنا فانها لم تكن اشتبكت بعد بتركيا عندما استولت على هاتين البارجتين . بل لم تكن إنجلترا شرعت في تعبئة جيشها واسطولها وقد طال وقتئذ الجدل حول تلك المسألة ونظر لأن غلطات إنجلترا هذه اثار تائرة الانتقاد المر حتى لدى الساسة الانجليز انفسهم لا أراني في حاجة الى الخوض فيها هنا .

وكانت هذه الحادثة مسوغة لتعبئة جيشنا بل كانت بمثابة رد حاسم على سفراء دول الاتفاق الودي الذين زعموا أن ليس ثمة ضرورة لهذه التعبئة العامة وقد برروا عمل الحكومة العثمانية - كما سأبين فيما بعد - عندما سمحت للمدرعتين جون وبرسلاو بدخول بحر مرمره .

(طواف جو بن و «برسلاو»)

(في الدردنيل ووصولهما الى الاستانة)

جعل عدد من الضباط الالمان - وخصوصاً ياور المارشال فون ساندرس - الذين سمعوا بالمعاهدة الالمانية ولكنهم لم يعرفوا السبب الذي دعا تركيا الى اعلان الحياد يدلون لي بآراء غير معقولة وغير مناسبة وكنت ارى في أعينهم نظر الكراهة لشخصي بل العداوة اذ هم كانوا يحسبون انني من الفريق الذي منع الحكومة من دخول الحرب فور اعلانها . ولما لم يجرؤا بالطبع على اظهار عدم الاحترام ظلمت اعمل كما لو لم اتوسم فيهم سلوكهم العدائي .

فوقفت ذات يوم بقرب الميناء تجاه قصر الصدر الاعظم . وقد مرت في ذلك الوقت نقالة آتية من روسيا ملائي بالجنود فاخترقت البوسفور في طريقها الى بحر مرمره وكان بجانب عدد من الضباط الالمان ولقيف من مستخدمي السفارة الالمانية فتناول حديثهم تلك النقالة فقال أحد ياوري المارشال ساندرس بصوت مرتفع لم اتمالك سماعه (لو أن سعادة وزير بحرية تركيا لم يسمح لهذه النقالة باختراق الدردنيل لحف العبء على اخواننا في الميدان الغربي بما لا يقل عن ١٤٠٠ جندي فرنسي . فكل هذه التدابير المنتجة في يد سعاداته وحده !) .

فتظاهرت بعدم سماع تلك الملاحظة وواصلت السفينة سيرها .

وفي يوم ٨ آب سنة ١٩١٤ حضر الى الوزارة السكابتن هلمان الملحق البحري للسفارة الالمانية فاخبرني ان الاسطول الالمانى في البحر المتوسط يطارد الاسطول الانجليزي وانه ينسحب في اتجاه الدردنيل . وبما ان لحمه قد نفذ - وخصوصاً لحم جو بن - قد ارسل اليهما الفحم من الاستانة . ونظراً لأنه لا يوجد الكفاية من الفحم الانجليزي فقد طلب أن اسلفه نحو ستة آلاف طن

من الفحم من مخازننا البحرية . فاسرعت الى التليفون وسألت الصدر الاعظم وانور باشا وطلعت باشا رأيهم .

فجابوا بالموافقة . فاصدرت الامر بأن يعطي القسم المطلوب من مخازن ديرنجي وارسلت طائفة من العمال لتساعد في تحميل المدرعة . وقد تم تحميلها في بضع ساعات وخرجت الى بحر ايجيه .

وفي مساء ١١ آب اجتمعنا كالمعتاد في قصر الصدر الاعظم لتناول العشاء وكنت وطلعت وجاويد اول من حضر . ولما استقر بنا المقام جاء أنور باشا خيانا بابتسامته الهادئة المألوفة قائلاً : - لقد ولد لنا ولد - فلم نفهم مراده لأول وهلة ولكنه اشفق علينا من القلق فقال : (لقد لاحظت جوبن وبرسلاو صباح اليوم بالقرب من الدردنيل ولما كان الاسطول الانجليزي يطارد هما طلبتا أن نأذن لهما باجتياز المضائق) فصرحت لهما بذلك لأنني لم اشأ تعريض مدرعتين لدولة محالفة خطير محقق وهما الآن في الدردنيل تحت حماية قلاع المضائق . وقد اصبحنا بناء على ذلك ازاء مشكلة سياسية . فمن الواجب أن نصل الى قرار حاسم هذا المساء !!

والواقع ان المسألة كانت دقيقة فان مدرعتين تابعتين لاحد المتحاربين التجأتا الى المياه التركية .

فالحياد يقضى علينا اما بمطالبتهم بمغادرة مياهنا في خلال اربع وعشرين ساعة واما بأن ننزع سلاحهما ونعتقلهما في احدى موانئنا .

فبصفتنا حلفاء المانيا لم يكن في استطاعتنا التفكير في الحل الاول لأنه كان بمثابة تسليم البارجتين للعدو . وفضلاً عن ذلك فان مثل ذلك العمل كان مناقضاً لمصلحتنا ولو أجبنا على السواء .

ومن جهة أخرى كان من المحقق أن يرفض الالمان نزع سلاح المدرعتين ومن هذه الوجهة حق للحلفاء أن يعتبروا عملنا عدائياً

فيعلموا علينا الحرب وبالطبع كان المتوقع ان يحصل هذا عاجلاً أو آجلاً فلا نرى مغيصاً وقتئذ من الاشتراك في الحرب . ولكن حالة الجيش اقتضت تأجيل التدخل الى اقصى حد مستطاع .

وفي تلك اللحظة دخل السفير الانجليزي والسفير الفرنسي في حالة تهيج شديد ليحتجا للصدر الاعظم على مرور المدرعتين في الدردنيل وعلى جرأة ربايهما في تفتيش احدى سفن البريد التي غادرت ميناء الاستانة في اليلة السالفة وعلى ظهرها عدد من الركاب الفرنسيين . وقد زعموا ان ذلك مناقض للحيام الذي اعلنته الحكومة الشاهانية .

فبعد مناقشة طويلة قررنا ان نطلب الى الحكومة الالمانية الموافقة على نزع سلاح المدرعتين سطحياً بصفة موقفة . فذهب طلعت باشا و خليل بك الى السفارة الالمانية في ترابيا لابلأخ قرارنا الى السفير فون فانجنهم ثم عادا بعد ساعة واخبرانا ان السفير اعلن انه لن يوافق بحال من الاحوال على نزع السلاح .

نعم انه وافق على امتناع الحكومة العثمانية من الاشتراك في الحرب تحت ستار الحيام بيد أنه يعتقد أن وصول المدرعتين الالمانيتين - اللتين اضطرنا الى اللجوء الى المياه التركية - قد غير الموقف تغييراً تاماً . فاذا أدى ذلك الى التحرش الى قطع العلاقات السياسية أو الى الحرب مع دول الاتفاق فعلياً أن نعتبر ذلك كنتيجة منطقية للحوادث .

وهنا أظهر أنور باشا انضمامه الى رأى السفير ولكنى تشبثت - بقطع النظر عن العواقب - بضرورة الوصول الى حل وسطي لنستطيع بواسطته نظراً لحالة جيشنا في الوقت الحاضر أن نؤجل اشتراكنا في الحرب الى اقصى أمد مستطاع .

وانضم الصدر الاعظم وجاويد بك الى رأيي - وأخيراً اقترح احدنا

حلا فقال : (ألا يمكن ان نكون ابتعنا هاتين المدرعتين من المانيا من قبل ؟
وألا يعتبر وصولها بمثابة تسليم نص عليه الاتفاق ؟) .

فتنفس الجميع الصعداء . حيث أدركت الوسيلة لتسوية المشكلة بطريقة
ودية ! فتقرر أن نسأل السفير الحضور الى قصر الامير لمعرفة ما اتفقنا على
فعله . فارسل أحد ياورى أنور باشا الى السفارة ولم يمض أكثر من ربع ساعة
- بعد منتصف الليل - حتى حضر السفير .

فدارت رحى المناقشة الحادة مدة ساعة بين الصدر الاعظم وطلعت باشا
والسفير . فوعد الاخير بمخاطبة برلين فى الليلة نفسها والعودة الينا بجواب
مرضى قبل الشروق وقررنا أن نبقى بقصر الصدر حتى يصل الجواب . وفعلا
جاء الرد حوالى الساعة الرابعة صباحاً . فقولنا - على شرط قبولنا أمير البحر
سوخون فى الخدمة التركية - أن نعلن اننا ابتعنا المدرعتين المذكورتين من
المانيا منذ زمن بعيد . ولم يكن البيع حقيقياً بل صورياً !! فقد قيل لنا ان
الامبراطور نظراً لعدم استطاعته بيع سفينة من سفن الاسطول بدون اقرار
من مجلس الرشتاغ - يقول - ان البيع الحقيقى سيتم بعد أن تضع الحرب
اوزارها وبعد أن يوافق الرشتاغ . واذ وجدت التسوية التى تنقذ الموقف
تفرق الوزراء حوالى الساعة الخامسة . أما التفاصيل الخاصة بمواد الاتفاق
فتركت لوزارة البحرية .

وفى صبيحة اليوم التالى ارسلت الى الصحف بلاغاً رسمياً أشرت فيه الى
اقتياع (جوبن) و (برسلاو) ووصولها الى الدردنيل وواعزت اليها أن
تفيض فى وصف الظروف التى احاطت بالحكومة وكيف انها حصلت على
مدرعتين أخريين عوضاً عن (السلطان عثمان) و (رشاد) اللتين سلبتنا
إياهما انجلترا .

وهنا اعترضتنى مسألة دقيقة وهى كيفية اخراج أمير البحر لمبس وضباطه

الانجليز من الاسطول بلا جلبة ولا ضوضاء . فطلع علي اليوم التالي بتقرير
هنا فيه الحكومة على حصولها على المدرعتين الجديدتين وقال : انه نظراً
لوقوعهما تحت اشرافه مباشرة سيعين الضباط والبحارة المنتخبين في خلال شهر
ليقوموا بالناورات اللازمة على ظهر هاتين المدرعتين اللتين تعتبران من احدث
المدرعات . فطلبت الى امير البحر الحضور الى الوزارة للباحثة فلما حضر
سألته - نظراً الى التعب الذي لحق بأمر البحر الالماني ورجاله مما جعل تأريخ
مغادرتهم للمدرعتين غير مقرر - أن يصرف اهتمامه الى اعداد بيان باسماء
الضباط والبحارة الذين سيعملون في السفينتين .

وكأنما قضى حسن الطالع أن يبعث لمبس إلي بخطاب موجز اخبرني
فيه أنه يحتوي على صورة تقرير قدمه بالانجليزية للصدر الاعظم رأساً .
فامرت بترجمته فالفيته يقترح فيه على الحكومة نظراً لحالة الاسطول والجيش
الحاضرة أن تلم خطه الحياض التام قائلاً : ان الضباط والبحارة الاترك تعوزهم
تجارب وتعليمات اربعة أو خمسة اعوام قبل ان يستطيعوا مباشرة السفينتين
اللتين اشتريتا حديثاً) . فارسلت في الحال الرد الى امير البحر اخبره بأن
مهمته مقصورة على تنظيم الاسطول وانه مسؤول لدى وزارة البحرية مباشرة
وان تقاريره يجب أن ترسل اليها رأساً . ولما كانت أمثال تلك التقارير خاصة
بتنظيم الاسطول لا غير فليس ثمة ما يخوله ان يقترح على الحكومة العثمانية
اتباع خطة سياسية معينة عند بحثه حالة الاسطول !

فجاء منه الرد في اليوم التالي فاذا فيه (ان خطاب سعادتك أوضح لي
حقيقة الحال . وسأخذ حذري ألا اتجاوز في المستقبل الحدود التي رسمتها لي .
وعلى كل حال اني اشعر بتعب واكون شاكرآ لك لو أجزتني بمدة قصيرة
أقضيها مع كريمي التي تقم في ترايبيا) .

فاخبرته بأنه قد اجيب الى طلبه ولكنني لفت نظره الى ما قد يحدث في

خلال غيبته من سوء التفاهم في الاسطول بين الضباط والميكانيكيين الانجليز
والبجارة الاتراك وسألته تلافياً لوقوع امثال هذه الحوادث أن يرسل الضباط
الى وزارة البحرية لتوزيعهم في انحاء دار الصناعة .

ولم يمر يوم واحد على تنفيذ هذا الامر حتى خلا الاسطول من سائر
الضباط البريطانيين وعلى ذلك صدرت الارادة الشاهانية بتعيين امير البحر
سوخون في خدمة الحكومة العثمانية ومنحه لقب قائد عام للاسطول الشاهاني
وفي اليوم التالي دخلت (جوبن) و (برسلاو) بعد تسميتهما بـ (ياوس)
و (مديلي) - تحفق عليهما الراية العثمانية ميناء استانبول ورستا أمام
طريق مودا .

وبعد أيام ذهب جلاله السلطان في اليخت (ارطغرل) لاستعراض الاسطول
بالتراب من جزيرة الامراء وقد انضمت اليه المدرعتان (ياوس) و (مديلي)
نهائياً . ومن العبث محاولة وصف الحماس الذي استولى على اهالي الاستانة في
تلك الايام . فقد عظمت ثقة كل انسان باستعدادات الحكومة العسكرية وامل
كل مسلم أن يعقد النصر بألوية الالمان والنمساويين . فلا جرم ان أثار مظهر
الشعور العام هذا نائرة الانجليز والفرنسيين والروس وسر به الالمان والنمساويون
سروراً عظيماً .

(محادثات مع سفراء)

(انجلترا وفرنسا وروسيا)

لم تكذ المدرعتان (جوبن) و (برسلاو) تصلان الى بحر مرمره حتى
اقلنا البواغيز . وقد أدى بقاء البجارة الالمان على ظهر المدرعتين الالمانيتين
الى احتجاج السفيرين الانجليزي والفرنسي على الحالة الجديدة اذ اعتبرها
تتفاني وخطة الحياد . وكانت الاحتجاجات رسمية وشخصية . وقد أصر ممثلو

دول الاتفاق الودي الذين لم يعرفوا من امر التحالف شيئاً مع المانيا على دعواهم ان الالمان سيتخذون عاجلاً أو آجلاً من وجود مدرعتهم وضباطهم العديدين فرصة لحمل الحكومة التركية على الاشتباك في الحرب فهم يرون ان خير وسيلة للاحتفاظ بالحياد أن نقصى البحارة الالمان عن السفيتين ونعيدهم الى المانيا مع ضباط البعثة العسكرية . والواقع اننا لو كنا على الحياد التام لما احجمنا عن اتباع تلك الحطة . بيد أننا في الحقيقة لم نعلن حيادنا الا بمجرد اكتساب الوقت ولم يكن قعودنا عن الاشتراك في الحرب إلا ريثما تتم التعبئة العسكرية وفي الوقت نفسه قرر الوزراء في اجتماعاتنا المعتادة في قصر الصدر الاعظم أن أتصل بالسفير الانجليزي (السير لويس ماليت) وأن يتصل جاويد بك بالسفير الفرنسي وأن نسعى في ازالة ما قد يعلق بأذهانهما من الشكوك حول المحالفة التركية الالمانية .

وفيما انا احادث السير لويس ماليت ذات ليلة في منزله بترابيسا اذا به التفت إلي قائلاً : (هل لك أن تخبرني يا جمال باشا بالمطالب التي تطلبها الحكومة العثمانية في مقابل الاحتفاظ التام بالحياد التام الحقيقي الى نهاية الحرب ؟) .

فاجبته بأن ليس ثمة ريب في حياد الحكومة العثمانية ولكني أرى من الواجب علي عرض الأمر على الصدر الاعظم .

وعلى ذلك جرى البحث بيننا وبين الصدر الاعظم فوضعنا بالاتفاق معه الشروط الاساسية التي يمكننا بموجبها ان ننضم الى دول الاتفاق الودي . وهذه هي المطالب :

- أولاً — الغاء الامتيازات .
- ثانياً — اعادة الجزر التي اخذتها اليونان منا .
- ثالثاً — حل المشكلة المصرية .

رابعاً — تؤكد بأن تحجم روسيا في المستقبل عن التدخل في شؤوننا
الداخلية .

خامساً — المعونة الانجليزية الفرنسية الفعلية فيما لو هاجمتنا روسيا .
هذا عدا طلبات أخرى .

وقد علمت من تلاوة عدة برقيات نشرت في كتاب أزرق انجليزي بعد
دخولنا الحرب ان السير لويس ماليت قد ابلغ تلك المطالب الى حكومة لوندرا
فلم تمر إلا ثلاثة ايام حتى اجاب السير ماليت تفصيلاً على كل من
المطالب السابقة :

فاما من حيث الامتيازات فقد قال : انه لا يمكن التفكير في الغاء
الامتيازات القانونية وان كل ما تستطيعه انجلترا هو أن توافق - بعد اجماع
حلفائها - على الغاء بعض الامتيازات المالية .

وأما من حيث الجزر فيحسن ارجاء النزاع التركي اليوناني .

ثم يجدر ترك الخوض في المسألة المصرية الى ما بعد انهاء الحرب لأن
حلها متعذر الآن دون فتح الباب لاخطار عديدة .

واما روسيا فانها لا تفكر مطلقاً في مهاجمة تركيا فضلاً عن أن فرنسا
وانجلترا بين الدول التي وقعت المعاهدة التي ضمنت سلامة تركيا واذن يمكن
تركيا أن تطمئن من هذه الجهة . كأننا انما طلبنا أن نستفسر عما اذا كانتا على
استعداد لاعطائنا عهداً جديداً في وثيقة سياسية .

وفي مقابل تلك الامتيازات طلب الينا عدم اغلاق البواغيز في وجه
السفن الروسية لأي سبب وان نأخذ على عاتقنا اعطاء روسيا كل التأكيدات
اللازمة في هذه المسألة المهمة . فلم يبق مجال للشك في ان فرنسا وانجلترا لم ترغبا
في دخولنا الحرب في جانبيهما لأن ذلك كان مخالفاً لمصلحتهما . فهما لم تطلبا
اكثر من حيادنا التام ورد البحارة الالمان والبعثة العسكرية الى المانيا سريعاً

وقتح الدردنيل للسفن على ألا يغلق في المستقبل وفي مقابل ذلك تعطى كل من فرنسا وانجلترا وروسيا الباب العالي وثيقة سياسية تضمن فيها سلامة الاراضي العثمانية وتوافق على ادخال تغييرات معينة في الامتيازات المالية .

والذي أراه ان هذا الجواب كان صريحاً جداً . فان دول الاتفاق لم تردن اشتراكنا في الحرب في جانبها ولست أدري ما هو السبب في ذلك ؟ فلو اشتبكنا في الحرب في جانبها لضاعت من روسيا آخر فرصة لتحقيق فكرة الاستيلاء على الاستانة وهي مطمح نظرها في المستقبل . وهو الامر الذي لا تسلم به روسيا ولا فرنسا وانجلترا .

اذن فغرضها كان هكذا : لنسح الآن في منع تركيا من القيام بشيء مضر بمصلحتنا وسنحتفظ في غضون الحرب بالاتحاد مع روسيا لنصل بواسطته الى الفوز النهائي . ووقتئذ نرضي مطامع روسيا باعطائها الاستانة وتمنح الولايات العربية بحجة الاصلاحات استقلالاً داخلياً يسهل فيما بعد سقوطها تحت حمايتنا أو وصايتنا) .

ومن ثم يسهل على القارىء فهم السر في رفض انجلترا اقتراحي الثاني بالطريقة نفسها والسبب عينه الذي رفضت لاجله فرنسا اقتراح المعاهدة الذي عرضته في باريس .

وقد يقول قائل انه كان خيراً لنا أن نظل على الحياد ! واحسب ذلك القائل يشترط لحيادنا ألا نمنع الملاحة في البواغيز ؟! بيد أن ذلك كان معناه خروج روسيا من الحرب العالمية ظافرة منيعة الجانب بحيث لا تحجم عن الاقتضاض على الاستانة والولايات الشرقية في الاناضول .

بل قد يقال : انه كان في الاستطاعة اقبال البواغيز والاحتفاظ بالحياد . بيد أن الاتفاقية لم تكن تسمح بذلك كما لم يكن من المنتظر أن تسمح به انجلترا وروسيا . فقد كان من المؤكد أن يؤدي مثل ذلك العمل الى الضغط علينا من

كل جهة بل الى أن يقترح البعض علينا اقتراحاً غريباً كهذا (دعونا نحمل
الاستانة والبواغيز الى أن تضع الحرب اوزارها ووقتئذ نعيها اليكم) .
ولا أظن أن دول الاتفاق تتهاون في الانتقال من الاقوال الى الافعال
وباختصار لم يبق امامنا سوى طريقين : اما ان تتحالف مع فرنسا
وانجلترا فنعلن الحرب على دولتي الوسط وبهذه الوسيلة تبقى خطر مهاجمة
روسيا لنا واما أن تنضم الى دولتي الوسط ونساعد على تحطيم روسيا . وبعد أن
أبت انجلترا وفرنسا التحالف معنا طلبنا أن نظل على الحياد وأن تبقى
البواغيز مفتوحة لاعدى اعدائنا !! أما دولتا الوسط فكانتا على عكس ذلك
اذ انهما رجوتا بانضمامنا اليهما رغم تمتعهما بالقوة الكافية لسحق روسيا .
ولكنهما في الوقت نفسه طلبتا أن نضع أقصى ما نستطيع من العقبات
في طريقهما . فبواسطة تلك الحطة امكنتنا أن نعلل النفس بالامل في رؤية عدونا
تدور عليه الدائرة . وبالطبع لم يفتنا التفكير في أن دولتي الوسط قد يعبس
لها الدهر ووقتئذ يصبح نزول الكوارث بنا أمراً محققاً . بيد أن الحقيقة
التي لا ريب فيها أيضاً هو اننا لو لمنا الحياد وابقينا البواغيز مفتوحة لكان
لفوز عدونا المبين نتيجة غير القضاء المبرم علينا .

فليتقول المتقولون ما يشاؤون عند استعراضهم الحوادث الماضية ولكني
بلا جدال اوثر على الوقوع تحت نير روسيا وفرنسا وانجلترا بعد فوز روسيا
- الدفاع عن انفسنا الى آخر قطرة من دمائنا أملا في تحرير رقابنا الى الابد -
وهو البذل الوحيد الذي يرتضيه شعب شجاع عظيم . أو لنستطيع على الاقل
أن نقول بلهجة الفخار (أجل لقد فقدنا كل شيء عدا الشرف !) وبهذه
الصحيفة البيضاء نختم تاريخاً وطنياً لم يقم إلا على الشرف والشجاعة وتدفق
صحفه بحسن السمعة والمجد .

وعندي بل هو رأى الاغلبية العظمى من الشعب التركي - ان القتال الذي

خضنا غماره في خلال اربعة اعوام اتج حوادث تستوقف النظر جديرة باجد
الصفحات في تأريخ ارقى الشعوب واعلاها كعباً . ومن هذه الحوادث الدفاع
الباهر عن الدردنيل وسلمان باك وحصار كوت الامارة ووقائع غزة والدفاع
عن المدينة المنورة .

وبالطبع لا اوجه هذه الكلمات إلا لاولئك الذين يؤثرون الشرف على
الحياة نفسها . أما اولئك الزعانف الذين يقيمون على الضيم ولا يأنفون من
الذل متى كان من ورائه طول اعمارهم ولو بضعة ايام فلا احسبهم يقدرون
ما اقول فانهم يتخذون من الموقف العصيب الذي ساقنا اليه القدر وسيلة
للزني بوشاح الحكمة ولتعيرنا بقولهم : (ألم ننبئكم بهذا من قبل ؟) فلو
أصغيتم الينا ولزمتم الحياد لما فقدنا كل تلك الارواح بل لما كنا الآن في ذلك
الموقف المحزن .

فلأمثال اولئك الزعانف نقول : (ان من المستحيل أن تتفق في الرأي
مع أناس لا يدركون ان السقوط في ميدان القتال شيء والموت في ظل الخنوع
والاسر شيء آخر) .

وقد أدت احياناً علاقاتنا الخاصة مع سفيرى فرنسا وانجلترا الى الخوض
في كثير من المناقشات اللذيذة . من ذلك انى كنت احادث السير لويس ماليت
ذات يوم فاخبرنى بأنه لا يرتاب مطلقاً في أن انور باشا قد انضم الى الالمان
واصبح مشايعاً لهم وانهم ربما رغبوا في تسخير ضباطهم وخصوصاً ضباط
جوين وبرسلاو لاحداث حادث يجعل وقوع الحرب امراً لا مفر منه .
فاخبرته بأن الرأى السائد في الوزارة هو الاحتفاظ بالحياد وعلى ذلك ليس
ثمة خطر ما .

فقاطعنى قاتلاً : (كلا ! يا جمال باشا ! انك واهم ! فانى على يقين من ان
الالمان لن يحجموا عن القيام بأى شيء - حتى بقلب الحكومة - لادراك غايتهم

وقد يعتقلونك في احد السجون ولا يدري أحد ماذا يحدث بعد ذلك !) .
فاجبت بابتسام على هذه الملاحظات الساذجة قائلا : (لظالما فكرت فيما
عساي أن اصنع لو ساورتني مثل تلك الشكوك . لا ريب اني في تلك الحالة
أفتح الدردنيل بصفة كوني وزيراً للبحرية واسمح للاسطول الانجليزي بالمرور
واترك لك قمع الثورة التي تنشب في الاسطول !)
ومن المدهش حقاً أن يعتقد هذا السياسي الانجليزي الحاذق صحة اقوالي
هذه الى حد انه ابلغ هذا الاقتراح السخيف وزير الخارجية كما علمت بذلك
من الكتاب الازرق .

وقد قيل في الوثيقة الاربعين من الكتاب الاحمر الروسي انني اعطيت
بارون جيرس : (كلمة شرف بأن اسحب بحارة جوبن وبرسلاو عقب محادثتنا
باسبوعين) . واحسب ان البارون ان لم يكن يرغب فعلا أن يقول غير الواقع
لا بد أن يكون فاه بتلك العبارة لا لغرض آخر سوى ارضاء رؤسائه لأنه
لم يكن ثمة ما يلزمني على اعطاء ذلك التأكيد الشخصي فضلا عن أن من عادي
عدم التكلم إلا اذا اقتضت الضرورة .

(دخولنا الحرب)

وفي الوقت نفسه كانت تجري اجراءات خطيرة . فان مجلس الوزراء
- الذي اعتاد الاجتماع كل مساء - وصل الى قرارات مختلفة متممة للحالفة
الالمانية التركية وطالب المانيا باقرارها .

وكان اقصى ما تمنيناه أن تشترك بلغارياني الحرب . وقد وصلت اليينا من محمود
مختار باشا سفيرنا في برلين البرقية الآتية : (لما عرضت المحالفة التركية الالمانية
بتوقيع جلالة السلطان على امبراطور المانيا اشار الى عظم المزايا التي تعود
على الامتين وقال - ووجهه متهلل بابتسامة الفرح : (والآن لاخبرنكم باخبار

سارة اخرى . فنذ صباح اليوم وصل الي خطاب من ملك بلغاريا ذكر فيه انه يرغب في عقد تحالف معي !) .

ففرحنا بذلك النبأ فرحاً شديداً لأن البلغاريين لم يبنسوا في خلال الاشهر الستة الماضيه بكلمة واحدة عن المفاوضات لعقد تحالف معنا واصبحنا نعتقد بأنهم لو انضموا في الحرب الى صفوف دول الانفاق لكانت في ذلك الظامة الكبرى علينا . فلما مضى شهران على اعلان الحرب ولم يقم البلغاريون بعمل ما ثبت عندنا انهم خدعوا الالمان كما خدعونا .

وانضم المندوب البلغاري توشيف - الذي كانت علاقتنا معه وديقوثا بته - الى الرأي القائل - بأن من الحق أن تشارك بلغاريا في الحرب قبل أن تعرف كيف تنتهي - وقد أصم اذنيه عن كل نظرية أخرى .

وكان الالمان قد وافقوا - كما اسلفت - على التزامنا الحياد حتى تتم تعبئة جيشنا وعلى تأجيل يوم دخولنا الحرب الى أبعد حد ممكن بيد أن جنودهم لما اضطروا الى الانسحاب قليلا بعد هزيمة المارن وتحولوا من الهجوم الى الدفاع بينا الجيوش الروسية توغلت في زحفها المظفر المخرب في بروسيا الشرقية وانقضت على غاليسيا أيضاً فتغير مركز المانيا تغييراً كلياً واخذت تلح علينا في دخول الحرب في الحال لخلل روسيا وانجلترا على ابقاء قوات كبيرة في القوقاز ومصر .

واخذت المساعي التي استندت في بذلها السفير الالمانى لدى الصدر الاعظم والوزراء الى نصوص المعاهدة صفة الامر . على أن تعبئتنا كانت قد نمت في ذلك الوقت وأصبحت فيما لقمنا كلها على أهبة النزول الى الميدان عند أول اشارة من القائد العام . وجرى تمرين الوحدات المختلفة بلا انقطاع حتى انه ما كاد يخلو يوم واحد من مناورات تقوم بها الفرق والفيالق حول الاستانة واشتودره .

وهنا بدأنا نعترف بصدق نظر أنور باشا اذ كان قد أصر على ان إعادة تنظيم الجيش يجب أن تبدأ باصلاح (الكادر) فقد شوهدت النتيجة في خفة الوحدات الكبيرة التي سلم قيادها الى ضباط من الشباب ذوي دراية تامة بالخطط وفن التعبئة . فلما علم الالمان بهذه النتائج رأوا أننا لا يسعنا ولدينا مثل ذلك الجيش المنظم تنظيمياً بديعاً أن نقف مكتوفي الايدي نشاهد الكوارث التي تنزل بالنمساويين والالمان .

وهنا يجب أن أسأل القارىء عفواً اذا خرجت قليلا عن الموضوع ذلك ان اشاعة راجت في الاستانة حوالي ذلك الوقت مؤداها أن انور باشا أصر على عقد محالفة مع المانيا وعلان الحرب على روسيا وانى تشبثت بعدم تغيير خطة الحياض مهما كانت الاسباب . ولقد قيل ان النزاع تفاقم امره الى حد ان انور باشا هددنى بمسدسه على مرأى من الوزراء واننى كنت اسبق منه بفرحت قدمه . ووجه الغرابة هو أن نجد مثل تلك الخرافة طريفاً الى كتاب المستر مورغنتاو . ووددت لو اعرف هل كان ذلك السفير الامين الذي يبنى معلوماته على امثال تلك الاشاعات السخيفة بحمر وجهه خجلا لو حمل نفسه على قراءة كتابه بعد وقوفه على ما كتبت هنا .

واحسبني مديناً له لتحويلى هذه الفرصة لاعرفه انه ما كان انور ليخطر له ولا لطلعت ولا لسواهما من الزملاء أن ينطلق لسان واحد منهم بلفظة جارحة - فضلا عن استعمال السلاح - سواء في الوقت الذي عملنا فيه معاً كشوار لقلب الحكم الاستبدادي الحميدي أو في خلال الفترة التي كنا فيها في الوزارة . فلم ننشأ من اصل وضيع مجهول كما يعتقد المستر مورغنتاو - ويريد حمل الغير على ذلك الاعتقاد . فان بعضنا أتم دراسته في الاكاديمية الحربية وكثير منا تخرج من الجامعات التركية والاوروبية . ولم يكن طلعت أحد سعاة البريد كما ادعى السفير بل لحق بكلية الحقوق بعد مغادرته المدرسة . فمن

السخف أن يخطر لانسان اننا نمت الى طيعة المجرمين .

فلم يعد الآن في وسعنا الاعتذار عن دخول الحرب بعدم اتمام تعبئة جيشنا . ثم اعترضتنا المشكلة المالية . ذلك اننا لم نجن فائدة مباشرة من الغناء الامتيازات بقانون موقت لأن ايراد الكبارك هبط الى ربع ما كان عليه قبل الحرب .

ولما كان القسط الاول من القرض الذي عقدناه في فرنسا لا يكفي إلا لسداد مصروفات الحكومة حتى نهاية العام قررنا أن نطلب الى الالمان تسوية المشكلة المالية .

ففي يوم ١١ تشرين أول وصلت إلي من السفير فانجنهم دعوة خاصة للعداء في السفارة في ترابيا . فلما وصلت الى هناك وجدت الصدر الاعظم وطلعت و خليل وانور ثم حضر أيضاً فون كليمان الذي عين حديثاً مستشاراً للسفارة . وبعد العشاء دخلنا غرفة السفير الخاصة . فاسر الينا فانجنهم وعلامات الحزن باذية عليه ان المانيا قبلت كل شروطنا التالية وصدق فينا نظره كما سما كان يقول : (أرجو ألا تضعوا عراقيل جديدة !) .

فما قال به المخرفون - من أننا وقعنا المحالفة ذلك اليوم في السفارة محض اختلاق ، اذ المعاهد كما قلت آتياً - كانت قد امضيت في بدء الحرب فلم يك ثمة ما توقعه ذلك اليوم . وفي اليوم التالي بحثت الهيئة الداخلية في مجلس الوزراء الحالة العامة من كل وجوهها . وقد بدا لنا في بدء الاجتماع رأيان :
١ - ابقاء احوال الحرب بلا ابطاء .

٢ - ثانياً ارسال خليل بك صحة حتى يك ووكيل هيئة اركان حرب لاقتناع الالمان بضرورة التزامنا الحياد مدة ستة اشهر اخرى .
فانضم جلويد بك الى الرأي التالي وأخذ بقية الوزراء بالرأي الاول وقد ظهر الصدر الاعظم لأول مرة بمظهر التردد .

وهنا اخبرنا انور انه - نظراً للاحتجاجات العديدة الحققة التي احتج بها
أمير البحر - لا يستطيع لاسباب حربية ان يحول دون طواف جوبن وبرسلاو
في البحر الاسود . غير ان سفر هاتين المدرعتين مع المدرعات العثمانية يقتضى
حتماً اشتراكنا في الحرب .

أولاً - لأن حكومات الاتفاق لم يعتبروا جوبن وبرسلاو تابعتين
لتركيا فضلاً عن انهم صرحوا رسمياً بأنها لو اجتازتا البواغيز - حتى لو لم ترفع
عليهما الراية الالمانية وكان البحارة الاتراك هم الذين على ظهريهما فستعاملان
معاملة السفن التابعة لدولة معادية . أى انه اصبح من المحتم ان يهاجمها
الاسطول الروسى لسبب من الاسباب فان امير البحر سوخون الذى كان
شديد الرغبة فى اشتراكنا فى الحرب يستطيع ان يلزمنا بدخولها بأن يهاجم
الاسطول الروسى او الموانئ الروسية بمحض ارادته .

وبعد مناقشة قصيرة تقرر ان نرسل خليل بك وحافظ حقي بك الى برلين
وتحويل نائب القائد العام حتى تناول مسألة الاسطول على ان يتجنب فى نفس
الوقت كل ما من شأنه أن يؤدى الى دخولنا الحرب .

ولسكننا اضطررنا بناء على تقرير ارسله الينا امير البحر سوخون ان
نرضخ للحقيقة التي اوردها وهي ان المهاجمة التي احكم الاسطول الروسى تدبيرها
حتمت عليه الاصطدام بالاسطول وبذلك اعلنت روسيا - ومن بعدها فرنسا -
الحرب على الحكومة العثمانية .

ولما وصلت الانباء الى الاستانة بأن الاسطول التركى بعد ان هاجمه
الاسطول الروسى في البحر الاسود اطلق بدوره نيرانه على اودسما وسياستبول
وتيودوسيا وبعض موانئ اخرى وجدنا الصدر الاعظم فى حالة عقلية غريبة
واذ كان مما نغماً فى دخولنا الحرب انى بشدة تحمل قسط من المسؤولية عن
حرب كان من المحتم ان تؤدى مهاجمة اسطولنا للاسطول الروسى والموانئ

الروسية الى ايقاع المسؤولية على الحكومة . وكانت عطلة عيد الاضحى وقتئذ
وكننا نجتمع في قصر الصدر كل يوم فاعلن سعيد باشا حلیم ان يستقيل في الحال
اذا ادت هذه المهاجمة الى الحرب . فبادرنا بلفت نظرہ الى انه بعد توقيعه
المخالفة مع المانيا وانضمامه منذ ايام قليلة الى القرارات التي نصت على تعهدات
تركيا حيالها لا يمكنه الاستقالة الآن بسبب وقوع حادث لا يعتبر إلا نتيجة
طبيعية . فزاء هذا المنطق المسكت والمهاجمة المقنعة التي لم تترك له جواباً قبل
الصدر الحالة كما هي وعدل عن الاستقالة .

وفي اليوم الذي اعلنت فيه روسيا وفرنسا وانجلترا بدء العداوة عقد
مجلس الوزراء في الباب العالي جلسة فوق العادة .

فبين سعيد حلیم باشا وهو يشير الى الحقائق التي تضمنها تقرير امير البحر
سوخون كيف قابل اسطولنا عقب مهاجمة الاسطول الروسي لبوارجنا في
البحر الاسود العدوان . بمثله فنازل السفن التجارية والحربية في اودسا
وسباسببول والمواني الاخرى . فترتب على ذلك ان اعلنت روسيا اولاً ثم
فرنسا وانجلترا فيما بعد الحرب على الحكومة العثمانية . وحفظاً للعلائق الودية
واجتناباً للعدوان اقترحت الحكومة التركية عمل تحقيق مشترك لمعرفة أي
الاسطولين كان الباديء بالعدوان لجعل قائد الاسطول مسؤولاً شخصياً ولكن
الحكومة الروسية رفضت ذلك الاقتراح . فاضطرت الحكومة التركية ازاء هذا
الرفض ان تعتبر نفسها في حالة حرب مع الحكومات الروسية والفرنسية
والانجليزية وان تعرض الامر على جلالة السلطان . ثم طلب الصدر الاعظم
ان يبدي الوزراء رأيهم بمنتهى الصراحة بلا خوف ولا محاباة .

فكان اسبقهم الى الكلام اسكان افندي وزير البريد والتلغرافات فقال :
انه من اجل كراهيته للحرب وبغضه لها لا يستطيع التوقيع على قرار توافق
فيه الحكومة العثمانية على الاشتراك في الحرب وعلى ذلك هو مستقيل . اما

لو حولت وزارة البريد والتلغرافات الى مصلحة فانه يستمر في عمله بصفة كونه مديراً عاماً .

ثم تكلم سليمان افندي البستاني وزير الزراعة والتجارة فقال : انه بصفة كونه عضواً في (جمعية السلام الدولي) يعارض في الحروب بأسرها ويرى نفسه مضطراً الى الاستقالة .

وتلاه شوروك سولو محمود باشا فقال : انه نظراً لعين الارتباب التي ينظر اليه بها زملاؤه يلتبس قبول استقالته .

ولم يكن جاويد بك حاضراً المجلس ولكن طلعت باشا قال لنا انه (جاويد) مصمم على الاستقالة .

ثم غادر الوزراء المستقيلون قاعة المجلس . وشرع الباقيون وهم سعيد حلیم باشا الصدر الاعظم وخيري افندي شيخ الاسلام وانور باشا وزير الحربية وطلعت باشا وزير الداخلية و ابراهيم بك وزير الحقانية و خليل بك رئيس مجلس الدولة وشكري بك وزير المعارف وكذلك أنا في كتابة القرار الذي بينا فيه الضرورة القاضية بدخولنا في الحرب ثم عرضنا على جلالة السلطان ونظراً للاغلبية الساحقة في مجلس المبعوثان والاعيان التي وافقت على الحرب واعربت عن ثقتها بالحكومة أيقنا ان الامة بأسرها تؤيد الحكومة في سياستها الخارجية .

وفي اليوم الذي وضعنا فيه القرار واعترفنا فيه بوجود حالة حرب بيننا وبين دول الاتفاق قتت بمناورات للفيالق بالقرب من اشقودره فيما بين اوجاديه شاه وميدان جاوران كوى .

اما الوحدات التي اشتركت في المناورة فكانت الفرقة الثالثة بقيادة الكولونيل الالماني نيكولاى بك والفيلق الخامس بقيادة الكولونيل محمود كامل بك . ولن انسى مظاهر الشعور الوطني والخماس الحربى اللذين اظهرهما

جميع ضباط الفرق الاربع عندما بلغتهم نبأ نشوب الحرب . وقد ارسلت اليهم بصفة كوني القائد العام للفيلق طالباً حضورهم الى تل اشماليدجا لابتداء ملاحظاتهم على المناورات التي لبثت يوماً وليلة واتتهت في الفجر بالهجوم على التل الذي كانت تدافع عنه الفرقة الثالثة .

وكان ضباط ورجال تلك الفرق الاربع من ضمن افراد الشعب التركي . فالذين لم يشاهدوا سرور الجنود وحماستهم وبلغت بهم الجرأة الى أن يتقولوا الآن بأن الشعب التركي لم يكن راغباً في الاشتراك في الحرب أما أن يكونوا مدفوعين بعوامل خسيصة واما بدافع الجبن وقصر النظر .

أما التغيير الذي حصل في الوزارة فكان قاصراً على استلام الاميرعباس حلیم باشا مهام وزارة الاشغال واحمد نيسبوري بك وزارة الزراعة . أما طلعت باشا الذي ما زال عضواً في الوزارة فقد استلم وزارة المالية مؤقتاً كما استلم شكرى بك وزارة البريد والتلغرافات .

الفصل الرابع

(تعييني قائداً للجيش الرابع)

دعاني انور باشا الى منزله ذات يوم ولم يكن مر على دخولنا الحرب اكثر من عشرة ايام . وقد لزم الفراش من اجل خراج في قدمه . وبعدة ملاحظات قليلة عن الحالة العامة قال لي :

(انني يا جمال باشا اريد المشروع في مهاجمة قناة السويس لارغم انجلترا على ابقاء قوات كبيرة في مصر وبذلك لا اكون قد حملتها على أن تترك هناك عدداً من الفرق الهندية التي ترسلها الآن الى الميدان الغربي فحسب بل اكون قد حلت دون حشدها قوة ايضاً لانزالها في الدردنيل .

(ورغبة في اتمام ذلك المشروع اخذت اعد العدة في سورية منذ شهر أو اثنين . وقد انطت بالفيلق الثامن الذي يقوده ميرسبنتي جمال باشا القيام بتلك المهمة . وبما أن الالمان يملقون على انفاذ ذلك المشروع اهمية كبرى قد عينت اللقنتنت كولونيل فون كريس بك رئيساً لهيئة اركان الحرب وارسلته الى دمشق كملحق للبعثة العسكرية الالمانية . واخبرته بأن مهمته الاولى هي اعداد المعدات للحملة على القناة . وارسلت ياوري الماجور مير نيتاس بك وعابدين رحمن بك عضو مجلس الأعيان والشيخ اسعد شقير وغيرهم من وجهاء العرب مزودين بالأوامر اللازمة لتكوين فيلق مساعد من البدو . وقد أصدرت الأوامر لركي باشا الذي يقود الآن الفيالق الرابع بأن يقوم بالدفاع عن سورية وفلسطين فقط الى أن يتم جمال باشا بصفة كونه قائد الفيالق الثامن

تعبئة فيلقه وبهية الهجوم على القنارة . والآن هذا زكي باشا فضلاً عن انه لا يريد القيام بهذه الحملة يطالب فعلاً بنجدة كبرى لحماية سورية ضد انزال قوة معادية . وتدلل الانباء الواردة من سورية على وجود هياج في داخلية البلاد مضافاً اليه النشاط العظيم الذي يبديه الثوار العرب . فنظراً لهذه الظروف اعتقد ان وطنيتك العالية قد تجملك توافق على قبول قيادة الجيش الرابع . فان قبلت فعليك بتهيئة وتنفيذ الهجوم على القنارة مع الاحتفاظ بالسلم والنظام في داخل سورية ولا اعرف هل يمد من الجرأة ان اعرض عليك ذلك (الاقتراح ؟) .

فاجبت فوراً :

(اني ارى واجبي المقدس يحتم علي الذهاب اينما تظن ان مواهبي تكون في خير الوطن . وعلى ذلك اني بكل ارتياح اقبل قيادة الجيش الرابع التي عرضتها علي وسأفصد الى مقر وظيفتي الجديدة في يوم أو اثنين) .
فتهلل وجه انور باشا فرحاً بجوابي . وفي المحادثة التالية حصلت على الحرية التامة في العمل التي يحوها القانون لأي قائد في الجيش . واحتفظت ببلقي السابق وهو وزير البحرية ثم استلم مني انور باشا الوزارة على شرط أن يستشيرني ولا يعمل شيئاً ما إلا بموافقتي في كل الاصلاحات والتحصينات المراد ادخالها فيها .

ثم ذهبت من هناك الى المدرسة الحربية وهي مركز قيادة الجيش الرابع وبصفة كوني وكيل القائد العام عينت رئيس هيئة اركان الحرب ورؤساء الاقسام - الاول والثاني والثالث وعدة ضباط آخرين . وقد انبأتهم بتعييني قائداً للجيش الرابع وكلفت الكولونيل فون فرانك بمرج رئيس اركان الحرب

باعداد ما يلزم لرجالنا في اقرب وقت . وبعد أن تم كل شيء - أي بهد
اربعة او خمسة ايام - غادرت محطة حيدر باشا في يوم ٢١ تشرين ثاني
قاصداً سورية .

وقد اتى أحد الفضلاء الذين حضروا لوداعي خطاباً مؤثراً قال فيه :
ان الامة تنتظر مني امعالملا عظيمة وانباء سريرة بالانتصار . فتعين علي أن
أجيب على ذلك الخطاب . فقلت : (اني اقدر تماماً عظم المهمة والمصاعب
الكبيرة التي امامي . فان لم تدرك هذه المطالب وصرت أنا والرجال البواسل
الذين معي جثثاً هامدة بالقرب من القناة فعلى اصدقاء بلادنا الذين يحلون
محلنا أن يسيروا فوق جثثنا لتحرير مصر - وديعة الاسلام - من ايدي
المتعصبين الانجليز) .

ومنذ ذلك الحين وصل الى علمي أن عدداً من اعدائي استخدموا هذه
الكلمات لترويح هذه المغالطة وهي : (كيف يجرو جبال باشا على العودة من
مصر ؟ ألم تكن مهمته طرد الانجليز أو الموت ؟ فلماذا لم يمتم ؟) .

وان ما اقله في هذا الكتاب سيساعدكم على معرفة انه ان كان هناك
عيب في بقائي حياً حتى الآن فليس بعائد إلي اذ لا يموت الانسان قبل فراغ
اجله - وما يدرهم لعل سوء الحظ قد قضى ان ابقى حياً لانه لا يحمل غصصاً
ونعماً اكثر مما تحمل في النزاع الذي لا ازال متأهبا لدخوله لمنفعة الوطن ؟
بيد اني لست ادري ماذا كان هؤلاء الشائنون يريدون مني ؟ هل
كانوا يريدون ان اقول لجمهور المودعين : (ايها الاخوان ! انني ذاهب الى
سوريه بمهمة طرد الانجليز من مصر ولكن مواردنا لا تكفي لتنفيذ ذلك
المشروع . وعلى ذلك فسأعود فيما بعد الى الاستانة آسفاً نادماً اعرض اليدين

دون أن احقق شيئاً مطلقاً . فارجوكم أن تسكبوا الدمع من الآن انتظاراً
لذلك اليوم الاسود . ولم لا - اذا كان القدر بهذا جرى !! ?

كلا ! ثم كلا ! فان كنت لم انجح في طرد الانجليز من مصر فقد كان
من الممكن على الاقل - كما سأبين فيما بعد - لولا خيانة الشريف حسين
المستتر (الذي ارتكب اكثر جنایة لا تغفر - ضد العالم الاسلامي) النجاح
في منع الفاصيين من القيام بأي عمل عدائي ضد فلسطين وسورية ولأدى ذلك
الى بقاء مئات الرجال الذين يتكون منهم الجيش الانجليزي خاملين في مصر .
لقد كانت خيانة الشريف حسين السبب الذي منع تحقيق ذلك المشروع
الجليل فانها شنت الاختين الاسلاميتين الامة العربية والامة التركية . فان
خبايته جعلت العرب ارقاء للانجليز والفرنسيين واضطرت الانراك أن يقاتلوا
اغلظ اعدائهم قلباً في معركة لا امل في نجاحها .

وسأدعم فيما بعد اقوالي هذه بالبيانات الرسمية .

ولم تمر على مفادرتي الاستانة ست وثلاثون ساعة حتى رأيتني في قونية
حيت استبقاني الحاكم العام عزمي بك والاهالي خير استقبال . ثم انتهزت الفرصة
فزرت ضريح مولانا جلال الدين الرومي وتعرفت بسعادة ولد شلبي افندي
فسألته وانا اصاحفه مصافحة الوداع عما اذا كان يرغب في الانضمام الى الحملة
المصرية ومعه فيلق من المتطوعين ؟ انه وايم الحق ما وني فاني ما كدت انصرف
عنهم واصل الى سورية حتى نفر اليها ولد شلبي يقدم قوة مسلحة حشدها
تحت اسم (كتيبة المولوية المتطوعين) . ولا يمكنني ان ارفيه حقه من الثناء
على وطنيته . حقاً انها لوطنية صادقة . اذا انه رغم كونه كان معتل الصحة
وكان قد رزىه بوفاة زوجته التي عاش معها اعواماً طويلة لم يلبث أن حقق

ظني فيه . وقد ادى الشبان الذين تألفت منهم كتيبته اجل خدمة للجيش .
وغادر الاستانة معي احمد راسم بك الذي اعتبره من خيار الصحفيين
الاتراك وفي خلال الزحف على القناة حضر الى بير السبع مصاحباً للقيادة
العامة . ثم بقي معنا في القدس حيث كتب عدة من المقالات المهمة عن سياستي
في سورية تحت عنوان (سياسة الجيش) . ولا يستطيع ان اغفل ذكر اسم
ذلك السيد الجليل الذي كانت صحبته دائماً نافعة لي .

وحضر الى مركز القيادة سيدان آخران متطوعين . الاول فؤاد
سليم بك الذي كانت وطنيته مثلاً صالحاً وبرهن على اخلاص تام عند قيامه
بمنصب الوكيل العام في اسلانيك بعد الحرب البلقانية . وأما الآخر فهو الدكتور
فؤاد - المصري - وكان موظفاً في وزارة الداخلية .

وقد ادى فؤاد بك ما يجب عليه في القسم المصري باخلاص وولاء
عسكري تام وطاد وجوده بين ظهرافينا على الجيش بفوائد جزيلة . وكان من
أشد بواعت الأسف لدي أن طرأت له امور اهلية حتمت عليه مغادرة
مركز القيادة .

وسأذكر دوماً بلسان الشكر فؤاد سليم بك الذين عين فيما بعد ليمثل
الامبراطورية العثمانية في سويسرا (حيث نجح في مهمته) والدكتور فؤاد
يستحق كل ثناء لما قدمه من اجل الخدمات للجيش .

وبعد مغادرة قونية وصلنا الى بوزانتي ومن ثم واصلنا السفر بالسيارة
الى طرسوس ومنها سافرنا الى اطنه بطريق سكة الحديد . فقابلني بحماس تام
اهالي تلك العاصمة الريفية التي كنت حاكماً عاماً لها منذ اربعة أو خمسة اعوام
خقضينا الليل فيها . وقد حولت الامطار التي لم تنقطع اسبوعاً كاملاً

وادي اطنه الى بحر من الطين .

ولم تكن سكة حديد اطنه - حلب في ذلك الوقت مستعملة فيما وراء محطة تبرق قلعه . وقد كان قطاع تبرق قلعه - اسكندرونة تاماً غير ان الامطار كانت قد جرفته في عدة نقاط بالقرب من دورت يول وبذلك تعطلت المواصلات مع اسكندرونة .

فزممت ان اذهب بطريق سكة الحديد الى تبرق قلعه او الى مصطفي بك وان اواصل السفر من هناك بالسيارة او على ظهور الخيل الى اسكندرونة او حلب ان امكنتني ذلك وعلى ذلك تركت اطنه في صباح اليوم التالي مبكراً . واذ تبين ان قطاع بوزانتى - طرسوس وهو طريق المواصلات الوحيد مع جيش الاناضول حالته سيئة في عدة نقاط طلبت الى اسماعيل حقي بك الحاكم العام للولاية ان يشرع في اصلاحه في الحال .

وبعد مقادرة اطنه بساعة وصلنا الى محطة مصطفي بك حيث كانت في انتظارنا السيارات والخيول . فلم نكد نسير بضع خطوات حتى غاصت سيارتنا في الوحل . فلما تحققتنا استحالة مواصلة السير في ذلك الطريق امتطينا خيولنا وبدأنا المسير بعد ان امرت ياوري القبطان صلاح الدين افندي بأن يكلف من يشاء بسحب السيارات الى اسكندرونة واللاحاق بنا اليها .

ووصلنا دورت يول بعد اربع ساعات . وهي قرية كبيرة مهمة على شاطئ خليج اسكندرونة وتقع على ابعاد متسارية من خمس او ست قرى اخرى يسكنها الارمن فهي مشهورة باشجار البرتقال .

وقد كنت وانا حاكم عام لاطنه كلفت المهندسين الالمان بوضع مشروع لانشاء حي آخر في البقعة الشاسعة الواقعة بين دورت يول والخمس قرى الاخرى

ولكن المشروع اهمل ككثير غيره من المشروعات بعد مغادرتي للولاية .
و كنت قد زرت خلال عامي ٩١١٠ و ١٩١١ دورت يول اكثر من

مرة فهرعت افواج القرويين الذين طالما ساعدتهم لمقابلي .

واذ وصل سمعي ان في الاستطاعة الذهاب من محطة دورت يول الى
اسكندرونة بواسطة (ترولي) طادي في مدة ساعتين مع ان المسافة تستغرق
اكثر من ست ساعات على ظهور الخيل فضلت استعمال هذه الوسيلة فغادرتها
انا ورئيس هيئة اركان الحرب .

ولن انسي ما حبيت هذه السياحة بالترولي في ذلك الطريق الزلق .
فكثيراً ما كانت حياتنا في خطر اذ كنا نسير في ذلك المطر المتهاطل بقرب
الشاطي . بمراى من سفن العدو . وبعد ان هدأت تلك العاصفة الشديدة بزغ
القر من خلال السحاب ثم اختفى ثانية بعد ان اضاء البحر بشكل عجيب
وبهذا استطعنا ان نبصر بوارج العدو الواقعة على مقربة من الشاطي . وهو
منظر تفنتت له اكبادنا وذابت له قلوبنا .

ولم يخف علي ان اعداءنا اقوياء اولو بأس شديد . ولكن لما لم تكن
تمة وسيلة اخرى نحفظ بها حياتنا لم نر مفرأ من الاتجاه الى السيف ظمأ
الى الخير والفلاح واما الى المصائب والاحزان وقد كفت اقسمت ألا اترك
وسيلة من الوسائل الالجات اليها لفل حدة اعدائنا .

فتذكرت ذلك القسم واذا رأيت المصاعب التي تعترضني في طريقي
ادركت فداحة العمل الملقى على كاهلي . ثم وصلنا الى الاسكندرونة بعد سياحة
شاقة مر الترولي في خلالها على قضبان امتد بعضها في بعض الجهات فوق
فراغ مستطبل الى نحو ١٥ - أو ٣٠ متراً وغاصت في جهات اخرى تحت الماء

وقد انقضت خمس ساعات قبل أن يحضر ضباط اركان الحرب الآخرون . ثم قضينا تلك الليلة في اسكندرونة .

وهنا وصلت الينا الانباء بأن الطريق فيما بين اسكندرونة وحلب غير صالحة للسيارات . وتلك الطريق التي اهملت حتى اصبحت لا تصلح لحركة السيارات كانت الطريق الوحيدة التي نصل منها الى حلب والمناطق التي حولها او بعبارة اخرى الطريق التي توصل شمالي سورية بما فيها جهات اورفة وديار بكر والموصل باسكندرونة ذلك المستودع المهم الواقع على شواطئ البحر المتوسط . ولما كنت قد هدت منذ عدة سنوات من بغداد بهذا الطريق في سيارة تأكدت ان اعمال الاصلاح قد بدى بها في عدة نقاط . وكانت الشركة العمومية لانشاء الطرق هي التي تولت اصلاحه وكان في استطاعتها اتمامه في آب سنة ١٩١٢ أي بعد البدء فيه بعامين . ولكن عمليه الاصلاح اهملت نظراً للمصاعب العديدة التي قامت في وجه مصلحة الطرق تلك المصلحة التي كانت عاجزة عن القيام بشيء من نفسها . وذلك ما يدعوننا الى العمل بعزم شديد لتحرير ادارتنا من البيروقراطية والا فلا الحكومة الدستورية ولا المساعدة الالهية تمكننا من اتمام شيء ما بنجاح . والشيء المستغرب هو ان تلك الاجزاء من الطريق التي كانت من قبل في حالة جيدة اهملت بحجة الاصلاح حتى صارت الى حالتها السيئة الحاضرة . فقد نقضت الاحجار من سطح الطريق ووضعت في تلين طويلين على جانبيه . وقد امتلأت الحفر التي بين التلين بمياه الامطار فكانت عبارة عن وجود قنال في الطريق . تلك كانت حالة طريق اسكندرونة - حلب في تشرين ثاني سنة ١٩١٤ .

وقد اضطررنا الى قضاء الليل في بيلان بالرغم منا . وفي صباح اليوم

التالي واصلنا السفر على ظهور الخيل الجياد بعد أن رأينا أن تذهب ثلاث سيارات قوية من حلب الى اقرب قرية . ومن هناك وصلنا الى محطة قاطمة بالسيارة . وهي المحطة الثانية من حلب على خط بغداد . وبما أنها نقطة اتصال بين طريق حلب واسكندرونة وسكة حديد بغداد قد انشئ فيها مستودع لخطوط المواصلات .

ويمكننا ان نذكر غيرة ونشاط جميع الاشخاص المختصين من أننا لما أصبحنا على بعد خمسين متراً من المحطة استحال علينا التقدم بالسيارات فحملنا الجنود على اكتافهم في الظلام الحالِك .

وفي تلك اللحظة تذكرت طريق كيركليس - أورفة وطريق كيركليس - بونا - حصار - ويزا - سيراي في خلال الحرب البلقانية . فلقد كان هنا أيضاً في الطريقين تل من الاحجار على كلا الجانبين فلما ملأ المطر المسافة بينهما أصبح الطريق كأنه مجموعة خنادق .

فما أشد مشقة تلك الطريق التي سيقطعها الجيش الذي عينت لقيادته ! وتمثلت مرة اخرى لعيني تلك الصورة التي لا يمكن نسيانها صورة البؤس والشقاء اللذين ينتظران بطارياتنا وعربات الذخيرة وهن عاجزات عن مواصلة سيرهن في الطرق واضطراهن الى التخطي الى الحقول حتى تنغمس في الوحل ثم كررت لنفسى (ها هي الطريق الوحيدة التي تربط جيشى بالوطن !) .

وكانت حلب نقطة حشد الفيلق الثالث عشر الذي تمت تعبئته في الموصل وما جاورها . وكان قائده الكولونيل نغرى بك التابع لهيئة اركان حرب . أما قوام هذا الفيلق فكان من الاكراد والباقي من العرب المتمرنين . وكانت الفرقة الاولى في حلب والثانية في حماة . فكشفت في حلب ثلاثة ايام فتشت فيها الجنود . وبالرغم من المجهود الحارق للعادة الذي قام به نغرى بك لم تكن الفرق والتشكيلات المستقلة عن الفيلق في حالة مرضية . اذ لم تكن هناك المادة التي

يحتاج اليها فيلق معبأ والواقع اننا لم نحلم بتتيميمها لانه لم يكن ثمة أمل في الحصول على الاجهزة اللازمة في الموصل وما حولها وهي منطقة تعيسة الفيلق المذكور .

فطلبت الى والي حلب أن يقوم باصلاح طريق حلب واسكندرونه وان ينشىء طريقاً جديدة من اصلاحيك الى محطة تاظمة عن طريق ادجو . ثم ذهبت الى حماة لفحص الحامية المعسكرة هناك . وكانت على مثل الحالة التي عليها فرقة حلب .

وكان في نيتي قبل الذهاب الى دمشق زيارة شمالي سورية لأرى بنفسى الحالة في تلك المنطقة .

فذهبت اولاً الى طرابلس عن طريق هرنس ثم عدت في اليوم نفسه الى هرنس حيث قضيت فيها تلك الليلة . وفي صباح اليوم التالي واصلت رحلتي وذهبت الى دمشق عن طريق رباقي . واطهر اهالي كل البلاد التي اجزتها وطينية كبرى واخلصاً للقضية التركية . وقد امتلأ قلبي سروراً أن رأيت وشعرت ان غالبية العرب لا تجرم عن بذل ما يطلب منها من التضحيات في تلك الحرب الكبرى لتحرير الخلافة الاسلامية . فتعين علي الاستفادة من هذه الحالة العقلية وحفظ تلك المنطقة - وهي منطقة ملتبية كالبارود - من عبث الخونة الذين باعوا ضمائرهم للاعداء .

ولسكيا اسهل على القارئ تتبع الحوادث التي وقعت في خلال الاعوام الثلاثة (من كانون اول سنة ١٩١٤ الى كانون اول سنة ١٩١٧) التي قضيتها في سورية أي الحوادث الخاصة بالجيش والادارة والسياسة الداخلية في سورية وبلاد العرب ووقع الثورات والمؤنة والمسائل الاخرى المتعلقة بالتقدم المادي وغير ذلك التي سيتناولها البحث رأيت من الاضوب أن افرد فصلاً خاصاً لكل من هذه الامور بدلا من بحثها في صورة مذكرات مورخة حسب ترتيب الوقائع

الفصل الخامس

(التآهب لحملة قناة السويس)

بما انى لا اريد وضع تاريخ للحرب سأترك الخوض فى التفصيلات غير اللازمة عن حركات الجيش واعماله واقتصر على ذكر الحقائق البارزة بعبارة بجملة . وسأطلب يوماً ما الى الكولونيل فؤاد بك رئيس اركان الحرب أن يضع تاريخاً خاصاً للحملة المختلفة على قواعد (مذكرات الجيش الرابع الحربية) المقدمة الى هيئة اركان الحرب الكبرى وهى المذكرات التى جمعت ورتبت بكل دقة فى مركز القيادة .

فى يوم وصولي الى دمشق جاء لمقابلتى فى رياق مرسينلي جمال باشا قائد الفيلىق الثامن وسلمنى حزمة من الوثائق . وكانت تحتوى على خطة تفصيلية لاعمال فيلقه الذى وقع عليه الاختيار لمهاجمة قناة السويس وصورة من الاوامر الصادرة واحصائيات وخطط تختص بالاعمال الباقية قيد التنفيذ والتى تمت . وسلم رئيس اركان حرب فيلقه فون كريس الكولونيل الى فون فرانكنبرج رئيس اركان حرب فيلقى صورة بالالمانية من الوثيقة نفسها . وكانت باكورة اعماى عندما وصلت الى دمشق واتخذت من (فندق قصر دمشق) مركزاً للقيادة أن أدرس تلك الوثائق بالدقة التامة .

ويمكن تلخيص خطة العمل التى وضعها الفيلىق الثامن فيما يلى : (بناط الرحف على القناة بالفرقة الخامسة والعشرين مضافاً اليها كتيبة من الضباط والجنود تنتخب من الفرقتين الاخرين اللتين يتألف منهما الفيلىق .

(ويوزع العدد الباقى من الفيلىق على خطوط المواصلات للقيام باعمال الحراسة ولمراقبة الحالة فى لبنان ومنطقة الساحل .

أما الفرقتان الثامنة والعاشرة اللتان ترسلان من الاستانة خصيصاً للحملة المصرية فتستخدمان كما يرى قائد الجيش فقسماً منها لمهاجمة القناة والقسم الآخر للقيام بالحفارة في الداخل .

وعلى كل لا ينبغي استخدام قوات كبيرة في تلك الحملة .
وإذا تذكرنا الحالة الطبيعية التي عليها صحراء سيناء التي ستجرى فيها الاعمال الحربية تحققنا ان قواعد الخطة السابقة كانت محكمة وطيدة .
وعند وصولي الى سورية كانت الحالة العامة كما يأتي : استولت كتيبة البدو المتطوعين بقيادة الماجور ممتاز بك على العريش وحصنت نفسها فيها .
وامتولت كتيبة اخرى من المتطوعين بقيادة ازويرلي اشرف بك التابعة (للتشكيلات المخصوصة) على قلعة النخل وسط صحراء سيناء .

وكانت في العبة كتيبة من المشاة بقيادة الليفتاننت كولونيل موسى كاظم بك كما عسكرت في بير السبع كتيبة من الفرقة السابعة والعشرين لتكون بمثابة سند لسائر القوات الموجودة في الصحراء .
أما الفرقة الخامسة والعشرون باسرها بقيادة الليفتاننت كولونيل علي فؤاد بك فكانت في دمشق تتمرن بهمة ونشاط .

ونظراً لتكوين صحراء سيناء ادرك الفيلق الثامن بثاقب نظره ان من اللازم تشكيل هيئة يعهد اليها تنظيم خط المواصلات من المؤخرة الى المقدمة قبل صدور اوامر الزحف الى الجيش أو بعجالة اخرى الى الحملة . وقد عين بهجت بك الليفتاننت كولونيل في هيئة اركان الحرب وقائد الفرقة الثالثة والعشرين رئيساً لتلك الهيئة التي اطلق عليها اسم (تفتيش خطة مواصلات الصحراء) وسأ تذكر دوماً بالاحترام التام بهجت بك هذا للعناية التامة التي اظهرها في اعماله في تلك الصحراء الهائلة في خلال الهجمة الاولى على القناة وفي ابان التاهب للهجمة التالية .

فأصبح ذلك المفتش عليه البت في أمر المستودعات المراد انشاؤها على خط المواصلات من بير السبع والاسماعيلية (بحيث لا يبعد بعضها عن بعض بأكثر من ٢٥ الى ٣٠ كيلومتراً) وابتعاد الماء فيها وارسال المؤونة التي تقرر من قبل تخزينها في بئر السبع مقدماً حسب التعليمات وانشاء مستشفى في كل مستودع وبالجملة ان يقوم بكل اللوازم والتأهيات التي يقتضيها انشاء هيئة خاصة لخطوط المواصلات . وتقرر أن تكون العريش وقلعة النخل بمثابة مركزين لتفتيش خط المواصلات . ومنهما يمكن ارسال المؤونة واللوازم الى الجنود التي تقرر أن تتجمع هناك للزحف على القناة .

واعترز الفيلق الثامن أن يجمع قوام الحملة في بير السبع ثم يزحف على القناة بطريق وادي العريش - أبين - جفجاف أى بعيداً بقدر المستطاع عن الساحل وتغطي الجناحين شرادم صغيرة من العريش وقلعة النخل .

ولعمري انها كانت خطة حكيمة . فان خط مواصلاتنا الاساسي يجب أن يبعد عن الساحل حتى يكون بمنجاة من الانجليز فلا يستطيعون أن يسلطوا عليه مدافعهم البحرية أو يحطموه بالسكينة بانزال فصائل صغيرة لا اهمية لها في الواقع ولكنهم قد يضطرون الى استخدامها بين آن وآخر .

وعلى ذلك قرر فون كريش بنفسه أن تكون مستودعات خط المواصلات في بير السبع والهلاسا والحافر ووادي العريش وابين والهبرة الاولى وجفجاف والهبرة الثانية . وكان قد حفر في كل من تلك الاماكن بئراً ارتوازية واقام السدود لسد ما تسفي به الرياح والامطار التي تشتد في شهري كانون اول وكانون ثاني كما انه أعد باقي ما يلزم من المعدات لخط مواصلات طويل كهذا .

ثم اعلن الفيلق الثامن بأنه نظراً لاستحالة ارسال المؤونة للضباط والجنود طول الطريق الى القناة يجب الالتجاء الى نظام جديد يسمى به (جرابية الصحراء) وهو نظام قام على بيان بالمأكولات التي يجب الا تزيد زنتها عن كيلوغرام

واحد لكل شخص بما فيها البسكويت والتمر والزيتون . اما الماء فلا يسمح للشخص باكثر من نصف لتر منه فقط .

قتبين لنا على هذه القاعدة الحسائية اننا اذا اردنا ان نزحف الفرقة العاشرة والخامسة والعشرون والكتائب المتطوعة يلزم لنا ١١٠٠٠ أحد عشر الف جمل لنقل المؤونة والماء فضلا عن وسائل نقل الجنود ثقلها وخفيفها . حتى انه بمعونة تلك الهيئة ليتعين على الحملة عند عبور القناة وفي ظرف اربعة ايام اما أن تبعد الجنود الانجليزية عن الشاطيء الغربي وتعمكر في الخنادق واما أن تتقهقر لأن الماء العذب الذي سيجمع في الهبرة الثانية أى على بعد خمسين كيلو من القناة لا يحتمل ان يكفى اكثر من عشرة ايام . وبعد نفاذه تجد الحملة نفسها في كرب لا يذكر بجانبه كرب الاسرائيليين .

كما انه لم يكن ثمة أمل في حشد رجال الحملة في بير السبع وارسالهم جميعاً الى القناة دفعة واحدة لأنه كان من رابع المستحيلات ارسال المؤونة والماء لمثل ذلك العدد العظيم من الجنود بواسطة الجمال التي تكونت منها فرق النقل . فلم يبق للكتائب والبطاريات الا مواصلة السير في الصحراء يوماً بعد يوم على أن تجتمع الجنود في النهاية في نقطة تبعد عن القناة بعشرين أو ثلاثين كيلومتراً ومن ثم تشرع في مهاجمة القناة في النقطة المعينة .

ورأى الفيلىق الثامن أن تكون الحملة من الوحدات الآتية وان تقسم

الى قسمين :

القسم الاول : الفرقة الخامسة والعشرون وكتيبة من جنود الفرقة الثالثة والعشرين وخمس بطاريات من مدافع الميدان وبطاريتان من المدافع الجبلية وبطارية من مدافع هاوتزر عيار ١٥ سنتيمتر وكتيبة فرسان واربعة كتائب من فرقة الجمالة وفصيلة من متطوعي فرسان العرب عددها ١٥٠٠ رجل وجسور عائمة تكفي لعبور ثلاث كتائب في وقت واحد وستة بلوكات من

المهندسين وفرقة من عمال التلغراف ومستشفيات ميدان ووحدات طبية وغير ذلك وبمجموع ذلك كله ١٢٦٤٢ رجل و٩٦٨ حصان و١٢٠٠٠ جمل و٣٢٨ ثور القسم الثاني : الفرقة العاشرة من فرق المشاة ومدفعتها وبلوك فرسان والوحدات المساعدة الاخرى .

وعند وصولي الى دمشق استلمت من وكيل القائد العام برقية وضع فيها الفرقة الحجازية تحت تصرف قائد الجيش الرابع لتعزيز الحملة على القناة لاستعمالها محلياً كما يترى لي . فكتبت للكولونيل وهيب بك والحاكم العسكري ووالي الحجاز بالمجيء الى معان مع السكتائب النظامية والمتطوعين . وقد تقرر أن تلحق هذه الجنود اجنود التي مع وهيب بك بالقسم الثاني .

ونظراً لأن الـ ١١٠٠٠ جمل التي سبقت الاشارة اليها خصصت للفرقة الخامسة والعشرين والفرقة العاشرة والوحدات الاخرى التابعة للحملة تقرر أن تأتي فرقة الحجاز بجبالها من الحجاز .

على ان الانجليز في تقاريرهم الرسمية قرروا عدد الحملة التي قامت بالهجمة الاولى على القناة بأربعين الفاً والحقيقة انها مع فرقة الحجاز والفرقة العاشرة لم تزد ابدأ على ٢٥ الفاً .

وتعين أن يكون القسم الأول بقيادة موسيني جمال باشا قائد الفيلق الثامن أما القسم الثاني فيلحق بمركز القيادة .

ذلك كان حال جيوش الصحراء وفلسطين وداخل سورية عند وصولي الى دمشق وهذا هو الحد الذي وصلت اليه تأهبات قائد الفيلق الثامن للحملة على القناة . ونظراً للصعوبات التي قامت في وجهه تفتيش خط المواصلات الذي انشئ في دمشق لملاحظة مثل ذلك الخط الطويل اقترح الفيلق الثامن في الوقت نفسه انشاء تفتيش مستقل لخط المواصلات في القدس وتكون مهمته الاولى جمع المؤونة في فلسطين وتقديمها للجيش .

وبعد تعديل طفيف اجزت تلك الاجراءات كلها ووقستد شخص إلى قائد الفيلق الثامن وقد تولاه اليأس ليخبرني بأنه لم ينجح حتى ذلك الوقت في الحصول على الجمال اللازمة للحملة وان ليس ثمة امل ما في الحصول عليها وانه يلفت نظر قائد الجيش الى تلك المسألة بصفة خاصة .

والواقع ان هذا الفيلق وجد نفسه محاطاً بكل انواع المتاعب من كل جانب حتى انه لم يتمكن بعد ثلاثة اشهر الا من الحصول على الفين من الالحاد عشر الف جمل المطلوبة واحسب ان الكثيرين سيدهشهم عدم امكان الحصول على ١٢ - أو ١٥ - الف جمل في بلاد سورية والحجاز في حين أن مئات الآلاف أو الملايين من الجمال موجودة فيها . ولكن يجب أن لا يغرب عن البال ان ليست كل انواع الجمال صالحة لحمل الاثقال .

ولا اريد إلا أن اشير عرضاً لمسألة سيتناولها البحث التفصيلي متى حان الوقت لكتابة تاريخ الجيش الرابع . فلم يكن سواي هناك من عرف عظم المصاعب الواجب تذليلها للحصول في خلال شهر واحد على ١٤٠٠٠ جمل بما فيها الاحتياطي . ومع ذلك قد نجحت في النهاية وحصلت على الميعاد المحدد على الجمال التي اقتضتها خطة الهجوم التي وضعها الفيلق الثامن . ويمكن قدر المتاعب التي صادفتها من أن ابن السعود جاء في ذلك الوقت بالجمال من اقصى اعماق نجد .

أما مسألة المسائل التي تتوقف عليها كل الاعمال العسكرية الشاقة في صحراء سيناء فهي مسألة الماء اذ فيما عدا فصل المطر يستحيل مطلقاً اختراق تلك الصحراء بحملة عسكرية تبلغ ٢١ الف مقاتل . وبما أن فصل المطر في الصحراء هو كانون اول وكانون ثانی تعين أن تنفذ أعمالنا الحربية في هذين الشهرين او نرجئها الى ذلك الفصل من العام التالي .

ولما كانت القيادة العليا مصررة على زحف الحملة في هذا العام اعترمت بعد

سماع التقريرين الشفويين من قائد الفليق الثامن ورئيس اركان الحرب التعجيل
بسير التأهبات وتنفيذ خطة الهجوم .

وفي نهاية كانون الاول شرعت في حشد القسم الاول من الحملة بالقرب
من بئر السبع .

وأتمت الفرقة العاشرة في الوقت نفسه حشد جنودها في مدينة زحلة
في لبنان . وقد فُحصتها هناك . ثم نقلت مركزي الى القدس بعد ان أصدرت
تعليمات التقدم الى القدس وبئر السبع لقائدها الذي كان تحت امر قيادة
الجيش مباشرة .

ثم شرعت حوالي ذلك الوقت في مخاطبة شريف مكة الأمير حسين باشا .
فطلبت اليه ان يعزز قائد فرقة الحجاز بقوة مساعدة بزعامه احد أبنائه أو يتولى
هو القيادة ويلحق بالجيش .

فأجاب الشريف على خطابي الاول بكل أدب وأخبرني بأنه سيرسل ابنه
على بك ليرافق وهيب بك والى الحجاز والواقع ان على بك غادر مكة مرافقاً
لجنود وهيب بك ولسكنه ما وصل الى المدينة حتى اعلن انه بناء على أوامر
ابيه لا يستطيع مرافقة وهيب بك الى أبعد من ذلك . فتخلف في المدينة
وأخذ يتدخل في اعمال القائد بصرى باشا .

وفي اليوم الرابع عشر من كانون ثاني بدأ القسم الاول من جنود الحملة
زحفه على القناة تنفيذاً لخطة الهجوم . وفي اليوم الـ ١٥ من كانون ثاني غادرت
قيادة الجيش في بئر السبع مقتفياً أثر الجيش .

ولم يمض عشرون يوماً على بدء الزحف من بئر السبع حتى وصل قلب القسم الاول
من الحملة بقوة كبيرة الى نقطة تبعد نحو ١١ كيلو متراً من القناة . ووصل
الجناح الايمن الذي زحف من العريش في جهة قاطيه تجاه القنطرة بينما الجناح
اليسر الذي زحف من العقبة عن طريق قلعة النخل وقف في مقابل السويس .

ووصلت المعدات الرئيسية التابعة للفرقة العاشرة التي يتألف منها القسم الثاني الى مستودع خط المواصلات في الهبرة الثانية كما وصلت فرقة الحجاز بقيادة وهيب بك الى قلعة النخل بعد ان سارت من مكة الى المدينة ومن ثم الى معان بالسكة الحديدية .

ويقصر اللسان عن ان يوفي القوات العثمانية - لا فرق بين ضباطها وجنودها - الذين اشتركوا في حملة القناة الاولى حقها من الثناء على ما بذلته من الجهودات واظهرته من ضروب الوطنية العالية . وأرى من واجبي تقديم اعجابي لأولئك الجنود البواسل الذين قاموا بذلك الزحف غير مباين بما لا قوه من ضروب الضنك وتحملوه من المشاق في سحب المدافع فضلاً عن الجسور المتحركة وفي كل ما كان لدينا من المعدات لعبور القناة (وسط بحر الرمال هذا . وقد ساد بين وجال الحملة - لا فرق بين الأتراك والعرب - شعور العطف الاخوي - ولم يكن بينهم من يرضن بحميانه دفاعاً عن اخوانه . والواقع ان الحملة الاولى على القناة كانت برهاناً ساطعاً على ان غالبية العرب الساحمة انضموا الى الخلافة بقلوبهم وجوارحهم .

أما العرب الذين تألفت منهم الفرقة الخامسة والعشرون فقد أدوا واجبهم بمنتهى الاهتمام والاخلاص كما ادته هيئة خط المواصلات . فلذلك لا يمكنني مطلقاً تخفيف الحمق والسخط اللذين أشعر بهما ضد الشريف حسين لبذره فيما بعد بذور الخلاف في تلك الكتلة التي توحدت آراؤها وشعورها . وفي خلال تلك الحملة ونحن نواصل السير بالليل على ضوء القمر كان قلبي مفعماً بالسكابة الممروجة بالأمل الكبير في النجاح كلما رددت الموسيقى (انشودة الراية الحمراء تخفق فوق القاهرة) والتي على وقعها شتمت الصفوف الزاحفة طريقها في ذلك القمر المظلم الذي لا نهاية له .

ولا اعد مبالغاً اذا قلت - ان ذلك الجيش الذي لم يسمح لفرد من

افراده سواء كان القائد العام أو الجندي الصغير يتناول اكثر من ٢٥٠ غراماً من البسكوت وقليل من التمر والزيتون فضلاً عن الاقتصاد السكلي في استعمال الماء - كان يندفع بقوة الآمال العريضة كلما اقترب من هدفه فتمد رسخ في نفس كل فرد فيه اعتقاد جازم بسهولة عبور القناة والشبات في الخنادق في الضفة الغربية وقيام الوطنيين لمصريين بمهاجمة الانجليز من الخلف .

ومع انني لم اكن واثقاً بالنجاح النهائي - لعلني بمناعة الاستحكامات الانكليزية في القناة - قد اعتدت أن أحادث الجنود كل مساء عن النصر المنتظر وانه سيكون نصراً مبيناً . لأنني أردت أن ابقى تلك الشعلة المقدسة متقدة في قلوب رجال الحملة بأسرهم .

فبعد أن أتمت الحملة تعبئتها - في القلب والجناحين - في المنطقة المشار اليها آنفا قررت أن يقوم القلب في ليلة ٧ شباط بهجمة فجائية على الاسماعيلية . ويتظاهر الجناح الايمن في الوقت نفسه بمهاجمة القنطرة بينما الجناح الايسر يواصل زحفه على السويس .

فلا يكاد الظلام يخيم حتى تشرع الجنود المخصصة للهجوم في الدنو من النقطة التي تقرر عبور القناة منها . ثم يبدأ العبور نفسه بعد الشروق بقليل . وكنت قد اوقفت كل اهتمامي على مفاجاة الانجليز علما مني بأن في استطاعتي الاستيلاء على خط القناة في جنوبي الاسماعيلية بقوة لا تزيد على خمسة أو ستة الآف جندي في الهجمة الأولى ريثما أجيء بالفرقة العاشرة واذذاك يصبح لدي قوة مؤلفة من ١٢٠٠٠ بندقية معسكرة في خنادقها في الضفة الغربية . ثم نستولي على الاسماعيلية - لو امكن - ونحتفظ بها الى أربعة أو خمسة أيام في داخل استحكامات موجهة غرباً وشمالاً وجنوباً .

وفي الوقت نفسه تضاعف الفرقة الثامنة زحفها فلا تمضي عشرة أيام حتى يزيد عدد الجنود في الاسماعيلية الى ٢٠٠٠٠ .

وقد علقنا أكبر الآمال وقتئذ على مساعدة الوطنيين المصريين الذين رجوت أن يشوروا كلهم أجمعون بعد أن يشجعهم سقوط الاسماعيلية في ايدي الجيش التركي فتحرز مصر في مدة وجيزة نصراً باستخدام حملة عسكرية قليلة العدد مزودة بموارد فنية طفيفة .

وكانت جيوش العدو حسب المعلومات التي وصلت الى مركز قيادة الجيش تبلغ ٣٥٠٠٠ جندي على طول خط القناة عدداً ١٥٠٠٠٠ - أو يزيدون موزعين في طول مصر وعرضها . ولما كان حشد كل تلك الجنود في جميع نقط القناة - وهو خط ينيف طوله على ٢٠٠ كيلو متر - امراً عسيراً قد كان ادراك الفوز ممكناً بشرط أن نستطيع عبور القناة بغتة في نقط لا يتوقع العدو عبورها منها .

وعلى كل حال رأيت القيام بذلك الهجوم ك مجرد مظاهرة لفهام الانجليز من جهة اننا لا ننوي الوقوف موقف المتفرج على ضفة القناة ومن جهة اخرى لاستبقاء عدد كبير من جنودهم في مصر كما سلف الاشارة الى ذلك . والامس جال بخاطري بصفة جدية اننا بمثل هذه الموارد الضئيلة التي لم تكن تسمح ببقائنا سوى اربعة ايام حول القناة أي بقوة لم تزد على ١٤٠٠٠ بندقية وبعض بطاريات مدافع جبلية وبطارية هاوتزر واحدة وعشرة جسور متحركة للعبور - كنا نستطيع عبور القناة التي يزيد عرضها عن مائة متر في وجه جيش متنقل وباسل كالجيش الانجليزي مزود بكل المعدات الحديثة من البوارج الضخمة الى القطارات المسلحة . ولسكني بالرغم من شكوكي هذه تمكنت من ايقاظ روح الشئمة في نفوس الجنود فلم يكن بينهم من خطر بباله ان هذه الهجمة الاولى على القناة ليست سوى محض مظاهرة ولا من ضن لحظة بتقديم نفسه قرباناً لنجاح القضية .

فلو كتب النجاح لهذا المشروع - الذي عددهته محض مظاهرة مصحوبة

بقوة عسكرية لا تعتبرناه فلا حسنا لتحرير الاسلام النهائى وتخليص
الامبراطورية العثمانية .

ولكن قضى سوء الخط أن يتأخر قليلا وصول القوة المهاجمة الى الضفة
القناة . فان الشمس كانت في الافق عندما مددنا الجسور المتحركة وشرعنا فى
العبور أى ان اعمالنا أصبحت ظاهرة للانجليز فهبوا للدفاع عن نقطة العبور
مباشرة بما كانت نتيجته تحطيم الجسور عدا ثلاثة . واذ استحال ارسال النجيدات
الى أبطالنا الستائة الذين تمكنوا من العبور فى الهجمة الأولى اعتقلهم الانجليز
وعندئذ وقع الترامى الشديد بالمستدافع بين البوارج الانجليزية والطرادات
المساعدة والقطارات المسلحة وبين المدافع الخفيفة التى مع الحملة . فلم ينتصف
النهار حتى دمرت بطارية الهاوتزر طراداً انجليزيا . وفى ذلك الوقت وصلت
الكتيبتان التابعتان للفرقة العاشرة الى ميدان القتال فوضعتها تحت تصرف
الضابط القائم باعمال الفيلىق الثامن .

وفى النهاية تبينت حقيقة الحالة . فان الحملة قد نجحت فى مهمتها بالقيام
بهذه المظاهرة وقد رسخ فى ذهنى ان ليس ثمة أمل فى عبور القناة واحتلال
الاسماعيلية . وكان مركز القيادة على تل يبعد عن الضفة القناة الشرقية بثلاثة
كيلومترات ونصف وكنت اشرف على الموقعة بنفسى . فتمكنت طيارات العدو
من تعرف مكانها فما لبثت بوارجه ان أمطرتها بالقنابل من عيار ٢ و ٩ بوصة .
وفى الساعة الثالثة ارسلت فى طلب جمال باشا قائد الفيلىق الثامن ورئيس
اركان حربه فون كريس وكانا على بعد ٧٠٠ أو ٨٠٠ متر من خط النار اى
فى الضفة الشرقية . وكان معى رئيس أركان حربى ومدير قسم الاعمال الحربية
فى مركز القيادة والصاغ على فؤاد بك . وقد وصلنى منذ قليل تقرير من
الضابط القائم باعمال الفيلىق الثامن يقول فيه : - ان بطارياته اذا تغلبت على
العدو فى المساء امكنه محاولة عبور القناة فى فجر اليوم التالى .

من اجل ذلك طلبت الى فون كريس بصفتة رئيس اركان حرب الفيلق
المذكور أن يبدي رأية في الحالة .

فبعد ان شرح لي الحالة العمومية كرر اقتراح المذكور في تقرير
الضابط السالف الذكر وأقره عليه ميرسينلي جمال باشا . فقلت لها : -

• ان محاولة عبور القناة مرة ثانية تترتب على الموارد التي لدينا وقد قلنا
فيما وصلني من التقارير انه لم يبق لدينا سوى ثلاث (جسور) واقتراح عبور
القناة سباحة عبر اذن فكيف تريدان تنفيذ المشروع ! ، .

فاعترف كل من جمال باشا وفون كريس برجاجة هذا الاستنتاج ولكنهما
كانا تنقصهما الشجاعة الأدبية لاصدار أمر الانسحاب للحلّة . وقد كان من
السهل أن يرى الانسان فون كريس - الذي واصل العمل لاعداد المعدات التي
تلزّم للحلّة شهرين ونصف بلا ملل ولا عناء حتى لقد كان يعتبرها غايته في
الحياة - وقد سقطت في يده بعد أن رأى الفشل بعينه فلذا أصبح يرى الموت
المخرج الوحيد من الورطة .

فقال : - (يا صاصب السعادة اني أرى أن رجال الحملة يجب عليهم أن
يفضوا عن بكرة أبيهم حول القناة !) . فاجبته بهدوء : -

انني لم ادعك هنا لعقد مجلس حرب أو أن أشركك في المسؤولية عن
قراراتي . كلا ! ، فاني لم اسمح لشخص ما سواي أن يتحمل مسؤولية الأوامر
التي أصدرها بصفة كوني القائد العام .

ان الغرض من استدعائك هنا هو لاعطائي معلومات عن حالة الجنود في
الصف الامامي وحالة الموارد الفنية التي لدينا . واني استنتج مما تقول انه لم
يبق ثمة ما يمكن عمله . فاذا بتنا يوما آخر بجانب القناة فلا مفر من ان تفضي
رجال الحملة عن بكرة أبيهم . لتكن ذاكرأ أن هذه القوة هي كل مالدي
الامبراطورية العثمانية في الوقت الحاضر اذا قضت الضرورة بالدفاع عن سورية

أو فلسطين . وان اكبر واجب علي هو صيانة تلك القوة من الخطر واقتحام
الغمرات بها حتى نهاية الحرب وعلى ذلك فالصواب عندي الاحتفاظ بمواقفنا
الى وقت الغسق وابقاء الترامى بالمدافع مع العدو على شدته ثم تتخذ من
الظلام سبيلا لسحب جنودنا الى الخطوط التي غادروها في مساء الأمس ومن
ثم نستطيع التمهقرو ويبدأ رويداً الى بير السبع . والآن أريد أن يضع
فون فرانكنبرج بك أوامر الجيش اليومية على هذا الأساس ! . . .

فاقتنع مرسنيلي جمال باشا وفون كريس وفون فرانكنبرج بهذا الرأي
واعتبروه الرأي المنطقي الوحيد بل هو الحل الذي يقتضيه الموقف العام .
وفي نفس هذه اللحظة - أخذت طيارات العدو تمطرنا وابلا من القنابل عن
اليمين وعن الشمال كأنه قد احس باننا منهمكون في مناقشة مهمة بما حملنا على
تغيير موقفنا . وفي النهاية وقعت أمر الجيش الذي خطه على فواد بك . وعاد
جمال باشا وفون كريس الى الخط الأمامي وبقيت في مركز القيادة الى المساء .
وتعين علي اتخاذ الوسائل المطلوبة لكيلا يترك هذا الفشل أثراً سيئاً في
نفوس الجنود . فأصدرت أمراً يومياً قلت فيه : - (ان الجنود على بكرة أبيهم
أدوا واجههم بوطنية واخلاص . وان المشروع انما كان محض استطلاع
هجومى على القناة لمعرفة الموارد التي لدى العدو وما نحتاجه نحن انفسنا من
الموارد لعبور القناة . وبما اننا قد ادركنا غايتنا تماماً فالاصوب أن ننسحب
للحصول على الموارد المادية اللازمة بدلا من التعرض للخسائر بلا مناسبة .
وان الشرف يقضى أن يسود في خلال التمهقرو نفس روح التضحية والاخلاص
الذي ساد في ابان الزحف حتى لانفقد شيئاً من معداتنا . . .

وفي ١٥ شباط سنة ١٩١٥ عاد مركز القيادة الى بير السبع بعد مرور
شهر من مغادرتها .

ولما لم يكن من المستطاع مدخطي التلغراف الى ابعد من مستودع خط

المواصلات في ابين (وهو في منتصف الطريق بين القناة وبيبر السبع) ظلت القيادة العامة مدة اسبوع بدون اخبار منى حتى حدث لها قلق كبير . وقد علمت فيما بعد أن مدير تلغرافات الجيش (الذي كان مشغولاً بمد الخطوط في الصحراء) أبلغه احد المعتوهين كذباً بنياً ستوسط الانماعيلية فعجل بإرافه الى الاستانة . فلما ظهرت الحقيقة انعكست الآية وكان لها أسوء الأثر . غير انه لحسن الحظ كان للبيانات التي اصدرتها قيادة الجيش بأن المشروع لم يكن سوى محض استطلاع هجوى نجاح عظيم في ازالة ذلك الأثر السيء .

والحقيقة اننا عندما فكرنا في هذه الحملة الأولى لم يكن أحد منا يعرف كيفية عبور القناة . فكان من الضروري جداً القيام باستطلاع مثل هذا . فما هي الموارد المادية المطلوبة لعبور القناة التي كانت في مأمن من كل وجهة من الهجوم ؟ أكان من المستطاع العبور على مرأى من بوارج العدو ؟ - ألم يكن في الاستطاعة ردم القناة ؟ حتى لو فشل العبور واستحال علينا الاستيلاء على نقطة في القناة - الا يمكننا أن نعسكر في الشاطئ الشرقى ومن ثم نمرق مرور البوارج الحربية ونضايق البواخر التجارية بالمدافع البعيدة المرمى . وهلا تكون تلك خير خطة تتبعها ؟ كل هذه كانت مسائل حربية بأن تقتضى الاجابة عليها - القيام باستطلاع بقوة عسكرية .

فالى هذا الاستطاع يرجع الفضل في وقوفنا على حقيقة الموقف وما يتطلبه وانتظار النتيجة محاولتنا هذه ارجأ الانجليز مهاجمتهم للدردنيل ووجدوا انفسهم مضطرين الى ابقاء جيش لا يقل عن ٢٠٠٠٠٠ جندي في مصر ! . وجلي من هذه الملاحظات ان نفقات الحملة الأولى على القناة لم تذهب عبثاً لأننا ادركنا الغرض الذي رمينا اليه .

وفي غضون انسحابنا من القناة سلمت لعلى فؤاد بك كد أساس لتقريره مذكرة عن عدد الرجال ونوع المدفعية والمواد الأخرى التي نحتاج اليها الفوز

الحملة على القناة . ثم طلبت اليه ان يكتب تقريراً مفصلاً على هذا الاساس .
 وفي خلال الأيام الأربعة أو الخمسة التي قضيتها في ايبين في مشاهدة مرور
 الجنود اتم على فؤاد بك تقريره وسلمه الي بعاء . مراجعته مع رئيس اركان
 الحرب والحصول على موافقته . واتي لشديد الأسف لسكون هذا التقرير ليس
 معي الآن وهو الذي اقرته بعد ادخال بضعة تعديلات طفيفة عليه . ولوددت
 أن أذيعه . ولو استطعت نشره لأدركت هيئة اركان الحرب الانجليز عظم
 الفائدة التي عادت علينا من ذلك الاستطلاع الهجومي وللحقها العار حيناً تعرف
 ان ابطالنا الذين خانهم الحظ ووقعوا أسرى في ايدي الانجليز يسحبون في
 شوارع القاهرة والصحف الانجليزية يكن لجيشنا انواع القدح والسباب .
 ولكن اذا قدر الآله عودتي الى الاستانة فستكون مهمتي سد هذا الفراغ
 في عملي . وهناك بيان في خسائرنا في الحملة الاولى :-

ضباط	قتلى	جرحي	متغيبون
١٤	١٥	١٥	١٥
جنود	١٧٨	٣٦٦	٧١٢

ولكن الانجليز قروا خسائرنا في بلاغاتهم الرسمية كما يأتي :-

قتلى	جرحي	أسرى
١٠٠٠	٢٠٠٠	٦٥٠

فبمقارنة خسائرنا الحقيقية بهذه الأرقام غير الصحيحة التي نشرها الانجليز
 يستطيع الانسان ادراك المبالغة الشنيعة في بلاغاتهم الرسمية .

(الفصل السادس)

تجريدة الصحراء

عند عودتي من القناة أحصيت بامعان كل ما يجب عمله في الصحراء وبحث المشروعات العديدة التي بقيت قيد التنفيذ . فان الأمر البسيط الوحيد الذي تترتب عليه حملة ناجحة هو تنظيم خطوط المواصلات . اذ هما حسن نظام هيئة خطوط المواصلات فلا أمل في بقائها الى أمد طويل او استعمالها في ارسال قوات كبيرة الى القناة ان لم تتصل مستودعاتها المختلفة بطريق مأمون فكان أول شيء فكرت في عمله انشاء طريق بين بير السبع وسائر قواعد خط المواصلات في اتجاه الاسماعيلية ليتمكن نقل جميع أنواع المركبات والسيارات . وفكرت أيضاً في انشاء خط حديدي يسير محاذياً لذلك الطريق .

ولزم أيضاً أن نحفر بئراً ارتوازية في كل قاعدة من قواعد خط المواصلات ونقيم الابنية المختلفة مثل المستشفيات والمستودعات وما أشبهه . ويجب قبل الشروع في اقامة هذه الابنية والاستمرار فيها استخدام ٤٠٠٠٠ أو ٥٠٠٠٠ من العمال في الصحراء . وهذا وذلك يجب علينا ان لا نتركه بلا رقابة ولا وقاية اذ لو تركناه بغيرهما لما كان هناك شك في أن يصير عامة الوقت عرضة لمضايقة الفرسان الانجليز وخيالتهم . على ذلك تعين تحصين الصحراء تحصيناً قوياً .

فعلت على انشاء (مركز قيادة تجريدة الصحراء) وجعلتها مسؤلة أمام قيادة الجيش مباشرة ووضعت سائر القوة التي كانت تحمي قواعد الصحراء المختلفة مرهوتين بإشارتها وعينت فون كريس لادارتها . ولم يتردد فون كريس في الموافقة لأنه كان - كما قدمت - يعتبر حملة القناة

غايتة الوحيدة في الحياة وكذلك كان يرى مغالبتها لتساعب الصحراء وعزاه الوحيد . وبهذه الطريقة وجدت في الصحراء هيتان مستقتان بعضهما عن بعض استقلالاً كلياً . الأولى (تفتيش خط مواصلات الصحراء) ومهمتها اعدادالعدة لانشاء القواعد وطرق الاتصال . والثانية - (مركز قيادة تجريدة الصحراء) ومهمتها حماية تلك المباني من هجمات العدو ومراقبة اعماله بالقيام بحركات استطلاع حول القناة بين آن وآخر .

وتقرر مؤقتاً ان يكون مقر تجريدة الصحراء في ابين وان تبقى اقسامها الاسياسية في ابين والعريش وقلعة النخل . أما بير السبع فتقرر ان تكون مركزاً لتفتيش خط مواصلات الصحراء . وبعد اصدار التعليمات اللازمة لانشاء تلك المعاهد عدت الى بير السبع ومن ثم الى القدس .

ولم البث هناك يومين أو ثلاثة - أي بعد ان اجتمعت الفرقتان العاشرة والخامسة عشر في بير السبع - حتى دعوت عدداً من عليه القوم في القدس بما فيهم قناصل الدول المحايدة وقناصل حلفائنا للحضور ليروا بأعينهم كيف استطاعت جنودي اختراق الصحراء والوصول الى القنصاة بدون أقل حادث وخوض معركة حامية هناك والعودة بترتيب عجيب الى بير السبع حيث يجري استعراضها .

وكان القنصل الايطالي ضمن المدعوين لأن ايطاليا لم تكن دخلت بعد صفوف المتحاربين .

ومالي لا أبا هي بهذه الجنود التي عادت من هذه الحملة ضد القنصاة التي استفرقت شهرين دون ان تترك وراءها شريداً واحداً في الصحراء . ولم يتخلف منها جندي واحد عدا الذين استشهدوا في المعركة ضد القناة أو الذين أسرهم الانجليز في الضفة الغربية . بل لم يوجد بينهم شخص واحد عضه الجوع أو العطش ؟ فان فرق المؤمن جعلهم يؤدون الواجب بدقة تامة حتى انهم لم تصل

فرقة منهم الى نهاية الطريق الا في الميعاد المضروب . ولكن مسألة المسائل التي
تعتبر على جانب عظيم من الأهمية هي انه لم تحدث حادثة خيانة واحدة او فرار
بين عرب سورية وفلسطين الذين تكوّن منهم وحدهم فرق المؤنة .

ولما انتهت من تنظيم تجريدة الصحراء وخط المواصلات وزعت القيادة
داخل منطقة الجيش التاسعة كالآتي : -

أولاً : - سميت فلسطين بما فيها سنجد القدس وسنجد عكا (منطقة
القدس) وجعلت مير سنبل جمال باشا قائد الفيلق الثامن قائداً لتلك المنطقة .

ثانياً : - بما ان قضاءى بير السبع وغزه ليسا جزءين من تلك المنطقة
رأيت ادخالها ضمن دائرة قيادة خط المواصلات الصحراء .

ثالثاً : - ولت نخري باشا قائد الفيلق الثالث عشر قيادة المنطقة التي
يتكوّن منها الجزء الأوسط والجزء الشمالي من ولاية بيروت وولايات سورية

وحلب واطنة . وسميته قائد الجيش الرابع (المؤقت) . ثم نقلت مركزي الى
القدس وعولت على التفرغ لاعداد المعدات للحملة الثانية على القناة .

وادمجنا الفرقتين الثامنة والعاشرة في الجيش مباشرة . تلك كانت الحالة
العامة للجيش الرابع في أواخر تشرين الثاني سنة ١٩١٥ .

وسلت فون فرانكنبرج رئيس أركان حرب الجيش خطة وضعتها
بدقة تامة خاصة بالجنود - أى بالقوة المهاجمة والاحتياطي ومعدات القتال

وكية الذخيرة ونوعها اللازمة للحملة الثانية على القناة وطلبت اليه ان يوصلها
الى الاستانة . وقد قررت هيئة اركان الحرب التركية العليا مشروعى بخذافيره

بيد اننى لما طالبتها بعدة تشكيلات طوبجية وجنود فنيين ماهرين المانين للقيام
بشؤون تلك الحملة المهمة حولتها الهيئة بواسطة فرانكنبرج الى هيئة أركان

الحرب الألمانية طالبة مصادقتها . ولكن هذه الهيئة لم تعن بالمسألة العناية التي
تستحقها وجعلت تسوف فيها بلا سبب .

ولما نقلت مركزي الى القدس وجهت اهتباى بصفة خاصة الى حمل زعماء العرب أمثال الشريف حسين باشا امير مكة وابن الرشيد وابن السعود على تقديم بعض المساعدة الفعلية لجيوش الخلافة . وسيعلم العالم الاسلامي حتى اطلع على الأجوبة التي تسلمتها من الشريف حسين مباحق المراسلات التي دارت بيننا كيف كان هذا السيد يلعب دورين متناقضين في آن واحد .

ولم يكن في استطاعة الأمير ابن السعود أن بمدلنا يد المساعدة المباشرة لقربه من الانجليز الذين كان في استطاعتهم ايصال الأذى اليه . الا انه كان شخصياً نافعاً جداً لنا إذ أرسل الجمال للجيش وسمح بتصدير التجارة من بلاده الى سورية . ولقد اقام الأمير ابن الرشيد البرهان الصادق على انه مسلم صميم وشديد الاخلاص للخلافة . وسأ تناول دسائس الشريف حسين فيما بعد .

وكننت حوالي ذلك الوقت قد ارسلت نوري بك شقيق أنور باشا بعد حضوره من الاستانة من بيروت الى طرابلس على زورق مهرب . ويجب هنا أن أضيف الى هذا انني كنت أرسلت الكتيبة التي جاءت من مكة بقيادة وهيب بك الى نقطة قريبة من القناة . فلما قر الرأي على التمهقر سحبتها الى معان ونظراً الى تعيين وهيب بك المذكور قائداً للجيش الثاني وسفره الى الاستانة أمرت بعودة كتيبته بقيادة نجيب بك .

وما ذكرت تلك التفصيلات الا لأرد على أولئك السفراء الذين يزعمون ان عصيان الشريف حسين كان مسبباً عن تجر يدي مكة من حمايتها بلامسوخ . وقد كان حوالي هذا الوقت أيضاً أن فشلت اساطيل الحلفاء في محاولة اختراق الدردنيل بعد الحسارة التي منيت بها . فبعثت الى أنور باشا بخطاب أبنت فيه الاسباب التي جعلتني اعتمد استحالة اختراق البواغيز وأظن ان طلعت باشا رأي رأي . وقد أردت بارسال هذه الخطابات الى اصدقائي أن أزيد ثقتهم واشد ازهم أديبا . ولا أخفي ان كل انسان في الاستانة كان يتوقع

رؤية بوارج العدو أمام السراي في أي يوم . ولربما أثرت تلك العقلية أسوء تأثير في ثقة زملائي وزعزعت عقائدهم . ولما كان الضرر المنتظر مما لا يمكن تقديره رأيت ان ابعث اليهم بآرائى السالفة باعتبار نفسى زميلا يستطيع تقدير الحالة العامة من بعد ولقد اخبرنى أنور باشا فيما بعد ان رسالتى التى وافقت آراءه تماماً كان لها تأثير أدبى عظيم .

ولما كان من المحتمل ان العدو بعد هجمته البحرية يقدم على انزال عدوكبير من الجنود لارسالها الى الدردنيل ادرك انور باشا ضرورة حشد قوات كافية من المشاة بالقرب من الاستانة . فأرسل يطلب أن أبعث له بالفرقتين الثامنة والعاشره .

فلبيت طلبه في الحال . ولما نزل العدو فعلا الى شبه جزيرة غاليبولى طلب الى أنور ان أرسل الفرقة العشرين الى الاستانة . ففعلت . وطلب أيضاً أن أبعث باحدى فرقتى الفيلىق الثالث عشر الى بغداد والأخرى الى تبليس . فصدعت بالأمر كما عجلت بارسال المدافع السريعة الطلقات والرشاشات التى كانت فى منطقة جيشى الى الدردنيل . وفى النهاية وجدت أن الجنود فى منطقة الجيش أى فى ولايات أطنه وحلب وسورية ولبنان وفلسطين وصحراء سيناء قد خفضت الى اثنى عشرة كتيبة ولم يبق فى المنطقة كلها بطارية واحدة من المدافع السريعة الطلقات كما لم تبق لدينا فصيلة رشاشات واحدة ! . .

وكانت هؤلاء السكتائب الاثنى عشرة مكونة من عرب الشام وفلسطين . ولم توجد مقاتلة اتراك سوى كتائب متطوعى الدراويش وفصيلة مشاة من متطوعى الدوبريجه التى انشأتها لخدمة القيادة . أفلا يدل كل ذلك على ثقتى بالعرب واعتقادي انهم لن يشوروا ضدنا أو يطعنونا من الخلف .

اما أهم ما حدث من الأعمال الحربية الى نهاية عام ١٩١٥ فهو شروع الأرمن فى العصيان فى جهتى الزيتون واورفه ولكن الجنود النظامية التى

ارسلناها الى هناك اخذت ذلك العصيان فيمكننا اذن أن نعتبر سنة ١٩١٥ سنة التأهبات والحشد .

وسأبين فيما بعد كيف مدت خطوط حديدية عديدة وأنشئت طرق كثيرة في الصحراء وفي الداخل وكيف اقيمت قواعد خط المواصلات وزودت بكل ما تحتاجه .

أضف الى ذلك أن اعمال التحصين جرت على ساق وقدم في مرسين وطبرق قله ودورت يول وعلى طول الشاطئ في اسكندرونة و اقيمت أربعة أو خمسة خطوط دفاعية لصداي اعتداء يراد به النزول في بيروت وحيفا وبافا وكذلك في لبنان وجبل كرمل وفي كل جهة في داخل فلسطين .

ولما كان من الضروري تجنيد فرق أخرى جديدة تحمل الفرق المرسله الى الاستانه أخذت اجندها في داخل فلسطين وسورية وحلب واطنة . واصبح تمرينها من اهم اعمال الجيش .

وفي آب سنة ١٩١٥ أي عندما بدأت الاعمال الحربية في العراق تسيير على غير ما نشتهي سألني أنور باشا عما اذا كنت أوافق على أن اتولى الادارة الملكية والعسكرية في تلك الجهة .

فأجبت به بأن الوقت غير صالح لمغادرتي سورية وفلسطين اذ ان الحالة فيها أمست سيئة بسبب الدسائس الخفية التي يقوم بها ثوار العرب في هاتين الولاياتين وربما أدى بعدي عنهما الى أوخم العواقب ولكن اذا رأى رأيا خلاف ذلك فإني مستعد للتوجه الى بغداد .

فأقرني أنور باشا على رايي وقلد المارشال فون ديرجولتز القيادة العامة في العراق فقبل المارشال وشخص الى مقر وظيفته .

وانقضت سنة ١٩١٥ كما اشرت آنفا في التأهب للهجمة الثانية على القناة واذ أيقنت ان هيئة اركان حرب الالمان لم تعر تلك التأهبات الاهتمام السلائق

بها سافرت الى الاستانة في شهر تشرين الثاني لآلفت نظر انور باشا بجهد الى العناية بهذا المشروع . فمكثت اسبوعين و عدت الى دمشق صفر الـدين .
ولما انسحب الانجليز والفرنسيون بعد الجلاء عن الـردنيل دعوت انور باشا للحضور الى سورية ليرى بنفسه نتيجة ما قمت به من التأهيات في الصحراء . فحضر في شباط سنة ١٩١٦ وبعد أن قام برحلة طويلة في الشام وفلسطين و صحراء سيناء ذهب لزيارة المدينة .

وصحبنا في تلك الزيارة الشريف فيصل الذي كان وقتئذ في مركز القيادة . وقد ابتهج انور باشا ايما ابتهاج بتنظيم خط موصلات الصحراء . الا أنه وافقني في ان عبور القنـاه و طرد الانجليز من مصر متعذر ولكـننا رأينا ان ليس ثمة ما يحول دون تحصين أنفسنا بأمان في الضفة الشرقية ومنـع مرور البواخر التجارية بـيطار ياتنا الضخمة .

وكان جل همي في ذلك الوقت أن اعـمل كل شيء وأى شيء لمنـع الميول الثورية التي أظهرها الشريف حسين من التطور ولـخـله على ارسال كـتـيبـة مساعدة الى فلسطين بقيادة احد ابـنائه . ولتحقيق تلك الغاية كـاشـفت الشريف فيصل وفاوضته ملياً وتبادلت مع الشريف حسين سلسلة رسائل ودية . وسيظهر في الفصل الذي عقده خاصة بالثورة العربية كيف ذهبت هذه المساعي كلها ادراج الرياح . وفي النهاية اصـبـحت في يوم ٢ كانون الثاني سنة ١٩١٦ أمام امر واقع هو ثورة الشريف حسين العلنية . وكانت هذه الثورة ضربة قاضية على الحملة ضد القنـاة .

وقد اخذت افـكـر في امر الانجليز فرأيت انهم لو ارادوا مهاجمة فلسطين برأ ليتعين عليهم انشاء خط موصلات بين القنـاة وفلسطين (كما فعلنا نحن من جهتنا) وتوصيل هذين القطرين بسكة حديدية . ولم تجرأ كـتـيبـة انجليزية واحدة في عام كامل على أن تـطـأ باقدامها ضفة القنـاة الشرقية . وغاية

ما امكنهم ان بعض فرق العسس من الجملة كانت تتجسس الى مسافة خمسين او ستين كيلو متراً من القناة ولسكنها كانت تترد الى قواعدها بعد ايام قليلة . اما اول ما اكتشفناه من الاعمال الدفاعية الانجليزية في اواخر كانون ثانی سنة ١٩١٦ فكانت الاستحكامات التي عند رؤوس الجسور في ضفة القناة الشرقية تجاه القنطرة والاسماعيلية . ويوافق تاريخ انشاء هذه الاستحكامات تاريخ آخر خطاب ارسله الشريف حسين الى الانجليز حيث اكد لهم فيه خروجه علينا . ومن هذا يتبين ان الانجليز لم يقرروا العبور الى الشاطئ الشرقي أو بعبارة اخرى لم يبدؤوا الهجوم على فلسطين الا بعد ان استوثقوا من خيانة الشريف حسين . فلقد تأكدوا ان ثورة الشريف ستضطرنا الى اتخاذ اجراءات معينة لحماية الحجاز بل الى ان نسحب من تلك الجهة بعض القوات التي كانت معدة لسورية وفلسطين . وفضلا عن ذلك لقد تأكدوا ان البدو الذين اغروهم بالاموال الطائلة المرسله اليهم بواسطة الشريف حسين سيثورون ضدنا وان ثورتهم ستضعفنا كثيراً .

وفي اول نيسان سنة ١٩١٦ وصلت الى بير السبع فرقة الطيران الالمانية رقم ٣٠٠ وهي اول مساعدة جديده وصلت الينا وفي ١٢ و ١٥ - نيسان وصلت بطاريتان ميدان نمساويتان من طرزها وتيزر .

وكان نفع الفرقة الجوية مما لا يقدر فقد ساعدتنا على استطلاع جميع تفاصيل الاستحكامات عند رؤوس الجسور والاستعدادات في السكة الحديدية وغيرها وبالجملة كل ما كان يفعله الانجليز في شرقي القناة .

فلما تفاقمت ثورة الشريف حسين عينت نخري باشا قائداً للدينة المنورة وشرعت انظم هناك قوة مكونة من خمس عشرة أو ست عشرة كتيبة مشاة وعدد مماثل من البطاريات الجبلية واذي لشديد الاعجاب بفخري باشا . فقد اتى هو وحاميته بالمعجزات رغم هجمات العدو وبما كان يحيط به من كل جانب من

العناصر المعادية . فقد ثبت من كانون الثاني سنة ١٩١٦ الى كانون الاول سنة ١٩١٨ اي مدة ثلاث سنوات في دفاعه عن الروضة الشريفة ضد جنود الشريف حسين الخائن وبدوه العصاة الذين ساعدتهم المدفعية الفرنسية والانجليزية والتشكيلات المساعدة العديدة . بل ان تلك الحامية الصغيرة بعد ان نقص عددها في تشرين الاول او تشرين الثاني سنة ١٩١٨ الى خمس أو ست كتائب وانقطعت صلاتها بالداخل على اثر سقوط معان في يدي فيصل في كانون الثاني سنة ١٩١٨ ثابرت على المقاومة وامكنها الاحتفاظ بالمدينة الى ما بعد توقيع الهدنة بثلاثة اشهر .

ولعمري ان اللسان لا يستطيع ان يوفي تلك الحامية الصغيرة حقها من الثناء لما أبدته من ضروب الشجاعة والثبات وهي التي لم تزد على خمس أو ست كتائب تركية والتي عهد اليها ونيط بها حماية الخط الحديدي من المدينة الى معان والتي أبقّت طريق المواصلات بين المدينة والجيش مفتوحاً .

اما الرجال الذين هم في نظري دعائم الدفاع عن ذلك الخط الحديدي الذي ينيف على الف كيلومتر فيما بين المدينة ومعان فهم نخري باشا وضباطه البواسل أمثال حاكم المدينة بصرى باشا والقائد جمال باشا الذي امتاز بشدة مراسه في الدفاع عن اشقودره تلك القلعة الالبانية والذي يسميه العرب (جمال باشا الثالث) والقائم مقام نجيب بك والملازم كمال بك فيما بعد وغيرهم .

فبسالة هؤلاء الشزيمة واقدامهم أحببت كل ما بذله اولاد الشريف حسين من الجهود وردتهم على اعقابهم بالخسائر الفادحة . وليس شيء أول على نجاحها من ان المواصلات ظلت مفتوحة بين سورية والمدينة من تموز سنة ١٩١٦ الى كانون الاول سنة ١٩١٧ وحركة الاعمال منتظمة بالرغم من امتداد ثورة البدو من المدينة الى معان واحتلال الشاطيء بواسطة جنود الشريف التي عززتها الجنود الانجليزية والفرنسية . بيد ان التضحيات الهائلة

التي اقتضاها بالطبع تموين حامية المدينة وامداد الجنود المرابطة بين المدينة ومعان بالمؤونة والذخيرة حتمت علينا ان نشطر المؤونة المخصصة لفلسطين وسيناء الى شطرين وحالت دون تعزيزنا لجهة سيناء متى شدنا وكيفما أردنا .
وفي يوم ٢٣ - نيسان سنة ١٩١٦ تمكن فون كريس بك وهو يقود كتيبتين من المشاة وبطارية جبلية وكتيبة من الجمالة المتطوعة بهجمة فجائية من اسر كتيبة فرسان انجليزية وقومندانها وضباطها . فرجع هذا العمل العظيم ثقة جنودنا الى درجة عالية . وحوالي ذلك الوقت وصلت الى جهة سيناء الفرقة الثالثة من المشاة وبعض فرق رشاشة المانية وبطارتان نمساويتان من طرز هاويتزر آتية من الاستانة .

وفي الوقت نفسه عزز الانجليز استحكاماتهم الى درجة كبيرة عند رؤوس الجسور تجاه التنطرة وسندوا جناحهم الايسر الى البحر فارسلوا قوة مختلطة ومعها السلاح الكافي الى قاطية وآبار رمانة .
فشرعت فوراً في اقامة الاستحكامات .

وقال فون كريس الذي تولى من جديد قيادة التجربة : - ان الجنود قد ملت طول الانتظار واقترح الشروع في مهاجمة رمانة .

فقلت له بدورى : - اننى اوافق على البدء بهذه الموقعة على شرط ان لا توضع الخملة في الخطر لأنها القوة الوحيدة التي يمكننا الاعتماد عليها في الدفاع عن فلسطين .

والآن اذكر الجنود التي تركبت منها القوة التي هاجمت القناة في المرة الثانية وهي : -

فرقة المشاة الثالثة (وهي ثلاث كتائب وثلاثة صفوف وكتيبة راكبة وبطارتان جبليتان وكتيبة من المهندسين) .
كتيبة رشاشات (ثمانية بلوكات) .

- بطاريتان هاوتيزر جبليتان نمساويتان .
- بطارية المانية من عيار ١٠ سنتيمتر .
- بطارية المانية من عيار ١٥ سنتيمتر .
- فرقتا مدافع ضد الطائرات .
- وبمجموع هذا كله / ١٠٠٠٠ - رجل .

وهذا الهجوم الذي بدأ في تموز سنة ١٩١٦ انتهى بفشل الحملة في قاطية ورمانة فاقتنى الانجليز اثر قوتنا خطوة خطوة بفصائل كبيرة من الفرسان والجمالة واضطرونا الى الانسحاب الى العريش . وفي النهاية قضى الامر وجلت القوة من العريش نفسها في يوم ١٦ كانون الاول وانسحبت الى خط خان يونس الحافر اى على خط حدود فلسطين سيناء القديمة .

وقدموا الانجليز الخطوط الحديدية بسرعة مذهشة وكان معدل الانشاء كيلومتريين في اليوم . وبعد المفاوضة المطولة مع انور باشا وقد كان قد حضر التفتيش على جبهة فلسطين وكذلك مع فون كريس قررنا ان نجعل خط غزة - تل الشريعة - بير السبع خطنا الحصين وعهدنا الى فون كريس بالدفاع عن هذا الموقع بالجنود الموجودة .

وقد اضطررت الى مغادرة مركز القيادة في دمشق نظراً لتخرج الحالة العامة بعد ثورة الحجاز وضرورة مراقبة الدروز وجنود البدو المختلفة .

(الفصل السابع)

معارك غزة

- تألفت الجنود التركية التي انسحبت بعد ١٥ آذار سنة ١٩١٧ الى خط غزة
تل - الشريعة - بير السبع من الوحدات التالية :-
في غزة :- الكتيبة التاسعة والسبعون مشاة التابعة للفرقة السابعة
والعشرين والكتيبة الخامسة والعشرون ومائة التابعة للفرقة السادسة عشرة .
بطارياتان جبليتان نمساويتان من نوع هاويتزر .
بطارياتان ميدان تركيتان .
بطارية ميدان المانية من عيار ١٠ سنتيمتر .
بطارية هاويتزر تركية من عيار ١٥ سنتيمتر .
بلوكان رشاشان المانيان وخمسة او ستة بلوكات رشاشة تركية .
المجموع ٣٥٠٠ بندقية .
في جيمشاش - الفرقة الثالثة المشاة (تسع كتائب وست بطاريات ميدان
وأربعة بلوكات رشاشة وبطارية هاويتزر للميدان من عيار ١٥ سنتيمتر) .
المجموع ٥٠٠٠ بندقية .
في تل الشريعة - قيادة الفيلق الثاني والعشرين وكتيبتان من المشاة تابعتان
للفرقة السادسة عشرة ومدفعية الفرقة المذكورة . المجموع ٥٠٠٠ بندقية .
في بير السبع - الفرقة الثالثة المراكبية (ثلاث كتائب) . المجموع
١٥٠٠ سيف .
وقضلا عن الوحدات السالفة الذكر وصلت الى الرملة كتيبتان تابعتان
للفرقة الثالثة والخمسين .

وقد قدر القائد مارى فى تقريره الرسمى فى تشرين الثانى سنة ١٩١٧
القوات التركىة فى معركة غزة الأولى كما يأتى : -
فى غزة - الفرقة الثالثة والسكرتية الثانية الماشية .
أربع وعشرون بطارية رشاشات .
بطاريتان المانيتان من المدافع الضخمة عيار ١٥ سنتيمتر .
ثلاث بطاريات ميدان نمساوية من نوع هاويتزر عيار ١٠٥ ملميمتر .
خمس بطاريات ميدان . المجموع ١٠٠٠ بندقية .
فى تل الشريعة - الفرقة السادسة عشرة الماشية (٦٠٠٠ بندقية وست
عشرة بطارية رشاشات وخمس بطاريات ميدان) .
الفرقة الثالثة الخيالة (أربعة مدافع خفيفة وأربعة هاويتزر وأربع
رشاشات) .

فى الرمة - الفرقة الثالثة والخمسون مشاة .
فى القدس - الفرقة الرابعة والخمسون والسابعة والستون مشاة .
فى حيفا - الفرقة السابعة والعشرون مشاة .
ويمكننى أن أوكد هنا بمنتهى الصراحة ان تلك الأرقام لا وجود لها
الأى فى مخيلة الانجليز . وإذا كان مبلغ علم القائد الانجليزى بالقوات التركىة هو
كما ذكرنا فقد خدعه قلم استعلامات جيشه . فان الحقيقة - كما قدمت - هى ان
القوة التركىة التى ردت بنجاح مابين هجمة الانجليز الأولى على غزة لم تتجاوز
١٨٠٠٠ جندي .

أما الجيش الانجليزى كما قدره القائد مارى فى تقريره فكان مؤلفاً من
الجنود الآتية : -

فى الصف الاول - (بقيادة القائد سيرفيليب شنود) - فرقة
الأتراك الراكبة . -

الفرقة الامبراطورية الراكبة ومعظمها من المتطوعين .

الفرقة الثالثة والخمسون مشاة وعدة بلوكات رشاشات .

في الصف الثاني - فرقة الجمالة والفرقة الثانية والخمسون والرابعة والخمسون مشاة ومدفعية ضخمة وبلوكات رشاشات وعدة فصائل من حملة البنادق الاوتوماتيك .

أى ان الانجليز - على حساب هذه الارقام - كان لهم في معركة غزة الاولى - ثلاث فرق مشاة - ثلاث فرق راكبة - فرقه جمالة ووحدات بحرية اشتركت في المعركة فهؤلاء الجنود الذين كان القائد السير تشارلس دوويل يقودها قرر القائد مارى القائد العام القوات البحر المتوسط الانجليزية مهاجمة استحكامات بير السبع - غزة .

وقد تقرر ان تقوم الفرقة الثالثة والخمسون - ١٢٠٠٠ بندقية - بهجمة مباشرة على غزة بينما تكثفها من جهة الشرق فرقة الاتراك الراكبة والمتطوعون وكتيبة راكبة اخرى وبعد غرزا اسفينسا فيما بين غزة واليامة تعزل الاولى عزلاً كلياً بسر سائر الخارج الشمالية .

وأخذت الجنود المعدة لاقتتاح الهجوم مواقعها في ليلة ٢٥ - ٢٦ آذار فاغت الساعة الثامنة من صباح يوم ٢٦ آذار حتى طوق الفرسان غزة وعطلوا جميع المواصلات مع المدينة .

وفي الساعة العاشرة صباحاً أرسل ضد غزة لواء تابع للفرقة الرابعة والخمسين وكتائب عديدة تابعة للفرقة الثالثة والخمسين . أى ان فرقة ونصف فرقة مشاة واكثر من فرقتين خيالة طوقت تلك الحامية التركية الصغيرة الموجودة في غزة التي لم يتجاوز عددها ٣٥٠٠ جندي . ولكن غزة بفضل بسالة حماتها الاتراك والعرب قاومت هجمات العدو المتوالية أربعاً وعشرين ساعة . وقد قاتل اولئك الشجعان دفاعاً عن كل شبر من الارض حتى أن كل تل من التل

أخذ ثم استرد ثم اخذ ثم استرد اكثر من ثلاث مرات .

وبعد ظهر ذلك اليوم شددت الفرقة الثالثة من اليمامة الحملة على مقدمة الجيش الانجليزي وفي اليوم التالي لم تكسد الجنود الانجليزية تحس بثقل الوطاة حتى نكصت على اعقابها بعد ان سادت الفوضى في صفوفها . وزاد الاختلال والارتباك على اثر وصول الفرقة السادسة عشرة من تل الشريعة والفرقة الثالثة الراكبة من بير السبع .

ولا أريد ان اطيل هنا الكلام في التفصيلات السطحية بيد اني لا استطيع اغفال تلك الحقيقة التي تناقض أقوال القائد الانجليزي في رسائله الرسمية (ومؤداها ان الامدادات وصلت النسا في ليلة ٢٦ - ٢٧ آذار) وهي انه لم يصل الى مدينة غزة جندي واحد قبل صباح يوم ٢٧ وهو اليوم الذي بدأ فيه الانجليز تقهقرهم .

وستبقى موقعة غزة الاولى في مكان سام في تاريخ الوقائع الحربية التركية . فيفضل هذه المقاومة التي قامت بها في ذلك اليوم شر ذمة من رجالنا البواسل اضطر الانجليز أن يمشوا في ذلك الخط من ٢٧ آذار الى تشرين الاول سنة ١٩١٧ - أي مدة ثمانية أشهر - وان يرسوا الى تلك الجهة تسع فرق ماشية وعدداً من فرق الخيالة وفرقتين من الجمالة .

وما أشجع حماة غزة البواسل فهم بلا مرأ خيري افندي قائد السكتية الخامسة والعشرين ومائة المشية . فان هذا الضابط الماهر - الذي ظل رابط الجأش هادي البسال في أشد الاوقات خطورة - وضع نفسه على المتوالي في رأس كل من بلوكات كتتيته واسترد من الانجليز التل المشهور المسمى بتل (على بمطر) مرتين واحتفظ به نهائياً في المرة الثالثة . وفي هذه الهجمة أبدي الملازم الالماني كورديير تاند بلوك الرشاشات منتهى البسالة والاقدام الى ان مات كزيميله السكاپتن ديترفون ترشكوفسكى قائد البطارية النمساوية . ميتة

الابطال بجانب مدافعه .

وقد قدر القائد الانجليزي في بلاغه الرسمي خسائرنا بثمانية الآف بين قتيل وجريح . ولكن قوتنا في غزة بمن فيها من الطهاة وحمة النقالات وغيرهم من ليسوا جنوداً لم تتجاوز مطلقاً ذلك العدد . ولست أدري كيف وصل القائد مارى الى ذلك الرقم . والحقيقة ان خسائرنا كانت كما يأتي : -

ضباط	قتلى	جريحاً	متغيباً
١٠	١٢	١٤	٥٧١
الجنود	٢٧٦	٧٤٤	

أما والانجليز يعترفون بأن خسائرهم بلغت ٤٠٠٠ فينتج من ذلك ان كل من حماة غزة قتل بدوره جندياً انجليزياً .

وفي مساء ٢٧ آذار غادرت دمشق فوصلت الى تل الشريعة في يوم ٢٨ ومن ثم ذهبت الى غزة . وبعد توزيع الاوسمة بين الضباط والجنود عدت الى القدس . فلم تمر ساعتان حتى وصلت الى جبهة القتال شرادم من الفرقة السادسة عشرة . فاقترح فون كريس الذي عزا تقهقر الانجليز المشوش الى انحلال قوتهم المعنوية ان نهاجم الجناح الانجليزي بجنود الفرقتين الثالثة والسادسة عشرة . ولما كان ذلك الهجوم عاقبته بجهولة اذ لو نجح اعاد علينا باكب الفوائد ولو اخفق لأصبحنا ولا جيش لنا مطلقاً للدفاع في المستقبل عن فلسطين والشام ولقضى الأمر نهائياً ، ولما كانت طرأت أيضاً مشروعات خطيرة من هذا القبيل في الميادين الأخرى جرت الى عواقب وخيمة قد كنت شديد المعارضة في القيام بأمثال هذه المخاطر في هذا الميدان . وكان اهم ما سمعت الى تحقيقه حتى الآن الابتعاد بحملة الصحراء عن طريق العطب ولكسني وقد انسحبنا الآن الى خط غزة - بير السبع وهو الحد الطبيعي بين الصحراء والأراضي الزراعية وطنت النفس على الدفاع عن تلك الجبهة والحيلولة دون

اختراق الانجليز لخطوطنا - مهما كان الثمن - وذلك بحشد كل القوات التركية هناك
ومزية هذا الخط الكبرى هي استحالة الالتفاف به لأن الجناح الايمن
كان يستند الى البحر بينما الجناح الايسر قد استند الى الصحراء .
وفضلا عن ذلك فادمنا متمسكين بهذه المواقع فلا مناص للانجليز من
البقاء في الصحراء بينما نحن مرابطون في الأراضي الخصبة . وبالاختصار مادامنا
محتفظين بخط غزة - بير السبع فليس في وسع الانجليز الاتصال بالجبهة العربية .
وعلى ذلك كانت احكم خطة لنا هي تجنب كل عمل يؤدي الى تعريض
الخط المذكور للخطر . فلهذه الاعتبارات رفضت الهجوم الذي اقترحه
فون كريس .

ولم نكن لرناب في ان الانجليز سيستأنفون هجومهم بعد اسبوعين أو
ثلاثة . وعلى ذلك تعين علينا أن نمرز جبهة القتال بجنود من الداخل لنتمكن
من صد هذه الغارة الثانية وفيما عدا بضع ثغرات عديمة الأهمية قد كنا على
اتصال بخط محصن متواصل الجنود التي جاءت حديثاً .

وقد اراد الانجليز أن يباؤوا هجمتهم الثانية على غزة بخدعة حربية .
ففي يوم ١٤ نيسان التقطت محطتنا الاسلامية في تل الشريعة رسالة انجليزية خل
لنا رموزها ضابط التلغراف اليوزباشى ستيلر .

فاذا فيها تعليمات من القائد العام لجيوش الانجليز في الشرق الى قائد
جيش فلسطين يخبره ان غزة ستهاجم في يوم ١٧ نيسان . ولكن بينما الهجوم
الاساسية ستكون في البر فان فرقة من المشاة ستزل في عسقلان في ليلة ١٧
لمهاجمة غزة من الخلف ولمساعدة الهجوم الامامية .

فظننا ان تلك الرسالة - التي لم نشك بادى ذى بدء في صحتها - قد تكون
ارسلت خصيصة لتحملنا على تغيير توزيع احتياطينا . فصممت على اهمالها ولم
أدخل تغييراً ما في توزيع الجنود في جبهة القتال واكتفيت بارسال شردمة

من الجنود الى عسقلان كنت قد تركتها فيما وراء يافا .
وفي خلال الاربعة والعشرين يوماً التي انقضت بين موقعي غزة الاولى
والثانية عزرنا جنودنا بكتيبتين من الفرقة الثالثة والخمسين أي بما يقرب من
٢٠٠٠ بندقية .

وعزز الانجليز جنودهم أيضاً بالفرقة الرابعة والسبعين فقد اكملوا عدد
جنود الفرق التي اشتركت في معركة غزة الاولى واصبح لهم جيش عرمرم
مكون من أربع فرق مشاة خيالة .

وكانت الهجمة العنيفة التي بدأها الانجليز في صبيحة يوم ١٧ نيسان
موجهة ضد غزة والفرقة الثالثة والخمسين الموجودة في الجناح الايسر .

واستعملوا ثمانى دبابات في هجومهم هذا الذي اشتركت فيه قوات بلغت
سته اوسبعة أضعاف القوات التي حشدتها في ذلك الجزء من خط القتال واشترك
أيضاً اسطولهم في الكفاح فأمر غزة وابلا من الحديد والنار .

ودارت رحى معركة عنيفة ولبثت ايام ١٧ و ١٨ و ١٩ نيسان لم يدخر
الانجليز في خلالها وسعاً لاختراق خطوطنا .

وهنا نهض الدليل مرة اخرى على بسالة الجندي التركي وخور عزيمة
الجندي البريطاني تجاهه اذ وجد الانجليز أنفسهم في ليلة ٢٠ نيسان مضطرين
الى النكوص الى خطوطهم الاولى تاركين وراؤهم القتلى والجرحى (وعددهم
٧٠٠) أي ما يعادل جميع القوة التركية التي اشتركت في القتال في تلك الجهة .

وتركوا أيضاً امام خطوطنا او بعبارة اخرى في خنادقنا ثلاثة من
دباباتهم . واني لیتعذر علي ان آتی في عبارات مقتضبة على وصف عام لذلك
الدفاع المجيد الذي لبث ثلاثة ايام بليا ليتها وكان دليلاً ناطقاً على البسالة التركية
واني أرى ارجاء تفاصيل ذلك الفصل الى فرصة اخرى واقتصر ذعلى كرتائج
هذه المعركة الثانية .

فان هذه الضربة القاصمة - التي لم يكن الانجليز يتوقعونها بحال من الاحوال
أوقعت في صفوفهم الفشل وتركتهم حيارى ذاهلين .
ولطاما زعموا أن بلاغاتهم صادقة ولكنهم وجدوا أنفسهم هذه المرة
مرغمين على اصدار بلاغ وجيز وغامض لا يتفق بحال ما مع الحقيقة الواقعة .
وقد اعتذروا عن ذلك بقولهم - ولهم الحق - ان الفشل الذي منوا به
في فلسطين على اثر فشلهم في الدردنيل كان مؤداه نهاية النفوذ الانجليزى في
الشرق ولذلك وطدوا العزم على قضاء زمن الربيع والصيف في آتمام معداتهم
للقيام بهجوم فاصل ناجح في خريف وشتاء سنة ١٩١٧ واستبدلوا القائد مارى
الذى هزم مرتين تجاه عزة بالقائد اللبني الذى اشتهر في الميدان الغربى باليقظة
والحزم وشدة الفهم .

ولما تولى القائد اللبني مهام وظيفته الجديدة اعلن بأنه لن يقوم بأى
هجوم ما لم يكن لديه أربعة جنود انجليز في مقابل كل جندى تركى . ولم يخامرني
أى شك في ان عناد الانجليز وكبرياتهم سيجعلان تلك النسبة امراً واقعاً .
محاوت بكل وسيلة ممكنة ان اعزز جبهة فلسطين الى اقصى حد . وازسلت الى
القيادة العليا تقريراً مطولاً بعداد الجنود اللازمة لجبهة فلسطين وعداد الفرق
المطلوبة لراحة جنود الصف الامامى (واين يجب توزيع الجنود في الداخل)
والجنود التي يجب حشدتها في حلب وسورية لمقابلة الطوارى .

وفي نهاية مايس وصلت الى برقية من نائب القائد العام قال فيها ماياتى .
(طلبت الى القائد فون فالسكنهاين أن يقوم برحلة تفتيشية عن طريق حلب الى
وادي الفرات والموصل لينظر هل من الممكن ارسال ععدد كاف من الجنود
لاسترداد بغداد . ولقد اقترحت عليه أن يذهب الى القدس لزيارتكم لاختفاء
الغرض الحقيقي من الرحلة . أرجو الاحتفاء به وان تكفولوا له الراحة التامة
أثناء اقامته) .

وكانت الحالة العامة في مختلف الميادين التركية في نهاية مايس سنة ١٩١٧ كالآتي :-

ميدان القوقاز - قضت الثورة الروسية التي نشبت في بدء عام ١٩١٧ على نظام الجنود التي كانت محتلة اذربيجان وطرابزون ومتوغلة في ولاياتنا الشرقية لغاياه بتليس وكان مصطفى كمال باشا قائد الجيش الثاني قد تمكن من تخليص ولاية بتليس وموش من قبضتهم . وعلى ذلك كان من المستطاع نقل بعض فرق من الجيش الثاني والثالث الى ميادين اخرى اكثر أهمية .

ميدان العراق - بعد هزيمة جيوشنا في كوت الامارة وضياع بغداد نهائياً اضطرت الى التقهقر الى كركوك وهيت . ولم يكن ثمة أمل في ان تستعيد نشاطها وتطرده الانجليز من العراق ولا ان تضربهم ضربة قاصمة في شمال بغداد او شمالها الغربي .

(منطقتي الاستانة وازمير) - ولم يكن من المحتمل ان ينزل الحلفاء جنوداً ما في الدردنيل او بالقرب من ازمير فيوجدوا جبهة اخرى لأن الحالة في اوروبا كانت في شدة الخطورة نظراً لهزيمة رومانيا الشنيعة ولا خفاق الانجليز مرتين متواليتين تجاه غزة والفوضى التي تغلغلت في الجيوش الروسية . أى انه كان من المحتمل استخدام الجنود المرابطة في الاستانة وازمير في ميادين اخرى مهمة . وفضلا عن ذلك فقد حان الوقت لسحب فرقنا من غاليسيا ورومانيا وبلغاريا .

وقد لفت نظر القيادة العامة الى كل تلك الاعتبارات وطلبت ارسال سائر ما يمكن من الجنود الى فلسطين وشمالي سورية ووسطها حتى يمكن تعزيز تلك الجبهة الى حد يجعل اختراقها مستحيلاً . فقد كانت أضعف موقع وأهم موقع في الامبراطورية العثمانية . وبما ان مواردنا في الشرق لم تكن كافية لضمان المؤن لمثل هذه القوات الكبيرة طلبت أن تساعدنا الولايات الشمالية .

وزار أنور باشا هذه الجبهة في شهر تموز . فارتاح ارتياحاً شديداً
للاستحكامات الدفاعية التي أقناها ولكنه ما زال متمسكاً بضرورة مهاجمة
الجناح الأيمن الانجليزي من الخلف . وفي النهاية قال لي : -
(لقد طلبت إلى عدد من قادة الجيش أن يقابلوني في حلب ليمحشوا معي
في المشروع التالي : - فاني أنوي القيام بهجوم لاسترجاع بغداد . وفي نيتي
تكوين جيش سابع بقيادة مصطفى كمال باشا قائد الجيش الثاني ويضم هذا
الجيش إلى جيش خليل باشا السادس لاكون مجموعة أطلق عليها اسم (مجموعة
جيوش الصاعقة) فترحف على بغداد تحت قيادة قائد مجموعة . وقد انتخبت
فعلاً الفرق التي يجب أخذها من الجبهات الأخرى لتنفيذ ذلك المشروع . وقد
أعطينا المانيا القائد فون فالكنهاين ليكون قائداً تلك المجموعة . وفي اعتقادي
انه سينفذ هذا المشروع بنجاح عظيم .

فلم ابد معارضة في الوقت نفسه واحتفظت برأني ولماعدنا معا إلى حلب
بعد عدة أيام وجدنا بها عزت باشا قائد مجموعة جيوش القوقاز و خليل باشا
قائد الجيش السادس . أما مصطفى كمال باشا قائد الجيش الثاني المعسكر في دمشق
فقد زار جبهة فلسطين معنا وعدنا جميعاً إلى حلب .

ولم يكن اجتماع أربعة من قادة الجيش يتقدمهم رئيس أركان الحرب
بالأمر العادي وقد انتهزت الفرصة فأشرت إلى أهمية الجبهة الفلسطينية وعددت
الأسباب التي تحتم على القائد العام أن يعزز هذه الجبهة قبل كل شيء . فاقترحت
أن نحشد في حلب قوة كبيرة بدلاً من حملة بغداد ومن ثم يمكننا ان نرسلها إلى
أي جهة مطلوبة ثم قلت : -

لو حشدنا مثل ذلك الجيش في حلب لأمكنه مقاومة الضغط الروسي
على جبهة الجيش الثاني أو بعد أي تقدم يقوم به الانجليز في دجلة أو الفرات
وأهم من كل ما تقدم يمكننا وقتئذ . أن نرغم حكومات الحلفاء على العدول

عن فكرة ازال جنود في اطنة الامر الذي كنا نخشى وقوعه . فاذا عرف
الانجليز ان لدينا في حلب مثل ذلك الجيش وانه على أهبة الاستعداد ربما
اضطروا الى العدول عن الهجوم ولو اني كنت على يقين تام بأنهم يستعدون
الآن لمهاجمة جبهة غزة في الخريف المقبل . وبالاختصار انه ليخيل الي ان حملة
بغداد محفوفة بالمخاطر .

فاجاب القائد العام بلجة جديدة : - « لقد استقر قرار هيئة أركان
الحرب العليا على حملة بغداد وعينت للاشراف على تنفيذها أحسن قائد الماني
بل لقد وثقنا من مساعدة فرقة المانية تحتوى على ست كتائب منتخبة من
المشاة مزودة بعدد وافر من الرشاشات ووحدات اخرى وبطاريات المانية
فليس من المعقول العدول عن تلك الحملة فالمرجو عدم اضاعة الوقت سدى في
حملي على تغيير رأيي . »

وهنا تدخل عزت باشا فاقترح أن تبقى في حلب فرقة واحدة على الاقل
استعداداً للطوارئ . ولكن ذلك الاقتراح قوبل بالرفض . وبعد أن اعترضت
انا وعزت باشا على عدم صلاحية ارسال الكتائب شرازم شرازم - كما حصل
فعلا - من حلب الى وادي الفرات لاتمام حشدها على طولى خط مواز
(للرمادي) قبل اقتراحنا بضرورة حشد الجنود فيما بين جرابلس وحلب ومن
ثم تواصل زحفها الى الفرات .

وتبين تممة مذكراتي عن الاعمال الحربية كيف دخل القائد فون
فالكسهاين الخدمة التركية وتشرح الوقائع الحربية التي حدثت على اثر ذلك .
ومع ان تلك الوقائع لها شأن أي شأن بالنسبة الي فان هناك اعتبارات سياسية
عديدة تحتم علي عدم الخوض فيها في الوقت الحاضر . وعلى اثر ذلك أرى
صواباً الا أنشر الآن ذلك الجزء من المذكرات مع انه مكتوب فعلا .

ولن أنسى ما حيتت مجلس الحرب هذا الذي عقدت في حلب كما انني لن

اصفح عن نفسى لتساهلي ذلك اليوم في الدفاع عن آرائى بالقوة اللازمة والاصرار المطلوب . فان كان في جميع اوقات حياتى وقت قضت فيه الحوادث أن استقيل فقد كان اجتماع حلب هو ذلك الوقت .

ولا أقول ان فكرة الاستقالة لم تخطر لي في ذلك اليوم فان عزت باشا شاهدي على ذلك . فلقد تداولت معه الرأي في محادثة مطولة في ذلك الموضوع عندما حضر لزيارة الجبهة الفلسطينية بعد رحيل القائد العام . ونظراً لأهمية منطقة الجيش الرابع العظمى من الوجهة الحربية والسياسية معاً اشار عزت باشا الى عظم الخطر الذي يتعرض له الوطن لو اعتزلت العمل في مثل تلك الساعة الرهيبة وناشدنى ألا اغادر سورية .

ومع ذلك لا أعلم هل كان يحتمل لو تشبثت بالاستقالة أن احمل القيادة العليا على تغيير رأيها أم هل تصر على تنفيذ خطتها وتؤول استقالتى فتجعلها كدليل على رغبتى في التنصل من المسؤولية عما يعقب ذلك من الحوادث . ولا يخالجنى شك ما في ان استقالتى كانت تؤول بهذا التأويل .
ومنذ ذلك الوقت وبعده خطت التأهبات خطوات واسعة على طول وادى الفرات وخصوصاً في منطقة جرابلس . فتد حزم عدد من الأخشاب التى تستعمل للنقل وامكن بواسطتها انشاء خط موصلات نهري ابتداء من تلك الجبهة . وقد كان لكل هذه التأهبات تأثير ضار في الجبهة الفلسطينية اذ انها انقصت من عدد القوات اللازمة للدفاع عنها .

وقد اقنعتنى التأهبات الانجليزية - التى كانت تصل الي أنباؤها كل يوم بان الجبهة الفلسطينية صارت في خطر محقق . واذ أيقنت أن القيادة العليا لم تحفل بتحذيرائى كما يجب أملت أن ادرك غايئى بمخاطبة الصدر الأعظم مباشرة فارسلت اليه برقتين فصلت فيها حقيقة الواقع تفصيلاً وافياً - وقد قلت في احداها مانصه : -

(في نفس الوقت الذي نحاول فيه استرداد بغداد أخشي أن نرى
أنفسنا في القريب العاجل مضطرين الى الدفاع عن القدس بل ربما عن
حلب نفسها) .

فأجاب الصدر الأعظم بالجواب الآتي :

(ان قرار الشروع في الاعمال الحربية بقصد استرداد بغداد إنما كان
في جلسة عقدها مجلس الوزراء وقد طلبت في زيارتي الأخيرة لألمانيا أن يبقى
القائد فلكنهين تحت تصرف الامبراطورية العثمانية للاشراف على الحملة . فن
المستحيل علي الآن أن أقوم بحمل ما لارجاء القيام بهذه الحملة . اما فيما يخص
بالجنود التي ترى نفسك مضطراً الى المطالبة بها للجبهة الفلسطينية فإنه في
نظري بمثابة نزاع عقيم بين احد القواد وبين القائد العام . ولست اظن ان
دخولي فيه يمكن أن يؤدي الى اية فائدة) .

وفي النهاية توجهت الى الاسنانة في أواخر أغسطس لأوضح الحالة
بنفسي ولافت نظر الحكومة آخر مرة للخطر الدائم الذي يهدد الجبهة
الفلسطينية . وقد تشبثت مرة أخرى بضرورة حشد فيالق مجموعة الصاعقة
فيما بين دمشق وحلب بل ارسال جزء منها الى فلسطين . وبالاختصار طلبت
احتياطياً لحيش سيناء استعداداً للطوارئ . لأنك بتلك الوسيلة من منع
الانجليز من اختراق الجبهة الفلسطينية لو شرعوا في الهجوم في تشرين الثاني
أو كانون الاول . ومن جهة اخرى أبدت استعداداً للتسليم بأنه يصبح
وقتئذ في وسعنا القيام في كانون الثاني وشباط بهجوم فاصل نسترد به بغداد
وفي غضون ذلك الوقت ينبغي أن يقرب خط المواصلات على طول الفرات
من التمام فمقدنا مجلس الحرب برئاسة أنور باشا وبحضور القائد فون فالكنهين

ورئيس اركان حربي وبرونسارت باشا رئيس اركان الحرب في مركز القيادة العليا .

فبدأ القائم مقام على فؤاد بك رئيس اركان حربي بوصف تفصيلي عن مبلغ التأهبات الانجليزية والحالة التي فيها جنودنا . فأعقبته باحصاء عما يحتاجه من الرجال والمهمات ووصلنا الى هذه النتيجة وهي ان مصالح الامبراطورية العثمانية تقتضي العدول عن حملة بغداد . وهنا التفت أنور باشا الى القائد فلكنهنين وجرت بينهما مناقشة طويلة بالألمانية . نعم اني لم افهم كلمة واحدة مما قاله ولكنني استنتجت من سياق المحادثة ومن رجوعهما الى الخريطة ومن اشاراتهما مراراً عديدة الى الجبهة الانجليزية وأيضاً من استعمالهما ومن اشارتهما مراراً عديدة الى الجبهة الانجليزية وأيضاً من استعمالهما بضمة اصطلاحات حربية فرنسية انها رجعا الى خطة الهجوم التي فكروا فيها والتي توقعت عدولها عنها بالنسبة لمعارضتي الشديدة .

وفي تلك اللحظة كان أنور باشا يظهر عليه انه الفريق المعارض لتنفيذ خطة الهجوم وان فون فالكنهنين هو القائل بوجود الشروع فيه بالنسبة لعظم المزايا التي ترتب على نجاحه .

ولكنني ادركت فيما بعد عند ما ترجم لي أنور باشا ملخص المحادثة - ان فون فالكنهنين كان هو القائل بعدم نجاح الحملة على بغداد مادام الانجليز سرا بطين في جبهة فلسطين وكان من رأيه ان اول واجب على جيش الصاعقة هو مباغته الانجليز وحملهم على الانسحاب الى القنطرة وبعد ذلك يمكن ارساله الى بغداد . أما من حيث الجبهة الفلسطينية فكل ما في الأمر ان يقوم الجيش بحركة التفاوضية ويتقدم فيما بين الحافر والبحر واذك يأخذ الانجليز على غرة

منهم . فعارض انور باشا في ذلك الرأي قائلاً - انه يرى أن عدد الجنود الموجودة وقتئذ في فلسطين كافية للاعمال الدفاعية . فهو لا يرى الحاجة ماسة لارسال جنود اخرى وأعلن أنه لا يستطيع التحول عن حملة بغداد .

ولم اكن لاوافق على رأي كليهما . أولاً - لأنني كنت شديد الاعتراض على حملة بغداد فرأيت - ان الضرر كل الضرور والخطر كل الخطر في اضاءة الوقت بعدم ارسال الجنود المجتمعة في حلب الى فلسطين في أول فرصة ممكنة وثانياً - رأيت من الحق البدء في الهجوم من جهة فلسطين ومواصاته ضد الانجليز على طول الصحراء لأنني مع افتراض ارجاء كل جيش الصاعقة لذلك الفرض قد كنت معتداً عدم استطاعتنا احراز أي شيء حاسم لعظم التأهبات الانجليزية .

فان الانجليز قد أقاموا استحکاماتهم بدقة ومهارة حتى صار من المتعين علينا لو أردنا مهاجمتهم أن نأتي بمهمات لا أمل لنا مطلقاً في الحصول عليها مثل الدبابات والمدافع الضخمة الباردة المدى والمفرقات العالية وأدوات الغازات السامة وغير ذلك .

فإذا فشلنا في ذلك الهجوم - والأمل - كما ترى - ضعيف في نجاحه لا بد أن يقوم الانجليز بهجتم المضادة فلا يعجزهم اسر معظم جنود الصدمة . وهذا بالطبع يؤثر جداً في قوي الجيش المعنوية فيسهل على العدو مهاجمة استحکاماتنا بل قد يخرق تماماً الجبهة الفلسطينية . لقد حشد الانجليز في ميدان فلسطين تسع فرق مشاة وثلاث فرق فرساناً هذا عدا قوة كبيرة من الاسلحة الأخرى المخصوصة فن المؤكد الا يحل منتصف أغسطس أو أوائل الشتاء على اقصى تقدير حتى يكونوا قد قاموا بأخر هجوم فاصل على هذه الجبهة .

كما انه لا ينتظر أن يكتفوا بهجمة واحدة . بل هم سيهجمون عدة مرات أي كالهجوم الذي كثير امارأينا مثله في الميدان الغربي . فالنتيجة ان خير ما يمكننا أن نعمله هو انتظار نهاية ذلك الهجوم الذي يكلف الانجليز افدح الحسائر فاذا ما نجحنا نجاحاً حاسماً في صدقهم ينبغي أن نقوم بمهاجمة الفرق الانجليزية المهزومة مهاجمة مضادة على مدى قريب بقوات جديدة تكون معدة خصيصاً لذلك الغرض .

نعم : ربما لا تسفر هذه الخطة عن شيء من المزايا الايجابية العظيمة ولكنها تكون خير وسيلة وأنجحها لحماية الجبهة الفلسطينية ودرء الخطر الاكبر عن سورية .

ويمكن على اساس اقتراحي السير بمقتضى الخطة التالية :

أولاً - العدول عن حملة بغداد أو عن التفكير فيها في تموز أو في الشتاء المقبل .

ثانياً - حشد كل فرق جيش الصاعقة في فلسطين ودمشق وحماة وحلب
ثالثاً - ارسال فرق جيش الصاعقة الى الجبهة الفلسطينية كما عزز الانجليز جبهتهم .

رابعاً - تحديد عدد الفرق التي تستخدم في الصف الثاني ليشفي اراحة سائر فرق الصف الاول كل اسبوعين .

خامساً - تقوية صفنا الثالث بقوة احتياطية اساسية كبرى .
سادساً - الا يتعرض للخطر ذلك الجيش الواقف لمقاومة الهجوم الانجليزي في المواقع الحاضرة لأنه هو الجيش الوحيد لدى الحكومة العثمانية .
وينبغي لتنفيذ هذه الحركات ان لا يذهب مطلقاً جيش الصاعقة وهيئة

أركان حرب به الى فلسطين . اذ يمكن فون كريس باشا قائد الجبهة الفلسطينية الذي لبت في تلك الجبهة اكثر من ثلاث سنوات وتولى الدفاع عن غزة مرتين أن يتولى قيادة سائر فرق الصفيين الاول والثاني مع بقاء الفرق التي يتكون منها الاحتياطى الاساسي تحت قيادتي مباشرة .

أما لو ذهب جيش الصاعقة الى فلسطين فيتمين ان تذهب اليها هيئة أركان حرب الجيش السابع التي أراحها ذلك الجيش واذ ذلك يصير لازماً تقسيم الجبهة الفلسطينية - وهي في الحقيقة جبهة واحدة - الى قطاعين مستقلين كل منهما عن الآخر ويرابط جيش مستقل في كل منهما .

ومع ذلك فما اسخف الراي القائل بتوزيع ثمانية فيالق أو تسعة وربما عشرة (ولا أعرف كم فرقة) على جيشين مستقلين خصوصاً اذا لاخطنا أن كل القوة من أولها الى آخرها لا تتجاوز ٥٠٠٠٠ حربة .

حقاً لقد كان الاصوب استخدام كل الضباط الاكفاء الحديثي السن الذين يمكن العثور عليهم في كل أولئك الفيالق لسد الفراغ الذي يحدث في الفرق ولكن الغاية التي كان المارشال فون فالسكنهين يفكر فيها كانت من نوع آخر . فانه عندما أدرك أن حملة بغداد - التي ظنها بادىء ذى بدء أمراً سهلاً - متعذرة شعر بان مركزه صار حرجاً فبادر الى التخلص منه بوجه ما فلكيما ينقذ سمعته عاد الى بحث خطة كان انور باشا فكر فيها منذ ثلاثة أو أربعة اشهر وهي مهاجمة الانجليز في فلسطين . وانما عدل عنها نظراً لشدة معارضي فيها . ولكن فون فالسكنهين التفت اليه فقال : (يتقد جمال باشا ان تلك الحملة مستحيلة أما انا فأرى انها ليست ممكنة بحسب بل مفيدة) .

ولكن انور باشا لم يشأ من جهة أن يرسل الى فلسطين جنوداً جديدة

ولا أن يعدل من جهة أخرى عن حملة بغداد وعلى ذلك ختم مجلس الحرب
بإعلانه أنه لا يزال مصراً على رأيه الأول .

ومن ثم أخذ وحدات عديدة تابعة للجيش السابع تحتشد في حلب منذ
شهر ونقل مصطفى كمال باشا قائد الجيش السابع مركز قيادته إلى تلك المدينة .
وكان من أشق الأمور على نفسي أن أرى تلك الجنود تقتل الوقت
في حلب في حين أنني كنت أرى أنه يتعين أن تكون جزءاً لا يستغنى عنه من
قواتنا المرابطة في الجبهة الفلسطينية . وهكذا ظلت رغم تصريحات أنور باشا
العلنية ونياته التي أعرب عنها في مجلس الحرب مستمراً في المطالبة - هذه المرة
كتائياً - بإرسال هذه الجنود جنوباً بلا إبطاء ولا إهمال .

وهو إلى ذلك الوقت وصلت إلى من امبراطور ألمانيا دعوة لزيارة
الميدان الغربي . ولم أعرف سبباً لإرسالها .

فأرسل الكونت فالديبرج مستشار السفارة الألمانية - الذي كان
وقتها قائماً بأعمال السفير - هذه الدعوة الرسمية إلى وزارة الخارجية كما أرسلها
إلى شخصياً مع تحيات جلالة الامبراطور . وفي اليوم نفسه ابلفني السفير
التمساوي أن جلالة امبراطور النمسا وملك المجر يدعوني لزيارة الميدان التماوي
فبعد استئذان جلالة السلطان قصدت ألمانيا أولاً :

فزرت الاسطول في نهر ويلهلمسهافن ومن ثم ذهبت إلى كوكسهافن ثم
إلى كييل على ظهر الطراد (بايرن) وفي كييل استقبلني الأمير هنري مقابلة
وودية جداً وزار معي دار الصنعة ومدرسة التعليم البحري في هتنبورج .
وشهدت بحضوره مناورات بحرية عديدة . ثم سافرت عن طريق همبرج واسن
حيث زرت مصانع كروب ووصلت إلى مركز القيادة العامة الألمانية في

كرويزناخ . وجاءت يوم وصولي الانباء تحمل بشرى دخول الجنود الالمانية
مدينة ريفاً فهم الفرح والسرور وبدت على محيا الامبراطور علامات الابهام
الحقيقي في ذلك اليوم . ولكنني كنت الشخص الوحيد الذي شعر بانقباض
النفس رغم ما بذلته من الجهود للتظاهر بالفرح .

وقد كان سبب انقباضي برقية من أنور باشا استلمتها عند وصولي الى
كرويزناخ قال فيها : (بعد محادثات عديدة مع فون فالكنهاين قررت الشروع
في الهجوم ضد الانجليز بكل مجموعة جيوش الصاعقة وارسال فون فالكنهاين
الى هناك لانتخاذ ما يراه ضرورياً لتنفيذ تلك الخطة فيجب في هذه الظروف
أن يتولي هو قيادة الجيش في ميدان فلسطين . فلارجو ان تجرب فون كريس
باشا بأن ينفذ كل الاوامر التي يصدرها اليه فون فالكنهاين) .

وكانت هذه البرقية بمثابة ضربة شديدة بالنسبة الي ، فقد أدرك القائد
الالمانى مراده وضمن العمل لتنفيذ مشروع يعلم الله انه كان شديد الخطر
ولا بد ان يلحق الوطن منه بلايا عظيمة .

فأبرقت الى انور باشا البرقية التالية :

(ان القائد فون فالكنهاين هو صاحب فكرة الهجوم على فردون التي
كانت شراً مستطيراً على المانيا فهجومه الفلسطيني مؤداه الشر المستطير علينا)
وما كان اشد حزني عندما تبين لي فيما بعد اني تذبأت بنبوءة صادقة
بالكارثة التي كانت القاضية علينا !

وقد حاولت في اليوم نفسه أن اقع المارشال هند نبرج والقائد
لودندروف بأضرار العمل الحربي الذي يزمعه فون فالكنهاين . فأجاب المارشال
هندنبرج بأنه يصعب من مثل هذا المكان السحيق الحكم على المزايا أو الأضرار

التي تتجم من ذلك الهجوم ولكنه يظن اني معيب في رأيي . وأجاب القائد لودندروف الجواب عينه ولكنه رأى ان الانسان بمهاجمة العدو بهذه الطريقة يضطره احياناً الى القيام بهجمات التي نواها من قبل ولكن لا في النقطة التي ارادها العدو بل في النقطة التي ارادها خصمه . وفي ظنه ان هذا عين ماقصده القائد فون فالكنهاين عندما قرر القيام بذلك الهجوم ثم اضاف الى ذلك قوله ان كل تدخل الآن لا ينتج الاضراراً وان المخرج الوحيد من هذه الورطة هو الوصول الى تفاهم مع انور باشا عند عودتي الى الاستانة .

وبعد مغادرتي كرويزناخ زرت بروج وزيبروج واوستند ثم جبهة الجيش الرابع الالماني الذي كانت كامبراي مركز قيادته . ثم عدت الى الاستانة وعند وصولي ناقشت انور باشا ملياً ولكنني ايقنت باستحالة تحويله عن رأيه فقررت الاستقالة ولكنه رجاني بالحاح المدول عن تلك الفكرة نظراً لامتداد الثورة العربية وبلوغها الى قرب معان واحتمال بلوغها الى دمشق نفسها اذا انا تركت سورية في الوقت الحاضر . والواقع ان الاعتراضات التي اقامها كانت متينة . فان الدروز والبدو كانوا في شمال معان . وقد كان محتملاً ان يشور متمرد والعرب - الذين بدأ تأثيرهم يظهر في دمشق ولكنهم لم يجرؤوا فعلاً على المصيان بفضل اليد الحديدية التي استعملتها - في اي وقت فيقطعوا سائر خطوط مواصلات جيش فلسطين وينهبوا مستودعات مؤوته ويكونوا سبباً في هزيمته التامة .

فلم اربداً من تضحية شخصيتي مرة اخرى . فاضطرت ان اصبر على تسوية جعلت حركاتي في داخل دائرة ضيقة واثرت تأثيراً مادياً في مكاتي حيال القائد فون فالكنهاين وبهذا الترتيب اصبح القائد الملقب بقائد مجموعة

جيوش الصاعقة منوطاً به القيام بمهاجمة الجبهة الفلسطينية الانجليزية مع التحاق الجيش السابع بهذه المجموعة . وفي خلال وضع هذه الخطة وتنفيذها تصير جنود هذه الجبهة التي تحت قيادة فون كريس (التي كانت حتى الآن تحت قيادتي تحت قيادة قائد مجموعة جيوش الصاعقة) . وصدرت الي التعليمات بمباشرة مؤن جيوش مجموعة الصاعقة و جنود الجبهة الفلسطينية وليس لفون فالكنهين ان يتدخل مطلقاً مع السلطات الملكية سواء في سورية او في فلسطين . بل نيبت بي وحدي ادارة البلاد الملكية . وتقرر أن تبقى تحت قيادتي الككتائب التي تقوم بالاعمال الحربية في شرقي الاردن وعهد الي بالدفاع عن سائر الشاطى الواقع في شمالي ياقا وحماية البلاد عسكرياً . وعلى هذه الشروط أصبحت اسمي (قائد جيوش سورية وغربى بلاد العرب) وأصبحت متمتعاً بمزايا قائد مجموعة جيوش . ولو ابدي القائد فون فالكنهين روح المسألة لما ادى هذا الترتيب الى شيء من المتاعب في مسألتى مناطق القيادة وادارة سورية وفلسطين بل البقى كل شيء على ما كان عليه من قبل . وعلى فرض انه لم يكن ثمة ما يبرز تلك الغلطة ... الشنيعة غلطة القاء عدة فرق في حلب تقتل الوقت بلا عمل نحواً من ثلاثة اشهر بحجة الانتظار للشروع في حملة بغداد حتى انها وصلت الى فلسطين بعد فوات الوقت لم يكن في الواقع هناك مبرر ما لتحويل حال الادارة الداخلية في سورية بعد ان لبثت زهاء ثلاثة اعوام . وعند عودتي من الميدان الالمانى الى الاستانة وصل الى سمعى ان خلافاً في الرأى شجر بين مصطفى كمال باشا قائد الجيش السابع والقائد فون فالكنهين . فاهتمت بالبحث عن سببه فاذا في البحث الى ان مصطفى كمال باشا كان الحق في جانبه . فانه كان

يحترم جميع حقوق قائد الجيش . اما فون فالكنهين فقد ادعى ان له الحق في التدخل في شؤون الجيش السابع بطريقة مخطورة حتى لو كانت خاصة بقائد فيلق . فقد اراد فون فالكنهين ان يتدخل مثلا مباشرة في الشؤون العربية التي وقعت في منطقة مصطفي كمال باشا ولكن هذا الاخير افهمه ان هذه المسائل تعنى جيشه وحده وان فالكنهين ليست له سلطة مطلقاً تخوله التدخل في مثل تلك الشؤون . لهذا اراد مصطفي كمال باشا الذي كان يعلم جيد العلم ما قد يترتب من الاضرار على بعض الاوامر المعنية التي يصدرها فون فالكنهين مما لا يتفق ومزاج البدو ان يمنع تدخل القائد الالمانى بكل صراحة ممكنة معتمداً على سلطته باعتبار انه قائد جيش . تلك كانت الحالة بالاجمال في سورية عندما عدت الى حلب من الاستانة حوالى منتصف شهر تشرين الثاني . كذلك كان مصطفي كمال باشا يرى انه لا يستطيع ان يبقى قيد اوامر القائد فون فالكنهين وايقتت انا ايضا ان النفوذ الذي كان لي في سورية خلال السنوات الثلاث الماضية سيضمف كثيراً مادام هذا القائد الالمانى فيها وفي ذلك الضرر كل الضرر على الوطن . وبعدهة رسائل مطولة شديدة انتهى الامر بترك مصطفي كمال باشا القيادة وعودة الى الاستانة . فقلت له اننى اريد ان انهج نهجك حتى جاء انور باشا الى هنا وكان قد ارسل يقول : انه آت الى سورية في القريب العاجل . وصممت في نفسي على ان لا انحول عن عزمي . ولكن انور باشا عندما جاء دمشق جعل يتوسل الي هو والقواد الآخرون في بيروت وسورية وحلب ويسألوني في العدول عن الاستقالة الى ان رأيت نفسي مضطراً في هذا الوقت المصيب الى العدول عن فكرة مغادرة سورية . وابدى مصطفي

كأل باشا استياءه من خطئى ولكن أقنعتة فبها بعد بأن الحالة فى هذا الوقت
العبوس تجعل القيام بتلك التضحية الاخيرة امراً واجباً . وانى لعل يقين من
انه لو لم يدر البحث اولا مطلقا فى استرداد بغداد وحشدت كل الجنود الموجودة
فى الميدان الفلسطينى ولو لم يوضع فون فالسكنهين ثانياً فى قيادة الجيش فى
فلسطين لتمكنا من الدفاع عن خط غزة -- بير السبع عدة اعوام ولكانت
سورية وفلسطين لانزال جزءاً من الامبراطورية العثمانية يوم توقيع الهدنة.

(الفصل الثامن)

الثورة العربية

في يوم وصولي الى دمشق اخبرني خلوصي بك حاكم سورية العام بانه لديه اموراً خطيرة الشأن يريد محادثتي فيها فاجتمعنا في مساء اليوم نفسه في دار الحكومة فسلمن عدة وثائق مهمة ضبطت في القنصلية الفرنسية قائلين انها تدين عدداً من كبار الموظفين المسلمين في بيروت ودمشق ومدن اخرى واكثرهم نفوذاً . وان له يعمد الى اتخاذ اجراءات ضدهم لمحاكمتهم بل أرجا ذلك الى حين وصولي .

اما هذه الوثائق فتدل دلالة واضحة على ان الثوار العرب كانوا يعملون تحت حماية فرنسا لابل بارشاد الحكومة الفرنسية ولمصلحتها .

بيد ان اتخاذ اجراءات قضائه في الحال ضد اولئك الخونة ربما عرض الحركة الاسلامية للخطر التي كانت غاية مجهوداتنا . اذ لو حاكناهم لاعلنت حكومات اسلامية عديدة انقطاع اتصالها بنا كصر وهند والجزائر ومراكش ان الانراك قد تملكهم سورة الانتقام او انهم يسمعون لتحقيق سيادة الامة الطورانية عن طريق الفتك بوجهاء العرب . وهذا ما توخيناه في هذا النضال الشديد الذي اشتركنا فيه لنحرير العام الاسلامي من النير الاجنبي . اذ قد كان غرضنا الاول ومقصدنا الاسمي الاحتفاظ بوحدة الغاية والجهود في جميع البلاد الاسلامية فقررنا لهذا السبب ان لا نتسبى بيت شقة في هذا الصدد في الظروف الحاضرة وقبيل وصولي الى سورية سلمت الى المحكمة العسكرية عدة وثائق تدين

ناهل مطران باشا البعلبكي واذ كان التحقيق لا يزال متواصلاً وجب انه ترك
العدل يجرى مجراه فحكمت عليه المحكمة العسكرية بالاشغال الشاقة المؤبدة .
وبعد زيارتي للقدس اخبرني خلوصي ان بقاء ناهل باشا في دمشق غير
مرغوب فيه وانه قد حصل على ترخيص من الأستانه بارساله مع من يحرسه
الى ديار بكر . وبيناهم في طريقهم اليها حاول الباشا الفرار ذات ليلة بالقرب
من جرابلس ولكنّه وجد قتيلاً بجانب حراسه .

ولقد وجدنا الوثائق المضبوطة في القنصلية الفرنسية في دمشق تسجل
على ادلة قوية تثبت ادانة كل من انور على شا بن انور عبد القادر وكيل مجلس
النواب واخيه انور علم المبعوث السابق عن دمشق وشفيق بك المؤيد وعبد الحميد
الهراني افندي من مجلس الاعيان ويحي الاطرش شيخ الدرروز وذهاب
الانجليزي المفتش شكرى العسلى ورشدي بك الشمعه مبعوث دمشق السابق
وغيرهم من كبار وجهاء العرب .

وبارغم من تلك الادلة كنت موقناً بامتهم سيدر كون في النهاية ان الحرب
العامه ليست الا مسألة حياة او موت للعالم الاسلامي وانهم سيعلقون يوماً عن
غيهم ويكفرون عن اعمالهم الجنائية . وعلى هذا الاعتقاد قررت بنية صادقة الا
اتخذ اجراءات ضدهم . واذ كنت شخصياً موافقاً في المبدأ على استمهال اللغة
العربية ومنح العرب بعض امتيازات في الشؤون الادارية ارسلت في طلب
عبدالكريم الخليل زعيم الحركة الثورية العربية الذي ورد ذكره في الفصل الاول
من هذه المذكرات . فقرآته بالبشاشة والاحسان .

واجتمعت بواسطة لبعض زعماء الثورة واخص منهم بالذكر الدكتور
عبد الرحمن الشهبندر أكثرهم تحمساً وصاحب جريدة « المفيد » وعبد الغني

العريس احد كبار مؤسس المؤتمر العربي في باريس ومهوند كفيد صاحب جريدة
المقتيس الشهيرة وبسطت لهم خطة الحكومة واكدت لهم أن تحرير العالم الاسلامي
من التبر الاجنبي ممكن بحقيقة لو عقد العفر لاوليتنا . فأمّنوا جميعاً بلا استثناء
على اقوالى واقسموا بالله جهدياً بما منهم وبشر منهم ان يظل عرب سورية وفلسطين
موالين للحكومة مادامت الحرب وان لا يقيموا العراقل في طريقها وان ينفذوا
اقوالهم هذه بالفعل وفي الوقت نفسه شرع اولئك الذين يدعون بالثوريتين وفي
مقدمتهم عبدالكريم الخليل يعصون قصص حزنهم تبصر عن حاجتهم الاقوى الى
المال . فتمرت عبدالكريم المذكور ومحمد كرد علي وعبدالغني العريس بالاموال
الطائلة واصبحوا من ذلك الحين خدماً مطيعين لأوامري واكدوا الى انهم
لا يدخرون وسماً لمساعدتي .

وبعد وصولي الى دمشق مباشرة شرعت في اعداد معدات الحملة على القناة
وحولت جهدي لايجاد جوعاً بالحماس الديني والثيرة الوطنية في جميع البلاد العربية
فاقت حفلة ادبية بواسطة زعماء الثورة العربية مثل عبد القادر الخليل
والدكتور عبد الرحمن شهبندر وغيرها ممن كانوا يسمون « بالمصلحين » وفي
خلال هذه الحفلة التي أفصح الخطباء عدة خطب وانشدوا القصائد الحافلة
بمآثر العرب واثاروا بالتمجيد الى جنتهم للعلم وشفعتهم بالمعارف والرقى هي
صفات تتجلى في المنصر العربي . ورتلت الاغاني التي رددت الآمال في تحقيق
الوحدة العربية . وكادت الانشودة الوطنية العربية « نحن جنود الله شبان
البلاد » تزلزل فوق رؤوسنا سقف المكان الذي كنا فيه .

وبعد ان تبين لهم من سلوكي انني اعطف على كل ما قالوه بل ارغب
كل الرغبة في المساعدة بكل ما في الاستطاعة صعدت المنبر والقيت خطبة مطولة

انبت فيها بصراحة اتنا على بكرة انبيا مخلصوت للغة العربية لغة ديننا الحنيف واتنا
نحب الشعب العربي ونجمله وكيف لادهو الذي نجمعنا واياه الوحدة الدينية
والمقيدة المشتركة . واكدت لهم بان الوسائل التي اتخذت في العام الماضي لمساعدة
العرب على تحقيق امانهم ستكرر ثم زدت هذه العبارة التالية :

« ايها السادة » : اب البرنامج الذي عقد حزبنا عزيمته على تنفيذه
يحذافيره لاصلاح حالة العرب لاوسع بكثير مماق يخطر ببالكم . ولست انا من
الذين يتوجون شراً من بقاء المنصرين العربي والتركي متحدين وتابعين
لخليفة واحد مع انفصال احدهما من الآخر كشميين متخالفين .

ولكن لاراك تلك الغاية يحب علينا ان نعمل ونعمل كثيراً . فينبغي قبل
كل شيء طرد الغشاشين الذين باعوا وطنهم ودينهم للعدو من بين صفوفنا وان
نضيق الحنان على الذين يعملون لمصلحته . ثم انه يجب ان تتقوا في ان حركة
الجامعة التركي التي شهدتموها في الاستانة في الجهات الاخرى الآهله بالعناصر
التركي لاتتضارب بشكل ما والمطامع العربية . انهم ليعلمون على ليس بالظن
ان الامبراطورية العثمانية وجدت فيها حركات بلغارية ويونانية وارمنية والآن
توجد فيها حركة عربية . ولقدس الاتراك وجودهم بالمره الى حد انهم كانوا
يخشون ذكر شعبهم مطلق . فالروح الوطني وقد وقوماً تاماً حتى لقد ضيف
على الشعب التركي ان يتلاشي نهائياً .

فدرءاً لذلك الخطر المقبل نهض رجال تركيا الفتاة بشيرة نستحق الاعجاب
ملجأوا الى السلاح لتعليم الاتراك الروح الوطني وما يصحبه من الفضائل هذا
هو الغرض الذي يرمون اليه وبذلوا فيه جهودهم في خلال هذه العامين او
الثلاثة الماضية . وقد كانت من نتيجة ذلك بعث الخلافة العثمانية من رقدتها .

فيهم هم الذين اوجدوا الحيش المنظم الذي ترونه اليوم وهم الذين لم يترددوا في عقد تحالف مع من سامهم القدر الى مخالفتنا وفي اعلان الحرب الدينيه على عدد المله الوراثي .

واليوم اراني قادراً ان اؤكد لكم ان الالاماني التركية والالاماني العربية لاتعارضان مطلقاً فالأتراك والعرب ليسوا الاخوانا في غاياتهم الوطنية ولربما كانت مجهوداتهم بعضاً متحماً لبعض . ان غرض رجال تركيا الفتاة هو ايقاظ الشور الوطني في الامة التركية وتدريب مواطنيهم على العمل وتحريرهم من النير السلافي وتقويتهم وامدادهم وطنيا وزيادة رخاء اعمالك التركي وسعادتهم . وبالاختصار ان اقصى اماني ذلك الحرب هو جعل الشعب التركي موضع احترام شعوب العالم كافة ويتثبت حقه في ان يعيش مع شعوب القرن العشرين جينا لجنب ولقد اعزمت الحزب العمل بلا هوادة او ملل لادراك تلك الغاية واني بصفتي كوني احد المنتمين اليه انا شدكم بلسانكم العربي ان نعلموا بصفتكم محتلا حزب بلاد العرب الفتاة لنجاح تلك القضية . فلا تصفوا الى الاكاذيب التي يروجها ما جوروا العدد الذي يعتبر المسكر والاحتمال رسائل مشروعة للتحكم في شؤون البلاد العربية .

اني اناشد الشبان الأتراك والعرب قائلاً ان هذين الشعيين مقضي عليها بالفتاه لاجالة في اللحظة التي يتخذ لالة فيها . فالنزاع والاختلاف بين عمودي الاسلام لا يبد أن يؤدي الى سقوط ذلك الدين ويومعد لا معرض الوقوع تحت ينز الاستعمار السلافي .

« ايها السادة » : انه لن اشد بواني الأسف والحزن ان تتجمع المحاولات الشيطانية التي يقوم بها اعداء الدين والوطن بعذر بذور الشقاق

بيننا فعلى الأراك والعرب ان يحبوا بعضهم بعضاً ويحترم بعضهم بعضاً لكي
يتكفروا في ان يحبوا معاً ثمار مجهوداتهم المشتركة . واني احذركم عواقب التخاذل
فانه مود حتى الى استعبادكم وقنائكم .

وقد احدثت هذه الخطا به اثرأ كبيراً في نفوس الحاضرين فشاء في
اليوم نفسه كثير من وجهاء القوم الى مركز القيادة لتقديم الشكر الي على
ما ورد فيها وقابلها المصلحون من جهتهم احترام بالارتياح التام . وفي خلال
بعضة الأيام التالية لذلك اليوم تجمع سكان الحدتته باعلامهم شرادم شرادم
واقسموا بالقرآن ليكونوا اولياء للحكومة وليبدلن كل ما في استطاعتهم من
المساعدة دقاً عن حقوق الاسلام ضد الانجليز والفرنسيين .

ولا يعني اذا ما قارنت بين ما وصلت اليه الحال اليوم وبين المظاهرات
الدينية التي جرت وقتئذ في دمشق وحلب وحماة وحمص وبيروت بل في لبنان
ايضاً الا ان اسنزل اللعنات السماوية على الشريف حسين واولاده لانهم هم
وخدمهم المسؤولون عن احدا اصاب الأسلام من الكوارث والحن .

فالنسياسة التي اردت اتباعها في سورية كانت كما ذكرت آتفاً سياسة صفح
وتساح ولم اترك فرصة الا انتهزتها ولا وسيلة الا التجأت اليها لتوحيد الافكار
والشعور في سائر الممالك العربية .

فقد كتب مثلاً الى ارباب الجهات في بغداد وكر بلا والنجف وعدد
من مشايخ العراق الذين يمكنت بيني وبينهم اوامر المرة اثناء اقامتي في بغداد
ثم الى ابن السعود ان الرشيد طالباً منهم ان يمدوا يد المساعدة الي سليمان بك
المسكري الذي فرده فرقه او اثنتان وكتيبة عثمان بك مخلده التابعة للتشكيلات
المحفوفة لصد الانجليز الذين كانوا محتلين البصرة وماجوارها . وارسلت كتابا

خاصاً الى الامام سيد يحيى حميد الدين لفت نظره الى ضرورة انضمامه الى
كتائبنا في اليمن .

وقد جاءني الردود في اولئك زعماء وفيها يؤكدوه اخلاصهم وولاءهم
للخلافه . ولم يكن محمسم الدين ورغبتهم في الاشتراك في الجهاد ضد اعداد
الملة باقل من يمن الحماس الذي سرى في سائر البلاد العربية .

ووصلت لي أيضاً كتب كهذه ولو انها مبهمه وغامضه من الشريف
حسين الذي كانت المكاتبات دائرة بيني وبينه .

واذ كنت اعرف ان خير الوسائل لعدم احفاظ صدور العرب هي اجتناب
الاستيلاء على شيء ما من حاصلاتهم ويدفع بمن كل ما محتاجه نقداً كان اول
ما أصدرته في الاوامر عند وصولي هو ان لا يؤخذ شيء مطلقاً من اهالي
سورية وفلسطين الملكيتين في منطقة الجيش الرابع . وان يكون دفع الثمن
فوراً عن كل شيء ايا كان سواء اكان طعاماً او متاعاً او ثياباً . ولما لم يكن من
العدالة او المساواة في شيء ان نتمسك بان يدفع بمن كل شيء فوراً في سورية
وفلسطين بين سائر الجهات في الامبراطورية تؤخذ منها هذه الاشياء اخذاً
كتبت الى الحكومة اوصيها بتعميم العرايض المتبعة في سورية وفلسطين .

ثم وكنت الى حزب الاصلاح ووضعت ثقة كبرى في رجاله بل اني
لم اتردد في الذهاب لرواية مظاهرة وطنية بالقرب من رأس بعلبك وهي محطة
نائمه منعزلة مع اني لم اكن مصطحباً الاحارمي الخاص وخلوص بك والى
سورية . وقد رأيت من الضروري الاشتراك في ذلك الاحتفال لاطهر مقدار
ما اودعه من الثقة في عبدالكريم الخليل (منظم تلك الحفلة) لتعزيز مركزه
في اعين شعبية . والواقع اني كنت فيما فعلت واينما ذهبت في ولايتي بيروت

وسورية مصحوبا بالمصلحين حتى حان الوقت للذهاب الى شبه جزيرة سيناء
للإشراف على الاعمال الحربية ضد الفتاة .

غير انه راجت في ذلك الوقت في بيروت وسورية اشاعة فخواها انه
ان مسيحين لبنان وطفدوا العزم على الجنوح الى الثورة في القريب العاجل
فاشار علي البعض بتعطيل جميع الحقوق التي يتمتع بها الجليليون واصدار منشور
بأن الاهالي سلاحهم للحكومة . وقد قيل ان في الجبل ما لا يقل عن ٥٠٠٠٠
بنديقية من البنادق الحديثة .

ولكن ضربت بتلك الاشاعات عرض الحائط وقد كان من المحتم ان
يؤدي مثل ذلك العمل الذي اشاروا على القيام به الى اثاره شكوك الاهالي
المسيحين في سورية وفلسطين ودفعمهم الى العصيان حتي لو لم تكن نيتمهم متوجهه
الى التمرد من قبل . وكنت موقفاً ان الشخص الذي يأخذ على طائفة عبث
تجريدهم من السلاح لا بد ان ينتج عمله هذا مهما كانت حبيسة وقوع عدة
حوادث غير قانونية وهذا ما بدوره يؤدي الى ازعاج كثير من الابرياء بلا
مسوغ . فاصحاب الاملاك من اللبنانيين كان من المنتظر مثلا ان يصيبهم ضرر
مادى كبير من جراء تفتيش المنازل .

فاصدرت بناء على ذلك منشوراً الى اهالي لبنان الملليين اكدت لهم
فيه ان جميع امتيازاتهم القديمة ستظل محترمة وان يد الاذى ان تصل اليهم .
فجاء الى زيارتي من قبل بطريرك الطائفة المارونية المونسيور بطرس حويك
ثلاثة في الاساقفة يجبروني ان منشوري بعث الطمانينة في نفوس الطائفة
المذكورة وانهم لن يدسوا لي هذا الجليل مطلقاً . وانني يمكنني ان اركن اليهم
والا اتوقع منهم في المستقبل سوى الاخلاص والولاء التام ثم قدموا لي خطاتا

بذلك المعنى بتوقيع البطريرك نفسه بيد أن بعض المارونيين والدروز في لبنان
ممن عرفوا بصلاتهم بالفرنسيين والإنجليز حامت حولهم الشبه القوية بالسعانة
سراً لخلق القلاقل والاضطرابات . فرأيت اتخاذ الحيلة اللازمة . فطلبت اليهم
أن يقيموا في القدس طول مدة الحملة على مصر . وتكفلت خزانة الجيش بدفع
نفقاتهم وترك لهم الحرية التامة في السكنى حيثما شاؤوا في تلك المدينة .

أما بيان أسماء هؤلاء الأشخاص فسلم الي بواسطة . موظفي الحكومة ولكنه
وضع بايعاز من جماعة المصلحين في سورية وبيروت وباستشارة بعض زعماء لبنان .
وقد تبين من التحقيقات السرية التي قمت بها ان اولئك السادة كانوا
في الواقع محلاً للشبهه ولا ارانى الآن الا قد احسنت صنعا في اختيارهم ذلك
لاني قرأت اليوم اسماءهم في الصحف وتحققت انهم هم أنفسهم الأشخاص
الذين يبذلون قصارى جهدهم في بسط الحماية الفرنسية وبهذا يطعنون الوحدة
العربية طعنة نجلاء .

ولم يتردد المستر مورخنا والسفير الامريكى في كتابه الشهر الذي كان لي
فيه القدح كيلا في ان ينسب الى تهمة ارتكاب اعمال عنيفة غيرت قانونية عديدة
ضد مسيحين سورية . او في وسمى طبعاً ان اكنفى في الرد على مزاعم هذا
الكاتب بقولى ليس ما تقوله يا سيدي من الحقيقة في شيء ولكنى استحسن ان
اذكره ببعض الحقائق مرتبه حسب تواريخها فأقول لدى وصولي الى القدس
في يوم ٣ او ٤ كانون الثاني سنة ١٩١٥ لفته قنصل حلقاينا والقنصل المحايدون
نظري الى كراسه معينة اخبروني ان ما جاء فيها قد احدث هياجاً كبيراً بين
الأهالى المسلمين وان كل انمان اخذ يتوقع حدوث مذبحة ضد المسيحيين في
اي لحظة . فقررت الكراسه المشار اليها فأذا بها تفسير « لى الجهاد » وانها

تتأشد المسلمين وأجبههم المقدس وهو اعلان الحرب الدينية على المسيحيين وقد كانت مكتوبة بمباراة متبذلة يسهل بها التقرير بالبسطاء فعمدت الى ازالة الأثر الشبه الذي أحدثته فأصدرت منشوراً مطولاً الى أهالي سورية . وقد وزع حتى في الاكواخ الصغيرة وعلق على الجدران في كل جهة وهاك ملخصه :

ان الحرب الدينية إنما اعلنها خليفة المسلمين ضد الإنجليز والفرنسيين والروسية بحسب لانهم اعداد الملة . فألحرب لا علاقة لها الا بولئك الذين يشهرون السلاح في وجوهنا اذن فكل من تحدته نفسه باساءة مواطنينا الكتابيين الذي ربطنا وايام روابط الوطن المشترك والمصالح المشتركة يعاقب عقاباً صارماً والى هذه الكراسة اشار السيامي الروسي مانديستام بتطويل في صفحة ٣٧٠ من كتابه المسمى ومصير الامبراطورية العثمانية . فهل لي ان أسأل ذلك الكاتب لماذا لم ين بترجمة منشوري أيضاً ؟ وفي وسمى ان اؤكد لهذين الكتابيين مورجنتاو ومانديستام اني لو كنت في اي وقت من اوقات الحرب اردت القيام بذبح المسيحيين بايدي المسلمين لما كلفني ذلك كثيراً من العناء والجهود فبقاء المسيحيين واليهود طول مدة الحرب غير مهددين بصفة ما من المسلمين او من الدروز إنما يرجع الفضل فيه الى مجهوداتي وحدها والى الوسائل الاحتياطية التي اتخذتها فليدع مانديستام ما يشاء في كتابه الحديث من ان المسيحيين إنما لم يذبحوا لمجرد ان الاكراد كانوا غائبين عن الديار ومشغولين بمقاتلة الارمن ولكنني على يقين من انه لا يمتدح صحة دعواه هذه فلو انني حقاً القيت مرة في روع البدو او السوريين ان الوقت صالح والفرصة حاضرة لسلب مسيحي لبنان الاغنياء ونجريدتهم من امتعتهم لما كان ثمة معنى للاجراءات التي اهتمت بانحازها .

لا . لا ! ايها الكاتبان ! واني لا عن سره اخرى باتمكا بزعمكما في
كتايبكما اني اغضيت الطرف عمداً عن قتل مسيحي سورية انما نقرر ان ماهو
الاحض اقتراء ولا بدان يأتي يوم ويقوم فيه رجال اشرف في امريكا وفي فرانس
وفي انجلترا لاعلان الحقيقة وتقريرها باضاءاتهم . فهل نحمر وجوهكم وقتئذ
خجلاً ؟ اني اشك في ذلك !

ولم يقع بعد عودتي من حملة القناة الاولى ما يززع ثقتي في المصلحين
وكانت خطتي معهم خطة الصراحة حتى انني طلبت الى عبد الكريم الخليل
والدكتور عبدالرحمن الشهبندر ان يزوروا الجنود التركية العربية العائدة من
القناة ليشهدوا بانفسهم حتى حالتهم المعنوية فدعوتهم الى القدس وهناك اعطيتهم
المال الكافي لنفقات السفر . ثم ارسلتهم الى الجنود . فظلاماً مع الجيش مدة ثلاثة
اسابيع دون ان يقوموا بتفتيش ما . وعند عودتهم اطلبنا في مدح نظام الجيش
ونظام موثبه .

وفي مايس ١٩١٥ قرأت في الصحف المصرية حملات عنيفة من اللجنة
اللامركزية على الحكومة العثمانية فلم اجد مبرراً لتلك الحملة السافلة .

فسأت ذات يوم عبد الكريم الخليل اذا يعرف السر في ولاء المصلحين
في سورية وبيروت في حين ان رقيق العظم وغيره في الدين يدعون انهم
زعماء يختلقون على تركيا الا اختلاف السافلة فجارل مع شيء من الاضطراب
ان يرد على سؤالي وليكنه لم يمكنه ذلك لان سؤالي كان مفحماً .

ثم زارني بعد بضعة ايام وقال لي انه مستعد للذهاب الى مصر - اذا
رغبت في ذلك ليشرح لزعماء اللجنة اللامركزية السياسة التي اتبعها في سورية
واكد لي انه سيواصل السعي على تغيير خطتهم .

وكانت سورية في ذلك الوقت على اسوأ حالة واشدها خطراً . فقد ترك
الانجليز والفرنسيون الى الدردنيل وجعلوا يهجمون هجوماتهم العنيفة كل يوم
وتلبية لرغبة القيادة العليا ارسلت الى الاستانة الفرق الثامنة والعاشره والخامسة
والعشرين التي كانت في سورية ولحقت به فيما بعد فصائل الرشاشات باسرها
وبالاختصار ارسلت كل الرجال والمهمات التي طلبها الدفاع عن الدردنيل وكان
متعباً علي ان احافظ على النظام الداخلي في تلك المنطقة الممتدة من جبال
طوروس الى المدينة المنورة واحول دين ازال اية جنود معادية . كل ذلك
في حين انني لم يكن لدي سوى فرقة او اثنتين من العرب وكتيبة من متطوعي
المولوية الدرراويش فلو نشبت وقتئذ ثورة في جهة من الجهات بفعل الدسائس
الأجنبية لما كانت ثمة وسيلة تمنعها ولفقدت الحكومة العثمانية سائر ولاياتها
العربية فلو ضمن الانجليز او الفرنسيون مساعدة الاهالي فأزلوا فرقتين في اى
نقطة على الساحل السوري مثلا في بيروت او في حيفا لوجدنا انفسنا بلا
جدال في موقف اليأس التام . ولكن نظراً للثقة العظمى التي وضعتها في الاهالي لم
اتردد في ان انيط بالجنود العربية سلامة البلاد واطرك المناطق الساحلية بالمرأبة .
واني لعلى يقين من ان الانجليز لو داخهم اقل ارتياب في ولاء اهالي
سورية وفلسطين الملكيين لما ترددوا لحظة في ازال جنودهم . ولم تكن بدأت
بعد اعمال الخيانة من الشريف حسين كما انني ما كنت اعرف شيئاً عنها وبرغم
الثقة السطحية التي وضعتها في عبدالكريم الخليل كنت موقناً بان الرجل ممن
يسهل شراء ذمتهم بالمال ولذا رايتني اقتراحه الذهاب الى مصر . فان ايطاليا
كانت قد اعلت وقتذاك الحرب علينا فانقطعت الى هنا بذلك آخر صلة بين
الشاطيء السوري وبين العالم الخارجي . ولم اخف عليه ارتيابي من اقتراحه

فسألته كيف تستطيع اذن الوصول الى مصر؟ فاجابني قائلاً « ساجد وسيلة
للوصول الى هناك » فلما اجابني بهذا قوي شكى الى درجة اليقين ولكن لم
اتظاهر بشيء ما .

وحضر الى في اواخر حزيران الشيخ اسعدشكير مفتي الجيش واخبرني
بان الثورة قد بدأت علاماتها في سورية . ثم قال لي ان في استطاعة كامل بك
الاسعد مبعوث بيروت القاطن في احدى قرى قضاء صيدا اعطائي المعلومات التفصيلية
عنها . فأبرقت في الحال الى كامل بك المذكور فحضر الى القدس بعد يومين
وبصحبته شخص آخر . واليك ما قاله :

أفندم ! ان سمادتكم وضعتم ثقة كبرى في جماعة المصلحين وخولتموهم
حرية مطلقة في طول البلاد وعرضها . ولكنني اخشى ان يكونوا اساءوا استعمال
تلك الثقة . ففي هذه اللحظة ينظم رضا بك الصالح مبعوث بيروت الاسبق
وعبدالكريم الخليل عصياناً في جهتي تيرا وصيدا ، ولو غنيمت سمادتكم بتحقيق
ذلك لتبينت لكم صحة اقوالى .

وكانت في اخلاق العرب نقطة ضعف كبرى . اذ لا يكاد احدهم يصبح
ذا حظوة او يكون مقدماً على غيره حتى تشتمل نار الغيرة في صدور الآخرين
فيعمدون الى اعمال التهيج ضده . بيد انني لم استطع عزومثل تلك البواعث الى
التصريحات التي فاة بها كامل الاسعد . ذلك لانني لم اعامل مطلقاً من هو اقل
مرتبة من عبدالكريم الخليل . فلم تكن له اذن مصلحة شخصية في دس الدسائس
له . اما رضا بك الصالح فكنت على العكس اعتبره دساساً دينياً . ولذلك كنت
ارتضي مقابلته .

وبعد سؤال كامل الاسعد عما يراه خيراً وسيلة للشروع في التحقيق

اصدرت التعليمات اللازمة وظل التحقيق اسبوعين ثم اسفر عن اداة كل من رضا بك الصلح وعبدالكريم الخليل اللذين كانا في الواقع منمكينين في اثارة القلائل والاضطرابات في جهتي تيرا وصيدا . فامرت بالقبض عليهما وعلى شركائهما فوراً لان الابطاء في هذه الظروف ربما جر الى اخطار عظيمة . ولعمري لقد اختار المناأمرون أخصب بقعة لبذر بذورهم الشيطانية لان الرقابة كانت اقل منها في اي جهة من جهات الشاطيء . فلم تكن بها الا شردمة صغيرة من رجال الجندرية .

ولما لم يكن طريق الساحل فيما بين بيروت وسورية معبداً ولا مطروقاً لم يعتد الضباط ولا موظفو الادارة زيارة تلك المنطقة . وكذلك انا لم يخطر لي مطلقاً السفر الى تلك الجهة . ولهذا كان في وسع الثوار ان يعملوا ماشاؤوا في مأمن تام في المباحثات حتى اذا وفقوا في تهئية الرأي العام وتسميمه التجأوا الى قوات العدو الذي كان في استطاعته انزال عدد من جنوده في جناح الظلام لاحتلال المنطقة الجبلية في الداخل ونحسينها تحصيناً قوياً ضد الهجمات من الشمال او الغرب والواقع ان عبدالكريم الخليل ورضا بك الصلح بينما هما منمكينان في اثارة القلائل قامت سفن العدو المكلفة بمراقبة الشاطيء بعدد من المحاولات المهمة فلقد نزل من وقت الى آخر ولغير ما سبب ظاهر عدد من رجال تلك السفن لتحطيم خطوط التلغراف ولكن رجال الجندرية ردوهم على اعقابهم خاسرين في كل مرة . فاكتشاف اعمال الخيانة هذه فضح لنا نيات العدو في ذلك الحين فصاعداً ايقنت ان من الحق الثقة باولئك المصلحين فصممت على اتخاذ الاجراءات الشديدة ضد كل خائن .

وفي ذلك الوقت أيضاً عثر موظفو قلم الاستعلامات على الوثيقة التالية

وإني لأنشرها هنا نظراً لأهميتها العظيمة .

نشرة رقم ٤٠٣ .

القاهرة في ٢٧ رمضان سنة ١٣٢٢ .

الى السيد المبجل سيد افندي شكري .

تحية وسلاماً . وبعد في هذه الساعة الخطيرة التي تدور فيها رحى الحرب العظمي بمنتهى الشدة ينتظر الوطن المفدى من ابناؤه بذل ضحايا اكبر مما بذل في الماضي ان الحرب العالمية قد تطير شرارة منها الى الشرق فنصبح بلادنا شعلة من نار تلتهم البرىء والمذنب لافرق بين العرب والأتراك فما لاريب فيه ان الحكومة - على العكس من المتوقع - لو اشتركت في الصراع العام ان تخرج منها الاخضودة الشوكة مما يقرب أجلها . فلو حتمت الحرب بانتصار الحلفاء فان هذه النهاية تصح ولا مفر منها وبذلك يسهل حل المسألة الشرقية بواسطة روسيا . واذ ذاك تصبح الاراضي العربية عرضة لنفس الأخطار التي تهدد الاراضي التركية وبما أن الأتراك سوف يبذلون قصاري جهدهم ويستخدمون كل مواردهم الداعية للذود عن امبراطوريتهم وممتلكاتهم فان الخطر الذي يهدد العرب سيكون اعظم والبلية اشد . وهذا هو المنتظر وقوعه فعلاً .

اذن فمن المهم ان يتأهب العرب للذود عن استقلالهم المهدد وان جمعيتنا التي لديها هيئة خاصة والتي تتألف من نفر اشتهروا بالوطنية وعرفوا بالنضحية ترى ان واجبها المقدس يقضي باتخاذ الوسائل الفعالة في الحال لصيانة الوطن وابنائهم فلماذا السبب نرجو الاجابة على الاسئلة التالية :

اولاً - كم لديكم من القوات التي يمكنكم - اذا دعت الضرورة - بده

التمرد العام بها ؟

ثانياً - افي استطاعتكم امدادنا بالاموال اوجع الا كقتابات التي يمكنكم شخصياً استعمالها عند الضرورة ؟ وكم عدد الاموال الممكن جمعها .
ثالثاً - امن المستطاع ايجاد ملجأ حصين لاعواتنا السريين الذين يناط بهم البدء في التمرد والذين سندساعدهم بكل ما لدينا من الوسائل .
رابعاً - امن الممكن ارسال رجل ثقة الينا يمثل حزبكم للذهاب الى جهة معينة لا تتظار تعلياتنا ؟

خامساً - واذا لم تجدوا ذلك الثقة لارساله الينا افلا ترون من اللازم ان نبعث اليكم بمن ييلفكم تعلياتنا .
فلرجو الاجابة على هذه الاسئلة بتفصيل . ان كل دقيقة تضيع سدى معناها فقد روح عربية فالبدار البدار فلقد حان وقت التضحية الشخصية من اجل الواجب والوطن .

الامضاء

والسلام

ملحوظة : سيكون التوقيع الذي بماليه هو توقيعنا في كل الرسائل المقبلة ولكن ارجو وقت الاجابة ان تلاحظوا كتابة اسمي مع العنوان . ويجب وضع الظرف داخل ظرف آخر بهذا العنوان :

القاهرة - شارع الدواوين

الشيخ حتى هاتف

ناظر جامع الست الشامية هاتم

(امام سراي المرحوم شريف باشا) .

ويجب تسليم الخطاب لرجل ثقة وهذا يسلمه بيده الى اي مكتب يريد اجني على الساحل فان استحال ذلك فليس ثمة ضرر اذا ارسلتم الخطاب بواسطة البريد المحلي

وما كدت آتي على آخر ذلك الخطاب حتى وضحت لي حقيقة الموقف
فقد قام الدليل على ان الثوار العرب لم يمدلوا بحال ما عن فكرة العصيان في
سورية وفلسطين . بيد ان الشيء الوحيد الذي اعياني فهمه هو ما حدا به عبد الكريم
الحلبي وآخرين الى اظهار ذلك الولاء كله للحكومة منذ نشوب الحرب وخصوصاً
ان اللجنة اللاسلكية في مصر التي كانوا هم يمثلها جعلت لنفسها زعامة الثورة
والحق اني لم اوفق الى حل كل ذلك اللغز في ذلك الوقت ولا بعد ثمرد الشريف
حسين بل ولا بعد ضباع سورية وفلسطين ولا بعد هزيمة جيشنا المجيد .
وبعد ان شرعت في كتابة هذه المذكرات بأشهر قليلة فتحت بمض
مقالات سياسية ظهرت في « الطان » عني على حقيقة نياتهم الخفية واغراضهم
التي كانت مستترة .

ففي حزيران سنة ١٩١٥ بدأ عبد الكريم اعماله في التمهيد للثورة . وفي
هذا الوقت أيضاً تبودلت الرسائل بين الانجليز وبين الشريف حسين . واني
اثبت مقالة « الطان » التي نشرتها بتاريخ ٨ ايلول ١٩١٥ لعظم اهميتها :

العرب والحلفاء

نرى انفسنا اليوم في مركز يسمح لنا بذكر معلومات عن المفاوضات
التي دارت خلال الحرب بين السلطات البريطانية وملك الحجاز حسين الذي
يستخدم نفوذه الآن في سورية . ما تبادل الآراء بين الحكومة البريطانية
وحسين شريف مكة ملك الحجاز الآن في صدد الشروط الأرضية للصالح في
شرق البحر المتوسط فتضمنها ثمانى خطابات تبودلت فيما بين تموز ١٩١٥
وكانون الثاني ١٩١٦ .

فالاول في تموز سنة ١٩١٥ وفيه وعد الشريف بتقديم المساعدة الحربية للحكومة الانجليزية في مقابل وعد باستقلال بلاد العرب بحيث تضم منطقتي مرسين واطنه شمالاً وتمتد من خط العرض رقم ٣٧ الى الحدود الايرانية اما الحد الشرقي فيبدأ بالحدود الايرانية وينتهي في خليج البصرة ويكون المحيط الهندي مع استثناء عدن حدها الجنوبي . ويكون البحر الأحمر والبحر المتوسط لغاية مرسين الحد الغربي للمملكة .

والتاني بتاريخ ٣٠ آب سنة ١٩١٥ وفيه اجاب السير هنري مكماهون المندوب السامي البريطاني في مصر جواباً غير شاف قائلاً ان وقت تقرير الحدود لم يحن بعد .

والتالت بتاريخ ٩ ايلول مرسل من السير هنري مكماهون في ١٨ تشرين الاول الى وزارة الخارجية وفيه يقول ان الشريف يصر على مناقشة مسألة الحدود في الحال . وفي نفس الوقت بعث السير هنري مكماهون الى وزارة الخارجية بالتصريح الذي سلمه اليه مندوب الشريف في مصر وهو كما يأتي : « ان احتلال الفرنسيين للمناطق العربية المحصنة في حلب وماجاورها ودمشق سبقي مقاومة مسلحة من العرب اما اذا استتبثت تلك المناطق وادخلت بضع تعديلات في الشمال الغربي فان العرب على استعداد لقبول الحدود التي اقترحها الشريف مكة » .

والرابع وفيه ارسل السير هنري مكماهون بناء على تعليمات حكومته الى الشريف الخطاب التالي بتاريخ ٢٤ تشرين الاول سنة ١٩١٥
ان منطقتي مرسين واسكندرونه والاراضي السورية الواقعة في غربي دمشق وحرانا وهورانس وحلب لا يمكن بحال ما اعتبارها عربية محض ولذا

يجب اخراجها من تسوية الحدود التي يدور البحث حولها الآن . فمع هذا الاستثناء وبدون التثبيت بالاتفاقات التي عقدناها مع زعماء العرب نقبل الحدود المقترحة . اما من حيث المناطق التي احتفظت انجلترا لنفسها بحرية العمل فيها بدون الاعتداء على المصالح الفرنسية فقد كانتى الحكومة البريطانية باعطائكم التأكيد الآتي .

« ان انجلترا مع المستعمرات الآفة الذكر على استعداد للاعتراف وتأييد مطلب العرب الخاصة باستقلال الأراضي الواقعة داخل الحدود التي اقترحها شريف مكة . »

والخامس وفيه اجاب الشريف بتاريخ ٥ تشرين الثاني قائلا انه يقبل استثناء مرسين واطنه ولكنه يصر على ادخال المناطق الأخرى وخصوصاً بيروت والسادس بتاريخ ١٣ كانون الاول وفيه اخذ السير هنري مكماهون علماً بعدول الشريف عن المطالبة بمرسين واطنه .

والسابع بتاريخ اول كانون الثاني سنة ١٩١٦ وفيه يقول الشريف بأنه نظراً لرغبته في اجتناب مايكدرصفو التحالف الفرنسي الانجليزي لا يصر في خلال مدة الحرب على مطالبه فيما يخص بحيل لبنان ولكنه سيطالب بها من جديد بعد أن تضع الحرب اوزارها .

والثامن بتاريخ ٣٠ كانون الثاني وفيه اخذ السير هنري مكماهون علماً برغبة الشريف في اجتناب مايكدر صفو العلاقات الفرنسية الانجليزية واخبر الشريف بان الصداقة بين انجلترا وفرنسا ستستمر الى ما بعد الحرب . وعلى ذلك انتهت المراسلات والمناقشات والمفاوضات بين الشريف حسين وبريطانيا العظمى بخصوص مواد الصلح الارضية .

وقد دلت هذه الوثائق :

اولاً على ان الحكومة البريطانية في خطابها المؤرخ في ١٦ تشرين الاول سنة ١٩١٥ وهو الخطاب الوحيد الذي يمكن اعتباره اتفاقاً راسماً بينها وبين الشريف لم تعهد بشيء اما يتعارض ما الاتفاقية الفرنسية الانجليزية المؤرخ في مايس سنة ١٩١٦ .

ثانياً على ان بريطانيا العظمى بعد افتتاح المفاوضات التي نيط بالمسيو جورج بيكو اجريها في لندن تمهيداً لاتفاقية مايس سنة ١٩١٦ لم تعهد بشيء جديد للشريف اذ ان المتفاوضين اجتمعوا اول مرة في يوم ٢٣ تشرين الثاني سنة ١٩١٥ ولم يشتمل الخطابان الاخيران المرسلان في كانون الثاني ١٩١٦ على تعهدات جديدة للملك حسين سوى التعهدات التي قطعت في ٢٤ تشرين الاول سنة ١٩١٥ وتدل هذه المقالة باجلي بيان على ان الشريف حسين وطد العزم على القيام بالثورة من اوائل سنة ١٩١٥ وانه عرض على الحكومة البريطانية اقتراحاً لانشاء دولة عربية مستقلة يحدها من الشمال خط ممتد من مرسين الى اطنه الى الموصل فاذا قبلت انجلترا ذلك الاقتراح تعهد الشريف بالخروج على سلطانه المعظم خليفة المسلمين .

فاذا نظرنا الى تلك الحقائق (التي ثبتت من صحتها فيما بعد) واضفنا اليها محاولات المشروع في الثورة التي اكتشفتها في اواخر حزيران سنة ١٩١٦ تبين بوضوح تام ان عبدالكريم الخليل وعصا به تلقوا وقتئذ التعليمات اللازمة من شريف مكة وانهم فملاخطوا الخطوات الاولى في طريق تنظيم الثورة ومع انني لم اثق يوماً بامانة شريف مكة ما كنت اتصور انه في حرب كهذه يترتب عليها مستقبل الخلافة . يجرؤ على مخالفة الدول التي كانت تطمع

الى وضع نيرها على العالم الاسلامي باسمه . او يذهب الى حد بذر بذور الشقاق في طول البلاد وعرضها لتحقيق مطامعه الشخصية .

هذا وقد استمرت المراسلات التي بدأت بيننا في كانون الاول سنة ١٩١٤ وكانت مفرغة في قالب الاحترام وتمهد الشريف بان يشد ازر حملة القنـاة الثانية التي تحدد لها شتاء سنة ١٩١٥ بفيلق من الحجاز ومع اني كنت موقناً بأن امثال رفيق العظم والشيخ رشيد رضا وعبدالكريم الخليل لا يترفعون عن ان يبيعوا انفسهم للانجليز والفرنسيين . لقد استبعدت كل الاستبعاد ان رجلاً محجراً كالشريف حسين شابت لحيته واصبحت قدمه على حافة القبر تصل به الاثره وتدفعه الانانية والمطامع الشخصية الى المغامرة بمشروع من المحتم ان يؤدي تطوره الى اذلال العرب بل العالم الاسلامي باسمه .

وفي ذلك الوقت هاجم البدو بحارة الطراة الالمانية « امدن » بالقرب من جدة على اثر زولهم بشاطيء الحجاز قريباً من العشير . فوقع في قلبي وقتئذ ان هؤلاء البدو ما هجموا هذا الهجوم الا بايعاز من الشريف حسين وانه اراد بذلك العمل التقرب من الانجليز والتظاهر للعرب برغبته في منع الكفار من دخول الاماكن المقدسة .

وكان الانجليز وقتئذ محاصرين سواحل الامبراطورية جماعاً ما خلا شاطيء الحجاز فقد سمحوا بواسطته لتجار العرب ان يستوردوا من المواني المصرية كل ما ارادوه من الاطعمة والحنطة فلم ارغضاضة في ذلك نظراً للمجاعة التي اوشك ان يقع فيها بدو الحجاز واهلوه وسكان الاماكن المقدسة . زال بهذه الطريقة قلقه عن طاق سورية التي لا تنكاد تنكفي لسد حاجة سكانها عبء ارسال المؤن الى بلاد الحجاز .

وقد كنت أحسب أن الانجليز لم يعاملوا أهل الحجاز تلك المعاملة الاستثنائية الا حرصاً على اكتساب صداقة مسلمي الهند وافريقيا وان الشريف حسين انما أراد اجتناب تفجير الانجليز منه . بل لقد اعتبرت الدافع الاول على مهاجمة بحارة (امدن) محض الرغبة في عدم اغضاب الانجليز .

ولكني أرى الآن ان هذه كلها كانت اوهاماً وان الشريف حسين قد غدر بي وخان حكومته بل غدر بخليفة الاسلام المعظم بطريقة لا يأتيها إلا أخبث المنافقين . فهو لم يحجم عن أن يتحالف مع أعداء الامبراطورية العثمانية ولا عن بذور الشقاق ودس الدسائس بين المسلمين بلا حياء ولا خجل ولا خشية ولا رهبة .

أما محاكمة عبد الكريم الخليل وعصابتة فقد استمرت طول شهري حزيران وتموز . ولما اوغلت في المحاكمة تبينت تدريجياً اغراض الثوار الجنائية وتكشفت للبلاد سوءاتها .

ولقد دهشت كل الدهش لعظمة شبكة الدسائس التي نسجوها ونصبوها ولم يكن في سورية اذذاك من الجنود سوى الكتائب العربية . فلو خطرت لها فكرة التمرد لما كان لدي ثمة وسيلة لكبح جماح الثورة . وكانت معركة الدردنيل دائرة اذذاك بمنتهى الشدة والعنف فكان سحب كتيبة فضلاء عن فرقة من تلك الجبهة غير مستطاع .

ولما كانت الحال تقضى علي بتحذير كل العاملين لخلق القلاقل والساعين فيها رأيت من الضروري نظراً للحالة العامة وبالنسبة للسلطة المخولة لقائد الجيش في الظروف الاستثنائية أن أويد الحكم الذي اصدرته المحكمة العسكرية وأمر بتنفيذه في الحال . غير منتظر التصديق الهايوني اذ انه يمكن الحصول عليه فيما بعد وقد حصلت بالفعل على تصديق وزيرى الحربية والداخلية .

ولقد اطلعت على محاضر المحكمة العسكرية . وبعد الفراغ منها واستشارة

قاضى القضاة أيدت حكم الاعدام الذي نفذ في بيروت في اليوم التالي . وكان هذا في نهاية شهر آب سنة ١٩١٥ . وقد احدثت هذه الاحكام ذعراً كبيراً في نفوس العصابة وادخلت الفرع في قلوبهم .

ولم يكتب الشريف بفتح المفاوضات بينه وبين الانجليز بل لقد بلغت به الوقاحة أن يبعث إلي بابنه الشريف فيصل ليخبره بما جريات الاحوال في سورية وفي ايلول سنة ١٩١٥ حضر الشريف فيصل الى سورية ومن ثم واصل سيره الى الاستانة فلما ان حظي بمقابلة جلالة السلطان طفق يدل بولائه وولاء أبيه وأهله بعبارات تشف عن الخضوع التام حتى أن جلالتة لم يداخله الشك في اخلاصه . ثم عاد فيصل الى سورية بعد أن اكده لسائر الوزراء تلك التأكيدات وقد قابلته عند عودته بالتجلة والاحترام . وفي خلال اقامته القصيرة قرأنا على أن يرسل ابوه الى فلسطين فيلقاً من متطوعي الجماله عدد ١٥٠٠ بقيادة فيصل للاشتراك في القتال . وقبل أن يغادر فيصل القدس التي خطبة مسهبة على موظفي مركز القيادة واقسم فيها بمحرجات الايمان وبروح المصطفى عليه الصلاة والسلام أن يعود في امد قريب على رأس محاربيه للمساعدة على قتال أعداء الدين الى أن يموتوا شهداء . وبما يستحق الذكر ان الشريف حسين في هذه اللحظة نفسها التي كان ابنه فيصل يحلف فيها هذه الايمان الفاجرة قد كتب بالفعل خطابي ٩ ايلول و ٥ تشرين ثاني الى الانجليز واخذ بعد العدة لضرب الخلافة ضربة الغدر والحياة . ولكني ما كنت اعرف وقتئذ شيئاً عن اعماله القبيحة .

وكذلك كشفت محاكمة عبدالغني العريسي الستار عن عدة حقائق خطيرة الشأن . فلاح لي أن الوقت قد حان لاستخدام الوثائق المهمة التي ضبطت في القنصلية الفرنسية في دمشق واورائل الحرب . وطلبت فعلاً الى وزيريه الحربية والداخلية تخويلي السلطة اللازمة لخولانيتها بعد تبادل الرسائل المطولة . ولقد

عزوت ترددهما ذلك الى كون الاشخاص الذين تدينهم الوثائق المضبوطة من ذوي المناصب العالية . أما انا فكنت أرى عقاب الخائن لدينه ووطنه ينبغي أن يكون مناسباً للبركر الاجتماعي الذي يشغله لانه لا يتأتى في هذه الحال ان تعزى اعمال مثل ذلك الرجل الجنائية الى جهله أو حمقه وكذلك النتائج التي تترتب عليها فانها تكون بطبيعتها أشد خطراً واعظم ضرراً . نخيانة ذي المقام الرفيع اذن هي من قبيل تعمد الاذى المحض . لذلك بعد أن ابدى وزيران مسؤولان موافقتهما على اجراء اتى في تلك المسألة رفعت الى المحكمة العسكرية بادلة الاتهام التي يمكنها بواسطتها الحكم على اناس ظلوا خلال سنوات عديدة يصفون المشروعات المختلفة بدعوى المطالبة بالاصلاح وتقرير المصير والاستقلال للعرب . .

وبينا كانت محاكمة تلك العصابة العربية الثانية المتهمه بتهمة الخيانة العظمي جارية واصلت سلسلة الرسائل الودية بيني وبين الشريف حسين . وفي كانون الثاني وصل الشريف فيصل الى دمشق يقدم خمسين فارساً من مكة وقد اتخذ داري مقاماً له لمساعدتي في تجهيز الـ ١٥٠٠ متطوع الموعود بهم وفي ارسال المهيات اللازمة الى مكة .

وخصت المحكمة العسكرية القضية بكل عناية ودقة . وفي شباط حضر انور باشا الى سورية لزيارة الجيش الرابع ومعاينة نظام خط مواصلات سيناء . فاقترح ان يذهب أيضاً الى المدينة . فتوجهنا اليها ومعنا الشريف فيصل . وفي خلال تلك الزيارة وصلت اليها جملة من الهدايا المختلفة من الشريف حسين ومن بينها سيف الشرف وهو عند العرب اكبر دليل على الصداقة . ولكنه في الوقت الذي كان يظهر فيه ولاه بهذه الاساليب كان منهمكاً في تقديم اقتراحات معينة للقيام بثورة ضد الخلافة في الخطاب المرسل في أول كانون ثاني سنة ١٩١٦ الذي سبقت الاشارة اليه .

وما كنت بحاجة لذكر كل هذه التفصيلات لولا اني اريد أن اظهر للبلا
سفالة الشريف حسين وخبث طويته وليكون في ذكرها الرد الكافي على قصار
النظر الذين يعزون عصيان الشريف الى سوء ادارتي .

ولقد استمرت المحاكمة حتى بعد عودة انور باشا الى الاستانة . وعندئذ
ظهر الشريف بمظهره الحقيقي . فان انور باشا عقب عودته ارسل إلي برقية
بالجفر وصلت اليه من الشريف ويمكن تلخيصها فيما يأتي بعد اغفال المغالطات
المنطقية التي وردت في صدرها :

« اذا كنت حقاً ترغب في التزاي لجانب الهدوء والسكينة فينبغي الاعتراف
باستقلالي في سائر الحجاز - من تبوك الى مكة - وجعلي أميراً وراثياً فيه كما
ينبغي أيضاً العدول عن محاكمة العرب المتهمين وعلان العفو في سورية والعراق ،
وقد كان معنى البرقية غامضاً الى حد ان انور باشا اخبرني انه عجز عن
فك طلاسمها . وفي الوقت نفسه رجاني فيصّل - وربما كان ذلك بناء على تعليقات
من ابيه - أن اظهر للسجونين شيئاً من السخاء والتسامح .

فارسلت في طلب فيصّل على اثر وصول برقية انور باشا وطلبت الى
علي فؤاد بك رئيس اركان حربي أن يكون شاهداً المحادثة بيني وبينه . وبعد
بضع كلمات تمهيدية قلت للشريف ما نصه :

« لما سمعت عند عودتي من المدينة بأن اخاك علي بك اخذ يتدخل في
سلطة حاكم المدينة ويدعي لنفسه حقوقاً قال انها جزء من سلطته بصفته اماماً
عزوت اعماله هذه الى حدائث سنه وعدم تجاربه . وقد كلفت الحاكم بأن يطلب
اليه الكف عن هذه الاعمال في المستقبل . وسألت اباك أيضاً أن يطلب
اليه الطلب نفسه .

وفي محادثاتنا العديدة السالفة اعلبتك بانني شخصياً لن ادخر الوسع في
سبيل المحافظة على حقوق الامام وانه اذا اعتدى احد بصفة غير قانونية على

حق من حقوقك مددت اليك ما استطعت من المساعدة حتى ولو أدى ذلك الى الاصطدام باشخاص آخرين ولو كانت مراكزهم من اسمى المراكز وقد اخبرت أباك بذلك كتابة في ظروف عديدة ووردتني منه بالتالي خطابات اعرب فيها عن عظيم شكره وامتنانه .

و أحسبك في الوقت نفسه تعترف بأن لايبك اعداء غير قليلين من بين أسرته وبعض هؤلاء الاعداء موجودون في الاستانة وهم يعملون صباح مساء لاثارة الشكوك في الحكومة ضده . فاذا كان ذلك كذلك فغير طريقة لكم هي اجتناب القيام أو التفوه بكل ما من شأنه أن يعطي اعداءكم حجة للوشاية بكم فاذا قرأت هذه البرقية علمت بأن أباك انما يسير في الطريق العوجاء وانه بعمله هذا يسلم اعداءه سلاحاً بحار بونه به .

فقرأ فيصلى البرقية بلهفة شديدة ثم امتقع لونه وأخيراً قال :

« أفندم ! لا يمكنك أن تتصور مقدار الغم الذي اثارته في هذه البرقية ولا شك عندي في انها نتيجة سوء تفاهم كبير . واني أوكد لك بصراحة ان أبى لا يقصد شيئاً ضاراً بها . انك تعرف انه لا يحسن فهم اللغة التركية . فن المحقق ان هذه البرقية انما كتبت بيد كاتب عجز عن فهم النص العربي فترجمها هذه الترجمة المحرفة . ومعاذ الله أن يخطر لأبى مثل هذا الخاطر ! » .

وظهرت على وجه فيصل علامات الاضطراب . فرأى أن يكتب في الحال الى أبيه يسأله العنود عن نياته وأخذ يلتمس ما شاء من المحاذير . وبناء على هذه المحادثة ارسلت الى الشريف حسين البرقية التالية :

(لقد نمي إلي خبر برقيتك الى انور باشا . فانت تطلب أن تكون الامارة وراثية في اسرتك وأن يمنح اشخاص عديدون العفو الشاهاني بعد أن قامت الراهين على خيانتهم للوطن والملة . وليس من المستطاع اجابة هذا الطلب الثاني وإلا أدى ذلك الى ضرر شديد في مسألة لها تعلق وارتباط

بالمصلحة العامة فان الحكومة التي تصفح عن الخونة خليقة بأن يتهمها الجمهور بالضعف بل قد يغري ذلك الصفح كثيراً من الناس بالحيانة وطعن الدولة والملة طعنة بجلاء . فلو عرفت محتويات الوثائق التي ظهرت في المحكمة لرأيت الى أي حد من الحيانة قد تسفل فيه اوائك المتهمون . أما فيما يختص بمسألة جعل الامارة وراثية في اسرتك فاني يخيل الي - واضنك تسامحي في ذلك الرأي - ان الفرصة ليست مناسبة للطلب بذلك .

فان في وقت الحرب الذي تتعرض فيه كل قوى الانسان العقلية والجسمية لاشد العناء والتعب أراك تعترف معي بأن الاعراب عن مثل تلك الرغبات من شخص يشغل مركز امام وفي اهم بقعة من بقاع الدولة العثمانية - بقعة هي اكثر تعرضاً للاخطار عماعداها - لا بد أن يكون له اسوأ وقع في نفوس الجمهور والذي اعتقده أنه ما كان ينبغي لك أن تطلب مثل ذلك الطلب حتى لو كان لك الحق في طلبه . فان موارد الامة بأسرها ينبغي أن تحشد اليوم لغرض واحد لا ثاني له ألا وهو احراز النصر النهائي .

ويجب أيضاً أن الفت نظرك الى الوجهة التالية من وجهات النظر للمسألة وهي أننا نفرض جدلاً أن الحكومة لبت طلبك لمجرد الرغبة في الابتعاد بك عن المشاغبة في هذه الاوقات العصيبة التي تقطعها وفرضنا أيضاً أن النصر كان في النهاية حليفنا فما الذي يمنع الحكومة أن تعاملك بمنتهى الشدة بعد أن تضع الحرب اوزارها ؟ ان الرجال الذين يكونون الحكومة الحاضرة والذين جرأوا على القيام في وجه عبد الحميد الذي امضك استبداده لن يصفحوا عن مجترى . على شل ايديهم في هذه الحرب التي دخلوها لمصلحة العالم الاسلامي . ومن جهة اخرى لن يقعدوا عن أن يحصلوا من جلاله الخليفة على جزيل الاحسان وعظيم المكافأة لكل من عمل ابتغاء مرضاة الله لتحقيق غايتنا المقدسة .

وفيا كسنا نتبادل تلك الرسائل كانت المحكمة العسكرية في «عالية»

اصدرت حكمها . فجاهد فيصل أشد جهاد للحصول على العفو عن المجرمين .
وصار يحضر الي كل يوم وقد حول الدقة في المناقشة الى جهة العفو . وكنت
اسمع بين آن وآخر انه عنف الاعيان الذين ذهبوا لزيارته ووبخهم على عدم
القيام بشئ . ما لاقاذ مواطنيهم واستمر على تأنيبهم اذ يقول لهم كان في
استطاعتهم ان يشفعوا لهم عندي على الاقل .

وفي يوم الجمعة سألتني أن اتعدى معه في « كابون » وهي مزرعة تبعد عن
دمشق بساعة فذهبت اليها ومعى عدة من الضباط . وبعد الفراغ من الطعام
جرت المناقشة في الموضوع نفسه . فسألته هل تعلم جريمة المتهمين ؟
فاجاب لا علم له بها . فقلت له : (لو عرفت التفاصيل لاسفت أشد الاسف
على توسطك بالصفح عنهم) .

وفي اليوم السابق لتنفيذ حكم الاعدام حضر الى دارى الشيخ بدر الدين
تلبية لرجاء فيصل . وهو رجل اجله الاجلال التام وقد جاء ليشفع فى المجرمين
وكان معه الشيخ عبد القادر الخليل خطيب جامع اورمياده . وهو رجل يتعذر
على الانسان ان يعثر على رجل مثله خيئاً وخيانة وعدم امانة لا فى دمشق فحسب
بل فى سائر انحاء المعمورة . نخيانة اهل المدينة الذين باؤا بغضت الرسول
عليه الصلاة والسلام لا تذكر بجانب خيائته وخبثه وسفاليته . وقد رأيت أن
الصواب ارجاء معاقبته الى ما بعد .

فطلبت الى الشيخ أسعد شقير أن يترجم لي ما يقول الشيخ بدر الدين
لجعل الشيخ بدر الدين يتقوى الالفاظ ويصيفها فى عبارة مؤثرة وهى مزية
اختص بها . وتكلم بصفة اجمالية عن الدسائس الجنائية التى تهدد سلامة الاسلام
دون أن يشير بكلمة ما الى المحكمة العسكرية أو الى المتهمين وبعد أن استشهد
بعادة كتب ختم كلامه بالعبارة الآتية .

(لقد جعل الله عز وجل لمن يعمل لايجاد الشقاق والفوضى فى صفوف

المؤمنين والسعي بالفساد في الارض ثلاث عقوبات : القتل والصلب وتقطيع
الايدي والارجل من خلاف . والنفي من الارض . فقال جل ثناؤه في كتابه
العزيز : (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فساداً
أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع ايديهم وارجلهم من خلاف أو ينفوا من
الارض . الآية) فالعقوبة تكون مناسبة لحال الجريمة وما يترتب عليها من
الضرر بالمسلمين ومن في حكمهم والفساد والاضطراب اللذين يلحقان بالامة
والدولة ونحن الآن نخوض مع العالم الاسلامي غمار حرب تطحن الناس طحناً
وما القوم الذين يكيدون للإسلام والمسلمين ويدسون الدسائس لتمزيق الجماعة
وتفريق الكلمة وشق عصا الاتحاد واضعاف الامة وكسر الشوكة ويعصون
الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بايجاد الفتنة بين المسلمين حتى يقتل بعضهم
بعضاً الا وراء خطر يجب درؤه . وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم
عن الشقاق في الحدود فقال لاسامة بن زيد رضى الله عنهما وقد كلبه في شأن
الخزومية (أتشفع في حد من حدود الله ؟ والله لو ان فاطمة بنت محمد سرقت
شيئاً لقطعت يدها الا وان من يشفع لحائن لدى قاض هو خائن لنفسه ولدينه
ولوطنه ولا مته لانه انما يساعد على الفتنة علم او لم يعلم) .

وما انتهى الشيخ كامل بدر الدين من كلامه حتى التفت الى الشيخ اسعد
عبد القادر وقلت مبتسماً : (لقد جئنا الي بهذا الشيخ الموقر للشفاعاة فيمن
ادانتهم المحكمة العسكرية فكان كل عمله هو ان استحسن حكم المحكمة وبين لي
اني بمقتضى احكام الدين الحنيف لا يجوز لي العفو عن هؤلاء الخونة واما لهم
اليس كذلك يا بدر الدين افندى ؟) .

فنظر الي وهز رأسه ان نعم . وصاح الشيخ اسعد شقير قائلاً : (الهي !
لقد قضيت علينا ايها الشيخ . اذ كيف يمكننا التوسل مرة اخرى بعد الذي
نطقت به . فانه عملاً بفتواك سيعاملنا معاملة الخونة فيأمر بشنقنا ايضاً

بلا تردد ، وبهذا اتمهى الحديث .

وفي اليوم الثالث نفذت احكام الاعدام في بيروت ودمشق وبقول البعض لقد كان ينبغي الا ينفذ الحكم إلا بعد تصديق السلطان .

وردأ على هؤلاء أقول أولاً لقد خولت السلطة القانونية في أن افعل ما فعلت وثانياً أن المبادرة بتنفيذ الحكم كانت في نظري الوسيلة الوحيدة للضرب على ايدي الخونة . وفي بلاد العرب يرى الانسان لارباب الخيمايات نفوذاً كبيراً حتى أن وجود احدهم في الغالب قد يكون له من التأثير ما ليس لفيلق من الفيالق . فان اراد قائد مثلي ليس له الا القليل من الموارد ان يحافظ على سلطة الحكومة وسطوتها ونفوذها في بلاد سممتها الدعوة الانجليزية والفرنسية عدة سنين كان من اهم الامور أن يكون بحيث يؤمن الاهالي المملكون بمقدرته على الاخذ بناصية أي شخص كائنا من كان ومعاقبته أشد معاقبة بدون استئذان المراجع العليا في الاستانة .

ان الفضل في عدم حدوث ثورة ما في سورية خلال العامين والنصف العام الذين اعقبا اعلان الشريف حسين لاستقلال بلاده انما يرجع الى احكام الاعدام التي وقعت في نيسان سنة ١٩١٦ وبقطع النظر عن ذلك فان انور باشا وهو وزير الحربية وحكمت باشا وهو وزير الداخلية قد وافقا على تنفيذ احكام الاعدام بدون استئذان المراجع العليا . ثم ارسلت الى الاستانة تقريراً بما اجرته هناك وراجعت محكمة الاستئناف التابعة لوزارة الحربية ثم ارسلته بناء على قرار من مجلس الوزراء الى القصر للتصديق الشاهاني . وهكذا أيد النطق الشاهاني الاحكام التي قضى بها الجيش ونفذها وبذا فقد ختمت هذه الرواية وهناك أيضاً من يقول ان الاشخاص الذين اجرموا وظهرت أداتهم وشنقوا في سورية قد شملهم العفو العام الصادر في سنة ١٩١٣ فحماكتهم فيما بعد على التهم نفسها عمل غير قانوني .

وقد بينت في الكتاب الاحمر المسمى (حقيقة المسألة السورية) ان اولئك الاشخاص الذين اتخذوا العفو العام وسيلة للقيام باعمال جنائية جديدة وان اذاتهم ترجع الى جرائمهم بعد ذلك العفو . واذ كانت الوثائق الخاصة قبل العفو تعتبر قرينة قوية جداً للحكمة أن تفحصها وتشرها لتبين للبلا مبلغ شناعة خيانتهم . فاجز الآن حتى بعد نشر الكتاب الاحمر ان هناك من لا يزال يردد تلك المزاحم فن البديهي أن غرضهم هو أن يرهنوا على أن الحكومة مخطئة في كلتا الحالتين .

ولقد اصدر الجيش يوم تنفيذ احكام الاعدم منشوراً ضمنه بعض هذه الوثائق لاطهار جريمة المدنيين .

وبعد تنفيذ الحكم بساعتين أو ثلاث جاءني فيصل فقال : (قسماً بحرمة الاجداد لو علمت ان جريمة الجناة كانت بهذه الشناعة لما احجمت فقط عن طلب الشفاعة لهم بل لطلبت ان تمزق اوصالهم ليطول عذابهم الا لعنة الله عليهم اجمعين) وفي اليوم نفسه حضر الى العظم سعيد محمد باشا مبعوث دمشق وقال : اني ليدركني العار الشديد كلما تذكرت ان امثال اولئك الاشخاص هم من اعضاء اسرتي . انك قد احققت الحق فليكلاك الله ورسوله بعين الرعاية .

ثم مر شهر على هذه الحوادث وجاءني رد الشريف حسين على البرقية التي ارسلتها اليه فاستنتجت من جوابه ان كلباتي كان لها أثر سيء في نفسه فقد اشار باصدار العفو العام لمصلحة الحكومة ثم شكاً من الشكوى من حاكم المدينة قائلاً انه يأبى أن تسلب منه بلا مسوغ حقوق منحها اياه الخليفة العثماني .

واصبح في ذلك الوقت سلوك الشريف علي بك حيال بصري باشا في المدينة بما لا يطاق . لذلك ارسلت في الحال في طلب الشريف فيصل واطلعت على رد أبيه ثم انذرتة بحدة بانه اذا لم يكف عن تدخله فلا بد من استعمال القوة الحربية ضده ثم قلت :

(وارى أن اخبرك يا فيصل بك باننى لم استطع ادراك الغرض من تلك المهجة التى استعملها ابوك فى الايام الاخيرة ولا المسلك الذى سلكه اخوك فى المدينة . لقد كانت علاقتنا معك ودية هنا . فبماذا يمكننا أن نفسر مسلك اخيك علي بك فى المدينة ؟ انهم من جهة منشغلون بتجهيز قوة من المتطوعين تبلغ ١٥٠٠ حملة القناة والحكومة باذلة جهدها فى امدادهم بالمال والرجال ولكن من جهة أخرى قد بدأت نزعات الانفصال من ناحية ابيك كل هذا فى حين أن اخاك علي بك ينهج منهجاً يتفق ودعاوى ابيك وانى اريد أن تدرك انكم ان اردتم ان تظلوا اصدقاء فعليكم بمراعاة قوانين الصداقة .

أما اذا كنتم ذوي غايات اخرى فالاولى أن تلجأوا الى السلاح وتجنحوا الى ثورتكم فى الحال وبذلك تنتهي تلك المهزلة ويصبح كل منا عدواً للآخر ظاهر العداوة . وحينئذ يصبح الامر بيد الله ! واما اذا كنتم لا تريدون الثورة ولا تضمرن الشر فاكذب الى اخيك علي بك ليحضر إلي فى الحال وليكف فى المستقبل عن الاعتداء على سلطة الحاكم .

ولقد كاد خطاب الشريف حسين الاخير لى ينطق بأنه اذا كان يتلمس ذريعة ما للقيام بالثورة وهذا هو الذى حدا بى أن استعمل فى خطابى للشريف فيصل تلك المهجة الصريحة الحاسمة

وقد امتنع لون فيصل من كلماتى هذه وعلا وجهه الاصفرار . فقام من مقعده والتفت لى ويده على قلبه وقال :

(عفواً يا صاحب السعادة ! كيف يخطر لك أن تعزو الينا أمثال هذه التهم ؟ وكيف يليق بنا أن نكون خونة ونحن تلك الاسرة التى هى من سلالة الرسول والتي ترى من اكبر الشرف لها أن تكون من الرعايا المخلصين المواليين للخليفة ! فابى واخي وانا لسنا خائنين للشعب أو الحكومة . بل نحن الختم الاوفياء الامناء لسلطاننا الامجد الذى طالما عمرنا بانعاماته . فلتكن موقناً

بأنى سأسوى الخلاف القائم بين اخي والحاكم بصري باشا وسأكلفه بالحضور
لتقريب يديك ! .

وكان علي فؤاد بك رئيس اركان الحرب حاضراً ذلك الحديث . وقد
اخبرني الشيخ اسعد شقير فيما بعد أن الشريف فيصل ذهب الى دار رئيس
اركان الحرب في حالة تهيج شديد وبكى بكاء مرأ واخبره بأنه يخشى نظراً
للغضب الذي كان مستولياً علي ان آمر بالقبض على اخيه واعدامه في دمشق
كل ذلك حدث في اوائل نيسان سنة ١٩١٦ وقد كان جليلاً من المقالة التي نشرتها
الطائفة في ما سبقت الاشارة اليها ان الشريف حسين كان منذ اول كانون ثاني
سنة ١٩١٦ على اتم اتحاق مع الانجليز وظل يرقب الفرصة الملائمة لرفع علم الثورة
واني وايم الله لو علمت ذلك وقتئذ لكنت امرت غير متراح بالقبض
على فيصل في دمشق وعلى اخيه في المدينة ولارسلت فرقة تركية على جناح
السرعة الى مكة للقبض على الشريف حسين واولاده والقضاء على تلك الثورة
المشؤومة في مهدها . ولكن ماذا عساي كنت افعل في تلك الظروف ولم تكن
لدي بعد البراهين الكتابية على التدبير الجنائية التي كان يقوم بها اولئك الاشخاص
وكان تحت تصرف الحسين وقتئذ ما ينيف على خمسين أو ستين الف جنيه
ذهباً لتجهيز فرقة المتطوعين البالغة ١٥٠٠ شخص لحملة القنائة . وكذلك كنت
ارسلت البنادق اللازمة الى المدينة في اواخر نيسان وكان مقرراً ان ترسل منها
الى مكة بيد أن نغير الشريف حسين جعلت الحذر لازماً . فاعتذرت بصعوبة
النقل وكتبت اليه اخبره انني ارى من الصواب أن يرسل المتطوعين لديه الى
المدينة سيراً على الاقدام وبدون سلاح وهناك تصرف اليهم البنادق .

وفي ذات يوم حوالي نصف مايس جاءني الشريف فيصل واخبرني أن
أخاه قد تلقى الاوامر من ابيه بالانضمام الى جيش سيناء وانه هو (فيصل)
نفسه يرغب - بعد استئذاني - في الذهاب الى المدينة ليتحجى بأخيه الى القدس .

واكد لي ان ذهابه سيؤثر في نفوس المجاهدين تأثيراً حسناً ولما كنت قد
تعودت الخديعة من الشريف حسين واولاده آثرت أن اكون أنا الغالب
ففكرت قليلاً ثم قلت :

(حسن جداً لقد صرحت لك . فاغد الى المتطوعين في المدينة واستقبلهم
باسمي ثم اتنى بهم هنا . وسأمر مصلحة السكة الحديد بنقل الجنود وارسل
معك ببعض العلماء في دمشق ليكونوا في ركابك وبذلك تستطيع ان تؤلف وفداً
خاصاً لاستقبال المجاهدين .

وما كنت افرغ من هذه الكلمات حتى ابرقت اسارير وجهه وكاد فؤاده
يطير فرحاً . فتجلت لي الحقيقة وتكشفت . حتى لقد التفت الى علي فؤاد بك
رئيس اركان حربي قائلاً : « انني موقن بأن الثورة سيشب ضرامها في الحجاز
في القريب العاجل . فاني قد رأيت الشريف فيصل قد فرح أشد الفرح لخديعتي
حتى انه لم يستطع اخفاء شعوره .

وكان علي فؤاد بك يرى رأيي ، وقد وافق على الخطة التي سلكتها نظراً
لتقرر اتخاذ خطوة اخرى . ووصلت من الاستانة الى المدينة حوالي ذلك
الوقت قوة مؤلفة من الفين أو ثلاثة آلاف رجل كانت قد ارسلت تكلمة
« الكادر » في فيلق اليمن . وقد بذل الحاكم قصارى جهده في خلال الاسبوعين
السالفين للحصول على الجمال اللازمة لنقلها . فاخبرني بصري باشا بأن هناك
اشاعة بأن تلك القوة التي كانت ناقصة التميرين والتي لا يكاد عدد المقاومة في كل
فصيلة من فصائلها يزيد على ٥٠ رجلاً وضابطاً من ضباط الاحتياط سيسوقها
اليبدو الى شرك أعد لها فيما بين مكة والمدينة على اثر الخطب المهيجه التي القاها
الشريف حسين .

فارسلت رداً الى الحاكم وفيه تعليماً دقيقة بأن يبقى تلك السكتية في المدينة
الى أن تصدر اليه اوامر اخرى وان يقوم الضباط الموجودون بتمرير الجنود

وأسليجهم بالبنادق التي كان في النية ارسالها الى متطوعي مكة . وقلت له فيه نظراً للسلوك الباعث الى الريبة الذي سلكه الشريف علي كن على حذر واستعداد تام للدفاع عن المدينة في حالة مهاجمتها . واخبرته بأن الشريف فيصل قد اتخذ طريقه الى المدينة .

وبعد أن غادرنا الشريف فيصل بصحبة رجال معيته رأيت من باب الاحتياط ان ارسل نخري باشا الى المدينة وكان دون سائر قواد الفرق القائد الوحيد الذي تحت قيادتي . وكان مشهوراً بوطنيته وثباته . فشرحت له الحالة ورأى منها واخبرته بأنني متوقع أن يثور الشريف حسين قريباً ، ثم طلبت اليه أن يذهب الى المدينة بحجة زيارة الروضة الشريفة وان يرتب مع بصري باشا وسائل الدفاع اللازمة اذا احتاج الى ذلك . وكان بصري باشا حاكم المدينة بلا ريب مقداماً اميناً شديد الغيرة الوطنية ذا دراية تامة بعقلية العرب . بيد انه لم يكن ذا تجارب حربية مما جعلني اخشى الا يعمل بالشجاعة والحزم اللذين يستلزمهما الموقف العصيب .

واعطيت كلا من بصري باشا ونخري باشا التعليمات السرية نفسها وهي تقتضى بأن يستلم نخري باشا عند اول انذار بقيام الثورة قيادة اولاد الشريف وان يقوم بصري باشا باعباء الادارة الملكية . وكنت على يقين تام بأن لن يحدث اي خلاف مثل ذلك الوقت بين هذين التركيين الباسلين اللذين غلب حب الوطن فيهما على كل عاطفة اخرى .

واحتياطاً للطوارئ امرت ان تبقى كستيتان أو ثلاث وبطاريتان جبليتان في دمشق على استعداد تام للزحف في الحال على المدينة . ولم تعلم تلك الجنود شيئاً عن الجهة التي ترسل اليها . ولكنها كانت دائمة متأهبة بحيث يمكن ارسالها بعد نصف ساعة من وصول اول اشارة .

ولما وصل الشريف فيصل الى المدينة كتب الي من توه يخبرني بمقدار

سروره لأن أخاه علياً سيقابلني قريباً وبما أن الشريف حسين قد سألني ان ارسل اليه قدرأ من المال لتغطية نفقات المجاهدين لديه الذين كانوا على استعداد للزحف طلبت الى حاكم المدينة أن يسلم الشريف حسين المبلغ المطلوب . فانظر كيف أن الشريف حسين الذي تم التعاقد بينه وبين الانجليز منذ اول كانون ثاني سنة ١٩١٦ لم يخجل أن يطلب زوراً وبهتاناً اموالا من الحكومة قبل خروجه عليها بيوم أو اثنين من اواخر مايس سنة ١٩١٦ .

وبينا أنا ببيروت في اليوم الثاني من حزيران اذا بفخرى باشا يدعوني من المدينة لمحادثة تلفونيا . فوقع في نفسي ان سيفضي إلي باخبار سيئة فقلت له هات ما عندك فقال :

من يوم وصولي الى هنا ما زالت علاقاتي حسنة مع كل من الشريف علي ويفصل بك وقد دعواني منذ يومين لزيارة مقام سيدي حمزة حيث هناك معسكر المجاهدين . فتغدينا معاً وجعل المتطوعون يلعبون العاب سكان البوادي واخذوا يترنمون بالاغاني الحماسية والضربات القاصمة التي سيمزولونها بالانجليز وفي مساء الامس دعيت الى منزل علي بك ويفصل بك . وكان قد تقرر أن نذهب الى درعا لمشاهدة اول كتيبة من المجاهدين .

ولكنني صباح اليوم رأيت الحالة قد تغيرت تغيراً غريباً . فقد جاء إلي احد رجال الشريف علي ودفع إلي ثلاثة خطابات الاول لي والثاني من الشريف حسين لك والثالث منه ايضاً للصدر الاعظم . وان كان الاخير ان مكتوبين بالجفرة فقد عجلت بارسالها اليك .

اما الكتاب المرسل الي فقد كتب علي بك فيه ما نصه : بناء على الاوامر الصادرة من ابي سيفق نقل المتطوعين الى فلسطين . ولهذا عقدت النية على العودة بالمجاهدين الى مكة بدلا من ضياع الوقت هنا . واني آسف لاضطراري الى الرحيل بدون ان اودعك فارجو قبول عذري ! .

واما الخطابان اللذان ارسلهما الشريف حسين مكتوبين بالجفرة فلم استطع
قراءتهما . وقد ارسلت في الحال كتيبة الى المكان الذي اقام فيه المخمدون
بالامس فوجدته خاو على عروشه . وقد اخبرني علي بك بأنه ذاع الى مكة
ولكن المعلومات التي استقيمتها من شيوخ العرب المواليين تدل على انه قسم
قوته الى ثلاث كتائب وانه ارسلها الى جهات مختلفة . واني لاظن انهم ستهاجم
السكة الحديدية هذه الليلة أو في صباح الغد على اكثر تقدير واني ارسلت علي بك
سيعطل مواصلاتنا بين المدينة وسورية وسيقوم ومعه قوته كلها بهجمة فجائية
على المدينة . ولذلك وبناء على تعليماتك تسلمت قيادة الجنود المرابطة في المدينة
واعددت جمع معدات الدفاع استعداداً للطوارئ . فالامل ألا تتركنا بلا امدادات
فاجبت فخري باشا بأني سأمر بلا توان بأن تذهب فوراً الى المدينة
الجنود التي كانت مخصصة لها وسألته هل يريد امدادات أخرى .

ثم امرت بفك رموز الخطابين المرسلين من الشريف حسين إلي والى
الصدر الاعظم فاذا هو يعتذر في اولها عن عدم استطاعته الاشتراك في الحملة
على القناة الى أن تجاب الطلبات التي طلبها في برقيته المرسلة الى الصدر الاعظم
والى أن تكف عن اتباع خطة الابهام والغموض حياله .

اما خطابه الى الصدر الاعظم فقد قال فيه انه لا يعرف أي الرجلين
يصدق اهذا السياسي الذي يتعامل معه مباشرة ولطالما اظهر له المجاملة والود
ام ذلك الذي استعمل معه الفاظاً جارحة مهيبة . فهو يرى نفسه مضطراً الى
قطع العلاقات مع الحكومة حتى تجاب المطالب التي طلبها من انور باشا مندشهرين
وكنت أنا المقصود بالسياسي الذي عامله بالمجاملة واما الآخر الذي
يقول انه عامله بغلظة فيريد به انور باشا لأنه كان ارسل قبل ذلك بثلاثة
اسابيع برقية الى الشريف حسين لفت نظره فيها الى وجوب تغيير ابنه علي
سلوكه حيال حاكم المدينة .

وينبغي أن تقرر هنا أن الشريف حسين لما لم يجد ذريعة أخرى للثورة اعترم أن يستغل مسألة لهجة الخطابات إلى أقصى حد . فإن الخطابات التي أرسلتها إليه كانت قد كتبت بلهجة لا تدع مجالاً للخلاف . ومن جهة أخرى لم تك ثمة كلمة جارحة في خطاب أنور باشا ولو أنني اسلم بأنه لم يكن مكتوباً كلمة بعبارات المجاملة ومن هذا نرى أن لهجة خطاب أنور باشا كانت السبب في أن الشريف رفع علم الثورة !! .

وكنتم قد سلمت للشريف فيصل قبل ذهابه إلى المدينة مفتاحاً للشفرة لاستعماله إذا جد أمر غير عادي يريد اخباري به فوردت إلي منه الرسالة الآتية بالجفرة : « لقد اصدر ابني الأمر بوقف نقل المتطوعين إلى سورية لأسباب أو مل أن اشرحها لك شخصياً متى تشرفت بمقابلتك قريباً . ان الحالة التي نشأت الآن اسماء تني جد الاساءة . ولما كان من بواعث الألم إلي ان تقع علي عينك مرة ثانية قبل تسوية الامور تسوية مرضية فاشرف باخبار سعادتك باق ذاهب إلى المدينة لتمضية بعض الوقت » .

وبما اثبت خيانة الشريف حسين وجنائته مهاجمة رجاله للسكة الحديد في شمال المدينة بعد شوب الثورة بيومين أو ثلاثة .

ولما كانت الحوادث التي وقعت بعد ذلك تتعلق بالقتال بين العصاة والجنود لا أرى ضرورة لبحثها في مذكري . وارجو عند عودتي إلى الوطن ان شاء الله ان اتمكن من نشر ما دار بيني وبين الشريف حسين من الرسائل التي حرصت عليها . واذ وقع نظري على كتاب ماندلستام ونص الترجمة الفرنسية للمشور الذي رأى الشريف حسين نفسه مضطراً إلى اصداره لتبرير ثورته ارى ان الغاية التي ارمى إليها في كتابي هذا تقتضي فحص الاسباب الواردة في ذلك المنشور .

ويمكن أن أخص فيما يلي اسباب الثورة التي اتى عليها الشريف حسين في

منشوره الصادر بتاريخ ٢٥ شعبان سنة ١٣٤٤ الموافق ٢٧ تموز سنة ١٩١٦
والمنشور في صبعته الاصلية اصدق شاهد على نفاق العرب المكتابي . وهو مترجم
في صفحة ٢٦٠ من كتاب مانديلستام وهاك ملخصه :

السبب الاول : منذ ان تولت جمعية الاتحاد والترقي مقاليد الامور
سامت ادارة البلاد الى حد أن الامبراطورية فقدت شطراً كبيراً من ارضها
وسكانها ونفوذها .

السبب الثاني : في خلال الحروب الاجنبية العديدة الناشئة عن تلك
الادارة السيئة حل البؤس بالاهاالي وعلى الاخص اهاالي الحجاز الى حد انهم
اضطروا الى بيع الدور التي تأويهم .

السبب الثالث : وكانما ذلك لم يكن كافياً فقد اهملت قوانين الديانة
الاسلامية . ففي الاستانة مثلاً وعلى مرأى ومسمع من الحكومة وشيخ الاسلام
بلغت الجراة بصحيفة تدعى « الاجتهاد » الى حد الكتابة عن المصطفى عليه
الصلاة والسلام بلهجة لا تتفق والتبجيل التقليدي المتبع عند المسلمين عند اشارتهم له
السبب الرابع : بل ان تلك الصحيفة تقترح احداث تغيير في الشريعة
الاسلامية فيما يخص الموارد بأن تسوى حقوق النساء بحقوق الرجال .

السبب الخامس : وقد تذرعت الحكومة بوجود حالة حرب فاصدرت
منشوراً عفت فيه الجنود المرابطين في المدن كدمشق والمدينة ومكة من الصوم
السبب السادس : لقد تقضت سلطة الخليفة وضيق دائرة الامتيازات
التي منحتها اياها احكام الشريعة بتجريد جلالته من حق انتخاب رئيس مجلس
الوزراء أو الوزراء .

السبب السابع : لقد برح الخفاء وتبين أن الامبراطورية اصبحت في
ايدي انور باشا وجمال باشا وطلعت باشا فيتحكمون فيها كيفما شاؤوا واختاروا
السبب الثامن : وهناك برهان آخر وهو شفق هؤلاء الوجاه الامير

عمر الجزائري والامير عارف الشهباني وشفيق بك المؤيد وشكري بك العسكر
وعبدالوهاب (لا ادري لماذا لم يذكر الشريف حسين كلمة « الانجليزى » وهو
اللقب الذى عرف به عبدالوهاب) وتوفيق بك الباسط وعبدالحميد الزهراوى
وعبدالغنى العريسي واتباعهم .

السبب التاسع : ولم يقف الامر عند ذلك الحد بل ان سائر اصداقناهم
واقاربهم قد نفوا وصودرت ممتلكاتهم .

السبب العاشر : وقد حطموا ضريح اخي الامير المبجل عبدالقادر
الجزائري الحسنى .

تلك هى قائمة المعاذير التى جادت بها قريحة الشريف حسين تبريراً للثورة
فى خلال الخمسة والعشرين يوماً بين اليوم الثانى من شهر كانون ثانى وهو يوم
بدأ الثورة واليوم السابع والعشرين من الشهر نفسه عندما اعلن نفسه ملكاً .

وانى اناشد العالم الاسلامى بما جبل عليه من حب العدل وهل فى الاسباب
الثمانية الاولى شىء ما ولو بسيط يبرر أن يقوم مسلم يدين بالدين الحنيف وعلى
الاخص رجل يدعى انه من سلالة الرسول عليه الصلاة والسلام ويرفع علم
الثورة ضد خليفة المسلمين ؟ ان الحوادث التى يشير اليها الشريف حسين فى
الاسباب الثلاثة الاخيرة وقعت بعد كانون الثانى سنة ١٩١٥ أى بعد أن بدأت
المفاوضات بينه وبين الانجليز وقد صارت الحكومة بعدما داخلها من الريب
فى اخلاص الشريف حسين مضطرة الى اتخاذ الاحتياطات اللازمة لصيانته مصالح
العالم الاسلامى وعلى ذلك فليس للشريف أى حق فى أن يتذرع ويتخذها اسباباً
لثورته . . ولقد قرأت فى احد اعداد جريدة القبلة سنة ١٩١٨ التى تصدر فى
مكة المكرمة خطاباً للشريف حسين . ولا استطيع لسوء الحظ ان اذكر سائر
محتوياته لانه ليس معي هذه اللحظة . فقد كتب الشريف الى سيد من سادات
العرب لم يذكر اسمه فقال :

منذ أن تبوأ الامارة وضعت امام عيني هذا الغرض الاسمي أو وهو
تحرير العرب . فلم ادخر وسعاً لتحقيق تلك الغاية وقد كان لاجلها اني وطدت
العلائق بيني وبين كبار القبائل العربية . وما يدلك على عظم مجهوداتي اشتراكى
في حملة العسير عندما ارسلت قوة مسلحة بقيادة ولدى عبدالله لرد الغزوة التي
قام بها الامير ابن الرشيد بايعاز الاتراك على الامير ابن السعود . الخ) .

ولعمري ان هذا هو ما يسمى بالاعتراف غير القهرى !

فالحقيقة كما بسل بها الشريف نفسه هي انه كان يفكر في الخروج على
سلطانه منذ اليوم الذى اصبح فيه اماماً وان سائر ولاه الحجاز كانوا على علم
بمقاصده ومراميه وبعثوا بها الى الاستانة وقد برهن وهيب باشا نفسه بصفة
خاصة على اصالة الرأى فيما يتعلق بهذه المسألة فانه رأى ان من اللازم ارسال
فرقتين على الاقل الى مكة لخلع الشريف وتولية خلف له ولكن الحكومة
رفضت اتخاذ مثل هذه الاجراءات الشديدة خيفة ان تؤدى عبثاً الى فضيحة
جديدة ربما كانت سبباً في اثاره القلاقل . فبعد انتهاء الحرب البلقانية استصوبت
تنفيذاً لسياستها الداخلية ان تصل بالحسين الى اتفاق ودى مع العرب .

ومتى سنحت لي الفرصة نشرت الرسائل التي تبودلت في خلال عام أو يزيد
وخصوصاً بعد دخولنا الحرب العالمية لكيلا ادع للشريف سبباً ما ولاجرده
من كل المعاذير لمخاصمتنا .

ان الشريف حسين يعد جنائياً منا ان حكمنا بالاعدام على بعض وجهاء
سورية . ومع اني نشرت من قبل الوثائق الرسمية في كتاب آخر سميت (حقيقة
المسألة السورية) وهي وثائق تثبت ادانة المتهمين فليس من العيب على ما يظهر
لي ان آتى على بعضها هنا .

تحريراً في ١٥ يناير سنة ١٩١٣

بخصوص قضية ناهل مطران باشا البعلبكي

من القنصل العام الى صاحب السعادة المسيو بومبار

اتشرف بأن اخبر سعادتكم بأن ناهل مطران باشا من ذوي النفوذ في بعلبك وقد زار هذه القنصلية مرتين في خلال الاسابيع الاخيرة وقد كان ذلك السيد منذ عامين سكرتير السفارة التركية في باريس وله معرفة بمعظم رجالنا السياسيين وهو عضو في الكنيسة الكاثوليكية اليونانية وفي حزب الاتحاد والترقي ولو انه كذب في ذلك في احاديثه معي عندما اشار الى اخفاق سياسة اللجنة ووقاحة الاتحاديين .

فلقد انتهز ناهل مطران باشا فرصة السفر الى دمشق لطلب اعادة محاكمة احد اصدقائه وحضر لزيارتي للنقاش - كما قال - في مسألة تهمة الدولة التي اختارتها الطبيعة لحماية لبنان وسورية ثم اكد لي ان زعيم السامة الفرنسيين شافه في الموضوع نفسه . وبما قاله : د ان الحالة الحاضرة اصبحت لا تطاق وانا عزمنا على ادماج بعلبك وسهل البقاع في لبنان لارتباط تلك الجهات جغرافياً بيد أننا نقصر لتحقيق هذه الغاية الى مساعدة وحماية الحكومة الفرنسية . وقد وطدنا العزم - نحن المسلمين والمسيحيين - على ادراك النجاح وانا نعرف كيف نحقق غايتنا اذا فكرت الحكومة العثمانية في مقاومتنا بالسلاح ويقتضي الى حزبنا فريق من اهالي بعلبك وعلى هذا فان مدينتنا لها مركز خاص فهي مفتاح قلب سورية والطريق المؤدية الى الداخل . فانا واسعد بك حيدر رئيس المقاوله واكبر الرجال نفوذاً في تلك الجهة وعبد الغني بك الرفاعي زعيم المسلمين قد عقدنا التية على أن تكون جهتنا جزء من لبنان . وقد قررنا أن

نذهب الى بيروت لنخبر مسيو كوجيت بنياننا لانه على الدوام مهم اهتماما شديداً بكل ما يتعلق بلبنان . ونظراً لأن بعلمك في دائرة قنصليتك رأيت من الواجب علي أن اطالعك على هذه الامور بالاصالة عن نفسي وبالنيابة عن اسعد بك وعبدالغني بك .

واني طبعاً اتقبل تأكيدات ناهل مطران باشا كلها بكل احتياط هذا بقطع النظر عن انني قابلته بالحفاوة التامة وقد زارني مرة أخرى واكد لي من جديد اخلاصه لفرنسا ووعده بانّه يقدم إلي أي خدمة يستطيعها في بلاده

٢ - بيروت في ١٢ مارت سنة ١٩١٣

الى جناب المسيو كوجيت قنصل فرنسا العام في سورية
سيدي القنصل العام :

نظراً لأن فرنسا هي الحامية الطبيعية للمسيحيين العثمانيين والوطن الثاني لمسيحيي سورية تتشرف نحن الموقعين على هذا الاعضاء المسيحيين باللجنة التنفيذية في الجمعية العمومية المنتمين بواسطة مجالس النقابات بولاية بيروت لوضع مشروع اصلاح لتلك الولاية بأن تعرض على انظار قنصل فرنسا العام في سورية الملاحظات التالية بخصوص :

(١) موقف المسيحيين العثمانيين .

(٢) الاصلاحات التي اقترحتها اللجنة التنفيذية .

(٣) آماني وآمال المسيحيين السوريين .

ولنا وطيد الامل في أن يعرض جناب القنصل العام هذه الملاحظات على حكومة جمهورية فرنسا ويؤيدها بكل تقوذه .

٣ - بيروت في ١٨ مارت سنة ١٩١٣

سلم الى مسيو بيريه محرر جريدة الصلاح العربية بالنيابة عن الموقعين ضرورة منشور اشرف بارسالها الى سعادتك طي هذا نظراً لاهميتها السياسية

وهذا المنشور انما وضع بعد موافقة زعماء اللجنة التي تعمل سراً لتنفيذ
الاصلاحات في سورية كما اخبرتكم بذلك مراراً . وقد وقعه اكبر اولئك
السادة نفوذاً . فالمحامى مسيو بيير طراد ومترجم الفيصلية مسيو توتى روم
ارثوذكس بينما مسيو هانى من المارونيين والدكتور نائب بروتستانت .

ولقد اظهروا في خطابهم المرسل إلي بالنيابة عن الطوائف الدينية التي
يمثلونها اهتماماً شديداً بتحقيق امانى المسيحيين كما اكدوا شدة تعلقهم بفرنسا
ان هذه الوثيقة الجديدة هي بمثابة دليل آخر على ما يشعر به نحونا مسيحيو
تلك الجهة . وهي تبرهن من جهة اخرى على عظمة الاثر الذي احدثته الوعود
الفرنسية والآمال الكبيرة التي اثارها في نفوس تلك الطوائف .

موقف المسيحيين العثمانيين

لقد كانت حالة المسيحيين في الامبراطورية العثمانية على الدوام سيئة بل
محرقة وربما تزداد الحالة سوءاً عقب الحرب البلقانية والهزائم التركية لأن
النتائج المباشرة لتلك الهزائم هي :
أولاً : زيادة الضرائب .

ثانياً : بعث روح التعصب الدينى بين المسلمين .

ثالثاً : حمل مسيحيي سورية من جديد على الهجرة .

اما من حيث زيادة الضرائب فان الحكومة التركية على اثر ضياع
ممتلكاتها في اوربا ستسعى - بل هي ساعية الآن فعلاً - الى نقل العبء الذي
كان على كاهل الولايات الاوربية الى كاهل الولايات الآسيوية . وان العارفين
بمخيل الادارة التركية ووسائل ارهاقها في فرض الضرائب يعلون جيد العلم
ان الاعباء الجديدة لن تقع إلا على كواهل الاهالي المسيحيين وخدمهم .
واما من حيث التعصب الاسلامى فانه كان اقوى وانفع سلاح في ايدي

الساسة ، لذلك لم يجمعوا عن استعماله في الحوادث الاخيرة في البلقان . فقد كان المسلمون يعتبرون الحرب البلقانية حرباً دينية بين الهلال والصليب تألبت فيها الدول المسيحية ضد الاسلام . وعلى ذلك ليس أيسر على المسلمين من أن يظنوا ان وجود المسيحيين في الدولة العثمانية هو السبب الرئيس في هزيمتهم وتضعفهم والمسيحيون العثمانيون هم في نظر المسلمين اصل الشر وسبب البلايا التي نزلت بالدولة . فهم اعداؤها الطبيعيون .

واما من حيث هجرة مسيحيي سورية فينبغي الا يغرب عن البال أن عدداً عظيماً من المسلمين هاجر منذ الحرب البلقانية من مقدونية وتراقية الى سورية ولا تزال حركة الهجرة آخذة في الازدياد وتؤديها فيها السلطات التركية ومعنى هذا وبإسوء الحظ ان التوازن العددي بين مسلمي سورية ومسيحييها قد اختل ومال لغير مصلحة المسيحيين . ان المسلمين مستبدون فعلاً بمقتضى دينهم فمن المنتظر ان تزداد انايتهم واثرتهم بعد أن تضاعف عددهم .

ولقد ثارت نائرة مسيحيي سورية لهذا حتى ان كثيراً منهم نزح الى امريكا فيمكن اذن القول بأن الحالة الحاضرة تساعد على الهجرة المزدوجة هجرة المسلمين الى سورية وهجرة مسيحيي سورية الى امريكا فاذا استمرت الهجرة ولو الى أمد قصير فان نتيجتها زيادة العنصر المسيحي في سورية .

رغبات مسيحيي سورية

ولو افترضنا أن من المستطاع الوصول الى الاصلاحات بدون مساعدة اوربا لما كان هذا بمطني . غلة مسيحيي سورية . ذلك لانهم متحدون مع فرنسا اتحاداً لا انفصام له وانهم ان ينسوا مطلقاً فرط إعجابهم بها وبمدينتها العالمية ولا ما هم عليه مدينون لها من المساعدة في اوقات الشدة . فاقصى ما يبتغيه مسيحيو سوريا هو أن تحتل فرنسا الشام .

فلهذه الاسباب يعرض الموقعون اسماؤهم من أعضاء اللجنة التنفيذية
بالتبابة عن مسيحي بيروت بحسب مراتبهم الاقترحات التالية التي يعتقدون
انها الوحيدة الكفيلة بملافاة الحالة السياسية الحاضرة في سورية .

اولاً : احتلال فرنسا لسورية .

ثانياً : استقلال ولايه بيروت استقلالا تاماً تحت حماية ووصاية فرنسا

ثالثاً : ادماج ولاية بيروت في لبنان الذي يكون تحت سيادة فرنسا العقلية

الامضاءات

ميشيل تويني . يوسف هاني . بيمير طراد

الدكتور ايوب ثابت . رزق الله ارفس . خليل زين

الجمهورية الفرنسية

القاهرة في ٢٨ آذار سنة ١٩١٣

الى الادارة السياسية والتجارية باوربا وافريقيا والشرق بوزارة الخارجية

رقم ١٣١

سورية : اللجنة اللا مركزية العثمانية

من المسيو ديفرانس سفير جمهورية فرنسا المفوض في القاهرة الى المسيو

بنسيون وزير الخارجية .

في هذه الساعة يبدي السوريون القاطنون في القاهرة كثيراً من النشاط

أو على الأقل يحض بعضهم بعضاً على العمل . ففي برقيتي رقم ١١٧ المرسله

اليكم في الثاني والعشرين من الشهر الماضي اخبركم باجتماع اللجنة اللا مركزية

الذي حضره مسيو ميشيل تويني المترجم المساعد في قنصليتنا ببيروت . ويظهر

من المعلومات التي امكنتني الوقوف عليها فيما بعد ان قرارات اللجنة لم تكن

معينة ولا بالاجتماع كما ظن المسيو تويني . وهو يعمل لا بصفته الرسمية بل

بصفته الشخصية - أي كاحد اعيان سورية ولكنه يبدى في المشكله السورية

غيرة تكاد تكون مبالغاً فيها ويسعى للوصول الى قرار جوهري سريع . ومن المهم ان تلاحظ أيضاً ان ما ظهر من مطامح اللجنة الا مركزية يؤيد المعلومات التي وصلت الي منذ امد قريب بصدد آراء مسلمي سورية في مصير بلادهم وقد بعثت اليكم بهذه المعلومات في خطابي بتاريخ ٢٣ آذار رقم ١٢٣ .

ويظهر أن السوريين - لا فرق بين مسلميهم ومسيحييهم - أو على الاقل السوريين المقيمين في القطر المصري قد عدلوا في مطالبهم الى الاقتراحات المشار اليها في خطابي بتاريخ ٢٣ آذار القاضي بجعل سورية دولة مستقلة استقلالاً ذاتياً برئاسة أحد الامراء المسلمين . وقد نمي لي ان كامل باشا - المقيم في القاهرة الان - آثار الآمال في مشروع الاصلاحات ووعدهم بتحقيق امانهم كلها عند عودته الى منصة الحكم ولكن جميع الذين سمعوا تلك التأكيدات لم يرتابوا لحظة في أن ذلك السياسي الهرم لن يحجم عن تجديد تلك الوعود لو عاد الى الصدارة وكذلك هم من جهة اخرى واثقون بأن الوعود ستمهل وان السوريين سيضحك عليهم مرة أخرى بالكلمات الخلابية .

واذا اعلنت اللجنة رغبتها في الاستقلال الذاتي لسورية اصبح بالطبع محتماً عليها أن تبحث عن الاشخاص الاكفاء الذين يمكن أن يعهد اليهم حكم الامارة المقبلة . وتدل المعلومات التي جاءتني ان هذه المسألة لم يتناولها البحث في اجتماعات اللجنة ولكن كثير من الاعضاء اصبح مهتماً بها وان رئيس اللجنة رفيق بك العظم يرى ان حاكم سورية المنتظر لا يمكن ان يكون سوى زعيم اسرة العظم ألا وهو شفيق بك المؤيد العظم .

يبد أن اعضاء اللجنة الآخرين يقولون ان السوريين لن يعترفوا بأحد منهم ملكاً عليهم لأن الجميع يرون انهم متساوون في الدرجة فهم يريدون انتخاب امير من الاسرة الخديوية . وهذا الرأي الاخير فهو رأي المسيو توتوبني الذي جاءني ليطلعني على آرائه وقال ان كثيراً من السوريين يشاركونه فيها .

فالمشروع في طوره الحاضر يرشح الامير يوسف كمال باشا ابن عم الخديو ليكون ملكاً على سوريا .

والامير رجل واسع الثروة مستقل في علاقاته . ولما سئل عن رأيه اعلن انه يقبل الانتخاب على هذا الشرط الاساسي وهو انه اذا لم يكن بد من وضع سورية تحت حماية دولة اجنبية فيجب ان تكون فرنسا هي تلك الدولة . وينبغي ان تنفذ تماماً كل حماية أخرى عداها وخصوصاً الحماية الانجليزية .

فن تمحيص هذه الوثائق يدرك الانسان بسهولة ان الحكومة الفرنسية بذلت اقصى ما في استطاعتها لتمهيد الطريق لضم سورية بحجة حماية العرب فهل يوجد من يشك في نيات انجلترا نحو العراق وفلسطين ؟ لعمرى ان الذين يدعون انهم لا يعرفون شيئاً عن تلك المناورات اما ان يكونوا قصار النظر واما ان يكونوا قد باعوا ضميرهم وشرفهم ! فنفرض جدلاً ان الشريف حسين كان يجمل اثناء مفاوضاته مع الانجليز الى شهر تموز سنة ١٩١٥ بنيات فرنسا وانه كان معتقداً ان ساعة زوال الدولة العثمانية حانت وانه انما ثار ليؤدي للعالم الاسلامي اجل خدمة بأن يبعث الدولة العربية من رقدتها وانه كان يسعى في أن يؤسس في شبه جزيرة العرب على انقاض تركيا البالية مملكة عربية تضم - حسب الوعود التي منته بها انجلترا - كل الاراضي الواقعة في جنوبي الخط الممتد من مرسين الى اطنه ثم الى الموصل فما باله لم تنبيهه الحوادث ألم يكن رد السير هنري مكاهون المؤرخ في ٢٤ تشرين اول سنة ١٩١٦ كاتباً له في اثاره شكوكه ؟ او لم تفتح عينيه اكثر من كل ما اثبتته هنا تلك الوثائق التي نشرتها في سورية على اثر اعدام الخونة وكانت كل واحدة منها دليلاً قاطعاً على مناورات فرنسا ؟ الم تكن كلها حججاً قاطعة واندازات كافية لان تزيه عظم الجناية التي يوشك أن يرتكبها ؟ ليس من الصعب أن تتنبأ بما كان يحول في خاطر السير هنري مكاهون حتى يوم ٢٤ تشرين اول سنة ١٩١٦

عندما ذكر في رده ان بعض المناطق في الشواطئ السورية ولبنان لا يمكن اعتبارها عربية محضة .

فانجلترا لم تجد مناصاً من احترام المطامع الفرنسية في تلك المناطق المذكورة . ولا يمكن غير من اعماء التعصب السياسي ان يعتقد بأن انجلترا انما انتزعت من تركيا العراق بتصد اعطائه هدية للعرب .

ولقد اخبرت الشريف فيصل بكل ذلك اثناء وجوده في مركز القيادة في سورية وافهمته ان العرب سيقعون في اليوم الذي يقطعون فيه صلتهم بالأتراك غنيمه بارده في ايدي الانجليز والفرنسيين وبذلك يحرمون بتاتا من حماية خليفة المسلمين .

والآن وقد وضعت الحرب اوزارها وتمكن الانجليز بفضل ثورة الشريف حسين من هزيمة الجيش التركي في فلسطين واتموا احتلالهم لسوريا وفلسطين فما هي حالة البلاد الاسلامية ؟ لقد اصبحت فلسطين والقدس تلك المنحة الثمينة التي اهداها الخليفة عمر الى العالم الاسلامي في قبضة الانجليز الذين يبتغون انشاء دولة يهودية فيها .

وقد تنازلوا لفرنسا عن منطقة تسمى (لبنان الكبرى) تشمل لبنان الاولى وطرابلس وبيروت ومدنتي تيرا وصيدا ووجهة بعلبك وسهل البقاع . واصبح العراق بأسره تحت الحماية الانجليزية .

ونظراً لاجتنابهم ضم الحجاز المعترف باستقلاله ارادوا ان ينشؤوا تحت الحماية الفرنسية وكالة عربية تشمل مدن دمشق وحماة وحمص وحلب . ويظهر أن الفرنسيين معارضون في ذلك .

ومن هذا يتبين جلياً ان دعاوى ملك الحجاز الشريف حسين في مدن دمشق وحماة وحمص وحلب لا ينظر اليها بعين الارتياح . فتمد استخدم هو وابنه فيصل كمجرد آلات صماء .

فالحسن الجزائري حفيد الامير عبد القادر ؛ الذي طالما ناده الشريف
« بأخي المبجل ») يتهم الشريف بقتل الامير خيانة وغدرًا ! وقد قيل في
رسالة طالعتها في احدى الصحف الانجليزية أن الشريف حسين يعمل في مكة
باموال الانجليز ولا يرتاب الذين يعلنون طبيعة الحجاز ومناخه في ان هذه
الحال ستبقى كذلك الى ما شاء الله . فالنتيجة هي أن خادم الحرمين الشريفين
اليوم هو الملك جورج الخامس ملك انجلترا وذلك كله بفضل ثورة
الشريف حسين ! .

وظاهر أن انجلترا تريد أن تجعل فيصل على ولاية عربية مكونة من
مدن دمشق وحماة وحمص وحلب وبهذا يتم لها وضع يدها على تلك المنطقة
التي تشتمل على اشهر مدن العالم الاسلامي .

تلك هي الصورة الحقيقية التي اتت العالم الاسلامي من جراء ثورة
الشريف حسين . وعندي أن الضربات التي وجهها الى صميم الاسلام زعماء
المغاربة بانضمامهم الى الدول المسيحية ليست شيئاً مذكوراً اذا قيست بالمحن
التي نزلت بالخلافة من الشريف حسين .

وإذا أصبحت الأستانة - موطن الخلافة - في قبضة عصابة الأمم
لا قدر الله (كما تريد اوربا) تم عمل الخيانة الذي بدأه الشريف .

فجوابنا على الذين يقولون لنا « لولم تشتركوا في الحرب العالمية لما
تطورت الامور بمثل هذا التطور » هو اننا لو تجنبنا الاشتراك فيها لما كانت
النتيجة غير ذلك لأن شره الاستعمار الانجليزي والفرنسي والروسي ليس
ابن الامس بل هو وليد القرون العديدة . فهؤلاء الدول الثلاث كان من
المحتم أن يشرعون في تمزيق أوصالنا عقب خروجهم من الحرب ظافرين لأن
املاك الضعيف والعاجز هي على الدوام عرضة للتقسيم . ولا كرهنا وقتئذ على
تحمل العار والذلة اذ نرى انفسنا - بدون مقاومة ما - نجرد بما عهد به المولى

الينا ليكون تحت رعايتنا .

على أن الاتراك ان شاء الله لظافرون بانقاذ الاستانة العزيزة وازمير
الجميلة لهذا الوطن .

وسيمكون الفضل كل الفضل في ذلك للبعث الاخير الذي قام بزعامه
مصطفى كمال باشا . فاذا هم تذرعوا بالوسائل اللازمة فازوا بسعادة الشعب
ورخاء البلاد داخل حدودها الطبيعية .



أحرار العرب

الذين شق لهم مجال باشا السفاح

وقد ورد ذكرهم في هذا الفصل



عبد القادر الجزائري



جرجي حداد



سعد فاضل عقل



رشيد النجار



عبد الكريم الخليل



الأمير عارف الشهابي

كتابان تركيان

حول قضايا الاعدام

كتب الاستاذ ساطع الحصري يقول : بين يدي الآن كتابان يساعدان على معرفة ذلك .

الاول صادر من قلم « فالح رفقي آتاي » ، الذي كان مديواً لمكتب جمال باشا الخاص ، والثاني صادر من قلم الجنرال « علي فؤاد اردن » ، الذي كان رئيساً لاركان الجيش الرابع ، تحت قيادة جمال باشا .

كتاب فالح رفقي آتاي

كتاب فالح رفقي آتاي معنون بعنوان : « زيتين داغي » ، بمعنى « جبل الزيتون » ، لأن الكاتب قد التحق بالخدمة في معية جمال باشا ، عندما كان مقر قيادته في جبل الزيتون ، بالقدس . وقد نشر اولاً سنة ١٩٣٥ ، ثم طبع مرة ثانية - مع بعض الزيادات سنة ١٩٣٨ .

والكتاب يتألف من « خواطر متفرقة » ، مكتوبة بأسلوب ادبي رفيع تعكس انطباعاته وتأملاته عن ايام وجوده في سوريا مع جمال باشا .

واما كتاب (علي فؤاد اردن) . فهو معنون بعنوان « خطرات سوريا خلال الحرب العالمية الاولى » ، وقد نشر سنة ١٩٥٤ . انه يتضمن معلومات ثمينة عن الحركات العسكرية والاحوال المدنية التي اشترك فيها أو اطلع عليها خلال خدمته في الجيش الرابع في سوريا .

فيما يتعلق بديوان الحرب ومقرراته ، يقول فالح رفقي آتاي في كتابه : « ان الفصل السياسي الأخير ، الذي سيبحث عن سوريا في التاريخ العثماني ، سيكون - بلا شك - ديوان حرب عاليه » .

« بقرار هذا الديوان ، قد اعدم نحو اربعين من العرب القوميين في



عمر حمد



توفيق بساط



رفيق رزق سلام



عبد الوهاب الانكليبي



نور الدين القاضي



علي ارمنازي



جلال بخاري



الشيخ احمد طيارة



مبید الحمید الزهراوي

دمشق وفي بيروت .

(وكان من بين هؤلاء ، من كان عضواً في مجلس الاعيان ، مثل عبدالحميد الزهراوي ، ومن كان من اعضاء مجلس النواب مثل شفيق المؤيد ، ومن كان صحفياً من الطبقة الاولى مثل عبدالغني العريسي ، ومن كان شاعراً مثل : رفيق رزق سلوم . كان كثيرون منهم من رجال السياسة والنفع . وكان قسم آخر منهم من (المثاليين) .

وبعد الاشارة الى حزب اللامركزية في مصر وفي سورية ، ينقل الكاتب الكلام الى المسألة القانونية ، فيقول :

(ان اظهار الحقيقة فيما اذا كان ديوان الحرب قد خرق او لم يخرق القانون والعدالة امر يتعلق بالحقوقيين . ولكن لماذا رؤى - في ذلك الحين - من الضروري التزام سياسة بطش وارهاب اساسية في سوريا ؟ ان سر ذلك قد دفن في التراب مع جمال باشا ، الذي قتل في احد شوارع تفليس برصاصات الارمن) . وبهذه الصورة . يترك فالح رقيقي آتاي المسألة معلقة ، دون أن يبدي رأياً صريحاً فيها .

كتاب علي فؤاد اردن

ولكن الجنرال (علي فؤاد اردن) يعطينا في كتابه معلومات اوسع وادق من ذلك . تساعد على تكوين فكرة صريحة وصحيحة عن مبلغ مسؤولية جمال باشا نفسه في هذه القضية . لانه يعلننا بأن معظم احكام الاعداد التي اصدرها ديوان الحرب كان مخالفاً لرأى رئيسه واعدائه ومنافياً لاقتناعهم الوجداني . وهذا ما يقوله في هذا الشأن :

(في شهر نيسان ١٩١٦ جاء الى مقر اركان الجيش في اوتيل فيكتوريا بدمشق المقدم شكري بك رئيس ديوان الحرب بعالية ، وقال : ان محاكمة

المتهمين انتهت ، وهيئة الديوان كـونـت فـكـرة صـريـحة عن حـقـيـقة القـضـايا . انـها مـقـتـنـعة بـأن عـدد الـذيـن يـمـكـن الـحـكـم عـلـيـهـم بـالـاعـدام لا يـتـجـاوز الـثـلاثـة أو الـاربعـة عـلى اـكـثـر تـقـديـر . ومع ذلك رأيت الهيئة ان تعرض الامر على قائد الجيش قبل ان تكتب قرارها النهائي في هذا الشأن وكذلك جاء رئيس الديوان ومعه قائمة باسماء المتهمين ، وقد كتب حذاء كل اسم رأى هيئة الديوان في الحكم الذى يجب أن يصدر في حقه) .

(وبما أن علي فؤاد أردن كان يعرف انجماها جمال باشا الفكريه ، ولا يحفل روح العنف والقسوة التي كان يتصف بها فقد قال لشكري بك رئيس الديوان : عندما تعرض القائمة على الباشا - تضرع اليه لكي لا يتشدد في الاحكام واذا اقتضى الامر قل له ارجوك يا باشا فكر في التاريخ .

(وذهب شكري بك من غرفة رئيس الاركان الى غرفة جمال باشا ولكنه عاد بعد خمس دقائق وهو مصفر الوجه ، وحكى ما حدث : « يظهر أن الباشا كان قد اطلع على القضية بواسطة رجاله الموجودين في عاليه ولذلك عندما دخل عليه شكري بك سأله بلسان جاف : ماذا ؟ واجابه شكري بك : ان ديوان الحرب انهي المحاكمات ودون رأيه في هذه القائمة وأنا جئت للعرض والاستئذان وقدم القائمة التي كان يحملها . ولكن جمال باشا تناول الورقة منه ودون أن يقرأ ما هو مكتوب فيها ، أخذ يكتب حذاء كل اسم الحكم الذى يريد هو : اعدام ، اعدام ، اعدام . . .

ولكن رئيس ديوان الحرب رأى أن يعمل بتوصية علي فؤاد ، فقال : يا باشا ارجوك فكر في التاريخ . ولكن جمال باشا صاح في وجهه قائلاً : التاريخ ؟ فليتحطم على رأسك . . .

وبعد ذلك عاد شكري بك الى عالية . وصدرت احكام الاعدام على عشرين شخصاً ، من ديوان الحرب ، وفقاً لاوامر الباشا . انتهى ..



محمود العجم



عبد الفنى المريسى



سامى العظم



نايف ثثر



محمود الحمصانى



أمين لطفى الحافظ



رشدى الشمعة



شكرى على

(الفصل التاسع)

المسألة الارمنية - مقدمة تاريخية

نفضل نحن رجال تركيا الفتاة بلاجدال - الارمن - وخصوصاً الثوار منهم على اليونانيين والبلغاريين ذلك لأنهم اصفي خلقاً وأشدّ باساً واكثر صراحة من العنصرين الآخرين وهم فوق ذلك أوفياء في الصداقة والعداوة . وفي بقيننا ان سياسة روسيا هي وحدها المسؤولة عن وجود العداوة بين العنصرين التركي والارمني فقبل ستين عاماً أو بمبارة أخرى قبل الحرب الروسية التركية في سنة ١٨٧٧ ١٨٧٨ بعشر سنوات لم يسمع أحد مطلقاً بوجود نزاع ديني بين هذين العنصرين او اي اختلافات ملية بين المسلمين والمسيحيين . ولقد عاش الارمن والآراك في الاناضول والرومللى والاستانة بل في طول الدولة التركية وعرضها متجاورين وصاد بينهم الوثاق حتى ان تاريخ ذلك العهد خلا بتاناً من ذكر شيء اسمه المسألة الارمنية . وكانت الصداقة بين الانراك والأرمن في الشؤون المائلية لاحد لها . فمن ذلك ان التركي كان اذا غادر قريته في آسيا الصغرى لشؤون خاصة او مصالحة شخصية عهد الى جيرانه الارمن برعاية امرته ومباشرة شؤونه والعناية بمحقوقه فقاموا بذلك خير قيام ولذلك كان الارمن يبدون من جهمهم نفس هذه الثقة في جيرانهم الانراك .

ولم يكن في الاناضول ولا في الرومللى ولا في الاستانة ارمني واحد يتكلم بالارمنية لان اللغة التركية كانت تعلم في المدارس بالحروف الارمنية وفي الكنائس نفسها كان القداس يقام باللغة التركية . وكانت المناصب الحكوميه

مفتوحة للارمن وكنا نعتبرهم اكثر الرعايا العثمانيين ولاء واشدهم اخلاصاً .
فلما اقل نجح بكوات كردستان على ايدي الاتراك لم ينشيء الارمن الذين
كانوا تحت سيادتهم ولاية مستقلة لأنفسهم . والحق انهم ذاقوا الاسرين تحت
الحكم الكردي . فليقول السفير مورجنتا وكا يشأ وليجهد نفسه ما اراد - كما
يفعل الآن لآخفاء الوقائع التاريخية . ولكن الحق الذي لا جدال فيه هو انه
كما كان العدل وعدم التعصب سر تكوين الدولة العثمانية واتساع اطرافها في زمن
وجيز كذلك كانت المروءة والصدقة التي ابدتها تركيا حيال الارمن السبب
في اكتساب ثنائهم وعرفانهم للجميل . فكانت نتيجة ذلك كله ان الشعبين لبنا
خمس قرون دون ان يثور بينهما نزاع ما كما ان كل ارمني جعل اللغة التركية لغته
واتبع التقاليد والعادات القومية التركية . وعندما سمح السلطان الفاتح محمد خان
للطبريرية التركية الارثوذكسية بالبقاء في الاستانة بعد سقوطها في ايدي العثمانيين
ومنح اليونانيين (لابتاثير ضغط خارجي بل بدافع المروءة وعلو الهمة والكرم
المحض) عدة من الحقوق تسمى (الامتيازات الديفية) انشا ايضاً بطبريرية
ارمنية في عاصمة مملكته ايوكدضمان حقوق الامة الارمنية - التي كانت تعتبر
اقلية - بين مسلمي الاناضول - بل منح الارمن مثل الحقوق والامتيازات التي
خولها لليونانيين .

ويتمد ما ندلستام في الصفحة الـ ١٩٠ من كتابه على ملاحظات احد
المؤرخين الذي بلغت به الوقاحة الحد انه عزا كرم اخلاق الاتراك ونخوتهم
برغم الحقائق التاريخية التي لا جدال فيها الى ازدرائهم بكل ما هو مسيحي
لأنهم كانوا يعتبرونه رجسا !

وفي عام ١٤٦٢ ميلادية اي في الوقت الذي لم تكن تكونت في اى جهة

من جهات أوروبا فكرة (حقوق الاقليات) سمح احد السلاطين المسلمين وهو في اوج عزه ببقاء البطريكية اليونانية في الاستانة ثم منح اليونانيين (كامتيازات دينية) ساسلة من الحقوق الشخصية تتعلق بالزواج والوراثة والتعليم ! بل انه انشأ في عاصمة مملكه بطريكية اخرى لامة اخرى كانت ترسف في الاصفاد والاغلال في ابان الحكم الكردي ومنحها مثل تلك الحقوق والامتيازات ! وبالرغم من كل ذلك لا يستحي اناس امثال ماندلستام من ان يمزو ذلك السخاء والتساح الى شعور الازدراء والاحتقار لكل ما هو مسيحي فيالله من هذا التعصب والظلم !

ألم تكن تلك الحقوق التي منحها ساطان تركي ذو شوكة وصوله وكلمة نافذة في القرن الخامس عشر من المثل الاعلى لتطبيق مبادئ (حقوق الاقليات) التي سعى الرئيس ولسون طويلاً للحصول على اعتراف العالم المتمددين بها - ؟ وهل أصبحت تلك المبادئ معترفاً بها في مساعدة سان جرمان (التي ترفض حكومتا رومانيا ويوغوسلافيا قبولها) الى الحد الذي تنطوى عليه تلك الحقوق التي منحها الفاتح الاسلامي للمسيحية ؟

ان الارمن ليدركون انهم مدينون لهذه الامتيازات وحدها في بقاء ملتهم وقوميتهم . فقد امكنهم بدلا من الحيف والذل الذي ذاقوه من أيدي الاكراد ان يعيشوا على اتم صفاء مع الاتراك وخصوصاً مع الحكومة التركية فلماذا يستشهد ماندلستام الذي يستقي معلوماته مما كتبه زارسكي وآخرون بالآم والكوارث التي كان الارمن عرضة لها قبل القرن التاسع عشر على عهد الاضطهاد الاقطاعي في زمن بكوات الاكراد ؟ ولماذا لا يتذكر بؤس الامة الفرنسية في عهد الاضطهاد الاقطاعي قبل نشوب الثورة الفرنسية ؟ وقد لا يكون

من اللازم ان يذهب الالمان الى ذلك العهد البعيد . فهل كانت حالة فلاحى
روسيا اكثر رخاء من حالة الارمن فى تركيا .

ان ما ندلستام لا يتردد فى الاعتراف بأنه من اشد انصار الثورة الروسية
تحمساً . فهل غاب عنه اننا انفسنا نعرف الشيء الكثير عن الكستاباب الثورية
الروسية وعن جور اصحاب الاموال الروس على فلاحهم الى عهد قريب ؟
فاذا بلغت به الوقاحة الى حد الادعاء بأن تلك الكستاباب كانت مبالغاً فيها فى
وسعنا ان ثبت له بلا تردد بأنه انما يتكلم عن الهوى .

وانى اكرر من جديد بأن الاتراك والارمن عاشوا جميعاً الى ما بعد
حرب القرم فى سنة ١٨٥٦ متجاورين معاً على ارض صفاء ولم يعرف عن الاتراك
انهم ارتكبوا امراً مخلصاً ضد جيرانهم الارمن . فلما نظر الروس الى المملكة
العثمانية بعين الجشع أخذوا يحسبون ان من حسن السياسة ان يجعلوا العناصر
المسيحية فى الروملى آلات صماء لقضاء وطرفهم .

وانى احسب ان الانسان ليعجب اذ يرى ما ندلستام بعد ان قال فى
صفحة ٣٠٠ من كتابه ان الحكومة الثورية الروسية تؤيد كل التأيد جميع
الاجراءات التى اتخذتها روسيا القيصريّة لمساعدة الامم المسيحية ضد التعسف
التركي) يقول : - (ان الفلاح الروسى الذى هو نفسه ضحية اكبر جور
طالما ذهب الى ميدان القتال لانقاذ اليونانيين والبلغاريين والصربيين) ! ولم
يكن ذلك كله الا نتيجة تلك السياسة المشهورة التى اثارث ثائرة الخوف والكرامة
فى سائر جهات المعمورة وهى السياسة التى نرجو من صميم افئدتنا خيراً للانسانية
ان يخفى شبحها وشبح القيصريّة الى الابد .

وينبغي ان نعترف قطعاً بأن النزعات الوطنية التى أخذت تتطور وتنتشر

حوالى منتصف القرن التاسع عشر كانت سبباً مباشراً في ان الشبان الارمن النازحين الى اوروبا وامريكا طلباً للعلم او الرزق اشربت نفوسهم تلك الحالة العقلية فخدمات الكثيرين منهم يسعى لتصبح امته في حال اكثر رخاء واكثر استقلالاً في نشاطها السيامي . فان ذلك التطور جعل لفت نظر الساسة الروس وجعلهم ينظرون اليه كما انه هبة من الهبات الالهية ومن ذلك الحين لم يدعوا وسيلة من الوسائل لتحريض الارمن على حكومتهم .

وما بزغ فجر القرن التاسع عشر حتى شرع السلطان محمود الثاني في اتخاذ اجراءات شديدة لاعادة النظام في مملكته حتى يقضى على الفوضى الادارية والعسكرية التي ضربت اطنابها على اثر الاحكام السيئة التي خلت في مائتي العام السالفتين . فالغى الانكشارية وضيع سلطة بكوات الاناضول والرومللى حتى اضعى اثرها كما انه حدد سلطة بكوات كردستان .

ولكن بينما كان ذلك السلطان المنكود الحظ مجدداً في اعادة النظام الى بلاده اذ رأى نفسه وجها لوجه تجاه مصاعب لاعدها : رأى اليونانيين قد اصبحوا طوع دسائس (الانتىكي هبثيا) وهى جماعة قامت بمساعدة الذهب الروسي فماني السلطان المتاعب الكثيرة في سبيل ارضائهم . ورأى نفسه من جهة اخرى بعد ان هاجمه الروس والفرنسيون والانجليز واغرقوا اسطوله في مضطراً الى الاعتراف باستقلال اليونان . رأى كذلك محمد على باشا حاكم مصر العام قد ثار ضده بايعاز الفرنسيين . اذ كان يحدث نفسه بالعرش التركي وقد نجح فعلا بالاستيلاء على قسم كبير من البلاد لغاية كوتاهية . ١

فمن الذي يستطيع اذن ان يوجه قوارص اللوم الى حكومة كانت هذه متاعبها في الداخل وفي الخارج او أن يتهمها بالتراخ والتقصير في اتخاذ الوسائل

اللازمة لصيانة مصالح رعاياها كفاية فضلا عن الارمن ؟

ولكن حكومة السلطان عبد المجيد منحت الأرمن رغم ذلك امتيازات واسعة حتى ان ما ندلستام نفسه لم يسمعه الا الاعتراف بتلك الحقيقة واطرائها فقد قال في الصحيفة ٩٠ من كتابه ما نصه : « ان الارمن حصلوا في عام ١٨٦٣ على دستور تام يخولهم حق انتخاب مجلس اعلى يكون مقره في الاستانة مؤلف من ٤٠٠ عضو ينتخب الاهالي ١٢٠ منهم » .

فهل من المستطاع ان يحظر للرئيس ولسن علاجا أن يجمع من هذه لحفظ حقوق الاقليات ؟ للحكومة العثمانية بدون اي ضغط من الخارج منحت الارمن ذلك الدستور لأن الولاء الذي اظهروه في الماضي اكسبهم عطف الحكومة الى حد انها لم تتردد لحظة واحدة في منح الدستور (للامة الارمنية الخلصة) . وكان من المنتظر ان يكون عملها ذلك فأتحة عهد سعيد جديد . ولكن روسيا اتخذت ذلك الدستور ذريعة للتدخل في الشؤون الارمنية .

وكان بعض عصاة الارمن قدموا مساعدتهم للروس في ابان الحرب الروسية التركية في عام ١٨٥٦ مما ترتب عليه احتفاظ الروس فيها بعدد بلقاتهم مع ارمينيا وعدم اهلهم انتهاز فرصة ما في تشجيع الثوار الارمن . فأخذت النتيجة تظهر بسرعة مدهشة حتى انه لم يمض على منح الدستور اكثر من أربع سنين حتى نشبت الثورة الارمنية الاولى في الزيتون في عام ١٨٦٧ ولقد كان بالطبع لهذه الثورة المسلحة الارمنية الأولى أسوء وقع في نفس الحكومة العثمانية .

ومما زاد الطين بلة وضع ارمن الروس والناضول المصاعب في سبيل الجيوش التركية خلال الحرب الروسية التركية في عام ١٨٧٧ - ١٨٧٨ . -

سان اسطفانو للحصول على مساعدة القيصر لقضية الاستقلال الارمني اكبر
مسؤل عن فئدان الثقة التي كانت موضوعة في الارمن منهم وضباع اللقب الذي
لقبهم به الاتراك وهو (الامة الصادقة) .

وادرك سياسة الروس ادراكاً تاماً ان كل أمل في التدخل في شؤون
تركيا الداخلية قد انقضى بعد اعلان استقلال بلغاريا . ولكن حكومة روسيا
الامبراطورية رغبة منها في الاحتفاظ بذلك الحق وضعت في معاهدة سان
اسطفانو مادة خاصة لمصلحة الارمن وسجلتها بشكل آخر في معاهدة برلين .
ومن ثم توترت العلاقات بين الارمن والاتراك والاكراد . ثم انشأت
الاجنحة الثورية الارمنية فروعاً سرية منظمة لها في كافة مدن المملكة العثمانية بل
في جميع القرى الصغيرة . فظلت هذه الفروع السرية تعمل بلا ملل ولا انقطاع
لاثارة الارمن ضد الاتراك والاكراد وجعلت تطالب بانشاء وطن ارمني ممتاز
مكون من ست ولايات من ولايات الاناضول الشرقية . وكانت الحكومة
والاهالي الاتراك والاكراد على علم تام بقلك الدسائس .

واذ كان الارمن مصرين على انشاء دولة مستقلة يملون فيها ارادتهم
على الاتراك والاكراد الذين كانوا عدواً كان من الامور الطبيعية أن يبذل
هؤلاء كل ما في استطاعتهم لاجباط ذلك المشروع . اى ان الاكراد والاتراك
ايقنوا ان هذه الخطة بخدافيرها ليست الا ذريعة من جهة روسيا لالتهام شطر
كبير من الاناضول آهل بالغالبية الكردية التركية . لذلك جعلوا ينظرون الى
ارمينيا كأنها الافعى وقد سابها روسيا عليهم . وفي كانون الثاني سنة ١٨٨٠
قدمت الدول الاروية الى الباب العالي بناء على ضغط روسيا المتوالي وعلى اثر
ثورات ارمنية عديدة مذكرة خاصة بالاصلاحات الارمنية . واتفق ان

البلغاريين كانوا في ذلك الوقت مجدين في ضم الروملى الشرقى . وكانت روسيا كلما حاولت الحكومة تسوية احدى المشاكل المهمة سواء كانت داخلية أم خارجية تضرب على نعمة المسألة الارمنية . فأضطر السلطان عبد الحميد الثانى الى تسوية النزاع بالتسليم ببعض الامور .

ثم بلغت المشكلة الارمنية أشدها فيما بين سنتي ١٨٩٤ و ١٨٩٦ - اذ ظهرت القلاقل والاضطرابات في كل جهات مما أدى الى زيادة الاحقاد بين العناصر الثلاثة التي عاشت في صفاء تام جنباً الى جنب ستة قرون الى حدانها كانت تصبغ وتسمى وهي متحفزة لانقضاء بعضها على بعض وتلطبخ ارض الاناضول بل والاستانة بدمائها .

ولا يمكن ماندلستام وامثاله الذين يفضون الاتراك ان ينكروا ان الاتراك في خلال ذلك الوقت العصب لم يشعروا باى حقد على الارمن حتى ان كثيراً منهم جعل ينافس بعضهم بعضاً في حمايتهم . وفي الاستانة نفسها اظهر كثير من الاسر التركية صداقة كبرى ازاء جيرانهم الارمن بايوائهم في منازلهم لانقاذهم من مخالب الموت . بل ان عدداً ليس بالقليل من وجهاء الدولة ابدوا امتعاضاً شديداً للمذابح الارمنية في الاستانة التي أقدم عليها الخالمون في الكرك ولم يدخروا وسعاً في سبيل وقفها وصدها .

وان العالم بأسره ليعلم جيداً الاجراءات الشديدة التي اتخذها المشير نواد باشا لحماية الارمن في حى قاضي كوى حتى ان ماندلستام نفسه قرر بأن نواد باشا لم يبق غضب رؤسائه فيما بعد الا بسبب صداقته للارمن ! ولكن لا يوجد في الاستانة شخص واحد الا وهو يعرف ان هذه الدعوى محض افتراء وفي خلال هذه السنوات الثلاث التي جرت فيها المذابح قتل الارمن

عدداً غير قليل من الاكراد والأتراك واصبح الفريقان يتسابقان الى ابتكار
أشد الوسائل للتعذيب والانتقام . ولم تتم الغلبة للأتراك الا لقلّة عدد الارمن
ولو كانت هؤلآء الغالبية العددية لأربأ عددالقتلى الأتراك والاكرد على قتلى
الارمن . وأوضح دليل على ذلك عدد الأتراك الذين ذبحهم اليونانيون في
شبه جزيرة المورة . ولما لم تكن المذابح واقعة الا في اوائك التعساء المنكودي
الخط اعني المسلمين من الأتراك وغيرهم لم يقم شاعر كلورد بيرون او شاتوبريان
ينوح ويندب مصرعهم اثم انقضت تلك الحوادث الدامية دون ان تترك
وراءها سوى مجرد ذكرى في التاريخ العثماني . وقد استنكرت تلك الحوادث
ايما استنكار واعتبرتها تضارب وما كنت آراه من الآراء بخصوص الادارة
السياسية . ذلك لأنني استهجن فكرة استقدام الجماهير لقمع الحركات الثورية
وتدبير المذابح . اذ مثل تلك الاعمال من شأنها ان تشوه سمعة الامة التي تلجأ
اليها وتلطخ تاريخها .

ويشترك في هذا الرأي جميع الوطنيين الذين يلقبون بثوار (تركيا
الفتاة) فانهم استنكروا حوادث ١٨٩٤ - ١٨٩٦ - التي وقعت في ارمينيا
واعتبروها غلطة سياسية خطيرة ارتكبها عبد الحميد الثاني على أمل اطالة مدة
حكمه الاستبدادي بهذه الطريقة القاسية . وهذا هو الذي حدا بأحمد رضا بك
واخوانه الذين كانوا مشردين في اوروبا وقتئذ الى مدثوار الارمن بمساعدتهم
الفعلية . اما الثوار الآخرون - منلى - الذين كانوا موجودين في تركيا فكان
هذا رأيهم ايضاً . فانهم لم يترددوا في ابداء سخطهم على عبد الحميد للضرر البليغ
الذي لحق القضية التركية وخصوصاً العثمانية من جراء تلك المذابح .

ثم اخذت الحالة في شكلها الحقيقي تبدو لبعض الناهيين من الثوار الارمن

فأنهم راوا أرمن القوقاز يسامون الحسف في نفس الوقت الذي لم تدخر فيه روسيا وسعاً للحصول على استقلال الأرمن المقيمين في تركيا ! وفي مقابل التعهد بعدم انشاء خطوط حديدية في شرقي الأناضول وعد القيصر السلطان عبد الحميد فعلاً بمنح الأرمن الذين فروا الى القوقاز بعد ثورة ١٨٩٦ من العودة الى تركيا ! ! .

وليس ادل من ذلك على نيات روسيا حيال تركيا فيما لاجدال فيه ان التعليم والرخاء المادى هما الركنان الاساسيان لسعادة الامم . ولا يقوم الرخاء الاعلى المواصلات كالسكك الحديدية والطرق . فالروس كانوا يطالبون بادخال الاصلاحات لسعادة وصيانة الولايات الآهه بالأرمن وفي الوقت نفسه كانوا يلحون علينا بعدم انشاء السكك الحديدية التي بها تحقق المطالب التي طلبوها منا ! فماذا كان رد ماندلستام على مسلك روسيا هذا ؟ ان كل رده لم يتجاوز الطعن المشهب على الكاتب الاوروبي الذي لفت انظار المنتصفين الى خطه روسيا وما قال احدان الشتائم تقوم مقام البراهين وانما يلجأ اليها السفهاء اذا اعوزتهم الادلة . فالالموبة المزدوجة التي كان الساسة الروس يلعبونها حدث بعقلاء الأرمن الى اعمال الروية . فلم يجدوا مندوحة من سؤال انفسهم السؤال الآتي (لو حصلت ارمينيا على استقلالها الذاتي الان تقع كالسائمة تحت نير روسيا الذي هو اسوأ من الحكم التركي أضعافاً مضاعفة) ومن ثم بذلت الجمعيات الثورية التركية أقصى جهدها في حمل (جمعية الدشنقزيتيين) وهي اكثر الجمعيات الارمنية اعتدالا واحسنها نظاماً على الاعتراف بالاصلاحات اللازمة لجميع الجنسيات في المملكة العثمانية وهي الاصلاحات التي كانت سائر الجمعيات تعمل للحصول عليها . ولا يجزراً ماندلستام أن يقول : - انني اختلفت تلك العبارات فان

(جمعية الدشنقزيتين) اشتركت في في المؤتمر العام الذي عقده حزب الاتحاد والترقي في باريس سنة ١٩٠٧ ونشرت برنامجها فظهر انه مشابهة للاصلاحات التي كنا ننشدها . ووعدت الجمعية ان تعمل بمجد واجتهاد مع جمعية الاتحاد والترقي . وكثيراً ما حادني مالوميان اقدني (عجنوني) أحد زعماء جمعية الدشنقزيتين في الاستانة في عام ١٩٠٨ عن الخطر الروسي المخلق فوق رؤوس الارمن .

ولكن وجد بين الجمعيات الثورية الارمنية جماعة يسمون (بالحنجاكين) و (الحنجاكين المصلحين) واغلب زعمائهم اجراء لروسيا - رفضوا كل تقام مع الجمعيات التركية وراحوا يسمون لانشاء دولة ارمنية تحت حماية روسيا والى نمى تلك الجماعات الروسية وللقود التي بذرها شمالاً ويمناً قناصل روسيا الذين كان لهم ضلع كبير في التشكيلات الثورية يرجع السبب في ان الحزب الديني نفسه شرع يقول: ان حماية القيصر الروسي خير من حماية الخليفة الاسلامي تلك كانت حالة الثوار الارمن والأتراك عند ما نشبت ثورة عام ١٩٠٨

وقد اعتمدت جمعية الاتحاد والترقي السربية المكونة في سلانيك كبرناج لسياستها الداخلية الدستور الذي وضعه (مدحت باشا) على أساس الاعتراف بالتبعية العثمانية وجعل الادارة لامركزية في الوقت نفسه . ولكن الجمعيات المقدونية البلغارية من جهة أخرى كانت مبالغة الى الامر كزبة السياسية بدون التقيد بالتبعية العثمانية . وحذت حذوها الجمعيات المقدونية اليونانية تحت زطامة (الانتسكي هيتريا) وجمعية الحرب الوطنية المقدونية والجمعيات الثورية الالبانية والارمنية والعربية (فالادارة اللامركزية) كان المراد بها الاستقلال الذاتي الاداري في

داخل المملكة العثمانية لسائر الجهات الآهلة بالجنسيات الوطنية المختلفة . فلو ان جمعية الاتحاد والترقي كان رأيها كراي اعدائنا في الخارج وجل غاية هؤلاء تمزيق

المملكة العثمانية حتى انهم لم يبقوا عند حد في سبيل دس الدسائس لما احدثت
 لحظة واحدة عن قبول مبدأ (الاستقلال السياسي أو القضائي) الذي يعتبر
 الأمير صباح الدين من اكبر انصاره . ولكن فرنسا كانت تمني نفسها بسورية
 وانجلترا تؤمل في الاستيلاء على العراق وشبه جزيرة العرب بأسرها وروسيا
 تتحين الفرص المناسبة لازدراد ولايات الاناضول الشرقية والبلغاريون والصربيون
 يطمحون الى تقسيم مقدونيا والنمساويون والايطاليون يرغبون في تجزئة البانيا
 واليونانيون يلحون بادماج جزر الارخبيل في مملكتهم - فهل كان يصعب على
 تلك الامم لو ان تلك الجهات كلها اعطيت (اللامركزية السياسية) ابتلاعها
 الواحدة بعد الاخرى ؟ هل كان مبدأ اللامركزية عندنا يقوى على صدمات
 الحوادث اكثر من اللامركزية في النمسا ؟ فهل فقدت عناصر التشيكوسلوفاك
 او الكروات او السلافين الأمل في الانسلاخ بتاتا من النمسا ؟ هل كان
 سلطان حكومتنا المركزية ونفوذها يكونان اشد فعلا واعظم اثرأ من سلطان
 الحكومة النمساوية ونفوذها في حماية الولايات المستقلة ضد اعداء اكثر عدداً
 واشد جشعاً ؟ ليس ثمة جهة تمتعت بقسط كبير من الاستقلال الاداري كما
 تمتعت به جزيرة كريد ومع ذلك هل نجحنا في حمل الكريديين على العدول
 عن السعي للانضمام الى اليونان ؟ لقد كان لجزيرة قبرص مركز خاص قبل
 الاحتلال الانجليزي ومع ذلك ألم نسمع الحكاية نفسها طاماً به - د عام ونرى
 تلك الرغبة القديمة رغبة الانضمام الى اليونان .

وهل استطعنا أن نمنع البلغار من الاستيلاء على الرومللي الشرقى مع انه
 كان متمتعاً بنصيب كبير من الاستقلال الذاتي الادارى ؟ وهل لقبنا انجلترا
 اى صعوبة في احتلال مصر التي كانت في طليعة ولاياتنا الممتازة ؟ هل احجم

الانجليز عن وضع ايديهم على الكويت - النابذة للخلافة العثمانية منذ قرون عديدة - بعد ان اعلنوا ان الشيخ مبارك الصباح قبل الحماية الانجليزية ؟ ام هل وجدت انجلترا اى صعوبة في اعتبار العراق واقعة في دائرة نفوذها بدعوى ان الاهالى المحليين متطلعون الى الحماية الانجليزية ؟ افلا يمكن ان يقال اذن نفس هذا القول من فرنسا حبال سوريا ؟ وهل نستطيع ان ننظر الى مقدونيا والباينا بغير العين التي نظرنا بها الى الروملي الشرقى او الى البوسنة والهرسك ولا اظن ان المتشبعين الفكرة (اللامركزية السياسية يستطيعون ان يجيبوا اجابة منطقية مرضية على كل هذه المسائل . واني لاؤكد لهؤلاء الذين يتهموننا بتهمة العمل على اتباع (سياسة تركية محضة) بأن سياستنا لم تكن تركية بل (سياسة الاتحاد العثماني) . ولو كانت اللامركزية مبدأنا لاتبعت جميعة الاتحاد والترقى السياسة (التركية) ذلك لأننا كنا نطالب وقتئذ بنفس الاستقلال الذاتي المحلى لسائر الولايات التي يتغلب فيها العنصر التركي اسوة بالولايات الأخرى . اذن فالذين يسمون انفسهم (اتراك) فقط ليسوا في الواقع الا من انصار (اللامركزية) لانهم في الحقيقة إنما يؤيدون السياسة التركية المحضة . ومن جهة اخرى نحن الالى كانت سياستهم ترمي الى الاتحاد العثماني قد كان مبدؤنا الاساسي بقاء سلطة الحكومة المركزية على الولايات على ما كانت عليه دون نقص ما مع منح الادارة المحلية في الوقت نفسه اوسع سلطة ممكنة وذلك طبعاً مع عدم المساس مطلقاً بوحدة الجيش .

وقد ادركت تركيا الفتاة ان الاتراك وحدهم - دون الجنسيات العثمانية المختلفة التي كانت تجاهد لترقية شؤونها - كانوا في عزلة تامة وبلا زعماء مطلقاً فبدأوا بدورهم - واسوة بالعناصر الاخرى - بالعمل للبعث القومي الكبير

نخطوا خطوات واسعات في سبيل نشر التعليم والتربية والاخلاق . وبالطبع ما كان لجمعية الاتحاد والترقي ان تقيم العقبات في طريقهم ولا اظن ان انصار اللامركزية كانوا يرغبون من جهتهم في مقاومة مجهودات الاتراك .

فهل يمكن اذن الادعاء بأن (تريك) الامم المختلفة كان المقصود من الطلب القاضي بجعل اللغة التركية اللغة الرسمية في المملكة العثمانية ؟ وهل كنا عاملين على (تريك) الامم الاخرى عندما قلنا انه ينبغي تحسين ادارة التعليم العام في جميع انحاء المملكة ووضعه تحت اشراف الحكومة .

لقد تأسست في الاستانة عقب اعلان الدستور عدة جمعيات وطنية مثل (اتحاد العرب) و (جمعية المساعدة) (المتبادلة الشركسية) و (الناصري الكردى) و (النادي الالباني) وغير اوائك فلماذا يقال : - ان انشاء (وطن عثماني) مضاف ان حكومة الاتحاد كانت لها مآرب في (تريك) الامم الاخرى فتلا - اذا تكلمت عن نفسي شخصياً قلت انني عثماني اولاً ولكن ذلك لا ينسبني انني تركي ولا يمكن لشيء مطلقاً أن يزعم اعتقادي ان الشعب التركي هو العمود الفقري للملكة العثمانية . فان العامل الاخلاقي والتدبني التركي هو الذي يوثق وحدة المملكة ويقويها . هذا لأن الامبراطورية لم تكن بادىء عهدا الامن صنع الاتراك .

وان أردت برهاناً على ذلك فانظر الى الحالة المحزنة التي نرى أنفسنا فيها الآن . انظر الى العرب الذين ثاروا ضدنا املا في الحصول على استقلالهم فأين هم اليوم ؟ وقد أشرت الى هذه المسألة من قبل .

الم تقع مصر تحت السيطرة الانجليزية على اثر خروجها عن الاتحاد العثماني ؟ اولم روا مصر الفتاة كلما جارت بالاحتجاج على تلك السيطرة هوت

عليها يدانجلترا الحديدية ؟ وليست منطقة الساحل السورية او اللبنانية بكافية
لسد جشع فرنسا لانها ترغب في احتلال المنطقة الداخلية أيضاً .

فهل يجترى احد في تلك البلاد أن يفوه بكلمة العثمانية ؟ كلا ! بل الامر
بالعكس انك لتسمع دائماً عبارة (لقد نخلصنا بحمد الله من النير التركي) !
تجربى على السنة ليفد من الخونة يعيشون من فضلات الحكومه . ولكن
الصوت الذي انبعث أخيراً من انحاء الاناضول - تلك البلاد التي بقدها الاتراك
ويعجدونها - ليصبح بان (الامبراطورية العثمانية) ما زالت على قيد الحياة
وان ابناهها الابطاح المقيمين في تراقية الغربية - ذلك الركن التركي الصغير -
لم يسأوا الجهاد في سبيل العودة الى حضيرة الوطن . وبالجملة كل الاتراك -
اينما كانوا - يكافون ويناضلون لانبث قوميتهم ويمجدون ملاذاً في الاسم العثماني
الجليل . وانا تاشدكل راغب في الاحتفاظ بالوحدة العثمانية أن يعرف الواجب
المفروض عليه اداؤه وهو معاضدة الاتراك ومؤازرتهم وتنمية عددهم واعطاؤهم
مكائهم الخايق بهم تحت الشمس .

وارجوا لايعتبر ذلك الخروج البسيط عن الموضوع لغواً وحشواً لاني
انما اردت به نشر ارأى الخاصة .

فعلا بالدستور اعربت جمعية الأتحاد والترقي المركزي عن رغبتها في
ادماج كل الجمعيات السياسية الثورية المختلفة في الامبراطورية في جمعية واحدة
يطلق عليها اسم (جمعية الأتحاد العثماني السياسية) ولادراك تلك الغاية وجهنا
اولاهتمامنا الى الجمعيات الثورية البلغارية ففتحنا باب المفاوضات مع ساندنسي
وشبرنو مكسيف واخوانها وارادنا ان يكون الاعتراف بالتبعية العثمانية قاعدة
للمفاوضات فرفض الفريق الآخر بتاتاً التحول عن خطتهم وطلبوا استقلال

مقدونيا الذاتي ولا يعلم الا الله مقدار ما اعترضنا من المصاعب في تلك المؤتمرات التي اشركت فيها انا وطلعت بك بصفتنا مندوبين . ولن أنسى ما حيت ذلك اليوم الا يوم الذي قضيته مع ساندنسكي في القرى البلغارية - منليك - تبرك - عثمانلي جمعه - البملا - وقت الانتخابات الاولى . ولكني بالرغم من ذلك امكثنا التفاهم مهم اكثر من الجمعيات الثورية الاخرى لأن الجمعية البلغارية المقدونية رفضت بتاتاّ العدول عن برنامجها .

واقترح يوناني حضر الى سلانيك للمفاوضة باسم جمعية (الانثيكي هيتريا) يضم جزيرتي كريدوساموس الى اليونان ومنح الجزر الاخرى استقلالاً ادارياً ذاتياً وما يسمى بمقدونيا اليونانية امتيازات واسعة . وتوحيض تركيا عن ذلك مخالفة تعقدها اليونان معها . فرفضنا تلك الاقتراحات طبعاً لاتالم نطالب بمقد معاهدة تركية يونانية بل طلبنا انضمام يوناني تركيا الى جمعية الاتحاد والترقي لتحقيق فكرة الاتحاد العثماني .

وفي آب سنة ١٩٠٨ انتقلت جمعية الاتحاد والترقي المركزية مؤقتاً الى الاستانة حيث بدأنا المفاوضات مع الامير صباح الدين والجمعية الارمنية على قاعدة المبادئ السابقة . وكنت انا وطلعت بك وبهاء الدين شاكر بك نمثل حزبا وكان الدكتور رشاد نهاد نائباً عن الامير صباح الدين ومالوميان افندي وشاريكيان افندي نائبين عن الارمن . فبين لهم كل منا بدوره مضار مبدأ اللامركزية على المملكة العثمانية . وكانت آراء الامير صباح الدين مشابهة لآراء (جمعية الاشنقزيتين) . وكادت اجوبة كل منهما تكون متائلة .

ومن المدهش ان الدكتور نهاد طلب الينا منح امتيازات أوسع مماطلبته الجمعية الثورية الارمنية واني الاعترف بمضار الامتيازات المنشودة . واخيراً

اقترح مالوميان افندي باسم جمعية الدشنقزيتيين الاقتراح التالي وهو : -
(أن تعمل جمعية الدشنقزيتيين يداً بيد مع جمعية الاتحاد والترقي
للمحافظة على دستور الامبراطورية العثمانية . اما فيما عدا ذلك فان كلامنا
الجمعيين تحتفظ بحريتها في العمل سواء أكان لتحقيق برنامجها الاساسي او في
اختيار الوسائل . ومعنى ذلك ان تحتفظ جمعية الدشنقزيتيين بتشكيلاتها الثورية
في تركيا مع هذا الفارق الوحيد وهو ان تلك التشكيلات التي كانت سرية الى
الآن تصبح علنية كجمعية سياسية ويعمل اعضاؤها في رابطة النهار جهراً)
ولم تكن لنا يومئذ مندوحة عن قبول ذلك الاقتراح . وبالاختصار لم نتجح بعد
مساع مستمرة وتضحيات هائلة استغرقت ثلاثة اشهر أو اربعة في ادماج
الجمعيات الثورية للفرق الأخرى في جمعية الاتحاد والترقي لأن أمانى الطرفين
كانت متناقضة وغايتها متباينة . فقد أرادت الجمعيات المذكورة أن تنشرن جهاراً
نهاراً دعوتها الحثيثة لطلب الاستقلال الذاتي ثم الاستقلال الكلي وهي الدعوة
التي كانت يدعى لها حتى الآن في الحفاء وكانت عرضة لا كبر الاخطار . وقد
كان الداعون اليها يملون أنفسهم بواسطتها بان سيصلوا الى تحقيق غاياتهم في
وقت اقرب . ولكننا أردنا من جهة أخرى ان تنكسب جمعية الاتحاد والترقي
نفوذ الجمعية المشتركة التي تمثل سائر الجمعيات الثورية للعناصر العثمانية محتذين
حذو المملكة العثمانية التي لم تصر الى ماصارت اليه الا باشتراك اولئك العناصر
المختلفة بالأتحاد العثماني ليصبح الدستور في مأمن من أي خطر .

فكما ان الجمهوريين في فرنسا يؤيدون اختلافاتهم الحزبية ويتحدون
جميعاً حتى يكونوا صفا واحداً ضد العدو متى راوا الجمهورية مهددة بالخطر كذلك
أرادت جمعية الاتحاد والترقي المؤلفة من جميع الجمعيات الثورية السابقة أن

تطلب الى جميع اعضائها القيام صفا واحداً ضد اي اعتداء ولو كان بسيطاً على الدستور . وكما ان الجمهوريين في فرنسا يتألفون من رجال اختلفت آراؤهم ومذاهبهم السياسية ومن بينهم اشباع الاحزاب المتباينة أرادت جمعية الاتحاد والترقي ان تكون مكونة من مختلفي الآراء السياسية بحيث تمثل فيها الاحزاب بأسرها دون ان يكون في ذلك ضرر ما على نزوات اعضائها القومية او الدينية . ولم يكن بين الاحزاب السياسية المختلفة التي كانت أمانياها وطنية محضة حزب واحد قد قبل هذا البرنامج الاعلى لأن تلك الاحزاب كانت في الواقع تتلقي التعليمات والوحي من الخارج ولم يكن الاشخاص الذين طأوضونا الا مجرد صور . وبهذه الطريقة ظلت جمعية الدشنقزيتيين التي كانت اكثر الجماعات ميلا اليها وكانت نخشى فعلا سقوط أرمينيا في ايدي روسيا محتفظة بتشكيلاتها واعلنت نيتها في مواصلة الجهاد لتحقيق أمانياها السياسية . اما جماعة حنجاكي الارمن والحنجاكيين المصلحين فقد رفضوا بتاتا مفاوضاتنا أو مفاوضة زعمائهم في الاستانة وفضلوا أن تكون علاقاتهم بالسفارة الروسية بصورة علنية .

وفي عام ١٩٠٩ قررت وزارة حسين حلمي باشا بإعاز جمعية الاتحاد والترقي ارسال لجنة تحقيق الى الولايات الشرقية لتسوية الخلافات الزراعية التي شجرت في تلك الولايات بين الارمن والآراك والاكراذ . وعين غالب بك العضو بمجلس الاعيان وبالمحكمة الادارية العليا رئيسا لتلك اللجنة التي تكونت منه ومن عضوين تركيين وآخرين ارمنيين . وكان الصاغ زكي بك التابع لهيئة أركان الحرب احد العضوين التركيين وكانت صلاته بجمعية الدشنقزيتيين حسنة اثناء اقامته في اوروبا . وكنت انا العضو الثاني . وطلب زعماء الدشنقزيتيين مرة اخرى ان اكون احداً من أعضاء تلك اللجنة ذلك لأنهم عرفوا من المفاوضات

السابقة أن آرائي كانت معدلة لانهجيز فيها ووقر في نفوسهم ان قراراني ستكون
بالنسبة لكوني عضواً في الجمعية المركزية بمنجاة من اعتقادات الجمعية .
فارتحت لاقتراحهم ذلك وغادرت سلانيك قاصداً الاستانة . ومع ذلك
قد قوبل اقتراح الحكومة بالمعارضة العنيفة في مجلس المبعوثين من مندوبي
الولايات الشرقية الذين حاجوا بأن ارسال لجنة تحقيق كهذه هو بمثابة اعتداء
على سلطة الحاكم العام الدستورية .

واذ اظهر فريد باشا وزير الداخلية وقتئذ ضعفاً متناهياً في المجلس في
الدفاع عن خطة الحكومة فقد ثبتت اقل الوقت في الاستانة الى أن وقعت حوادث
١٣ نيسان سنة ١٩٠٩ المشهورة . فبعد هذه الحوادث طرح الاقتراح في
زوايا النسيان نهائياً وفي نهاية مايس سنة ١٩٠٩ عينت حاكماً لاسكدار .

حادث أطننة وما بعده

في نفس الوقت الذي نشبت فيه ثورة ١٣ نيسان بقصد القضاء على زعماء
جمعية الاتحاد والترقي واشباعهم كانت اطننة تهج بمذبحة تركية ارمنية مروعة
واذ عينت حاكماً لاطننة حوالي منتصف آب سنة ١٩٠٩ أي بعد ذلك
الحادث بأربعة أشهر استطيع ان اقول : انني اقدر انسان على تحري الاسباب
السيكولوجية التي أدت الى تلك المذبحة التي تعتبر من أسوء الفجائع في تاريخ
الدستور العثماني .

فان الأهالي الملكيين في كل ارجاء المملكة اصبحوا بعد اعلان الدستور
من العناد والتمرد بحيث صار من المتعذر على كل انسان عظيمًا كان أو حقيراً حتى
الحاكم العام نفسه ان يكبحوا جماحهم : فان لفظة (حرية) اولها الجمهور

والصحف على غير وجهها وحسب كل انسان انه صار في حل من ارتكاب ما يشاء ايناه يشاء بلا حساب ولا عقاب . واذ ذاك أصبح كثير من الولاة وعدد من رجال الشرطة والموظفين القضائيين الذين ساموا الاهالي الخسف والارهاق خلال الحكم الحميدي عرضة للاعتداءات الشنيعة غير القانونية . وكم طاف الشوارع والطرق رجال لم يسمعوا من قبل اعلان الدستور حتى باسم جمعية الاتحاد والترقي مدعين انهم (ابطال الحرية) وذهبوا الى ابعاد مدى حتى انهم منعوا موظفي الحكومة من القيام بما يجب عليهم . وان مذكراتي عندما كنت عضواً في الجمعية المركزية عن الايام الاولى التي اعقبت اعلان الدستور لمشحونة بأمثال تلك الحوادث .

ولم تتراخ الجمعية في بذل كل ما في وسعها لوقف تلك الاعتداءات وحماية كل انسان مذنباً كان او بريئاً من المهاجمات غير القانونية . ولكنها تسير الجمعية الجمهور على السنن الاصلية في منهاجها عهدت الى بعض المبعوثين المخصوصين بالسفر لتكوين فروع في الجهات التي لم تكن انشئت فيها بعد فروعها . الا انه لم يحسن وبالسوء الحظ اختيار اولئك المبعوثين . فان بعضهم التي بنفسه في تيار الفوضى الذي جرف الاهالي ونسي الفرض الاصيل الذي يرمي اليه قانوننا وهو الاحتفاظ بسمعته الحكومة ونفوذها في الارياف .

وعقب ذلك ظهور لفيق من الساسة سموا انفسهم بمعارضى (جمعية الاتحاد والترقي) . فآخذوا من التأويل الغريب الضار الذي اولت به لفظة (الحرية) في الصحف سلاحاً لمهاجمة الجمعية وايقاع البلاد في الفوضى التامة ولما كانت الحكومة مجردة من كل نفوذ وسلطة في عاصمة المملكة نفسها كان من السهل تقدير الحال في الارياف . فان الاشخاص الذين اخفقوا في الحصول

على مراكز مهمة في الجمعيات المحلية التي انشأتها جمعية الاتحاد والترقي انشأوا
فروعاً للجمعيات السياسية المختلفة التي تكونت تدريجياً في الاستانة واخذوا
يثارون لانفسهم بتلك الطريقة .

وبينا المسلمون والأتراك منسقين على انفسهم اذا بالطوائف المسيحية
تعمل بلا انقطاع بواسطة جمعياتها لتحقيق مآهجها .

وانك لترى في ولاية اطنة الاعلىية الأتراك . ويليهم الارمن ثم العرب
(ويعرفون باسم العرب العشاقى) ثم اليونانيون . ويبلغ عدد سكان الولاية
٥٥٠ الف منهم ١٠٠٠٠٠ ارمني و ٢٠٠٠٠٠ - ٢٥٠٠٠٠ عربي عشاقى و ١٠٠٠٠٠
١٥٠٠٠ يوناني والباقي أتراك . وقد لبث اولئك الاقوام الذين تنحصر اعمالهم
في الزراعة عدة قرون في سلام ووثام ، وما لا جدال فيه ان ولاية اطنة هي
ولاية تركية حتى قبل مجيء العثمانيين بزمن بعيد فان هؤلاء اخذوها عنوة من
الاسرة التركية التي كانت تحكمها وقتئذ المسماة بأسرة (رمضان او غله اي)
ومع ان التاريخ يذكر ان مملكة ارمنية يقال لها كليكييا كانت موجودة في
تلك الجهة على عهد الصليبيين ، يقول المحققون ايضاً ان عدداً كبيراً من الأتراك
استوطن تلك البلاد حوالي ذلك الوقت وان بكوات الأتراك الانفطاعيين لم
يستمرثوا سرعى تلك المملكة .

فمعظم الارمن القاطنين في ولاية اطنة الآن اصلهم من ديار بكر وسواس
ومعمورة العزيز . وقد تركوا ديارهم في خلال القرن التاسع عشر طمعاً في
الرزق والكسب . اما الارمن الذين يصح ان يقال حقاً انهم مولودون في اطنة
فيجدهم الانسان في مدينة (حاجين) الواقعة على حدود الولاية الشمالية وفي
بضع قرى بالقرب من سيس اشهر سنجق قوزان وفي دورت يول وعلى شواطىء

خليج أسكندرونة وبعض القرى المجاورة .

اما العرب المشاقي فهم فريق من الأهالي الذين نقلوا من سنجق اللاذقية على عهد حكومة السلطان عبد العزيز لوراثة سهل اطنه الذي كبر وقتئذ في غاية الخصوبة ولم يكن أهلاً بالسكان .

وقد لبث الاتراك والارمن - كما سبقت الاشارة الى ذلك - كما لبث بقية السكان بعضهم مع بعض على أم صفاه ولم يكن أحد يتوقع ان يشجر أي خلاف بينهم . ولم يقع شيء ما في ولاية اطنة أبان الاضطرابات والمذابح التي حدثت في سنة ١٨٩٤ - ١٨٩٦ . وعمل الاتراك والارمن جميعاً لمنع انتشار القلاقل الى اقليمهم . ولم تخل مجهوداتهم من النجاح .

وما كاد الدستور يعلن حتى انشأ ارمن اطنة فروعاً لجمعية المشنقزيتيين والحنججاكيين المصلحين معارضة للجمعيات السياسية التركية التي كانت في دور التكوين أو بعبارة اخرى واصلت تلك الفروع بصفة علنية العمل الذي كانت تقوم به الجمعيات سرّاً .

وكان قس اطنة وقتئذ شاباً كثير الاطماع يدعي بموشيج افندي وكان أيضاً زعيم جماعة الحنججاكيين المصلحين . وكان معروفاً بين الارمن بالدعارة والفسق . ولوصدق الانسان ما نقوله فيه الارمن لحكم بلا مبالغة بان الرجل كان جماع الفراز الذميمة .

فعلى اثر اعلان الدستور جعل الموانسينور موشيج يعتبر نفسه زعيم اطنه الديني والسياسي . ولقد سمعت ان ذلك القس استخفه الطيش ودفعته الوقاحة الى توهم ضعف الحكومة فأتى امرأً تنكراً في حضرة الحاكم العالم في اجتماع عقده المجلس الاداري وغادر القاعة وهو يحتدم غضباً بعد ان هدد بلطم وجهه

قائد جندرمة الولاية . بل لقد اخبرني كثير من الارمن ان عدداً من خدمة الكنائس أتباع المونسنيور موشيج وصلت بهم الوقاحة وقتئذ الى ان يعلموا جهاراً بان لا يمضي زمن طويل حتى يتخلص الارمن من النير التركي .

وان من العدل ان اقول : ان مندوب الدشنقزيتيين لم يكن له ضلع في الاعمال التي قام بها المونسنيور موشيج وما برح يلفت نظر مبعوثي جمعية الدشنقزيتيين في الاستانة الى نتائج اعماله السيئة .

ولم يقع المونسنيور موشيج بكل ذلك . بل ارسل الى اوروبا في طلب البنادق والمسدسات اللازمة لتسليح الارمن . وكانت الحكومة في ذلك الوقت قد اباحت الانحجار بكل شيء حتى الاسلحة وجلبها من الخارج . وقد صرح المونسنيور موشيج في جميع الجهات (بأن الارمن أصبحوا مسلحين لا يخفيهم تكرار مذابح سنة ١٨٩٤ وانه لو حدث شيء لو احد منهم لقتل في مقابله عشرة من الاتراك) فهذه التصريحات مضافاً اليها اعمال المونسنيور المذكور اضطرت الاتراك الى اتخاذ اجراءات مماثلة .

وهنا تبدأ مسؤولية حكومة اطنة في ذلك الوقت . فان الاعتذار بالضعف لا يمكن قبوله من اي حكومة اذ انها متى تبين لها ان هياجا ليس بمشروع كهذا الهياج الذي يقوم به المونسنيور موشيج اخذ يؤثر التأثير الشديء في الاهالي المحليين ، تعين عليها ان تلتقي القبض عليه وعلى اتباعه فوراً وايضاً على كل تركي يظن فيه الرغبة في احداث القلاقل وان تشرع تواء في عمل تحقيق قانوني وان تهدد - اذا اقتضي الحال - باعلان الحكم العرفي في الولاية باسرها . ولكن الصدر الاعظم حسين حلمي باشا لم يكن ليجرأ على اتخاذ وسائل شديدة في الاستانة ولذلك كان هو اول من وجهت اليه الاهانات الجارحة من اعضاء

الجمعية المحمدية في الطريق المؤدي الى الباب العالي اثناء تشييع جنازة الصحفي
حسان فليمى بك . فأول واجب على الحكومة هو ان تفهم الشعب ان نعمة بونا
شاسماً بين الحرية والفضى . ولكن المملكة العثمانية لم تكن لها ذبا لسوء الحظ
حكومة كهذا في اواخر عام ١٩٠٨ وارايل ١٩٠٩ .

وكان جواد بك هو الحاكم العام لأطنة وقتئذ . ولقد كان والحق
يقال مثال الاستقامة بيد انه كان أيضاً لسوء الحظ مثال الضعف الاداري .
فلم يكن كفوءاً بحال ما لتحمل الاعباء التي تلقى على طاق وال كوالى اطنة
اما قائد الفرقة فكان مصطفى رنيزى باشا وهو جندي خير وصل في ايام صباه
بمعظم مجهوداته الى درجة رفيعة وظل طول حياته متمسكا بالتقاليد الوطنية
الشريفة . غير انه ليس في الامكان ان يقال - ان مثل ذلك الضابط الطاعن
في السن والمجرد من كل سلطة شرطية كان حائزاً للصفات المطلوبة في شخص
حاكم اطنة العسكري .

وكان آصف بك هو متصرف جبل بركات . وكان شديد الخوف
وعديداً حتى انه ليفزع من ظله . ولطالما ادهشني ان ارى مثل ذلك الشخص
في منصب وكيل الحاكم .

وفي اوائل سنة ١٩٠٩ راجت اشاعة فواها ان الارمن سينورون على
الانراك ويبيدونهم على بكرة ايهم في القريب العاجل . وانهم يتحينون الفرصة
المناسبة ومتى حانت سمحوا لفصائل من اساطيل الدول الاوروبية باحتلال
الولاية وعندئذ يشرعون في انشاء دولة ارمنية . ولقد ثبتت الانراك من صحة
تلك الاشاعات الى ان ادى لهم الحال ان كثيراً من عايتهم نقلوا اسرهم الى امكنة
حريزة حصينة .

وقد وصل الى سمعي ان بعض اعضاء جمعية المحمدي ارسلوا خصيصاً
من الاستانة الى اطنة يحذرون الاهالي من الثورة الارمنية المنتظرة ولكن لم
أوفق مطلقاً للتثبت من صحة تلك الاشاعة .

وما وافي شهر نيسان سنة ١٩٠٩ حتى صارت العلاقات بين الفريقين
متوترة وبات كل فريق يخشى أن ينقض عليه الفريق الآخر في أي لحظة .

وما زال الامر كذلك حتى بزغت شمس يوم ١٤ نيسان فبدأت (حادثة
أطنة) بإيعاز من الموانسينور موشيج باعتداء الارمن . وغدت أطنة وطرسوس
وحميدية ومسمس وأرزيني ودورت يول وعزربي بل كل الجهات التي يقطنها
الارمن مسرحاً لمذبحة مروعة يعجز القلم عن وصف هولها . وقد ظهرت الحكومة
بمظهر العجز المتناهي حتى في عاصمة الولاية فذهبت في ساعة حيرتها هذه الى
حد ائارة الفوغاه في تلك الجهات لمنع اعتداء الارمن على الاتراك .

فلما وصلت الانباء بأن أرمن دورت يول المسلحين أخذوا يقتربون من
أرزيني أشهر مدن سنجق جبل بركات لم يجرأ المتصرف آصف بك على مغادرة
غرفته . بل أخذ يبرق الى سار قري اللواء بالبرقيات المثيرة مثل قوله :

(لقد أصبح المسلمون مهدين بخطر الابداء فمن الواجب على كل رجل
يحب وطنه وامته أن يهرع الى السلاح وأن يبادر في الحال الى سنجق جبل بركات)
ولم يكن نعمة ريب في ان أرمن دورت يول كانوا يريدون بالزحف على
أرزيني ذبح الاتراك القاطنين في جبل بركات . بيد انه كان من الخطأ الذي
لا يمكن التجاوز عنه أن يجس المتصرف نفسه في حجراته ويوحى للاهالي بأن
يفعلوا ما يشاؤون لأن الناس حين يرون الخطر محققاً بهم لا يكتفون بدفع
المتعدين والأتخان فيهم قتلاً وجرحاً بل قد يتناولون العزل من السلاح والمعجزة

كالنساء والشيوخ والاطفال ثم يختمون عملهم بتحريق المدن والقرى والضياع .
وذلك لعمري هو ما وقع بالفعل .

تلك كانت اسباب الحوادث الاولى في اطنة . أما الحوادث التي وقعت
بعد ذلك بعشرة أيام وكانت قاصرة على مدينة اطنة فسببها طلقات ناربية
أطلقها بعض شبان الارمن على معسكر الجنود . فترتب على ذلك أن ازدادت
المذبحة سوء على سوء .

والذي أراه ان المونسنيور موشيج هو المجرم الحقيقي ولكن الحاكم
يشاركه في الجريمة لانه لا بد ان يكون قد عرف مبلغ خطر ذلك الرجل فلم
يتخذ العدة اللازمة لكبح جماحه . فقد كان من الخطاه البين أن يسمح
بانزاع زمام الحكم من يده في مثل ذلك الوقت المصيب وأن يظهر ذلك الضعف
الشائن حيال غوغاه أو غلت في القتل والسلب

أما الامر الثابت فهو مارسخ في نفوس الاتراك والمسلمين قبل وقوع
تلك الحوادث بشهرين أو ثلاثة واستقر في أذهانهم ان لافرق في ذلك بين طبقات
الجمهور والدوائر السياسية في ولاية اطنة وهوان الارمن كانوا كل يوم تصل
اليهم اسلحة جديدة للقيام بمذبحة أخرى ومن أجل ذلك يرون انهم أمسوا
في خطر شديد . وما أظن على رسوخ تلك العقيدة لهجة التحدي والتطرف
التي استعملها المونسنيور موشيج .

وليسه الاسباب السيكولوجية التي بسطتها هنا هي رأيي الخاص . بل
شاركني فيها الماجور دوني وبلي القنصل الانجليزي في اطنة . واني لشديد
الاسف من أن ذلك العظيم الشريف الذي أظهر منتهى البسالة في وقائع الدردنيل
وضحى بحياته خدمة لبلاده ليس موجوداً الآن فيؤيد اقوالي .

ولقد قص علي المستر تشامبرز المبشر الاسريكي والمستر كريستن مدير كلية طرسوس الامريكية نبأ الفضائع المروعة التي ارتكبها الاتراك وعرب العشاق في اثناء المذابح بيد انها أثبتالي بان المونسنيور موشيج هو المحرض الاول والاصل الفعال في المذبحة .

وقد قتل في تلك المذبحة ١٧٠٠٠ - أرمني و ١٨٥٠ تركي . وان هذه الارقام لتدل على ان الارمن لو كانت لهم الاغلبية لانعكست الآية ولفاضت أرواح الأتراك على سفارسيوف الارمن وتساوي الفريقان في ارتكاب الفضائع ولم يحجم الارمن لحظة عن الفتك بالنساء وذبح الاطفال . وقد قاتلهم الاتراك بالمثل وعلمت الشيعيين سورة الغضب فتساووا في الانتقام . ولما عينت حاكما لاطنة وضعت الحكومة تحت تصرفي ٢٠٠٠٠٠٠ جنيه مجيدي . وقد تقرر في ان ينفق نصفها في احادة بناء بيوت الارمن والأتراك في المدن والقرى المحترقة وأن يعطى النصف الآخر قرضا للتجار الارمن وفملتهم وزراعتهم لمساعدتهم على استئناف أعمالهم على شرط الاتسدد تلك القروض قبل مضي عشرة اعوام . فانشأت في اطنة لجنة للتعمير تحت رئاستي . وكانت مشتملة على عدد من الاجانب كالمبشر الاسريكي المستر تشامبرز وكثير من الوطنيين واغلبهم من الارمن وبفضل الاجراءات التي اتخذتها لم يمض سوى اربعة أشهر من يوم وصولي اليها حتى تم بناء جميع البيوت الارمنية في الولاية ولم تبق ثمة دار لأسرة صغيرة الا وقد فرغ من بنائها . وبالجملة ما كادت تمضي خمسة اشهر أو ستة حتى استأنف الارمن اعمال التجارة والزراعة والصناعة وانمحي ولو ظاهر أكل اثر للعداوة السالفة بينهم وبين الاتراك .

وان ماندلستام لكاذب في الدعوى التي ادعاها وخطها في صفحة ٢٠٥

من كتابه اذ يقول : - ان مذنبى المسلمين لم يشفق منهم سوى تسعة اشخاص
من لاجئين لهم . وهي دعوى لا تركز الاعلى ما خطه أحد متحيزى اليونانيين
المسمى ادوسيدس المعروف بشدة حقه على الاترك .

اذ اننى بعد وصولى اليها باربعة أشهر أمرت باعدام ما لا يقل عن ثلاثين
من المسلمين اثبتت المحكمة العسكرية اذانتهم . وبعد يومين أعدم فى ارزين
سبعة عشر شخصاً آخرون كان من بينهم أعضاء أسر عريقة معروفة فى أطنه
مثل مفتى قضاء باغيس الذى أحبه حباً جماً الاترك المقبمون فى حبه .

وقد نجح المونسنيور موشيج بعد هذه الحوادث بيومين فى الهرب الى
اسكندرونة على ظهر باخرة اجنبية واني لشديد الاسف على فراره من يدي
ولقد استحق ان يحكم عليه غيابياً بالاعلام . ولو وقع فى يدي لامرت بشنقه
امام مفتى باغيس .

ولم ينكر الارمن انفسهم قدر ما بذلته من الجهود فى مصلحتهم واعادة
املاكهم اليهم وقما كنت حاكماً طاماً فى اطنه . ولقد شهد بذلك كثير من الاجانب
من فرانيين وانجليز وامريكيين وروسيين جاؤوا الى اطنه وهنأوني على ما
فعلت . ولا زال الدار التى انشأتها لقبول الاطفال الذين يتمتهم حوادث
أطنه وتربيتهم قائمة .

الاصلاحات

عند ما تركت ادارة بغداد فى آب سنة ١٩١٢ (وكنت قد أرسلت
اليها من أطنه) وعدت الى الاستانة كانت المملكة العثمانية تجتاز دوراً من أشد
الادوار فى تاريخها . فقد كنا اولاً فى حرب طاحنة مع ايطاليا . وثانياً كانت

بلغاريا والصرب والجيل الاسود واليونان قد تحالفن علينا وجعلن يتحرفن بنا ويتلمسن سبباً لاعلان الحرب علينا . وثالثا كانت البانيا نائرة . ورابعا كانت الصحف العربية تقذف اللحم على الحكومة مطالبة بالاصلاحات في الولايات العربية . وخامساً كان البطريرك الارمني يرسل الى الباب العالي المذكورة تلو المذكورة مطالباً بالاصلاحات في ارمينيا . وسادساً - وهو أشد ما واجهنا من الاخطار - تكونت جمعية من الضباط واطلقت على نفسها اسم (جمعية محرري الضباط) وجعلت قايماً نشر الفوضى والاضطرابات في الجيش . ومن أجل هذا يمكن ان يقال بحق ان الجنود المرابطة في الدردنيل وفي ازير والبانيا تمردت واضطرب نظامها

وكان على رأس الحكومة وقمئذ وزارة الغازي مختار باشا وبين هذه المتاعب كلها نشبت الحرب البلقانية . فآتتهز ساسة روسيا فرصة هزاً من الحربية وشرعوا في العمل . فخرضت فرنسا العرب للمطالبة بالاصلاحات في سوريا وبعث البارون فون جيرس سفير روسيا في الاستانة المسألة الارمنية من مرقدتها مرة اخرى وارسل الى وزير الداخلية المذكورة التالية بتاريخ ٢٦ تشرين الثاني سنة ١٩١٢ وهي :-

« منذ حوادث ١٨٩٤ - ١٨٩٦ - التي لانزال عالقة بالاذهان عندما كانت آسيا الصغرى والاستانة ينهمر منها الدم من جراء المذابح الارمنية الوحشية لم تتحسن الحالة بشكل ما . فلم تنفذ بعد الاصلاحات التي اقرها السلطان عبد الحميد في يوم ٢٠ تشرين الاول سنة ١٨٩٥ بناء على الحاح روسيا وفرنسا وانجلترا . وقد اخذت المشكلة الزراعية زراد حرجاً من يوم الى آخر . وذلك لأن معظم الضياع قد استولى عليها الاكراد وان السلطات بدلا من منع تلك

المصادرة غير القانونية تحمي المعتصمين وتساعدهم . وقد اجمعت التقارير الواردة من قنصلياتنا على ارتكاب الاكراذ لأعمال السلب كما تشير الى الابتزاز الذي لا مثيل له وقتلهم الارمن ونحويلهم النساء الارمنيات عنوة عن دينهن . اما الاشرار فقلما يماقبول كما يقضي القانون . وان المذكرة التي قدمها بطريرك الارمن في الاستانة للباب العالي ولوزير الداخلية لهي صورة حقيقية للبوؤس والاضطهاد الذين يتعرض لهم رعايا السلطان الارمن .

(فدوام هذه الحالة هو السر في ان الشعب الارمني اصبح الآن اكثر تطلعا الى روسيا وان القنصليات الروسية في ارمينيا لشهيدة على حقيقة الشعور العام هناك . فالارمن يطالبون بادخال الاصلاحات تحت اشراف روسيا بل هم يطلبون الاحتلال الروسي . ويتوسل كاثوليك الارمن بروسيا (حامية المسيحيين في الشرق من قديم الزمان) ويسألونها باسم العلي الاعلى أن تأخذ تحت حمايتها الاهالي الارمن البوؤساء المقيمين في ارمينية تركيا . وعندى ان المسألة الارمنية لعظيمة الالهية بالنسبة لروسيا واطلب ان تعمل الحكومة كل ما ينبغي عمله لمعالجة الاحوال . واني ارى ان الاحتلال سابق لاوانه واشير بادخال الاصلاحات . ولكن ذلك لا ينسبني الاهمال الخزي الذي قوبل به الامر العالي الصادر في سنة ١٨٩٥ . وعلى ذلك اني أتح بان يكون ادخال الاصلاحات تحت اشراف روسيا الفعلي او الموظفين الاوروبيين . ونظراً لحالة الفوضى السائدة في تركيا اليوم ينبغي الا يغفل ذلك الاحتمال وهو ان الاصلاحات قد لا يكون لها الاثر المطمئن المطلوب فتضطرب جنودنا وقتئذ الى احتلال تلك الجهة) وقد كان كاثوليك اتشميزان في روسيا ارسلوا باغوص نوبار باشا في اوائل عام ١٩١٢ الى الوزارات الاوروبية بمهمة المطالبة بالاستقلال الذاتي

الاداري لارمينية تركيا . ولم تكن هذه الاجراءات الاجزاء من السياسة الروسية
فما اقرب اوجه الشبه بين المنحى الذي نحتته روسيا (الذي ارادت به
اخفاء نياتها الحقيقية حيال الارمن) والسياسة التي كانت فرنسا تتبعها في سورية
فقد صرح احد مسلمى بيروت والعضو بالمؤتمر العربي الذي التأم في
باريس في اول عام ١٩١٣ للمسيو بيشون وزير الخارجية بما نصه : -

(ان غرضنا الوحيد برغم عقدنا المؤتمر في باريس مازال الحصول على
الاصلاحات للولايات العربية من الحكومة العثمانية وحدها . فنحن لا نريد في
سورية احتلالا او حماية فرنسية) .

ولكيما يبين ان فرنسا ليس لها مآرب خفية في سورية ابرق المسيو بيشون
بفص ذلك التصريح الى المسيو بومبار السفير الفرنسي في الاستانة . وحوالي
ذلك الوقت نفسه صرح الروس في يوم ١٥ مايس ١٩١٣ بمثل هذا التصريح
بالفاظ تكاد تكون مشابهة لالفاظ باغوص نوبار باشا .

على ان ما قلته هنا يؤيده الخطاب التالي المؤرخ ١٣ مايس الذي ارسله
المسيو اسفولسكي سفير روسيا في باريس الى المسيو ساز ونوف وزير خارجية
روسيا اذ جاء فيه : -

« ان باغوص نوبار باشا اكد مراراً - ان ارمن تركيا لا نية لهم
مطلقاً في الخوض في مسألة الاستقلال او في التغييرات الدستورية ! بل ان
غرضهم الوحيد هو الحصول على الاصلاحات التي اوصت بها روسيا وفرنسا
وانجلترا . والمنصوص عليها في معاهدة برلين وهي اصلاحات ظلت حتى الآن
كبة مهمة » .

وعندي ان هذا التوارد العجيب في خواطر المصلحين العرب والارمن

لدايل كاف على السياسة التي كانت روسيا وفرنسا تفمهما بقصد تمزيق تركيا .
واخيراً لم يحل يوم ٢٢ مايس سنة ١٩١٣ حتى اخذ وزير خارجية
روسيا يخطو اول خطوة في مسألة الاصلاحات الارمنية . ففي البرقية المرسلة
في ذلك التاريخ الى السفير الروسي في برلين طلب المسيو سازونوف الى
الحكومة الالمانية ان تنضم الى الدعوة الدولية المراد ارسالها الى الباب العالي
ويوافق تاريخ تلك الدعوة اليوم الذي وجدت الحكومة العثمانية نفسها فيه -
بعد ان اصبحت عاجزة عن استمرار القتال - مضطرة الى توقيع الصلح الابتدائي
في لوندرا والاعتراف بخط اينوس مبدئياً حداً بين تركيا وبلغاريا .

وحوالي ذلك الوقت ايضاً بدأت المظاهرات الوطنية الارمنية في الستانة
تأخذ شكلاً غير مأروف . فان الارمن احتفلوا احتفالاً كبيراً بذكرى اكتشاف
احرف الهجاء الارمنية وقد بلغت بهم الوقاحة الى حد ان ينثروا في الشوارع
- ورق السكونفيتي - ذلك الورق الرقيق الذي ينثري في الاعياد والافراح وعليه
علمهم الوطني . فاحتملنا ذلك كله بصبر وثبات واخذنا العدة اللازمة لمنع وقوع
حوادث مكدره . وكنت وقتئذ الحاكم العسكري للستانة . فذهبت بناء على
دعوة من الارمن الى حديقة طشيبوز والقيت فيها خطاباً مسهباً اتذيت فيها
اطيب الثناء على الامة الارمنية .

اما الطريق الذي سلكه وزير خارجية روسيا فهو انه سلم الى مندوبي
الدول العظمى في الستانة صورة من مشروع جديد قائم على المشروع الذي
اقرته الحكومة العثمانية في سنة ١٨٩٥ فوافقت عليه فرنسا وانجلترا بلا تردد
ولا توان . وكانت المانيا الدولة الوحيدة التي اقترحت ان ترسل الى الباب
العالي دعوة لتعيين مندوبين مفوضين يشتركون في اعمال اللجنة التي تؤلف

من مندوبي السفراء . بيد ان روسيا ضربت بذلك الاقتراح عرض الحائط .
وفي النهاية أمكن الحصول على موافقة المانيا على انشاء لجنة من مترجمي السفارات
تشكل لدراسة المسألة الارمنية . وبهذه الصفة منعت الدولة المختصة الوحيدة
(تركيا) من ابداء رأيها .

وقبل ان تبدأ اللجنة اعمالها كانت روسيا قد جهزت فعلاً مشروعا
للاصلاحات وضعه المسيو مانديلستام المترجم الاول للسفارة الروسية . واني اترك
لضمير واضع المشروع وذمته الحكم فيما اذا كان في استطاعته - وهو يتذرع
بالاحتفاظ بحقوق احدى الاقليات في مملكة عظيمة - ان يوفق بين حياته وبين
تقديم مشروع كهذا الى دولة مستقلة ! ونظراً لعظم اهمية المشروع الروسي
اثبتته هنا بنصه . -

المشروع الروسي

- الاستانة في ٨ كانون الثاني سنة ١٩١٣ (الكتاب البرتقالي رقم ٥٠) .
مشروع الاصلاحات الارمنية لواضحة م . ا . مانديلستام المترجم الاول
للسفارة الروسية في الاستانة المسند الى ما يأتي : -
اولاً - المذكرة التي قدمها سفراء فرنسا وروسيا وانجلترا في الاستانة
بشأن الاصلاحات الارمنية في نيسان سنة ١٨٩٥ .
ثانياً - مشروع الاصلاحات الادارية لولاية ارمينيا لواضحة سفراء
فرنسا وانجلترا وروسيا في نيسان سنة ١٨٩٥ .
ثالثاً - الامر العالي الشاهاني الخاص بالاصلاحات الارمنية الصادر في
٢٠ تشرين الاول سنة ١٨٩٥ .

رابعاً - مشروع قانون الولايات لتركية اوروبا الذي وضعته اللجنة
الاوروبية في ١١ - ١٣ آب سنة ١٨٨٠ .

خامساً - قانون الولايات الصادر في سنة ١٩١٣ .

سادساً - الاوامر والمفاوضات الخاصة بسوريا .

١ : اولاً - تتألف ولاية واحدة من الولايات الست الآتية وهي : - اضروم
ووان وتبليس وديار بكر وخر بوط وسيواس مع استثناء بعض جهات الحدود
مثل حكيارى والقسم الجنوبي من جهات سيواس وبسيركس وملانيامس والجهات
الواقعة في الجنوب الشرقي لسيواس .

ثانياً - تنقسم الولاية اداريا الى ثلاثة اقسام سنجق وقضاء وناحية .
ثالثاً - ترتب الابريشيات بشكل يسمح بتكوين الجماعات الوطنية المتجانسة
من الوجهة الاثنو جرافية .

(راجع المادة الاولى في مذكرة السفراء الثلاثة سنة ١٨٩٥ والمادة
السابعة من مشروع الحلفاء الموضوع في عام ١٨٩٥) .

٢ : ينبغي ان يكون الحاكم العام لولاية ارمينيا من الرعايا المسيحيين العثمانيين
ويحسن ان يكون اوروبيا يعينه جلالة السلطان لمدة خمسة اعوام وتقره الدول العظمى
(راجع المادة الـ ١٧ من معاهدة برلين . والمادة الاولى من النظام

الكريدي سنة ١٨٩٦ . والاوامر والمفاوضات الخاصة بلبنان والمادتين الثانية
والسادسة من مذكرة السفراء الثلاثة الموضوعه سنة ١٨٩٥ ومقدمة دكر يتو
الاصلاحات في ارمينيا الصادر بتاريخ ٢٠ تشرين الاول سنة ١٨٩٥ النقطة الاولى)

٣ : اولاً - الحاكم العام هو رئيس السلطة التنفيذية في الولاية . وله الحق التام في
تعيين واستبدال كافة السلطات الادارية المحلية . وهو الذي يمين ايضا قضاء الولاية

ثانياً - يكون رجال الشرطة والجند رهن اوامر الحاكم العام .
ثالثاً - تبقى القوات العسكرية تحت تصرف الحاكم العام - لو اراد ذلك -
لحفظ النظام في داخل الولاية .

(راجع المادة الاولى من اوامر لبنان سنة ١٨٩٤ والمواد الـ ٢٠
والـ ٣٥ والـ ٤٤ من مشروع اللجنة الاوروبية سنة ١٨٩٤ والمواد الـ ٢٠ والـ
٢٥ والـ ٢٦ من دكريتو ادارة الولاية سنة ١٩١٣) .

٤ : يساعد الحاكم العام للولاية مجلس ادارة ذو سلطة استشارية تامة مؤلف من
أ - رؤساء البرشيات الادارية للجمعيات الدينية .

ب - والرؤساء الرومانيين للجمعيات الدينية .

ج - والمستشارين الفنين الاوروبيين المعينين من قبل الحكومة الشاهانية
لمساعدة رؤساء البرشيات الادارية .

د - وستة مستشارين قضاة (ثلاثة مسلمين وثلاثة مسيحيين)
يفتخبون من بين اعضاء مجلس الولاية .

(راجع المادة الـ ٤٩ من مشروع اللجنة الاوروبية سنة ١٨٨٠ والمادة
الـ ٦٠ من دكريتو ادارة الولاية ١٩١٣ والمادة الـ ٦١ من دكريتو تشرين
الاول سنة ١٨٩٥) .

٥ : اولاً - يتساوى عدد الاعضاء المسلمين والمسيحيين في مجلس الولاية .
ثانياً - ينتخب اعضاء مجلس الولاية بالاقترح السري في القضاء بواسطة
الكليات الانتخابية التي ستكون فيها بعد .

ثالثاً - في كل قضاء من اقصية الولاية يحدد عدد المقاعد المينة للعصرين
الاسلامي والمسيحي . وينبغي ان يكون هذا - بقدر ما يتفق مع المبدأ المنصوص

عنه في الفقرة الاولى من هذه المادة - مناسباً لعدد هذا القضاء .

(راجع المادة الثانية من الاوامر والمفاوضات الخاصة باعادة تنظيم لبنان

سنة ١٨٦١ والفقرة ال ٥ من المادة ال ٣ من مشروع السفراء الثلاثة سنة ١٨٩٥
والمادة ال ٦٩ من مشروع اللجنة الاوروبية سنة ١٨٨٠ والمادة ال ١٠٣ من
دكرتو سنة ١٩١٣) .

٦ : اولاً - ينتخب مجلس الولاية لمدة خمسة اعوام على ان يجتمع مرة كل
عام ويظل مجتمعاً مدة شهرين ويمكن مدامد الاجتماع اذا شاء الحاكم العام .
ثانياً - يمكن دعوة المجلس لاجتماع فوق العادة وذلك اما بناء على اشارة
الحاكم العام مباشرة أو على طلب ثلثي الاعضاء .

ثالثاً - للحاكم العام حق حل المجلس . وفي هذه الحالة ينبغي اجراء
الانتخابات في خلال شهرين وان يجتمع المجلس الجديد في خلال اربعة اشهر
من تاريخ الامر بالحل .

رابعاً - يصدر الامر بحل المجلس او انعقاده باسم جلاله السلطان .
(راجع المواد ال ٨٢ - ٧٥ من مشروع اللجنة الاوروبية سنة ١٨٨٠
والمواد ال ١١١ وال ١١٥ وال ١٢٥ من الامر الصادر من الولاية سنة ١٩١٣)
٧ : اولاً - مجلس الولاية هو السلطة التشريعية لجميع مصالح الولاية .
ثانياً - تكون سلطة مجلس الولاية في المسائل التشريعية والمالية مماثلة
على الاقل للسلطة المنصوص عليها في المواد ال ٨٢ وال ٩٣ من مشروع اللجنة
الاوروبية سنة ١٨٨٠ .

ثالثاً - ترسل القوانين التي يسنها المجلس الى الاعتاب السلطانية
للمصادقة عليها وينبغي ان تتم المصادقة عليها او رفضها في خلال شهرين .

والا اعتبر سكوت الحكومة دليلاً على الموافقة .

(راجع المواد الـ ٨٢ والـ ٩٣ من مشروع اللجنة الأوروبية سنة ١٨٨٠
والمواد ١٢٣ والـ ١٢٤ والـ ١٢٨ والـ ١٣٥ من الامر الصادر من ادارة الولاية
سنة ١٩١٣) .

٨ : اولاً - يكون المتصرف رئيساً لمجلس ادارة السنجق . ويتألف هــ هذا
المجلس من زعماء السنجق الاداريين والرؤساء الروحانيين للعناصر المختلفة وستة
اعضاء (ثلاثة مسلمون وثلاثة مسيحيون) ينتخبون من مجلس ادارة الاقضية
ثانياً - يكون القائم مقام رئيساً لمجلس ادارة القضاء . ويتألف هذا المجلس
من زعماء القضاء الاداريين والزعماء الروحانيين للعناصر المختلفة واربعه اعضاء
(اثنان مسلمان واثنان مسيحيان) ينتخبون من مجلس ادارة الناحية .

ثالثاً - تعين سلطة تلك المجالس طبقة للمواد الـ ١١٥ والـ ١١٦ والـ
١٣٠ والـ ١٤٠ من مشروع اللجنة الأوروبية لسنة ١٨٩٦ .

(راجع المواد الـ ١١٤ والـ ١١٦ والـ ١٣٨ والـ ١٤٠ من مشروع
اللجنة الأوروبية سنة ١٨٨٠ والمادة الـ ٦ من الامر الصادر في ٢٠ تشرين
الاول سنة ١٨٩٥ والمواد الـ ٦٢ والـ ٦٥ من الامر الصادر في سنة ١٩١٣)
٩ : اولاً - تعين حدود النواحي بصفة تضمن بقدر المستطاع تكوين ناحية
قائمة بذاتها من القرى التي تقطنها طائفة واحدة .

ثانياً - يعين لكل ناحية مدير بمساعدة مجلس ينتخب الاهالي اعضاءه
بحيث لا ينقصون عن اربعة ولا يزيدون عن ثمانية . والمجلس هو الذي ينتخب
المدير ومساعدته للمضوية . ويتعين ان يكون المدير من الطائفة التي تكون
الغالبية الاتنولوجية . واما مساعدته فيكون من الطائفة الاخرى .

ثالثاً - وفي النواحي التي فيها اخلاط من السكان مثل الاقليات بنسبتهم
العديدة بشرط الا يقل عددها عن ٢٥ أسرة .

رابعاً - تعين سلطات النواحي طبقاً للمواد ال ١٦٣ وال ١٦٨ من
مشروع اللجنة الأوروبية سنة ١٨٨٠ .

(راجع المواد ال ١٦٧-١٦٨ من مشروع اللجنة الأوروبية سنة ١٨٨٠
والمواد ال ٧ وال ٩ من مشروع الاصلاح الذي وضعه السفراء الثلاثة في سنة
١٨٩٥ والمواد ال ٧ وال ٩ من الامر الصادر في ٢٠ تشرين الاول سنة ١٨٩٥)
١٠ : اولا - يوجد في كل ناحية قاض للصلح يعينه الحاكم العام ويكون من
ابناء دين غالبية سكان الناحية .

ثانياً - ويفصل هذا القاضي :-

أ - في القضايا الجنائية (بدون استئناف) في الجرائم التي تدخل ضمن
دائرة العقوبات البسيطة التي هي من اختصاص الشرطة مع حق الاستئناف في
الجرائم التي لا تزيد عقوبتها عن ٥٠٠ قرش او حبس ثلاثة اشهر .

ب - وفي القضايا المدنية (بدون استئناف) . في جميع القضايا المدنية
والتجارية التي لا تتجاوز قيمتها مبلغ ١٠٠٠ قرش مع حق الاستئناف في مثل
تلك القضايا متى كانت القيمة لا تتجاوز مبلغ ٥٠٠٠ قرش .

ثالثاً - وفي محكمة قاضي الصلح تكون في نفس الوقت محكمة تحكيم ولها
ان تعين محكمين - اذا طلب المتخاصمان منها ذلك - لفصل في الخصومات التي
تتجاوز مبلغ ٥٠٠٠ قرش . ويكون حكم المحكمين غير قابل للاستئناف .

رابعاً - وتشتمل محاكم السناجق على محكمة مدنية واحدة مكونة من
رئيس وقاضيين تدفع الحكومة مرتبتيهما (احدهما مسلم والآخر مسيحي)

ويعينها الحاكم العام . وتكون محكمة السنجق (أ) بمثابة محكمة اول درجة في القضايا المدنية والتجارية التي تزيد قيمتها على مبلغ ٥٠٠٠ قرش . (ب) بمثابة محكمة استئناف في القضايا المدنية والتجارية التي فصل فيها قاضي الصلح في محكمة الناحية خامساً - يستبدل القسم الجنائي من محكمة الضناجق بمحكمة جنائيات عليا متفصلة . وتتكون هذه المحكمة من رئيس (ينتخب من بين اعضاء محكمة الاستئناف الاسمي من محكمة السنجق) وعضوين (احدهما مسلم والآخر مسيحي) تنتخبهما محكمة الاستئناف نفسها من بين قضاة الصلح في السنجق .

سادساً - تلتزم تلك المحاكم الجنائية العليا بالتوالي في الانضباط التي تستدعي وجودها .

سابعاً - يوجد قاضي التحضير في كل قضاء . فبه جرد وصول رئيس محكمة الجنائيات العليا في القضاء يعرض عليه قاضي التحضير الوثائق الخاصة بالقضايا المنظور فيها والقضايا التي لم تتم بعد . فاذا رأي الرئيس خلا او اهمالا لا مبرر له وجب عليه ان يخطر رئيس محكمة الاستئناف في الحال .

ثامناً - تفصل محكمة الجنائيات العليا - مع حفظ الحق في الاستئناف في الاحكام التي حكم بها قضاة الصلح في القضايا الجنائية وتكون بمثابة محكمة اول وآخر درجة فتفصل في القضايا المتعلقة بالجرائم او الجنح المعاقب عليها بقرامة تزيد على ٥٠٠ قرش او الحكم بالحبس مدة تزيد على ثلاثة اشهر .

تاسعاً - يجب ان توجد على الاقل ست محاكم استئناف . وتتألف كل منهن من رئيس واحد والقانونيين المتمرنين يعينها الحاكم العام وعدد من الاعضاء يكفي لنظر المسائل المدنية المعروضة عليها ولدعاكم الجنائيات العليا بالرؤساء . والمحكمة الاستئناف حق الفصل متى حضر العدد القانوني وهو الرئيس وعضوان من الاعضاء

عاشراً - تشكل المحاكم التجارية حينما تقضي الضرورة . وفي الجهات التي توجد فيها تلك المحاكم لا يحق للمحاكم المدنية الفصل في القضايا التجارية احد عشر - تبين سلطات المحاكم الشرعية بصفة دقيقة . ويجب على الحاكم العام ان يخول دون اعتداء هذه المحاكم على السلطات القضائية الأخرى في الولاية . ولا يجمع قضاة المحاكم الشرعية بين وظيفة القضاء فيها وبين الرئاسة في المحاكم الأخرى الموجودة في الولاية .

(راجع المواد الـ ٢٩ و الـ ٣١ من مشروع السفراء الثلاثة سنة ١٨٩٥ والمواد الـ ١٢٥ و الـ ٢٣٩ من مشروع اللجنة الأوروبية سنة ١٨٨٠) .
١١ : اولا - تؤلف قوة من الشرطة والجنود في الولاية ويكون نصف المجندين من الاهالي المسلمين والمسيحيين .

ثانياً - يعهد بتنظيم تلك القوة ورئاستها الى الضباط الاوروبيين الموجودين في الخدمة التركية .

ثالثاً - تؤلف قوة من الشرطة في النواحي ويمين الحاكم العام الشرط ولكنهم يكونون تحت اوامر المدير .

(راجع المواد الـ ١٨ - ٢٦ من مشروع السفراء الثلاثة سنة ١٨٩٥ والمادة الـ ٢٤ من الامر الصادر في ٢٠ تشرين الاول سنة ١٨٩٥) .

١٢ : يؤدي المجندون الذين هم من اهالي الولاية خدمتهم العسكرية في الولاية في زمن السلم . وتحت كوكبة الفرسان الخفيفة الكردية (حميدية سابقا) .

(راجع المادة الـ ٢٥ من مشروع السفراء الثلاثة سنة ١٨٩٥ والمادة الـ ٢٨ من الامر الصادر في ٢٠ تشرين الاول سنة ١٨٩٥) .

١٣ : اولا - موظفو الادارة والقضاء يجب ان يكون انتخابهم على قاعدة

المساواة في العدد بين المسلمين والمسيحيين .

ثانياً - عند تعيين حكام السناجق (المنصرفين) والانضية (قائمقام)
يجب مراعاة الطوائف ومصالحها .

(راجع المادة ال ٥ من الامر الصادر في ٢٠ تشرين الاول سنة ١٨٩٥)
١٤ : اولاً - الاهالي المستوطنون لهم الحق في التصويت ويمكن انتخابهم .

(راجع المادة ال ٢٤ من الجزء الثامن من مشروع السفراء الثلاثة سنة
١٨٩٥ والمادة ال ٢٧ من الامر الصادر في ٢٠ تشرين الاول سنة ١٨٩٥)
١٥ : اولاً - كل القوانين والوامر والبرامج والنشرات الرسمية والبيانات
ينبغي ان تنشر بلغات الولايات الثلاث التركية والارمنية والكردية .

ثانياً - كل الطلبات والعرائض وجميع الوثائق الموجهة الى السلطات
الادارية او القضائية يجب ان تكون باحدى لغات الولاية الثلاث بناء على رغبة
الجماعات المطلقة .

ثالثاً - يجوز للخصم استعمال لغته في الدفاع عن نفسه امام المحاكم .
رابعاً - تصدر الاحكام باللغة التركية وتلحق بها ترجمتها بلغة الخصم المختص
(راجع المادة ال ٤٠ من مشروع السفراء الثلاثة سنة ١٨٩٥ والمادة
ال ٢٢ من مشروع اللجنة الاوروبية سنة ١٨٨٠ والنشرة التي ارسلتها وزارة
الداخلية الى الولايات بخصوص اللغة العربية في ٦ نيسان سنة ١٩١٣ : -

١٦ : اولاً - لكل طائفة في الولاية الحق في انشاء المدارس الخاصة وتعهدها
على خلاف أنواعها .

ثانياً - ويجوز لها فرض الضرائب على رعاياها لفائدة اولئك المدارس .

ثالثاً - يكون التعليم في تلك المدارس باللغة الوطنية .

رابعاً - للحاكم العام حق الاشراف على اولئك المدارس عملاً بمقتضى

القواعد المنصوص عليها في قوانين الولاية

خامساً - تعليم اللغة التركية في جميع المدارس الخصوصية يكون اجبارياً

(راجع المادة الـ ١٤ من مشروع اللجنة الاوروبية سنة ١٨٨٠).

١٧ : تضع لجنة خاصة برئاسة الحاكم العام الشروط التي تعاد بمقتضاها الاراضي

التي انتزعت من الارمن بلاحق او يعوضون عنها اما بأراض اخرى او بتمنها .

(راجع المادة الـ ٢٦ من مشروع السفراء الثلاثة سنة ١٨٩٥ والمادة

الـ ٢٩ من الامر الصادر في ٢٠ - تشرين الاول سنة ١٨٩٥).

١٨ : حقوق الامة الارمنية وامتيازاتها المخولة لها بموجب الامر الاساسي

الصادر في سنة ١٨٦٨ والارادات الشاهانية يعترف بها كافة .

(راجع المادة الـ ١١ من مشروع السفراء الثلاثة سنة ١٨٩٠).

١٩ : لا يسمح لمهاجري المسلمين بالتوطن في داخل حدود الولاية .

٢٠ : تصدر بناء على القواعد السالفة الذكر قواعد خاصة تكفل مصالح الارمن

القاطنين في خارج الولاية وخصوصاً في كليكية .

(راجع المادة الـ ١٢ من مذكرة السفراء سنة ١٨٩٥ والمادة الـ ٤ من

مقدمة الامر الصادر في تشرين الاول سنة ١٨٩٥).

٢١ : تضع لجنة خاصة مكونة من ممثلي الحكومة العثمانية والدول العظمى نص

أمر التشكيل للولاية وكذلك القواعد الخاصة المشار اليها في المادة الـ ٢٠ من

المشروع الحاضر .

٢٢ : على الدول العظمى تنفيذ هذا المشروع .

(راجع المادة الـ ٨ من مذكرة سنة ١٨٩٥ والمادة الـ ٣٢ من الامر

الصادر في تشرين الاول سنة ١٨٩٥ والمادة الـ ١٠ من الاوامر الصادرة
لجزيرة كريد سنة ١٨٩٦).

ولاظن ان يوجد من يرتاب مطلقاً في انه لا يمضى على قبول ذلك المشروع
عام واحد حتى تقع ولايات ارضروم وقوقاس واران وتبليس وديار بكر ومعمورة
العزير تحت حماية روسيا اوعلى الاقل تصبح مرتعاً لجيوش الاحتلال الروسية
ولطالما بذل المذدوب الالماني جهده في غضون المفاوضات للاحتفاظ بحقوق
الحكومة العثمانية ووجهة نظرها بينما المذدوب الروسي كان يسعى لاحباط تلك الجهود
وكان ممثلاً فرنسا وانجلترا يؤيدان زعيمها الروسي في آرائه كما كان الممثل
الاطالى والممثل النمساوي يتظاهران بتأييد الممثل الالماني في نظرياته .

وقد ظلت اللجنة منعقدة من يوم ٣ كانون الثاني الى يوم ٢٣ من ٤ .
وبالرغم من اجتماعاتها المتتالية لم تبرم امراً لأن روسيا كان غرضها الاكبر
انفاذ المشروع بلا تغيير ولا تبادل بينما المانيا كانت ترغب في حماية الحكومة
العثمانية الى اقصى حد مستطاع . وفي ايلول سنة ١٩١٣ تمكن البارون جيرس
سفير روسيا من حمل البارون فانجنيهم السفير الالماني في الاستانة على قبول
مشروع اساسي يحتوي على ست نقاط . ومن ثم بدأت المفاوضات بين سعيد حليم
باشا الصدر الاعظم ووزير الخارجية والسفيرين الساتفي المذكور .

ولما اطلعنا على تلك النقاط الست تبين لنا ان الحكومة العثمانية تستطيع
تنفيذها بدون حاجة الى ضغط من الخارج . وعلى ذلك وضعنا برنامجاً واسعاً
للمملكة جمعاء واحطرتنا به بواسطة سفرائنا الدول العظمى .

ويعتقد ذلك البرنامج تقسم المملكة الى ستة (ستاتيش) طامة اثنان منها
لولايات الاناضولية الشرقية .

ولاحباط الدسائس الروسية اردنا ان يشرف الانجليز على هاتين الجهتين
فطلبنا الى توفيق باشا سفيرنا في لوندرا ان يسأل السير ادوارد غراي - هل
توافق انجلترا على هذا الرأي وهل تستطيع ان ترسل موظفين انجليزيين
فأجاب بان انجلترا توافق على ذلك . فبادر الصدر الاعظم بتقديم الطلب رسمياً
وقد كان من المحقق ان يقضى على الدسائس الروسية متى وافقت انجلترا على
ذلك الاقتراح . غير اننا لم نلبث ان ورد بنا ان انجلترا لا تستطيع بدون
موافقة روسيا تعيين موظفين لشرقي الاناضول فأضطررنا عندئذ الى العدول
عن ذلك اذ تهدم ما بنيناه من الآمال التي عللنا بها انفسنا ونحققنا ان انجلترا
قد نخلت عنا وتركتنا ضحية للمطامع الروسية .

فعدنا ادراجنا لاستمرار المفاوضات مع سفيرو روسيا والمانيا . وفي ٨
شباط سنة ١٩١٤ امضيت بين سعيد حليم باشا والمسيو جلكيفتش القائم بأعمال
السفارة الروسية الاتفاقية النهائية الآتية :

(الاتفاقية الروسية التركية المؤرخة في ٨ شباط سنة ١٩١٤)

الكتاب البرتقالي رقم ١٤٧

اتفق كل من سعادة مسيو قسطنطين جلكيفتش القائم بأعمال السفارة
الروسية وصاحب الدولة الامير سعيدحليم باشا الصدر الاعظم ووزير الخارجية
على انه في نفس الوقت الذي يعين فيه مفتشان لولاية الاناضول الشرقية
يرسل الباب العالي الى الدول العظمى المذكرة الآتية :-

(يعهد للمفتشين الاجنبيين بادارة الاقليمين اللذين سيتكونان من
ولايات الاناضول الشرقية . فيشرف اولهما على ولايات ارضروم وطرابزون

وسواس ويشرف ثانيهما على ولايات وان وبتليس وخربوط وديار بكر .
ولها الاشراف على الادارة الملكية والقضاء والشرطة والجندرمة في هذين
الاقليمين . واذا لم تكف الشرطة لحفظ النظام فلعفتش اذا اراد - ان
يستخدم القوة العسكرية الموجودة للقيام بشؤون وظيفته وفيها اذا اقتضت الحال
ان يفصلا الموظفين غير الملائين اما لعدم كفاءتهم او لسوء سلوكهم وان يسلموا
للعادلة الموظفين المنهمين بارتكاب الجرائم . ولها الحق في ترشيح كبار الموظفين
قبل ان يعينهم جلالة السلطان . وفي حالة فصل الموظفين يجب عليها ان يرسل
تلغرافياً في الحال الى الوزراء المختصين تقريراً بملخص اسباب الفصل ثم يردقانه
بتقرير او في خلال اسبوع ويكون مصحوباً بالاوراق الرسمية اللازمة .
وفي المسائل المهمة التي تقتضي بتأسيدها يكون لها الحق في وقف الموظفين
القضائيين الذين لا يمكن فصلهم على شرط ان يادرا باحالة المسألة على وزارة الحقاينة
وفي القضايا التي تقع المسؤولية فيها على الوالي وتقتضي اتخاذ قرارات
حاسمة يجب على المفتشين اخطار وزير الداخلية بريقاً وهذا الاخير يادربعرض
الامر على مجلس الوزراء لبيت في الموضوع في مدة أربعة ايام على اكثر تقدير
من وصول البرقية .

الحلقات الزراعية بيت فيها تحت اشراف المفتش شخصياً . بعد تعيين
المفتشين توضع بمساعدتها مذكرتان ضافيتان عن واجباتها وحقوقها . اذا
ظلت وظيفة المفتش خالية لمدة عشرة اعوام فمن حق الباب العالي الاعتماد على
مونة الدول العظمى في تعيين مفتش جديد . وتكون القوانين والفرمانات
والمنشورات العامة بلغة كل من الاقليمين السالفين وللخصوم الحق - بحسب ما
يتراءى للمفتش - في استعمال لغاتهم امام المحكمة او أية سلطة ادارية . وتصدر

الاحكام باللغة التركية - مصحوبة بقدر ما يستطاع - بصورة ترجمتها بلغة الخصم
مقادير التبرعات والمدارس المقدمة من العناصر الوطنية المختلفة تحدد طبقاً
للضرائب التي كانت مفروضة على المدارس من قبل . ولا تضع الحكومة الشاهانية
اي عقبة في سبيل الطوائف الدينية اذا ارادوا الاشتراك في مساعدة مدارسهم
على كل عثماني في زمن السلم ان يقضي مدة خدمته العسكرية ضمن دائرة
التفتيش الموجود فيه منزله . ويجند الباب العالي - الى حين صدور اعلان آخر -
فصائل من القوات الحربية الموجودة في نواحي المملكة للخدمة في اطراف
البحر والسير ونجد بنسبة عدد سكان تلك الجهات . وسيجند فوق ذلك جنوداً
من سائر ارجاء المملكة للخدمة في الاناضول .

تحول كتاب حميدية الى فرسان احتياطي . وتبقى اسلحتها في المستودعات
الحربية ولا تصرف الا في وقت التعبئة او المناورات . وتكون الكتائب تحت
قيادة القائد الموجود في الاقليم . وفي زمن السلم يفتخب قادة الكتائب والفصائل
والسرايا من الضباط العاملين في الجيش العثماني الشاهاني . ويقضي رجال هذه
الكتائب طاماً واحداً في الخدمة العسكرية . وعليهم ان يجيئوا للكتيبة بخيلهم
وسروجهم تامة . وكل رجل - بقطع النظر عن نسبه ودينه - يكون في دائرة
التجنيد هذه وتتوفر فيه الشروط السابقة يمكن الحاقه بالكتائب السالفة الذكر
وفي زمن الحرب والمناورات يعاملون معاملة الجنود النظاميين .

سلطة المفتش تكون مطابقة لنصوص القانون الصادر في ١٣ آذار سنة
١٩١٣ تجري عملية الاحصاء العام تحت اشراف المفتشين بأقرب فرصة - وفي
ظرف سنة من الآن اذا تيسر - لمعرفة حقيقة الاحوال فيها يختص بالدين
والجنسية واللغة في كل من الاقليمين . والى حين حلول ذلك الميعاد يتألف

(المجلس العمومي) و (لجان الولاية) لكل من (وان) و (بتليس) من عدد متساو من المسلمين وغير المسلمين . واذا لم يتم الاحصاء في ولاية ارضروم خلال عام ينتخب اعضاء (المجلس العمومي) فيها بنفس الطريقة المتبعة في الولاياتين الاخيرتين .

اما في ولايات سيواس وخربوط ودياربكر فينتخب الاعضاء بنسبة عدد الاهالي . ولتسهيل تنفيذ هذه الاجراءات يحدد عدد الناخبين المسلمين - الى حين اتمام الاحصاء الجديد - طبقاً للكشوف القديمة وعدد الناخبين غير المسلمين طبقاً للكشوف الابرشية . وفي الوقت نفسه اذا حالت اى صعوبة درن اتباع ذلك النظام الانتخابي المحلي للمفتشين الحق في ان يقترحا تقسيم الناخبين للمجالس العمومية في ولايات سيواس وخربوط ودياربكر بطريقة تكون اكثر ملاءمة لحاجات واحوال الولايات المذكورة الحاضرة . وفي سائر الولايات التي تنتخب فيها (المجالس العمومية) بواسطة التصويت النسبي لا بد من وجود من يمثل الاقليات في (لجان الولاية) .

اما مجلس الادارة فيكون عدد اعضائه المسلمين متساويا لعدد غير المسلمين كما كانت الحال في الماضي . ويترك للمفتشين اتخاذ ما يريدانه ملاءماً لاتخاذ الشرطة والتجنيد للجندمة يمثل تلك النسبة في كل من الاقليمين . وتراعي مسألة النسبة بقدر المستطاع عند التعيين للوظائف الرسمية الأخرى .

واعترافاً بهذه الاتفاقية نضع نحن الموقعين على هذا امضاءاتنا واحتمانا

(الامضاء) جليكيفتش (الامضاء) سعيد حلم

حرر بالاستانة في ٨ شباط سنة ١٩١٤

ولقد هلت روسيا لتلك الاتفاقية واعتبرتها فوزاً سياسياً ميناً . ويكفي

لقد اهتمت ان نثبت الفقرات الآتية من البرقية المطولة التي أبرقها جليكفيتش الى المسيو سazonوف وزير الخارجية وهي : -

(فقانون ٤ شباط سنة ١٩١٤ يدل اذن بلاريب على افتتاح عهد جديد وسعيد في تاريخ الشعب الارمني . ويمكن مقارنته من حيث الاعمية السياسية بفرمان سنة ١٨٧٠ - الذي أسست بمقتضاه اكبر خسيته (نيابة) بلغاريا وحرر البلغاريون من الاشراف اليوناني ولا بد ان يشعر الارمن ان هذه الخطوة الاولى قد اتخذت في سبيل تحريرهم من النير التركي .

اما اتفاقية ٨ شباط سنة ١٩١٤ فانها في الوقت نفسه لعل جانب عظيم من الاعمية بالنسبة لمركز روسيا الدولي . فقد امضاهما الصدر الاعظم شخصياً و مندوب روسيا وتحتّم على تركيا ان تقدم للدول العظمى مذكرة وضعت محتوياتها بصفة محكمة . فوقف روسيا في المسألة الارمنية اصبح معترفاً به رسمياً كما ان المادة الـ ١٦ من معاهدة سان اسٲيفانو قد صودق عليها الى حد ما وستؤثر هذه الظروف بلا شك تأثيراً حسناً في موقف روسيا الدولي بل انها لتضع هالة حول رأس قيصرها في عيون مسيحي الشرق الاوسط . وقد تغلب السفير الامبراطوري على مصاعب غير عادية في سبيل الوصول الى الاتفاق مع الباب العالي . اذ كان عليه ان يحسب من جهة حساب رغبة الارمن الطبيعية في ادخال اوسع ما يستطاع من الاصلاحات ومن جهة اخرى حساب معارضة الباب العالي الشديدة وكان قد بذل اقصى جهده لاجباط الاصلاحات المنشودة وقاوم كل النقاط المهمة الواردة في المشروع . اما من حيث المانيا فان تفاهمها معنا بحقق غايتين . الاولى انها ستقنع الباب العالي بانها بموافقتها على الاصلاحات المعتدلة التي لا حيف فيها عليه قد دفعت عن الحكومة العثمانية فائلة اصلاحات ابعد

غوراً من الاصلاحات السابقة . والثانية انها ستسعي لاكتساب عطف الارمن الذي يهملها جداً من اجل كلبكية التي يعتبرها الارمن انها واقعة في دائرة نفوذهم . فمنهج المانيا اذن كانت تموزه الصراحة . وليست مساعدتها للارمن الابجرد (بلغ) . أما الحقيقة فهي - ان السياسة الالمان كانوا نصحاء لتزكيا أوفياء .

فأنت ترى ان القائم بأعمال السفارة الروسية يعتقد أن مشروع الاصلاح الارمني ليس الا الخطوة الاولى في سبيل احتلال روسيا لارمينيا . واني لاظنه انه قد أصاب كبد الحقيقة فيسارآه . ولا يشعني أن اكتب استغرابي ودهشتي لنشر تلك الفقرات في الكتاب البرتقالي مع انها تم تماماً عن مرامي روسيا حيال أرمينيا . الست محقاً اذا قلت : - لقدشاه المولى أن يترف المترف بذنبه أما هي نجاه أرض القوقاز فقدغيرت سياستها معهم تغييراً تاماً فانها بعد أن رأته ان الارهاق الذي نزل بالارمن هناك لم ينتج الا اثاره الشك والارتباب في صدور الثوار الارمن الحقيقيين ضدها اضطرت الى العدول عن تلك السياسة الخرقاء وردت الاملاك التي صادرتها الى دبرائيمان وأعلنت العفو العام عن جميع مجرمي الارمن السياسيين وتظاهرت بالصدقة الكبرى للارمن . وقد نجحت تلك السياسة الجديدة حتى في اكتساب ثقة أولئك الثوار من الارمن الذين كانوا حتى الآن يبنضون روسيا .

وبعد الحركة التي قام بها باغوص نوبار باشا في أوروبا وعلى الاخص قبل منتصف سنة ١٩١٣ طلبنا بالحاج الى زعماء جمعية الدشنقزيتيين أن يشدوا أزرنا في سبيل مقاومة مساعي روسيا لاصلاح أرمينيا . فان الحرب البلقانية كانت قد وضعت أوزارها واصبح في وسعنا ألا نمكّن الاكراد من مجاوزة الحد

ونضمن للارمن حياة السلام في بلادهم . فما كان جوابهم الا أن قالوا ما معناه
(الآن وقد تدخلت الدول العظمى في المسألة لا يمكننا الوقوف على الحياد)
أما الحكومة العثمانية فقد عقدت النية على تنفيذ الشروط التي تضمنتها
اتفاقية ٨ شباط سنة ١٩١٤ كلها بإتمام العناية والأجتهاد مع كونها ، ولاة محضتها
ومرضية لروسيا وعلى هواها ولكن الحكومة الروسية لم يكن ليعجزها ان توجد
مصاعب جديدة . فان غايتها الا يستتب السلام مطلقا في شرقي الاناضول .
وللوصول الى تلك الغاية نجد وتسعى اولالبسط حمايتها على ارمينيا وبمعد ذلك
تثير في أوروبا روح العطف على الارمن ثم تثير حفاظ بكوات الاكراد وعلى
الاخص ذوى النفوذ من شيوخ العشائر وتدفعهم لمقاومة الحكومة والارمن
على السواء . وبناء على هذه الخطة التي أحكم وضعها أيديت الحكومة الروسية من
جهة عبد الرزاق بك بدرهاني الشهير وامدته بالاموال الطائلة ومنته باعادة
الحكم الكردي في شبه جزيرة سيناء ومن جهة اخرى توصلت بواسطة قنصلها
في تبليس الى تهبج الشيخ ن . ن والخروج على الحكومة . فيخلق المسيو
ماندلستام مايشاه ولكنه لا يستطيع اخفاء تلك الحقائق ويدنا مسألة الاصلاحات
الارمنية تتطور هذا التطور اذا بالحرب العالمية قد اندلعت سنتها . فأدركت
الحكومة العثمانية أن تحالفها مع المانيا لا بد أن يجرها طاجلا او آجلا الى اشتقاق
الحسام . واذ توقعت استحالة المضي في الاصلاحات الداخلية والاشتغال بالامور
الثانوية في خلال سنى الحرب العصبية رأت ان اطالة امد اشرف المفتشين
الاجنبيين الذين سبق تعيينها لولايات الاناضول المشرقى صارت غير لازمة .
وما لاريب فيه ان املنا الوحيد كان تحرير انفسنا عن طريق الحرب
العالمية من كل القيود والامتيازات التي طالما هدمت استقلالنا وجعلته اسما بلا

مسمى لعيش في المستقبل احراراً مستقلين كسائر الشعوب الحرة المستقلة فندخل في بلادنا وبمحض ارادتنا الاصلاحات التي نحثم المقتضيات المحلية ادخالها وكما ان الغرض الاسمي الذي كنا نرعي اليه إنما هو ان نلغي الامتيازات ونقذف بنظام ايمان الاساسي من حالق كذلك كنا نريد بمسألة الاصلاحات الارمنية أن نتخلص من الاتفاقية التي حملنا ضغط روسيا على ابرامها .

وقد ذكرنا في فصل سابق اننا انما خضنا غمار القتال أملاً في أن نحيا في المستقبل حياة حرة مستقلة خليقة بشعب أبي .

واذ كانت هذه نياتنا لم يكن لاتفاقية الاصلاحات التي انزعناها منا انزعاء روسيا عدوتنا الوراثة أي معنى آخر . ولا أقصد بذلك اننا لم يكن في نيتنا ادخال الاصلاحات في بلادنا كلاً بل كنا على العكس قد استقر قرارنا على الاصلاحات السياسية بعد أن ثبت لدينا اننا لا نستطيع الحياة بدونها .

ولكننا نظرنا الى مسألة الاصلاحات من هذه الوجهة وهي انه يجب القضاء على القيصرية التي ظلت مدة قرنين كالحسام المصمت فوق رؤوسنا لتتخذ نهائياً نار الدسائس التي كانت تتأجج خفية في داخل بلادنا . وهذه الغاية لا يمكن ادراكها ما لم نخض غمار الحرب العالمية بكل ما نستطيع من قوة وبطش وعلى ذلك قررنا ارجاء الاصلاحات الداخلية الى ما بعد انتهاء الحرب وتوجيه كل قوي الشعب الى الحرب نفسها . ولم نفضل ابلاغ زعماء جمعية الدشنقر بتبين وجهة نظرنا هذه .

وفي النهاية اشتركنا في الحرب اشتركا فملياً ، وبمداعلانها بأيام عينت لقيادة الجيش الرابع . ثم غادرت الاستانة قاصداً سورية . ومن وقتئذ صرت لا أعرف شيئاً ما عن احوال ولايات شرقي الاناضول ولا ما هي الاسباب التي

رأت الحكومة نفسها ازاءها مضطرة الى نفي الارمن كافة . ولم يكن لي دخل في المفاوضات التي جرت في الاستانة بل لم يؤخذ رأيي في صدها وكان منشور الحكومة للولايات هو اول ما نمي الي من الاخبار بأن الارمن قد نفوا موقنا الى العراق - حيث كلفوا بالاقامة فيها الى ان تضع الحرب اوزارها .

وقد وصلت الي من القائد العام تعليمات تقضي باتخاذ الاجراءات اللازمة لحماية الارمن من كل اعتداء اثناء اجتيازهم للمنطقة الواقعة تحت قيادتي وكان نفهم تحت اشراف السلطات المدنية . ذلك هو كل ما علمته عن تلك المسألة . وكنت في ذلك الوقت مشغولاً بتنظيم خط المواصلات بين بوزانتي وحلب باعتبار ان ذلك هو الطريق الاوحد الذي يمكن أن تسلكه الجنود المراد ارسالها الى سورية حوالي أواخر سنة ١٩١٥ للاشتراك في حملة القناة الثانية . وكذلك كان متعبنا علي اتخاذ الاجراءات الناجمة للحصول على المؤن اللازمة .

وقد غضبت جد الغضب عندما علمت ان الارمن المتفبين سيجتازون بوزانتي في طريقهم عن جبال طوروس واطنة الى حلب خشية أن يحصل عبث بخط المواصلات لأن أقل عبث به ربما كان له اسوأ تأثير واكبر ضرر بحملة القناة ولا تزال الخطابات التي دارت بيني وبين القائد العام في ذلك الصدد محفوظة في سجلات الجيش وسيعرف الخاص والعام متى نشرت انني آثرت توطن الارمن في اقليم قونية وانقره وقسطنوني على ارسالهم الى العراق .

ولما كنت لا استطيع معارضة الحكومة في قرار وافق عليه مجلس المبعوثان فضلاً عن ورود تعليمات صريحة الي بالآ اقيم النقبات في طريق اجتياز مهاجري الارمن لاطنة وحلب الى العراق رأيت نفسي مضطراً الى الاذعان ولقد سمعت بين آن وآخر بوقوع حوادث اعتداء على اولئك المهاجرين

في معمورة العزيز وديار بكر . ولكن الهجرة كانت تحت اشراف السلطات المدنية ولم تكن للجيش علاقة ما بها . ولم تقع حوادث اعتداء في منطقة نفوذي كما حدث في المناطق الاخرى نظراً للاوامر المشددة التي اصدرتها بهذا المعنى . وقد وصلت الي شكاري عديدة بان السلطات المدنية فيها بين بوزانتي وحلب أصبحت عاجزة عن امداد المهاجرين بالموثونة اللازمة حتى ان كثيراً منهم بات في عمر شديد على طول الطريق . سافرت لساعتي من حلب قاصداً بوزانتي لمعاينة الحالة بنفسي وأمرت بان يصرف المهاجرين الحبز من مستودعات الجيش وكلفت اطباء خط المواصلات بتعهد مرضاهم .

وبالجملة قد بذلت أقصى ما في استطاعتي لمساعدتهم مدة تقيمهم وهم بذلك يشهدون كما يشهد به غيرهم من منصفى الاجانب . وارى ان اكتفي الان بالاشارة الى ما وضع من الاوامر والمفاوضات التي سجلت في كتاب لبيستر . الذي يتضمن شيئاً من التقارير الرسمية من وزارة خارجية المانيا بخصوص المسألة الارمنية فان كل البرقيات التي ارسلتها الى الاستانة او الى حكام الجهات او الى الولايات قد جمعت في سجلات الجيش الحربية وسيعلم الجمهور متى اطلع عليها الشيء الكثير عن اعمالى وكيف كانت كلها قائمة على الاعتبار الانسانية الخالصة . ولما وصلت الى السلطات المدنية بعد نفي ارمن الاناضول - الاوامر بنفي جميع الارمن من أطنة وحلب عارضت فيها معارضة شديدة . ولم اكتف بذلك بل كتبت تقريراً مفصلاً عن هذه المسألة وبعثت به الى الاستانة وقد ذكرت فيه اني لأرى ضرورة ما لذلك العمل الذي لا بد ان يؤثر تأثيراً سيئاً في المركز الاقتصادي والمركز الزراعي بصفة خاصة للمنطقة التي يربط فيها الجيش الرابع ولكنني وقد أمرت بالاعتراض لما لا يعنيني او أدخل في شؤون

السلطات المدنية بل امدها بالمساعدة فقط - هل كنت تستطيع ان احول دون تنفيذ هذه الاوامر او ان اقها ؟

ولما كنت موقناً بأن في جمع مهاجري الارمن في العراق سينالهم من الكروب الوائناً رأيت ان احول كثيراً منهم في ولايتي بيروت وحلب . فنجحت بعد الاحتجاجات الشديدة التي ارسلتها الى الاستانة في الحصول على الاذن بما طلبت وبهذه الوسيلة استطعت ان أبقى في هاتين الولايتين زهاء (١٥٠٠٠٠) مهاجر .

واقسم اني لأمقت النحدث عن نفسي واكره الاطناب في المساعدة التي قدمتها الى اولئك الايامي واليتامي . فاني اعد ذلك تمداً بالمناقب وتباهياً بالمزايا الادبية لتلك الاعمال التي لم يدفعني الى القيام بها الا باعث الانسانية المحضة . ولكني واعدائونا الاجانب لا يزالون يعتبروني - بالرغم مما بذلته من المساعدة - المسؤول ادياً عن تلك الحوادث بل ان تلك الحكومة الهزيلة التي انشئت في الاستانة منذ عقد الهدنة ذهبت الى حد الحكم علي بالاعدام بتهمة المسؤولية الادبية عن المذابح والنفي - أرى الواجب يقضي علي بالدفاع عن نفسي بذكر بعض التفاصيل لحقيقة الواقع . فالرأي العام يعلم علم اليقين ان لا علاقة لي مطلقاً بحوادث النفي او المذابح الارمنية . وكما انني لم تكن لي صلة ما بالمفاوضات السالفة الذكر الخاصة بنفي الارمن كذلك كنت بريئاً براءة الذئب من دم ابن يعقوب من اصدار أوامر الذبح . بل كثيراً ما حلت دون وقوعها وقدمت ما استطعت من المساعدة للمهاجرين وقت تفهم .

ولرب سائل يقول : - لو كنت في الاستانة وقتئذ واشتركت في المحادثات التي دارت وعلمت بما كان يجري خلف حيشنا في شرقي الاناضول - أفلا

كنت توافق على النفي ؟ وهو سؤال لا أستطيع الاجابة عليه الآن . ولكن
أعتقد ان زملائي عند ما قر قرارهم على نفي الشعب الارمني وهو ما اثار عليهم
سخط العالم المتمدين بأسره لم يفعلوا ذلك الا مدفوعين بعوامل قوية . ولا
ارتاب في أنهم سينقون غلتنا ويزيلون معلق ببعض النفوس من الريب والشكوك
عند ما ينشرون للملأ صحيفة أعمالهم قريباً .

واني اعتقد اعتقاداً جازماً أن الارمن كانوا قد دبروا ثورة من شأنها
تعريض مؤخرة جيشنا في القوقاز لاشد الاخطار لو وقعت بل ربما أدت في
ظروف خاصة الى ابادته على بكرة أبيه - فبناء على ذلك اثار زملائي نقل الشعب
الارمني بأسره الى جهة أخرى بحيث يؤمن شره على ان يعرضوا المملكة
العثمانية للمحن والخطوب الفواح ويحلبوا عليها الطامة الكبرى فيكون احتلال
روسيا لآسيا الصغرى بأسرها أول رزاياها .

أما ما وقع من الحوادث في خلال النفي فينبغي ان يعزى الى الاحقاد
التي تغلفت في نفوس الاتراك والاكراد والارمن في اثناء سبعين عاماً وتبعه
ذلك انما تقع على السياسة الروسية التي حولت الشعوب الثلاثة التي عاشت القرون
الطويلة معا في صفاء وهناء الى اعداء الداء بعضهم لبعض . حقاً لقد انارت
الآثام التي ارتكبت خلال النفي في سنة ١٩١٥ تثار السخط الشديد ولكن ما
ارتكبه الارمن في غضون ثورتهم ضد الاتراك والاكراد لا يقل عنها قسوة
بل يفوقها فظاعة وغدراً . على انه مهما يكن الباعث على ارتكاب تلك الجرائم
فقد كان ينبغي الحيلولة دون وقوعها بكل وسيلة . لذلك رأيت الحكومة ان النفي
العام هو الوسيلة الفعالة المعجلة لصيانة الاهالي الاتراك والاكراد والجيش بل
لحفظ كيان الولايات العثمانية السياسي . ولكنهما من جهة أخرى مهدت بهذه

الوسيلة للاتراك والاكراد طريق الآثام والاجرام أفلا كان في الامكان
تسوية المسألة بطريقة اخرى ؟ اولاً كان في الاستطاعة حماية المنفيين من أن
يعتدي عليهم معتد في الطريق ؟ اتنا لا يمكننا أن نبت في هذه الامور الا بعد
معرفة ما استند اليه اولئك الذين دبروا أمر التنفي والذين نفذوه . وعلى كل
حال اني استطيع ان اقيم واضح الدليل على ان المنطقة التي كان جيشي مرابطاً
فيها لم يرتكب فيها شيء من هذه الجرائم ولم يقع فيها سوى بضع حوادث
شاذة معدودة .

وأما من حيث الاثر الذي أحدثته حوادث الاعتداء فلم يكن لعمري
منظر فرار الاتراك من ديار بكر عن طريق حلب واطنه الى قونية ومن ارضروم
وأرزنجان الى سيواس من وجوه الروس والفظائع والآثام التي ارتكبها الارمن
ضدم بأقل سوءاً ووحشية منه . ولكن اولئك التصماء المتكودي الخط لم
يكونوا الا مسلمين ولم يكن نمة مبشر الماني او أمريكي يشهد مصرعهم فيرسل
الى بلاده التقارير الضافية بالآلام التي تكبدوها والاهوال التي قاسوها والغصص
التي تجرعوها !!

فلنفرض جدلاً ان الحكومة العثمانية نفت مليوناً ونصف مليون من
الارمن من ولايات الاناضول الشرقية وان زهاء ٦٠٠٠٠٠٠ منهم قد مات او
قتل في الطريق اوسقط ضحية الجوع والتعب فهل يدري احدكم قتل من الاكراد
والاتراك في ولاية طرابزون وارضروم ووان وبتليس بصورة تقشمر منها
الابدان بأيدي الارمن عندما زحف الجيش الروسي على تلك الولايات ؟ اني
لاقرر هنا بأن عدد من قتل من الاكراد والاتراك ليربى كثيراً على مليون
ونصف مليون . فان جاز أن يكون الاتراك مسؤولين عن المذابح الارمنية

فلماذا لا يكون الارمن مسؤولين عن المذابح التركية ؟ لأن الاتراك والاكراد ليسوا في نظر الانسانية او في نظر ماندلستام ومرجنتا واضرا بهما باكبر قيمة من الذباب ؟

واني أناشد القراء أن ينعموا النظر ملياً في التقريرين الروسيين الآتين فإن الناظر فيها يدرك تمام الادراك مبلغ ما تغفل في نفوس الارمن من الحقد على الاتراك ويرى أعمال التهور والعدوان التي أمتعوا في ارتكابها ضد مواطنيهم المسلمين .
(مذكرة رسمية روسية) (مركز ادارة الجيش الروسي المنقهر)

مذكرة الليفتاننت كولونيل توارد وخليوف عن حوادث الاعتداء التي ارتكبتها الارمن ضد الاهالي الاتراك في ولاية ارضروم وما جاورها من مبدأ نشوب الثورة الروسية الى ان استردت الجنود التركية قلعة ارضروم في ٢٧ شباط سنة ١٩١٨ .

مقدمة

في خلال الحرب ظهر ما بين الاتراك والارمن من العداء المعروف في سائر الاندية الاوروبية بمظهر يعجز الوصف . فن الامور المسلم بها ان الارمن لا يطيقون الاتراك ومن اجل ذلك دفعوا بأنفسهم الى ان يظهروا بمظهر الشهداء وان يثبتوا في اذهان العالم بأن مدينتهم الراقية وعقيدتهم المسيحية هما السبب في انهم يذهبون ضحية لأعمال القسوة والوحشية التي لا مثيل لها :

ولكن روسيا التي هي دون سائر الدول الاوروبية على أم اتصال بالارمن لها رأي خاص في الطريقة التي يفهم بها الشعب الارمني معنى المدنية والاخلاق فلقد عرفتهم روسيا بالشح والشر والتطفل وعدم القدرة على المعيشة الاعلى اسلاب الغير . فالفلاح الروسي يعلم جيداً ما يدور في خلد الامة الارمنية .

ولطالما سمعت كثيراً من الجنود الروس يقولون : - (لقد أساء الاتراك الى الارمن ولكن كان يجب عليهم ان يجعلوا اساءتهم تلك بطريقة اخرى فيستأصلوا شأفتهم ولا يتركوا ارمنياً واحداً على قيد الحياة) .

فان الارمن من الوجهة الحربية لا قيمة لهم مطلقاً . ولقد كان الدور الذي لعبته جنودهم الملتحقة بالجيش الروسي نافهاً جداً نظراً لأنهم كانوا على الدوام يؤثرون الخدمة اليدوية في مؤخرة الجيش وان كانت حقيرة على الخدمة في خط القتال . وان في حوادث الفرار المتكررة منهم وجرحهم لأنفسهم لأسطح دليل على جبن ذلك الشعب ونذالته وعدم صلاحيته بتاناً للاعمال الحربية بيد ان سير الحوادث من بدء الثورة الروسية الى حين استرداد الجنود التركية لمدينة ارضروم يفوق الحساب ويزيد بما رحل عما كان يتصور وقوعه من ذلك الشعب . وقد رأيت بعيني رأسي بعض الحوادث وسمعت بالبعض الآخر من شهود عيان أثق بروايتهم .

ففي سنة ١٩١٦ عندما احتلت الجنود الروسية مدينة ارضروم لم يسمح لأرمني واحد بدخول المدينة او الدنو من ضواحيها . ولما كانت قيادة الفيلق الاول الذي احتل المدينة بيد القائد كاليكين لم يؤذن لأي فرقة عسكرية تشتمل على عناصر أرمنية بالذهاب الى تلك الجهة . ولكن الحال تبدلت بعد نشوب الثورة الروسية وعدل عن هذه الاحتياطات . فأتتهر الارمن تلك الفرصة لهاجمة ارضروم وضواحيها وشرعوا يسلبون المنازل وينهبون القرى ويذبحون الأهالي .

ولم يجبراً الارمن مطلقاً خلال الاحتلال الروسي على الامعان التعولف بأعمال القسوة والوحشية وانما كانوا يقتلون وينهبون في طى الخفاء . ولكن

لم تحمل سنة ١٩١٧ حتى شرعت الجمية الثورة الارمنية - ومعظمها من الجنود في تفتيش المنازل تفتيشاً تاماً بدعوى نزع سلاح الاهالي .

ولما كان ذلك التفتيش بلا اشراف تحول سريعاً الى نهب تام منظم على ايدي الجنود وقد ظهر أن شر الجنود الارمنية واقسام وقت النهب هم اجينهم عن ملاقاته العدو في ميدان القتال .

وبينما انا ذات يوم اجوس شوارع المدينة ممتطياً جوادي اذ رأيت لفيقاً من الجنود الروسية قد حرضهم جندي ارمني ودفعهم الى سحب شيخين هرمين تركيين قد ناهزا السبعين من العمر . وكان ذلك الجندي في حالة تشبه الجنون اذ أخذ يضرب هذين الشيخين بسوط كأنه شواظ من نار بلا شفقة فخارت ان أحمل الجنود على معاملتها بشيء من الانسانية فذهبت محاولتي عبثاً ثم شخص الي ذلك الجندي وصاح مهدداً اياي بسوطه قائلاً : - (أيجرؤم تلك على حماية قاتلينا) ؟ وأقبل نحونا كثير من الارمن فانضموا الى صاحبهم فصرت في موقف حرج ازاء الجنود الروسية الذين كانوا وقتئذ ينتهزون اي فرصة لضرب ضباطهم بل والفتك بهم . ولكن ما لبث الحال ان تحولت الى الضد عند ما ظهر عسس من الضباط اذ اطلق الارمن ارجلهم للريح وشرع الجنود الروس بسحبون الشيخين برفق .

ولما اخذت جنود الصف الروس تعود الى ديارها خشينا ان ينتهز الارمن الباقون في خط القتال او النازحون الى ارضروم فرصة خلوت تلك الناحية من اولئك الجنود فيعتدوا على الاهالي الاتراك قبل وصول وحدات الجفسيات الاخرى . ولكن احبانهم اكدوا انه لن يقع شيء من ذلك واعربوا عن رغبتهم الشديدة في السعي للتوفيق بين الشمين وقالوا لنا - انهم سيعملون بعض

امور ملائمة تكفل نجاح مساعيهم .

والواقع انهم اخذوا يحاولون مجزي الحوادث في الحال بما يؤيد دعواهم فان المساجد التي كانت حولت الى ثكنات قد طهرت من جديد واعيدت الى ما كانت عليه ونزعت منها الصبغة العسكرية . ثم شكلت فرقة المليشيان الاتراك والارمن ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل اخذ الاخرون يلحون في عقد محاكم عسكرية لمعاينة مرتكبي حوادث الاعتداء ضد الاتراك !

وسيطهر فيما بعد ان تلك المناورات كلها لم تكن الا لدر الرماد في العيون ولتحويل الانظار عن اعمال القدر التي وضعت خفية بحكمة ودهاء . فان الاتراك الذين التحقوا بالمليشيا ما عثموا ان ضاقوا بها ذرعا بعد ان رأوا معظم الذين عينوا للقيام بأعمال المسس في جنح الظلام اختفوا بطريقة غريبة فلم يقفوا لهم على اثر وان الاتراك الذين اختبروا للعمل في الحقول اختفوا ايضاً دون ان يتركوا وراءهم اثراً . حتى ان اعضاء المحكمة العسكرية انفسهم صاروا يخشون الحكم بالمقبوبات خوفاً على ارواحهم . فاستمر القتل والنهب حتى لقد قتل بكير حاجي افندي عين اعيان ارضروم في عقرداره فيما بين آخر كانون الثاني واول شباط . فاضطر القائد او ديشليتز ان يصدر الى الضباط المشرفين على الجنود امراً بالقبض على القاتل في خلال ثلاثة ايام . ولكن امره هذا ذهب صيحة في واد وانحن القائد العام باللائمة على قواد الثكنات الارمنية ووبخهم عدة مرات اشد تدييخ على الفوضى التي ضربت اطناها بين رجالهم وناشد وجهاء الارمن والفت نظرهم الى الفضائح التي ارتكبتها الجنود ومنها اختفاء نصف العمال الاتراك الذين اختبروا للعمل في الحقول . وقال لهم : - (ان الارمن اذا كانوا يتبنون حقاً التمتع بادارة الاراضي المحتملة فعليه اقامة البرهان على

انهم اهل لذلك العمل وأما تلك الجرائم فليست الامسبة لسممة الشعب الارمني ولما كانت الحرب ما زالت قائمة ولم يكن مؤتمر الصلح قرر شيئاً بمنح الارمن تلك الارض كان الواجب عليهم ان يسلكوا في عامة احوالهم مسلماً بدل على انهم امة خليقة بالحريّة .

فما كان جواب الرعماء الارمن الا ان قالوا - ان شرف شعب بأمره لا يدنس بهذه الجرائم التي ترتكبها اقلية لاجنبية لها . وقالوا - ان عقلاء الارمن باذلون اقصى مجهوداتهم لوضع حد لهذه الاعمال الانتقامية ضد الجور التركي الذي ارهقهم في الزمن الماضي . ثم قالوا انهم مشغولون بسن قانون شديد لمعاقبة المذنبين وانهم سينفذونه بمتنهي السرعة وبالعدل والمساواة فهاهو ان مضى على تلك التأكيدات المتكررة زمن يسير حتى علمنا بالمذبحة التركية في ارزنجان . ولقد سمعت بأذني التفصيلات الآتية من القائد العام اوديسيلدز ولم تكن المذبحة بتحرير من المصائب بل الذي دعا اليها طيبب المدينة وتمعهد توريدات الحيش . وحيث اني اجهل اسماءها اكتفى بذكر التفصيلات المذكورة كما رواها القائد وهي :-

« قتل نيف وثمانمائة من الاتراك العزل من السلاح . وكان الارمن قد حفروا حفراً عظيمة قذفوا فيها بجثث اولئك الاتراك المساكين بعد ان ذبحوهم ذبح البقر . وقد باشر احد الارمن عملية الذبح وجعل يمد هؤلاء الضحايا المنكودي الخط . فصاح بملء فيه - (لقد قذفنا في تلك الحفرة بسبعين جثة ومازالت تسع عشر جثث اخرى فلهوا) واذ ذاك ذبح عشرة اشخاص آخرون لسد الفراغ ثم اهيل التراب عليها . واراد متههد توريدات الحيش ابتكار شيء يسلى به نفسه . فخبس ثمانين من اولئك الضحايا النساء في منزل

واحد يخرجهم منه الواحد تلو الآخر بعد تهشيم جباههم بيده .
ولما فرغ الارمن من مذبحه ارزنجان اخذوا يتسللون الى ارضروم
وكان احد الضباط الروس الذي تولى بيضعة من المدافع حماية مؤخرة
الجيش المتقهقر من مهاجمات الاكراد قد حاول ان يقود كتيبة ارمنية الى خط
القتال . ولما لم تكن لها رغبة في ذلك نكصت على اعقابها ثم اشعلت النار في
المنزل الذي كان الضباط الروس مقيمين فيه - يريدون بذلك التخلص منهم
ومن اوامرهم . غير ان الضباط نجوا بعد لآى ما من انيات الموت بعد ان
فقدوا امتعتهم كلها .

وحرقت العصابات الارمنية في طريقها من ارزنجان الى ارضروم كل ما
صرت عليه من القرى الاسلامية وذبحت سكانها .

وفي اثناء التقهقر الروسي الى ارضروم استخدم الاكراد وغيرهم من
الاهالى المسلمين في تلك الجهة سواقين لعربات الذخيرة . ولم يكن فيهم رجل
واحد معه سلاح . وما كادوا يقتربون من ارضروم ويتركهم الضباط الروس
في طلب الراحة حتى هب الارمن وامعنوا فيهم قتلا وتميلاً ولما ازعج الضباط
الروس صراخ اولئك البؤساء وثبوا من مراقدم وهرولوا اليهم فقابلهم الارمن
بمسدساتهم وانذروهم بسوء المصير اذا هم اجتروا على التدخل . وكانت اعمال
القتل هذه مصحوبة بفظاعة ووحشية قلما سمع مثلها .

وقد اعلن ميد بضاني ضابط الطوبجية الروسي على ملا من الناس في
نادي الضباط بأرضروم انه شهد بنفسه المنظر الآتي وهو : -

ان ارمنياً جرح احد السواقين الاكراد جرحاً بليغاً حتى خر على
الارض يعالج سكرات الموت فحاول الارمني وقتل ان يزج العصا التي كانت

في يده في حلقوم فريسته . ولكن فسكى الصريح كانا قد انطبقا وببسا فلم يستطع هذا الوحش الضاري ان يتم فعلته السوأى فزدداد في وحشته فأنهال على فريسته ضرباً ورفساً في بطنه حتى قضى عليه .

وقد اخبرني القائد او ديشبليدز نفسه بان الانراك الذين لم يستطيعوا الفرار من قرية عليجي ذبحوا الانعام وانه رأي بعيني رأسه عدداً من جنث الاطفال وقد فصلت عنها رؤوسها بالآت غير حادة ومثلثة .

وقص علي الليفتنت كولوئيل جزيا ذنوف وكان قد عاد من قرية عليجي يوم ٢٨ شباط اي بعد المذبحة بثلاثة اسابيع مارآه بعيني رأسه وهو : (كان ارتفاع كومة الجثث في صحن المسجد طول رحين وكانت خليطاً من جنث الرجال والنساء والاطفال ومعجزاًز وأفراد في مختلف العمر فأخذ جزيا ذنوف فتاتين من بنات الارمن اللاتي في مصلحة التلفون وذهب بها الى صحن المسجد واراها الفظائع التي اجترحها مواطنوها وقال لهما - وهو يكاد يتميز من النقيظ والجزع - اهذه الاعمال تصح المباهاة بها ؟ ولقد استولت عليه الدهشة والذهول حتى كاد يفقد صوابه ويقتله النقيظ لما تبين له منها - ان هذا المنظر الفظييع المروع لم يحرك لهما عاطفة ولم يثر سخطها بل جعلتا تضحكان ضحكا طالياً . فأنهال عليهما بالسب والشتم واللعن وصرخ فيها قائلاً ان الارمن رجالهم ونساءهم هم اجبن شعوب الارض قاطبة واكثرهم وحشية وخسة ونذالة وان اغراق فتاتين من فتياتهم المهذبات في الضحك لمنظر يروع الانسانية وتقتصر منه الابدان ويقف لهوله شعر رأس احد الضباط لأوضح دليل على وحشية ذلك الشعب . فلما سمعت الفتاتان هاته الكلمات تكلفتا ان تتظاهرا بالتأثر وقالتا - ان ضحكهما كان ضحك ذهول . ولكنهن لم يقبل

منها ذلك بعد الذي رآه منها) .

وقد حدثني متعهد ارمني لفرقة خط المواصلات في عليجي - فقال : -
في يوم ٢٧ شباط صلب الارمن امرأة تركية على حائط من الجيطان
وهي حية ثم شجوا رأسها وبقروا بطنها ونكسوها فجعلوا رأسها الى الارض
ورجلها الى السماء .

وفي اليوم السابع من شباط ابتدأت المذبحة الكبرى في ارضروم . فقد
قبض جنود الطوبجية الأرمن في الطريق على ٢٧٠ من الاهالي وصلت شهوة
الانتقام في نفوسهم الشريرة على حبسهم في الحمام بمدان جردوهم مما عليهم من
التياب . فبذلت جهد الطاقة حتى تمكنت من انقاذ مائة من اولئك المنكودي
الخط وكانوا لا يزالون احياء . وقد زعموا أن الجنودهم الذين اطلقوا سراجهم
وكان المسؤول عن تلك الضربات احد ضباط الصف الارمن المشاة المسمى
(بكر ايدوف) الذي كان يخدم مع الطوبجية . وفي مساء اليوم نفسه قتل
عدد كبير من الاتراك في شوارع المدينة . وفي اليوم ال ١٢ من شباط اطلق
الارمن النار على عشرة من الفلاحين المسلمين العزل من السلاح في محطة
ارضروم . وقد اراد الضباط انقاذهم ولكن الجنود هددوهم بالقتل .

وقد اعتقلت في ذلك الوقت ارمينيا قتل تركيا بلا مسوغ . وامر القائد
العام بمحاكمته امام محكمة عسكرية . ولما كان القانون المعمول به من قديم الزمان
ينص على ان القاتل عقابه القتل اخبر احد ضباط الارمن القاتل بأنه سيعدم
عقاباً على جريمته نصاح القاتل صباح المستغرب قائلاً : - (اصحيح هذا ؟)
وهل يشق ارمني من اجل تركي ؟ ! وهل سمع احد بمنزل هذه الغرائب ؟
واشغل ارمن ارضروم النار في خان تركي . وسمعت في اليوم ال ٢٧

من شباط ان أهالي قرية (طيبة كوي) الواقعة في كتيبة الطوبجية قد أيّدوا على بكرة أيّهم رجالا ونساء واطفالاً . فقابلت في ذلك اليوم (اندرانك) الذي ارسلته حكومة القوقاز الى ارضروم بصحبة الدكتور زواريف لاعادة النظام والسكينة واخبرته بالمذبحة وطلبت اليه أن يبحث عن المسؤولين عنها ولم اسمع الى الآن بنتيجة هذا الطلب . وكان قد وعد علناً في كازينو ضباط الطوبجية أيضاً باعادة النظام واكنه لم يف بوعده وظل الحال كما هو .

الا ان القلاقل قد خفت نوعاً ما في المدينة . أما في القرى فقد عادت السكينة طبعاً وكيف لا وقد أيّد من فيها من الاهالي ؟ واكن اعتقال الاهالي الاتراك في ارضروم قد استؤنف من جديد لما بدأت الاعمال الحربية تنذر باقتراب الجيش التركي من عليجي وكثرت حوادث الاعتقال بصفة خاصة في يومي ٢٦ و٢٧ شباط . وفي ليلتي ٢٦ و٢٧ شباط قتل الارمن من رقابة الضباط الروس وقاموا بمذبحة اخرى واكنهم ما لبثوا أن اسلموا سوقهم للربيع عند ما علموا بقدوم الاتراك . ولم تك تلك المذبحة وليدة ساعتها بل كانت مدبرة من قبل . فانهم جمعوا من قبض عليهم وقتلوهم الواحد تلو الآخر وجعلوا يتفاخرون علناً بأن غنيمتهم في تلك الليلة تجاوزت ٣٠٠٠ قنيل تركي !

وكان عدد المكلفين منهم بالدفاع عن المدينة قليلا حتى انهم ولو الادبار من امام جيش تركي مؤلف ومكون من ١٥٠٠ مقاتل ومدفعين . ومع ذلك كان عدد من قتلهم الارمن في ليلة المذبحة كثيراً جداً .

ولقد كان في وسع الطبقات المتعلمة من الارمن منع هذه المذبحة ولكنهم لم يفعلوا فوقر في الاذهان اذن ان تلك الطبقات لعبت في تلك الجرائم دوراً يفوق كثيراً الدور الذي لعبته العصابات وان المسؤولية الكبرى على كل حال

يجب ان تقع عليها فان الطبقات العالية لها تأثير كبير على الدهماء . وكانت كتيبي
مكونة من الضباط الروسين والجنود الارمنية . ومع اننا لم يكن لدينا وسيلة
للأخذ على أيديهم قد استطعنا ان نحملهم على الطاعة لاوامرنا جميعها . فلم
يجترؤوا على السلب والنهب علناً حتى انه لم يقتل في ليلة المذبحة خادم واحد
من الخدم الا كراد الذين كانوا في التكنات مع انها كانت غاصة بعدة فصائل
من تلك الكتيبة على انه لم يكن موجوداً سوى ضابط نوبتجي روسي واحد
في حين ان اربعين من الخدمة الا كراد كانوا وسط مئات من جنود الارمن .
ولست اريد ان اقول ان الامة الارمنية كلها بلا استثناء كانت سواء
في تلك الجرائم بل كان منها من لم تكن له يد فيها . فلقد قابلت عدداً من
الارمن فألفيتهم يستنكرون وقوعها ومنهم من احتج عليها بالفعل لا بالقول
فقط . واكتفي مع ذلك ارى نفسي مسوقاً الى القول - بأن امثال هؤلاء
ليسوا الا افراداً قليلين جداً ومواطنوهم يظنون بهم الظنون ويتهمونهم بالخيانة
والسعاية ضد الاماني الوطنية . وهناك فريق من الارمن يتظاهر ببعضه تلك
الاعمال الوحشية ويمقتها ولاكنه يقرها في الحفاء . ومنهم فريق آخر التزم
الصمت حيال كل زجر وتعقيب . ولاكن اغلب الارمن لا يسمع الانسان منهم
الا قولهم في الرد عليه (انكم روسيون على كل حال فلا يمكنكم ان تفهموا
اماني الشعب الارمني) وتراهم تارة يحاولون الدفاع عن انفسهم قائلين : -
(وهل عامل الاتراك الارمن في الماضي معاملة غير هذه ؟) وهي كلها حوادث
تدل اوضح دلالة على ماهية اماني الشعب الارمني وولمه على اختلاف طبقاته
بسفك الدماء .

ولم يكن في استطاعة أحد ان يحول دون وقوع هذه الفجائع . لقد

زرع الارمن الربيع دون ان يتبصروا في العواقب او يظنوا انهم سيحصلون زوينة
نحريراً بأرضروم في ١٦ شباط سنة ١٩١٨ . الامضاء
الليفتننت كولونيل نوارد وخليوف القومندان الموقت لحاميتي ارضروم
ونيفيوين وقائد كتيبة المهندسين والطوبجية .
مذكرة رسمية مقدمة من كتيبة الطوبجية الثانية التابعة للحامية الروسية
في ارضروم .

في منتصف شهر كانون الاول سنة ١٩١٧ جلا الجيش الروسي في
القوقاز عن الاماكن التي كان احتلها من قبل ثم شرع بدون وصول تعليمات
من مركز القيادة العليا وبدون أوامر قائد من القواد في الانسحاب والتقهقر
وتوات كتيبة الطوبجية للحامية حماية مؤخرة الجيش . ونحلف من الفصائل
التي كانت مرابطة في قلعة ديفي بونيو وكتيبة الطوبجية في ارضروم اربعون
ضابطاً فقط . وقد قضى عليهم الواجب ان يقفوا بجانب مدافعهم حتى بعد ان
تركتهم جنودهم . وكان في القلعتين نيف واربعائة مدفع تركت لعدم وجود
وسائل لنقلها . فرأي الضباط ان الشرف والواجب يحتمان عليهم الانتظار فيما
يصلهم الاذن من القيادة العليا اما بترك المدافع واما بالاستمرار في الدفاع حتى
تأنيبهم الامدادات . وبهذه الطريقة تكون (كادر) الكتيبة الطوبجية الثانية
من ضباط الكتيبة الاولى .

وما كاد يتم انسحاب الجيش الروسي حتى تشكلت في ارضروم لجنة
اطلقت على نفسها اسم (اللجنة الثورية الارمنية) . وفي الوقت نفسه بعث
قائد الجيش الى الكتيبة الثانية الطوبجية من كتاب الحامية باربعائة من الارمن
غير المدرين ففر معظمهم ولم يمكن استخدام الباقين الا في حراسة بطاريات القلعة

وقبيل انسحاب الجيش - اى لما فقد الاتصال بين روسيا وفيها وراء القوقاز - تألفت في تفليس حكومة وقتية سميت نفسها « لجنة ما وراء القوقاز » فأعلنت انها لاتتوي بتأناً ايجاد حكومة مستقلة لما وراء القوقاز بل ان هذه البلاد ستبقى في المستقبل كما كانت في الماضي تابعة لروسيا ولكن تتولى اللجنة تمثيل الحكومة المركزية ريثما يستتب النظام .

وفي يوم ١٨ كانون الاول سنة ١٩١٧ أصدرت اللجنة منشوراً عاماً قالت فيه : - ان الجيش الروسي المبعثر سيتألف بدله جيش جديد على اساس قوى يتكون من ثلاثة فيالق الاول روسي والثاني كرجي والثالث مسلم ومن بضع فصائل من العناصر الثانوية كالجرا كسة والأوس وغيرهم . وظلت طوبجحية قلعتى ارضروم وديفي بونيو وحدها محافظة على شعارها القديم « اى مكونة من جنود العناصر المختلفة » الى أن يبت في أمر تلك الوحدة المؤلفة من ضباط روسيين وجنود ارمن . وقد كان جلياً ان هذه الوحدة التي كان (كادرها) من الروس وقيادتها بأيدي الروس لا يمكن الادعاء بأنها وحدة أرمنية . وفضلاً عن ذلك لم يصل البناء اى أمر عن الصبغة الارمنية لهذه التشكيلة التي كانت لازال تعتبر روسية نظراً لأن ضباطها كانوا من الضباط العاملين الذين خدموا في الجيش الروسي واستولوا على مرتباتهم من الخزينة الروسية . اضع الى ما تقدم ان مذهب الجيش لم يكن ارمنياً بل روسياً وان الصلوات كانت تتلى بواسطة الكهنة الروس وهو دليل آخر على صبغة الوحدة الروسية .

ومن حين انسحاب الجيش - الذى بدأ من شهرين - لم يمكن اعادة النظام بين الجنود الذين جعلوا يفرون من الصف ويقومون بأعمال السلب والنهب ويهددون ضباطهم بالقتل وكانوا بالجملة في تمرد تام . وقد عين الكولونيل

توركوم - وهو بلغاري ارمني كاي زعمون - قائداً لارضروم .

وفي منتصف شهر كانون الثاني سنة ١٩١٨ قتل ارمن كتيبة المشاة وجيها من وجهاء الاتراك في ارضروم في عقر داره ونهبوا منزله . فجمع القائد العام أو ديشيلدز قادة الفصائل وطلب اليهم اقتفاء أثر مرتكبي هذه الجريمة الشنعاء والقبض عليهم في مدة لا تتجاوز ثلاثة ايام . التفت الى الضباط الارمن قائلاً : (ان هذه المسألة تمس شرف الشعب الارمني . فيجب عليكم اذن ان لا تقصروا فيما هو واجب والا تدعوا وسيلة من الوسائل للعثور على الجناة ان كان يهكم حسن سمعتكم لدى العالم) .

ثم قال :- (واذا لم يوضع حد لهذه الاعتداءات التي تقع المسؤولية فيها على عاتق الارمن فلا مندوحة لي من توزيع السلاح بين الاهالي المسلمين ليتمكنوا من الدفاع عن انفسهم واموالهم) . فرد الكولونيل توركوم على هذا الاتهام بلهجة الموتور قائلاً : - ليس من العدل في شيء وجعل امة بأسرها مسؤولة عن جرائم بضعة افراد منها) . ثم اقترح قادة الفصائل تشكيل محكمة عسكرية لمعاينة القاتل بالقتل . فاجابهم او ديشيلدز بانه قد اتخذ فعلاً الاجراءات اللازمة .

واني لأذكر وما عهدي بذاكرتي نخونني - ان الكولونيل توركوم استعرض جنوده في يوم ٢٥ كانون الثاني وامر باطلاق واحد وعشرين مدفعاً ليوقع في روع الاهالي سطوته الحربية . واتي وقتئذ خطاباً بالارمنية نحن فيه باشد الائمة على القائد او ديشيلدز واعلن فيه استقلال ارمينيا قائلاً : انه انما استلم اعنة الحكم بصفة كونه رئيساً للدولة الجديدة . وبعد ان اصفي القائد الى هذا البيان من (رئيس الدولة الجديدة) اصدر امره بإبعاد

الـكولونيل توركوم من ارضروم .

وحسب هذا العمل دليلاً على ان الحكومة الروسية كانت مصممة
- كلفها ما كلفها - على عدم انشاء دولة ارمنية مستقلة . وقد نعى الي ان هيئة
اركان الحرب الروسية صرحت للارمن مراراً متواليات بأن اعطاءهم السلاح
والذخيرة ومواد الحزب الاخرى اولا من مستودعات الجيش في ارضروم
ثم من المستودعات الاخرى لم يكن الا بصفة وقتية نظراً لعدم وجود جنود
اخرى وقتئذ . وان هذه الاسلحة انما هي طارية لدى الارمن فلا مندوحة من
ردها متى طولبوا بذلك .

وفي تلك الايام كان الارمن يرتكبون اروع الآثام واقطع اعمال القتل
ضد الاهالي الاتراك الفقراء بالقرب من ارزنجان . وكان الاتراك عزلاً من
السلاح مجردين من كل وسائل الدفاع . فما كاد الارمن يسمعون باقتراب
الجنود الاتراك حتى اعملوا في الاهالي القتل والسلب من جديد ثم فروا
في اتجاه ارضروم .

وتؤكد تقارير القائد العام المدعمة بشهادة الضباط الذين شهدوا الحادث
ان الارمن ذبحوا نيفا وثمانمائة من الاتراك في ارزنجان وبهذا تاروا لأحد
شركائهم الاوغاد وكان قد قتله احد الاتراك جزاء وفاقا في اثناء دفاعه عن
نفسه . وفضلاً عن ذلك قد استأصل الارمن اهالي قرية عليجي التعمساء
بالقرب من ارضروم ذبحاً حتى النساء والاطفال .

وفي اليوم السابع من شباط نعى الي خير الحادثة الآتية وهي :
(كنت اخبرت ان رجال المليشيا والجنود الارمن في المدينة يسوقون
مئات من المسلمين الى جهات غير معلومة . فلما سألت عن السبب قيل لي ان

اولئك الرجال يستخدمون لتنظيف السكة الحديد من الثلج المتراكم عليها .
فارتحت حين سمعت ذلك الرد . بيد ان القصة الآنية تثبت ان الحقيقة كانت
على العكس مما قيل .

فلقد اخبرني تليفونياً حوالي الساعة الثالثة الملازم الثاني ليسكي احد
الضباط النابيين لكتيبتني ان شرذمة من الجنود الارمن اعتدوا على خمسة
من الاتراك في الطريق . وانهم ساقوم الى ركن من اركان الثكنة ثم انهالوا
عليهم بالضرب المبرح بلا شفقة حتى كادوا يقضون عليهم . وقد قوبل
الضباط الروسي الذي اراد ان يحول بينهم وبين اولئك التمساء بالتهديد
والوعيد . واذ ذلك ثارت ثائرة احد الضباط الارمن وكان حاضراً وانضم
الى تلك الفوغاء وحاول منع ليسكي من التدخل . وما كدت اسمع بذلك حتى
اسرعت الى مكان الجريمة ومعى ثلاثة من الضباط . وبينما انا في الطريق اذ
قابلت الضباط الذي حادثني ومعه ستاورسكي محافظ ارضروم وهما يبحثان عن
صديق لهم من الاتراك قبض الارمن عليه . فاخبرني ليسكي ان الجنود قد
احتلوا مدخل الثكنات وهم شاهرون سلاحهم يحولون دون ووجه . واكفي
واصلت المسير . فرأيت عند اقترابي منها اثني عشر تركيا يفسادونها فراراً
وقد تولام الذعر والوجل . فاستوقفت أحدهم وسألته ما شأنهم فأعياي فهم
اقواله فاستحال علي ادراك مراده . وبعدعناء طويل دخلت الثكنة . فتساءلت
في الحال عما صار اليه امر الاتراك الذين قبض عليهم في الطريق فأكد لي
الجنود ان ليس ثمة واحد من اهالي المدينة المالكين في الثكنات . واكفي
لم اعبأ بقوله بل اخذت بنفسي في تفتيش كل جهة وكل زاوية من زواياها
وبعد لى ما عثرت في الحمام على سبعين من الاتراك ذهبوا ضحية القسوة

الوحشية التي يندر وجود مثلها . طمرت توأ بعمل تحقيق ثم امرت بالقاء القبض على ستة من الارمن المسؤولين عن هذه الجريمة المروعة . وقد عدت في خلال التحقيق ان ارمنياً - لم يمكنني تحقيق شخصيته - قد اطلق النار على احد المسلمين النساء لا لذنوب سوى وجوده على سطح احد المنازل المجاورة للشكنات . فلم يسعني الا ان امرت فوراً باطلاق سراح ذلك المسكين الذي كان ضحية ذلك الاعتداء الفظيع . اما تفاصيل التحقيق وسجلاتي الخاصة ومن ضمنها بيان اسماء المسلمين الذين امكنتني انقاذهم فقد فقدت اثناء استرداد الأتراك لمدينة ارضروم في يوم السابع والعشرين من شباط . ولكن هذه الحادثة يمكن التثبت من صحتها لسؤال الأتراك انفسهم الذين ما فتئوا يكيلون لنا الحمد والتناء ايها قائلناهم . وفضلاً عن ذلك فان على بك بوبوف سكرتير المحافظ ستاروسكي الذي كتب البيان والبروتوكول يستطيع بلا سراء تمييز الاشخاص المذكورين .

واظهر التحقيق ان المدعو (كراجيدوف) احد التلاميذ الارمن والملحق بكتيبة الطوبجية هو الممرض على هذا العدوان . فانه في اثناء تفتيشه القاسي لمنازل الأتراك الذي قام به ومعه عدد من الجنود الارمنية المدربين على مثل تلك الاعمال يمكن من الاستيلاء على كثير من الاثاث والامتعنة المنزلية . فالقي القبض على كراجيدوف وآخرين من الجنود الارمن . وقد ابليت القائد العام بمحضرة زينالوف مندوب الحكومة ومساعدته تلك الحوادث في مساء اليوم نفسه . وفي اليوم نفسه قتل الارمن اكراداً آخرين واشعلوا النار في احدى الخانات . ورددت الاسن ارتكاب حوادث قتل عدة في خلال تلك الايام في ارضروم وضواحيها . وقد قبضت بنفسي على ارمني قتل

عدة اترك بالقرب من طفطة وسلمته الى القومـدان . وذاع في المدينة أن
الأتراك الذين اكرهوا على العمل في الحقول لم يمودوا الى منازلهم ولأبصر
شيء عن مصيرهم . وقد أبلغ رجال الشرطة القائد العام اسر احتفائهم .

ثم طلبنا الى القائد العام في التقرير الذي رفعناه بمناسبة اجتماع عقده
الضباط ان يأذن لنا بمغادرة قلعة ارضروم اذ لا فائدة من مقامنا بها واستحالة
منع الارمن من ارتكاب الجرائم حتى لقد خشينا ان تلوث سمعنا . فأخبرنا
ارديشيلدز بوصول برقية لاسلكية من القائد وهيب باشا قائد الجيوش التركية
يقول فيها : - انه كلف باقامة حامية في ارزنجان واستمرار الحف الى أن
يتصل بالجنود الروسية . وقد قال وهيب باشا : - ان تلك هي النجح وسيلة
لوضع حد للاعمال الوحشية التي يقوم بها الارمن ضد الاهالي الأتراك .

ثم شرعت لجنة ما وراء القوقاز بمد ذلك في عرض الصلح على الحكومة
العثمانية . فأجاب القائد التركي بقبول الاقتراح قائلاً : - انه ابغاه الى حكومته
موصياً بقبوله . وقد طلبنا الى القائد او ديشيلدز ان يفتح باب المفاوضات مع
جيجتشكوف رئيس لجنة ما وراء القوقاز والقائد العام لبيدنسكي .

فجاء في الرد ما معناه - ان انداراً نهائياً ارسل الى المجلس الوطني
الارمني بطلب وقف الغزوات الارمنية في الحال ولوضع حد نهائي لهذه الفجائع
وان الدكتور زواريفر واندرانك قد ارسلوا الى ارضروم كمندوبين . اما
فيما يتعلق بطلب الضباط فان المندوبين يشيرون عليهم بالبقاء في مناصبهم رتباً
يصل رد الحكومة العثمانية على اقتراحات الصلح . ثم اعرب مجلس ما وراء
القوقاز شكره للضباط على ما ادوه من الخدم واعلن ان روسيا لو اصبحت مهددة
بخطر جديد فان الضباط لن يتأخروا عن تأدية الواجب الى اللحظة الاخيرة .

واصدر القائد العام امراً يومياً أوصي فيه الضباط بعدم مغادرة مراكزهم
قائلاً - انه رغبة في صيانة شرفهم وحفظ ارواحهم سينفذ أقصي عقوبة على
الجناة من الارمن . وعلى هـ - هذا لبثنا في ارضروم لا لفرض سوى الدفاع عن
مصالح روسيا ونحت اشراف القائد العام وحده . وقد علمنا ان الحكومة العثمانية
تقبلت بقبول حسن اقتراح لجنة ما وراء القوقاز وارسات ردها بهذا المعنى
وان مفاوضات الصلح ستبدأ في طرابزون في اليوم السابع عشر من شباط .
واكد قائدنا للضباط أن ليس ثمة نية ما في مناصرة الجنود التركية في
ارضروم رئيسها يرم الصلح ووقتئذ يبت بمقتضى شروط الصلح فيها اذا كانت
الاسلحة ومواد الحرب الاخرى تنقل الى روسيا او تسلم نهائياً الى الحكومة التركية
اما اذا حاولت الجنود العثمانية ان تحتل ارضروم لاي ما سبب قبل
توقيع الصلح فينبغي تعطيل المدافع بطريقة منظمة وانسحاب الجنود والضباط
الى داخل روسيا . وستصدر الاوامر الخاصة بهذه الاجراءات قبل ذلك
باسبوع على الاقل .

واخذت الحاجة الى الدفاع عن انفسنا ازاء اعتداءات الاكراد الى
حين ابرام الصلح تزداد وضوحاً بتوالي الايام فان الحكومة العثمانية كانت قد
اعلنت في خلال الهدنة انها غير مسؤولة عن اعمال الاكراد الذين اصبحوا
الحرار فيها يفعلون وغير خاضعين لقانون ما . فقرر القائد في او اخر كانون الثاني
تعزيز خط المواصلات فيما بين ارضروم و ارزنجان بعدد كاف من المدافع لصد
هجمات الاكراد الذين حاولوا انهب المستودعات الموجودة على طول خط
المواصلات المذكور . وعهد الى ضابط معه مدفعان بحراسة كل من النقط ذات
الاهمية الفنية . فلما انسحب الارمن من ارزنجان وارضروم سحبوا المدافع

مهم . وفي اليوم العاشر من شهر شباط وضع مدفعان في كل من الامكنة الممتدة على طول الخط من بوبوك كيرمدلى الى طرايزون لغاية اريب ميشان كما نصبت المدافع في سائر الاحياء المهمة في المدينة لغاية نفسها . ونظراً الى احتمال قيام الاكراد بالهجوم من ناحية بالان دربخنو نصبت المدافع ايضاً بين بوابتي القرظ وخربوط . غير ان هذه المدافع التي لم تنصب الا لصدهجمة محتملة من الاكراد - وكانت بالفعل غير كافية - تصبح طبعاً لاقيمة لها بالمرّة امام جيش منظم مزود بالمدفعية الحديثة اذ تنكفي بضع طلقات منه لاسكاتنا نهائياً . وفي منتصف شباط جمعت المدافع المنصوبة في النقط البعيدة وسلمت الى المستودع الرئيسي فلم يبق إلا اتخاذ الاجراءات نفسها حيال المدافع الموجودة في النقط القريبة . وصدرت الاوامر بجمع المدافع في بالان دونجنو واكنها لم تنفذ أصلاً . أما النقط التي كان من المحتمل استعمالها ضد الاكراد فطلت المدافع منصوبة فيها . وعلى كل لم يتوقع احد ان تقوم الجنود التركية في القريب العاجل بهجوم ما . لأن قوتها المنصوبة لم تكن تسمح لها باستئناف الزحف قبل حلول فصل الصيف . وفي الثاني عشر من شباط قتلت العصابات الارمنية المسلحة اثني عشر تركيا في رابعة النهار بالقرب من المحطة . فحاول ضابطان روسيان اثارتهما تأثرهما هذه الاجترآت الدينية أن يمنعا ذلك واكنهما اضطرا ازاء تهديد العصابات الى العدول عن رأيهما وترك الضحايا وشأنهم .

واذ ذلك اعلن القائد العام وجود حالة حصار في اليوم التالي (١٣ شباط) وعقد محكمة عسكرية لمجازاة القاتل بالقتل كما تقضي بذلك قوانين سائر البلاد . وقدمين الكولونيل موريل قائداً لقلمة ارضروم وأرمني آخر لرئاسة المحكمة العسكرية . وفي اليوم نفسه غادر القائد العام والقائد جيرا سيموف المدينة لتحديد

موعد مناسب - اذا اقتضى الامر - لسحب المدفعية . وتخلفت في ارضروم
للاشراف على مدفعية الحماية . وتألفت هيئة أركان حرب الكولونيل موريل
من الضباط الروس فحسب بينها كان الكابتن شناوراد جونات السكتية .

بيد ان الكولونيل موريل غير خطته على اثر رحيل القائد العام اذ
أعلن ان الدفاع عن أرضروم سيستمر الى آخر لحظة وحظر على سائر الضباط
ومن يقدر على حمل السلاح من الاهالي الخروج من المدينة ولما عرضت على
المحكمة العسكرية رغبة بعض الضباط في الاستفادة من ذلك الاذن أجاب احد
الاعضاء وهو ارمني يدعى سوخوينان بجفاء وغلظة قائلاً : - (لأقطنن اربا
اربا كل من يحاول مغادرة المدينة ولآمرن القوات الارمنية في كوبرى كوى
وحسن كيل بالقبض على كل من تحدته نفسه بالفرار ولا حضرته امام المحكمة
المسكرية ما لم يكن لديه جواز) ولما كان هو الشخص الوحيد الذي عهد اليه
اعطاء تلك الجوازات أدركت - اتنا قد اصبحنا في شرك يصعب جدالتخلص
منه وان المحكمة العسكرية وحالة الحصار صارت اشد خطراً على الضباط الروس
انفسهم منها على العصابات .

ولم تخف وطاة الاجرام في المدينة وظل الاهالي الاتراك المساكين
العزل من السلاح عرضة لاهتداهات الارمن المتوالية . فلم يجدوا ملاذاً الا في
ظل الضباط الروس الذين لم يكن في استطاعتهم أن يمدوم الا بالشرط القليل
من الحماية . ولقد اضطر بعض الضباط بزعامتي الى الانتجاع للقوة لانقاذ حياة
تركيين حاول الارمن نهبهما في الطريق . وأطلق مهندس حربى يدعى
كاريف النار على ارمني حاول الفرار بعد ان نهب أحد الاتراك في الشارع في
رابعة النهار . وهكذا ظل الوعد بمقابلة رجال العصابات الذين يقتلون المسلمين

العزل من السلاح كغيره من الوعود حبراً على ورق .
وخوفاً من اغضب الارمن ودفنهم الى الانتقام لم تجرأ المحكمة العسكرية
على معاقبة أرمني واحد بالرغم انها لم تشكل الا بناء على رغبة الارمن انفسهم
وفضلاً عن ذلك لقد توقع الاتراك من قبل بأن المحكمة العسكرية التي انما
شكلت من العنصر الارمني فقط ان تقدم بحال من الاحوال على معاقبة احد
من مواطنيها . وهنا تبيننا صحة المثل القائل - (ان الذئب لا يعصى اخاه) .
وما أسرع ما فر الارمن القادرون على حمل السلاح ومعهم زوجاتهم محتجين
بضرورة حمايتهن .

ثم نعى الي ان احد صف الضباط المسمى كاراجيدوف قد اطلق سراحه
من السجن بغير ادني . فسألت الكولونيل عن ذلك - فقال - ان التحقيق
الجديد أثبت براءة المتهم ! ومع انني كنت انا وضابطان آخران شهود اثبات
في هذه القضية لم يدع احد منا نحن الثلاثة لسماع اقواله في ذلك التحقيق
الجديد الغريب . فساءني رد الكولونيل موريل وكتبت تقريراً بالحادث من
جديد وسلته هو والتفاصيل الى الكولونيل الكساندروف . وهكذا مضى
القائل الذي قبضت عليه بنفسه في جهة طافطا بلا عقاب .

وكان الكولونيل موريل يخشى تمرد الجنود التركية المقيمة في ارضروم
وقد وصل الى تلك المدينة في اليوم الـ ١٧ من شباط اندرانك ومعه الدكتور
زافريف مساعد مندوب المنطقة المحتلة . واذ كنا نجعل الشؤون الارمنية جهلاً
تاماً لم يدرب بخلدنا مطلقاً ان اندرانك هذا كان نفسه احد المجرمين الذين
حكمت عليهم الحكومة العثمانية بالاعدام . ولم اقف على هذه الحقيقة الا من
محدثي للقائد التركي أول مرة في اليوم الـ ٧ من آذار . وقدطلع علينا اندرانك

ببدلة فريق روسي وهو يحمل على صدره وسام فلا ديمير من الطبقة الرابعة
وصليب القديس جورج من الطبقة الثانية وكذلك الصليب الحربي للقديس
جورج من الطبقة الثانية . وكان بمعينه رئيس اركان حرب الـكولونيل الروسي
زنكوفيتش . وقبل وصول بليلة اخيرنا الـكولونيل موريل بأنه بناء على
الاورامر التي وصلت اليه من اندرانك في برقيته المرسله من كوبري كوي بنبغي
استخدام الرشاشات لقتل كل الجبناء الذين يحاولون الفرار من أرضروم .
وعلى أثر وصوله تسلم اندرانك قيادة القلعة واصبح الكولونيل موريل
مره وساله ونحن مره وسين لموريل .

وفي اليوم الذي وصل فيه اندرانك ذبح أهالي قرية طيبه كوي
- التابعة لقيادتي - على بكرة ايهم رجالا ونساء واطفالا . وقد بلغني الضابط
الحرس خبر تلك الفاجعة قبلته في الحال الى اندرانك في اول محادثة لنا
فأصدر الامر وأنا حاضر بارسال عشرين فارساً الى طيبة كوي - للقبض على
الجناة - وان لم يمكن القبض عليهم جميعا فعلى واحد ولم اعرف الى الآن ماذا
كانت النتيجة ؟

ثم ظهر فجأة في ارضروم من جديد الـكولونيل توركوم وكولونيل
المدفعية الارمني المسمى دولوخانوف . فكان اول ما قاله لي - انه بصفة كونه
مفتش المدفعية سيكون من الآن فصاعداً رئيساً لي . فاجبته بأنني بصفة كوني
قائد فرقة لست بحاجة الى رئيس والاضطرت الى ترك الخدمة . واذ ذاك
تقرر أن يياشر الاعمال الادارية لمدفعية الحامية بحيث لا تكون عملياته لي
موقعة باسمه بل تكون باسم اندرانك كما كانت من قبل . وفي ذات يوم حاول
أيضاً الملازم الارمني جان بولاديان الذي كان يقود طابور المدفعية تحت اشرافي

ان يتدخل في شؤوني . ذلك انني امرت بنقل المدافع كلها وأنوار الاستكشاف ومولدات الكهرباء الى مؤخرة الجيش فأعترضني بقوله - انه لا يستطيع أن يسمح بنقل مادة من هاته المواد نظراً لأن الأرمن قد صحت عزيمتهم على الاستيلاء على سائر المناصب الادارية في دائرة القيادة وانهم ربما استخدموا الضباط الروس للتنفيذ فقط . بل هم يرغبون استخدامهم بدون أن يشعروا (الضباط) في توطيد استقلال ارمينيا . ولو أدرك الضباط الروس الغرض الذي يراد استخدامهم لتحقيقه لما تردد معظمهم في الاستقالة ولأصبح الأرمن وليس لديهم الا التذر اليسير من الضباط . وتدل البيانات التالية التي قام بها الكابتن بليات القائد الموقت للكتيبة السابعة من مدفعية القوقاز الجبلية على مبلغ تخوف الأرمن من استقالة الضباط الروس . فانهم عندما اعلوا ان تلك الكتيبة كانت على اتم استعداد للانسحاب الى صاري قاميش في اليوم الـ ٧ من شباط القوا القبض على القائد قبل ذلك بيومين . ومع أنهم ارغوا بناء على الاوامر الصادرة من مركز قيادة الجيش على اطلاق سراحه قد كرروا المحاولة ثلاث مرات وهدد أرمن ارضروم مركز القيادة باغراق المدينة في بحر من الدماء اذا سحبت المدافع فلم يجد القائد مناصاً من التناهي أمر السحب . ثم حاول بعضهم الوصول الى تفاهم مع قائد الكتيبة السابعة المدفعية . فاتفقنا سراً على ان الأرمن اذا حاولوا التشديد على ضباط المدفعية الروس واقترحوا بطريق رسمي انضمام الضباط الى القضية الارمنية كان لنا أن نتبادل وقتئذ المساعدة فيما يبتنا وبينهم . وكانت لدينا كميات هائلة من مواد الحرب والمدافع والرشاشات عدا العدد العديد من الضباط . وسمى ضباط المدفعية الجبلية أن تكون سكنناهم في المدينة بعضهم بجوار بعض كما فعلنا نحن معشر مدفعية الحامية في الحلي التركي

حيث ظل مركز قيادتنا منذ احتلال المدينة .

ولما وصل اندرانك الى جانب الكولونيل موريل أخذت المخاوف من
تمرد أهالي أرضروم تزداد يوماً بعد يوم . فأمر القائد بأن يهد بقلمه مجيئة
الى احد الضباط الروس الا كفاه للاشراف على اطلاق النار فيها لو حصل تمرد
وهو ما يحتمل وقوعه على اثر القبض على مثيرى القلاقل . ثم وصلت اليها
جميعاً الاوامر بمغادرة الحي التركي والانتقال الى الحي الارمنى . ولما كنا قد
لبثنا فى الحي المذكور زهاء طامين وكانت خطتنا نحو الاهالى المسلمين خطة
قوية مبنية على العطف عليهم تبادلنا أن فى الامر سرأ وان التعليقات السابقة
تدعو الى الاستغراب الشديد .

فصرح ضباط المدفعية الروس أجمعون بأنهم انما آثروا البقاء فى الخدمة
لمقاتلة عدو شريف فلا يمكنهم بحال من الاحوال أن يوافقوا على اطلاق النار
على النساء والاطفان لأن من الجلى ان الارمن سيتذرعون بدعوى التمرد المنتظر
لصب قنابلهم على الحي التركي . أما الانتقال الى الحي الارمنى فأمر متعذر
عملياً لأسباب ثلاثة : - أولها - ان من المستحيل أمام النقل فى المهلة المحددة
ثانيها - ان انسحاب الضباط الروس من الحي التركي سيعقبه بلا ريب مذبحه
جديدة . ثالثها - نظراً لتوتر العلاقات بينهم وبين الارمن منذ زمن بعيد فمن
المخاطرة المحضه ان يلقي الضباط الروس انفسهم فى احضانهم .

ورفض الاقتراح أيضاً ضباط المدفعية الجبلية الذين لم يكونوا تابعين
(لكار) مدفعية الحامية . وفى النهاية شرع الارمن الذين وجدوا انفسهم
مضطرين الى تنفيذ اعمالهم السافلة وحدهم وبلا مساعدة فى القبض على بعض
المهيجين المزعومين .

وإذ كان اقتراح الكولونيل موريل رعى المدينة بالقنابل اقتراحاً ذامعياً
رأيت من اللازم أن اعقد اجتماعاً من الضباط الذين تحت قيادتي . فاجتمعنا
سنتين في خلال ثلاثة أيام . فحضر الاجتماع الأول جميع ضباط المدفعية
الموجودين في أرضروم هذا عدا ضابطين إنجليزيين وصلاً حديثاً والكولونيل
موريل والكولونيل زنكوفيتش والكولونيل درلوخانوف والكولونيل توبركوم
واندرانك والدكتور زافريف . وكان غرضنا من دعوة الضابطين الإنجليزيين
هو تهيئة الفرصة اللازمة لهما ليريا بانفسهما العلائق الموجودة بين الضباط الروس
والقيادة الأرمنية ولبقفاً أيضاً على ما لدى الروس من الوسائل لمنع الأرمن من
ارتكاب الأعمال الوحشية وبذلك يستطيعان متى عادا إلى بلادهما تعزيز
ملاحظاتها بالأدلة الحسية .

ونظراً لأنني لم يكن لدي مواصلات تليفونية أو تليفونية أشرف عليها
أشرفاً خاصاً مما جعلني اعتقد تماماً أن البرقيات التي أرسلها لن تصل إلى أصحابها
رأيت أن انتهز فرصة ذلك الاجتماع لأشرح بأسهاب تام كل ما حدث برأى
مني وما حدثني به النقاة من الأعمال الوحشية والفظائع التي ارتكبها الأرمن
فبينت للحضور مبلغ التمرد الضارب أطنا به بين الجنود الأرمن وذكرت عدة
حوادث سمعتها من فم القائد أوديشيلدز نفسه . ثم ختمت خطابي بهذه العبارة
(نحن معشر الضباط الروس الذين تخلفنا في أرضروم لم نمكث فيها لكيما نضع
ملابسنا العسكرية رهن إشارة الأرمن فتكون بمثابة ستار يخفون وراءه جرائمهم
المروعة كلاب فلعلنا ذلك طوعاً لاوامر رؤسائنا لحماية مصالح روسيا فقط .
فإن لم تقف الفظائع الأرمنية في خلال اقامتنا بأرضروم فإن كل ضابط روسي
سيلح في مغادرة المدينة واعتزال منصبه) . وقد ضرب على هذه النغمة عدد

من الضباط الذين اعتلوا منصة الخطابة بمدى .

ثم قام اندرانك لرد فقال : - أن الارمن سيظلون أهد الشهر حافظين جميل روسيا وانهم ليسوا الاجزاء ألا يتجزأ من سكان روسيا الكبرى وانهم لا غاية لهم البتة الاخدمة المصالح الروسية . أما من حيث المذابح التي يزعمون أن الارمن ارتكبوها فليست سوى نتيجة للعداوة المستحكمة بين الارمن والاتراك من قديم الزمن . ثم ذكر للحاضرين بأن الغرض الاول من مهمته في أرضروم هو وضع حد لتلك الجرائم فأذا ما اخفق في رد الارمن الى الصواب فإنه أول من يغادر المدينة ودارت المناقشات في هذا المجتمع بواسطة أحد المترجمين . ولما سئل اندرانك - هل يسمح للضباط بمغادرة المدينة اذا أرادوا ؟ - أجاب بانه : - (يستحسن أن يغادرها كل ضابط عديم الثقة بنفسه وانه يبذل لترحيل أمثال أولئك الضباط كل المساعدة الممكنة) وصرح الكولونيل زيكوفيتش أمام الحاضرين بأنه - وقد ثبت لديه ان وجود الضباط الروس في أرضروم إنما هو لخدمة مصالح روسيا فداعزم البقاء فيها لهذا الغرض . وفي النهاية قر رأي الضباط على المكث مدة عشرة ايام أخرى وان يعدلوا سلوكهم طبقاً لما يأتي به المستقبل من الحوادث التي قد تؤيد وعود اندرانك أو تدحضها وكان هذا الاجتماع في اليوم ال ٢٠ أو ال ٢١ من شباط . ولم يمر الا قليل من الزمن حتى أعرب الكولونيل دولوخانوف لي ولغيري من الضباط الروس عن شدة استغرابه لعين الاحتقار بل الاستفزاز التي ينظر بها الضباط الروس الى الارمن . وفي اليوم التالي اعلن اندرانك باعلانات كبيرة مكتوبة بالتركية ولصقت بجدران المدينة - ان كل من يقتل ارمينيا او مسلماً يقبض عليه في الحال ويساق الى المشنقة وان الاتراك يمكنهم مباشرة اعمالهم بلا ادنى خوف

وانه في حالة اختفاء احد الاترك المكلفين بالعمل في الحقول تكون المسؤولية على طاق الثمرذمة المنوط بها الاشراف على العمل . وبينما انا اجوب الشوارع في اليوم التالي على صهوة جوادي ومعى جان بولاديان اذ راينا عدداً من الناس يقرأون الاعلانات . فأكد لهم جان بالتركية - ان الاهالي المسلمين ماداموا ممنعين عن القيام بثورة لاخوف عليهم من الارمن . فكان جوابهم ان المسلمين لم يرتكبوا زهات عامين جرأهم مطلقاً وانهم لا رغبة لهم في ارتكابها في المستقبل وكل ما يطلبونه هو ان لا يقتل المسلمون العزل من السلاح المحروون من كل وسائل الدفاع عن انفسهم بلا مسوغ . فطالبت الى الكابتن ان يخبرهم بأني انا قائد المدفعية الروسية وان يؤكد لهم بأني وسائر زملائي الروس نشعر بعطف شديد تجاه الاهالي المسلمين وانا سنظل في المستقبل - كما كنا في الماضي - ساهرين على حياة اولئك النساء . فأيد بعض الاترك الموجودين وعلى الاخص ثلاثة منهم كلمتي اذ قالوا : - نعم انك لانت الذي انقذت حياتنا اثناء مذبحة ٧ شباط . وكان جان بولاديان الذي قام بالترجمة بينهم وبينى عضواً في اللجنة الارمنية .

وفي الاجتماع الثاني حضر الضباط الروس فقط ولم يسمح لاجنبي سوى الدكتور زافرييف بحضوره . ودارت المناقشة حول النقطة الآتية الخاصة ببذل المساعي لتحديد صفة الكتيبية الثانية المدفعية من قوات الحماية في ارضروم بأنها ليست - كما يدعي الارمن - كتيبية ارمنية بل كتيبية روسية . وليس بين ضباطها ضابط واحد تطوع للخدمة في الصفوف الارمنية بل لم يتفق احد منا على ذلك . فان كانت الكتيبية روسية فانا نصر على ان تتمتع بالاختصاصات الروسية . وان كانت ارمنية فانا نرغب ان يكون لنا الحق في مغادرة المدينة

متى اردنا للخدمة في الجيش الروسي . وقد اتخذت حالة الحصار كذريعة للحيلولة بين الضباط الذين يريدون مغادرة المدينة وبين غرضهم واجبارهم على الخدمة في جبهة اخرى عدا جبهة القوقاز وان صحت من جهة اخرى الاشاعة التي تناقلتها الالسن بأن ما وراء القوقاز قد انسلخت من روسيا فبتعين حتماً منح الضباط الروس اجازة بالنقيب هذا اذا كنا لانريد ان نرى انفسنا غرباء في بلد اجنبية .

وبعد المناقشة الطويلة وصلنا الى هذه النتيجة - وهي ان كل ضابط له الحق بمقتضى المنشور الذي بأيدينا ان يكتب طلباً بالانتقال الى احد الفياق الروسية او أن يبقى رهين اشارة وزارة الحربية . وعلى ذلك وافقت على تقديم هذه الطلبات الى السلطات المختصة .

وحمي وطيس الجدال في خلال الاجتماع حول ما صادفه الضباط بوميلوف التابع للكتيبة السابعة من مدفعية القوقاز الجيلية من المتاعب . فقد طلب أن ينقل من الكتيبة الأرمنية الجديدة التي عين لها . فلما لم يفلح الكولونيل موريل في تحويله عن عزمه اضاف العبارة الآتية : - الى صورة الطلب وهي - (ان الضابط المذكور قد رهن على عدم الكفاة في القيام بواجباته فينبغي والحالة هكذا وضعه تحت تصرف هيئة أركان الحرب في ميدان القتال . وتستصدر اليه الاوامر بمغادرة ارضروم في خلال اربع وعشرين ساعة) ! وبهذا مست كرامة ضابط من خيرة الضابط وكفاهم لا لذنب سوى امتناعه عن خدمة المصالح الارمنية ولتمرعه في اتهام الكولونيل موريل بالتحيز للقضية الارمنية ا .

وكرر الدكتور زافرييف اقوال اندرانك السابقة كلمة كلمة . فقال :-

(اتنا ببقائنا في ارضروم الى حين ابرام الصلح انما نخدم المصلح الروسية .
ولعمري ليس من حق ضباط ينتمون الى شعب متمدن ان يحاجو بمثل هذا
المنطق الغريب كأن يقولوا لأنفسهم : - (ماننا وللتدخل في شؤون الارمن
والاتراك لنتركهم يسوون اختلافاً فيهم - او يتسال بعضهم بمصاً !
فليس نمة ما يضطرنا معشر الروس الى التدخل في شؤونهم ؟ فليذهبوا الى
حيث لارجمة لهم !)

وبعد انما خطابه الذي لم يؤثر التأثير المطلوب ناشدنا الدكتور
زافرييف قائلاً : - (اذا اردنا خدمة الانسانية فلواجب يقضي علينا بالبقاء
في ارضروم لنحول دون ذبح الاتراك) .

ولم يتحقق من الوعود التي قطعها اندرانك شيء كما ان المسلمين انفسهم
لم يميروها اهتماماً كبيراً او يتقوا بها . فقد ظلت ابواب الحوانيت موصدة
وساد شعور الرهبة والفرع فلم يجرأ احد في الحي الاسلامي على الخروج من
داره . ولم يفتح من الحوانيت الا عدد يسير بالقرب من قاعة البلدية حيث
اكثر لغير من الاتراك التردد عليها .

ولم تتناول يد العدالة ارمينياً واحداً . وكأنا اراد الارمن خديمة الملا
النظار بان لاصلة لهم بما حدث من الفجائع جعلوا يتساهلون عما اذا كان في
النية معاقبة الابرياه من اجل مجرد وعد قطعه اندرانك ! ولكن لما اجاب
الضباط الروس بأنهم انفسهم سلموا لاسلطات عدداً من مذنبى الارمن الذين
ثبتت اذاتهم قوبلت حججهم هذه المفحمة بالصمت التام . واستمر القتل ولكن
في الخفاء وفي القرى النائية التي لاتقع عليها عيون الضباط الروس كما استمر احتفاء
الاهالي الاتراك من القرى المجاورة لارضروم دون ان يسمع احد بمصيرهم .

وازدادت في المدينة حوادث الاعتقال بدعوى احباط التمرد المنتظر .
ولما سألت بتهمكم عن مصير المعتقلين وعمّا اذا كانوا سيدبحون ذبح الأتباع اجابني
الكولونيل موريل قائلاً : - ان بعضهم سينقل تحت الحراسة الكافية الى فلسطين
ويبقى آخرون في ارضروم كرهائن ! وفي الشوارع جمعت العصابات الارمنية
المؤلفة من الفارين من الجيش تقتل المارة اما بدافع الخوف واما لسلب مامعهم
وفي كلتا الحالتين كان السبب هو الدافع الرئيس لارتكاب القتل . وقبل وصول
اندرانك كانت الفصائل الارمنية تأتي التقدم الى جبهة القتال فلما وصل اخذت
تذعن للاوامر ولكن لتفر ثانية من الميدان بحين لا مثيل له . ولطالما امتطى
اندرانك جواده وحاول أن يعيدهم الى الصف ملوحاً بسيفه ويده وعبثاً ما
حاول . وكان وجوده في مقدمتهم اقصى ما يبتغيه الارمن الملاحقون بالمدفعية
الروسية . وكانما فاتهم ان مدفعية الحامية انما تقوم على عزيمه رجال المدفعية
المتمرنين هذا عدا العدد الكافي من المشاة . ولكن كان من السهل ادراك
غايتهم الخفية وهي التعلق بأذيال الفرار تحت حماية المدافع متى ازفت ساعة
الانسحاب . وهو ما وقع بالفعل فيما بعد .

وقد تأخر موعد فتح المفاوضات في طرابزون وعلنا من هيئة أركان
الحرب في ارضروم بأنها ارجئت الى ٢٠ - او ٢٥ شباط بعد ان كان تقرر
افتتاحها في اليوم السابع عشر منه وكنت اضطر لاختراق المدينة مرتين كل
يوم نظراً لوجود اركان حربي في طرف المدينة وسوء حالة المواصلات التليفونية
وفي خلال احدى الزيارات الرسمية علمت من الكولونيل موريل وهيئة
اركان حربه بأن ليس ثمة جنود نظامية عثمانية بالقرب من ارضروم وان كل
ما هنالك ليس الا بضع عصابات من الاكراد والفلاحين ومعهم شردمة من

الجنود النظاميين وهم بقايا الجيش العثماني في سنة ١٩١٦ - وقد قيل : - ان هؤلاء المصائب انما حشدها بعض الضباط العثمانيين الذين اقتربوا من ارضروم لحماية الاهالي وان كل ما لديها هو مدفعان جبليان تركهما الارمن اثناء فرارهم من ارزنجان . وانها اذا ارادت مواصلة الزحف فمن احد طريقين طريق ارزنجان - اولتي - بيني او طريق القرظ - بالان دوجنو - ولا اعرف لماذا توقع الكولونيل موريل ان يكون الهجوم من جهة اولتي . فقلم الاستعلامات الذي كان تحت اشراف الارمن كان في حالة سيئة لانصراف عماله الى اعمال القتل في القرى وسرقة كل ما وقعت عليه عيونهم من الماشية هذا فضلا عن ان بلاغاتهم كان الكذب لحتها والتضليل سداها . فان قالوا يوماً ان عسسهم حاجته قوة من العدو تقدر بنحو ٢٠٠٠ مقاتل جزم الانسان بأن تلك القوة لم تزد في الواقع عن ٢٠٠ رجل ! ومن الغريب انهم لم ينجحوا ان يمتزموا بالفرار اما قوة لا تزيد عن ٣٠٠-٤٠٠ رجل في حين ان خسائرهم في تلك (المركة) كانت قتيلا واحداً وجريحاً واحداً ! وفي ذات يوم بلغ ضابط أرمني تليفونياً ان قوة من العدو تبلغ ٤٠٠ مقاتل هاجت كتيبة ارمنية ولكن ثبت فيها بعد ان تلك القوة كانت عبارة عن رجلين اعزلين من السلاح خرجا من قريتها المجاورة ثم عادا في الحال الى منزلها ! وفي طول الفترة التي اعقبت الجلاء عن ارضروم الى ان احتلها الاتراك لم ينتج العسس الارمن الاسرة واحدة في اسر فارس تركي واحد ويغلب على الظن ان الذي طاقه عن الفرار امر قهرى لا يدل به كالجليد او المرض .

وبعد الاجتماع الذي عقده الضباط ثاني مرة طلب بعضهم الانتقال الى مناصب اخرى . فلما عرضت طلباتهم هذه على الكولونيل موريل امتنع اشد

امتعض وابي ان يسمح لهم بالرحيل ارتكناً على حكم صادر من المحكمة . فلما
لفت نظره الى ان المدافع مازالت بأيدي الضباط الروس وان في استطاعتهم
مقابلة تلك القسوة التي لا مسوغ لها باطلاق النار وان الطلبات هي فضلا عن
ذلك قانونية فلا يمكنه بحال من الاحوال الادعاء بأنها محاولة للفرار وان خير
مايفعله هو الاذعان لها - احاب بأنه لا يتردد في اعطاء الضباط - اذا أصروا -
اوراقاً مدنسة لصحائفهم كالتي اعطاها للكاتبين برمالوف . فقلت له : - (ان
الضباط الذين يكرهون على البقاء في الخدمة لا ينتظر منهم تأدية الواجب
بالدقة المطلوبة) . فاجاب (بأنه لهذا السبب نفسه ارسل في طلب ستين ضابطاً
انجليزياً للحضور الى ارضروم وقد وصل اليه فعلا الرد الرسمي بالقبول) .
ولقد سمعت في اثناء تلك الزيارة بمحادث آخر ذلك - ان جندياً روسياً او
بولونياً مستخدماً بوظيفة ناظر محطة في ارضروم رفض العمل فقبض عليه من
اجل ذلك وارغم على الاستمرار في تأدية واجباته . وقد امرت ضابطي ان
تكون مساكنهم بعضها بجوار بعض بحجة ان ذلك يسهل تعميم الاوامر الصادرة
والحقيقة ان ذلك لتكون اقدر على مساعدة بعضنا بعضاً اذا اقتضت الحال .
وكان الكاتبين برمالوف قدر حل في اليوم الخامس والعشرين من شباط
فسألته ان يعرج في صاري قاميش على القاندين فيشنكي وجيراسيموف قائدي
المدفعية فيخبرهما بالموقف الخطير الذي اصبحنا فيه جبال الارمن ويستحثهما
على انقاذنا من تلك الورطة بأقصى السرعة .

وفي اليوم الـ ٢٤ من شباط رأيت طيارة تركية حلقت بقصد الاستكشاف
فاستنحت ان العدو قد وصل ارزنجان ان لم يكن جاوزها (الى ماماخاوم) .
وفي اليوم نفسه اخبرني الكولونيل موريل - انه تلقى (الاقتراحات) التركية

الخاصة بالجللاء عن أرضروم . ولقد اكد لي القائد التركي كاظم بك بمد
الاحتلال ان (الاقتراح) لم يكن قصاصة ورق لا قبعة لها بل هو انذار نهائي
رسمي مذيبل بمضائه وهو ما يناقض ما ادعاه الكولونيل موريل من انه لم يكن
سوى مجرد (بلف من القائد التركي) . وقد اذاعت قيادة القلعة في يومى ٢٤
و ٢٥ شباط - بان الخطر ما زال يبيدأ وانه لم يظهر حتى ذلك الحين سوى
المصائب الكردية بالقرب من تيكي ديريسي وانها وقفت زحفاً فعلاً على أثر
وصول الكتيبة التي ارسلت لصدّها . بل أذيع ان تلك الكتيبة قد صدت العدو
الى بضعة كيلو مترات فيما وراء عليجي . وفي أثناء هذا كله وصلت الينا الانباء
بان الكتيبة الارمنية في تيكي ديريسي قد هوجمت في اليوم ال ٢٦ من شباط
وان الذين نجوا من ايدي الاتراك سابقوا الريح في الفرار تجاه أرضروم
أما كتيبة عليجي فقد دارت عليها الدائرة وفرت هي ايضاً الى أرضروم .
وكان الكولونيل موريل قد أصدر الى التعليمات الشفوية باطلاق النار
على العدو اذا هاجم أرضروم ولكني لم أر للعدو اثرأ ذلك لأن طريق خربوط
على طولها كان غاصاً هو وطريق طرابزون بقلول الارمن وهي جادة في التقهقر
الى أرضروم متراسة كما لو كانت في ساحة التميرين . وفي أصبل ذلك اليوم
علمنا ايضاً ان كتيبة من كتائب العدو ظهرت بالقرب من حوزكوى . فقدرت
عددها بـ ١٥٠٠ مقاتل وقد تبينها فاذا هي كتيبة نظامية وليست باحدي
المصائب الكردية .

وحاول اندرانك ان يلم شتات الفارين فيصدهم بهم العدو ولكن ما سرع
ما اطلق هؤلاء الجيئاه سوقهم للربح عند التفائهم بالاتراك . وهنا جعلت
المدفعية تطلق وابل القنابل حتى منتصف الليل . ولما بدأ الهجوم الكردي

وتعين لنا العمل اقلع الضباط الروس عن فكرة الانسحاب وانبروا يؤدون واجباتهم بأمانه وشرف .

ولقد ذهبت جميع المساعي التي قمت بها لحمل مشاة الارمن الملحقين ببطارياتي في جهة بوبوك فير يميدي على الهجوم أدراج الرياح فانهم آثروا الامعان في الانسحاب الى جهة باب خربوط على الصعود ولم يفت الارمن الذين دارت عليهم الدائرة في نيكي ديريسي أن يسوقوا في هزيمتهم ما صادفوه من المشية كما انهم لم يتوانوا في ذبح الاهالي العزل الاترك الذي مروا بهم . وقد أخذ الزحف التركي على ارضروم القيادة الروسية بمباغته تامة . فتعلبات القتال لم تصدر بتاتاً وان صح انها صدرت فاني لم اسمع بها مطلقاً . وكانت المهمة التي عهد الي القيام بها في منتهى البساطة وتتحصر في امطار العدوبواهل من القنابل ومنعه من اختراق منطقة الحصون المحيطة بالمدينة . اما المراكز الامامية فمززت بالمشاة والمدفعية الجيلية ولم تكن تحت اشرافي .

وفي خلال ذلك اليوم وجهت للمليشيا الارمنية في المدينة اهتمامها الاول الى القبض على جميع الرجال المسلمين بما فيهم العجزة والمرضى وعند سؤالهم عن السبب في تلك الاجراآت اجابوا بأنهم انما يجمعون الرجال ليزيلوا ما على سكة الحديد من الثلوج المتراكمة .

وفي المساء نمت الي ان طالباً ارمنياً يقود عصا به له قد طالج باب داري ودخلها عنوة رغم كتابة اسمي على الباب بدعوى التفتيش . ولما قاومت زوجتي ذلك المتطفل الوقح لم ينجح فيما حاوله كما اخفق في اعتقال صاحب الدار وهو رجل تركي طاعن في السن ومعه بعض الخدم من الأكراد . فاعتاظ ذلك الوغد من اجل هذا واطلق لسانه بيديء القول وخشمه . ثم صاح هذا الطالب

قائلاً : - ان هذا التفيتش انما يجري بناء على اوامر اندرانك . وعندئذ امرت بفتح باب سرى بيني وبين صاحب الدار ليتمكنه الالتجاء الي اذا عادوا للقبض عليه ثانية .

واعتمدت في الايام الاخيرة الا ازور اندرانك وحاشيته الا بصحبة الكابتن بولكفتش رئيس قلم التعبئة ليكون شاهداً على علاقتي بهؤلاء الرجال . ففي ذات مساء ذهب معي الى اجتماع عقده الضباط . وكانت الجلسة قد فتحت قبل وصولنا بقليل وكان اندرانك والدكتور زافريف والكولونيل زينكوفتش والكونيل دولوخانوف بين الحاضرين . فما كدت ادخل حتى شرع زينكوفتش يقرأ بصوت جهوري البرقية الآتية من القائد العام او ديشيلدز وهي : - (لقد وصلتني من وهيب باشا قائد الجنود التركية برقية لاسلكية يقول فيها - ان لديه اوامر باحتلال ارضروم . فبادروا بتحطيم المدافع وسحب الجنود الامضاء او ديشيلدز) .

فلم يترك لنا هذا الامر الصادر في لحظة متأخرة فرصة لتحطيم المدافع وبعد ان سرى عن اندرانك غضبه عن عزمه على الدفاع عن ارضروم مدة يومين آخرين ليم تحطيم المدافع ثم ينسحب من القلعة . ولما ذكره الدكتور زافريف بانه لم تتخذ الوسائل بعد للضرب على ايدي المابئين بالامن من الذين ازعجوا المدينة وان المسلمين بما فيهم الشيوخ المرضى ما زالوا يزعجون في رابعة النهار من عقردورهم ويرسلون الى جهات غير معلومة اجاب بأن الاوامر قد صدرت بالفعل لوضع حد لتلك الاضطرابات . ولكن هذه الوعود الجميلة ظلت كثيرها حبراً على ورق .

وبعد البحث في خير الوسائل لتنفيذ قرار اندرانك انسحبنا . اما من

جهة الدفاع عن ارضروم مدة يومين آخرين فقد كان في الاسطاعة فعلا المكث فيها اثنين واربعين يوما لأضد الاكراد وخدم بل ضد جيش نظامي وذلك نظراً لعدد الجنود التي كانت لدينا ومناعة المرا كز الامامية .

واذ أعلنت القيادة العثمانية رسمياً في خلال مفاوضات الهدنة بأنها لا تعتبر نفسها مسؤولة عن اعمال الاكراد وجب علينا اتخاذ الاحتياطات اللازمة لصد الهجوم اذا حدثتهم نفوسهم به .

فلما عدت الى مركزى اصدرت الاوامر بتحطيم المدافع وقد كان في الاستطاعة تمطيلها في خلال يومين على كل حال . بيد انى علمت من التقارير التي قدمها ضباطي بأن المشاة انتهزت فرصة الظلام فغادرت خنادقها وتعلقت بأذيال الفرار . فاطلعت الكولونيل على جلية الخبر فاكده لي ان ليس بممة خطر ما نظراً لارسال الامدادات . فعدت الى دارى حوالى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل وذهبت الى الفراش .

ولكنى سمعت بين الساعة الواحدة والضاعة الثالثة طلقات رصاص في المدينة ثم اصوات الارمن كما سمعت حركة تحطيم الابواب بالقنوس واصوات الاستغاثة تتصاعد من المسلمين الذين هوجوا . فاستوت على الحيرة لسبيين : اولاً لأن شرفنا اضحى مهدداً . لان كل من لم يشهد بنفسه اعمال الوحشية الدالة على الجبن التي كان اولئك الارمن (الذين يقاثلون في سبيل الحرية) يأتونها - وبما تبادر الى ذهنه ان هذه الفضائع اما ارتكبت بأذن الضباط الروس وقتئذ نصبح شركاه في الجريمة مع اولئك الوحوش السفيه . وثانياً بما أن تعليمات القيادة العليا حظرت مقاتلة القوات النظامية التركية وقد تكون النتيجة مخالفة اوامر القائد العام اذا وجد سوء التفاهم سبيلاً الى نفوس المهاجرين

فلحل هاتين المسألتين قررت أن ابكر . في الصباح لزيارة الكولونيل موريل
فأقترح عليه اتخاذ الوسائل الفعالة لمنع الأرمين من ارتكاب جرائم جديدة
ولو أدى ذلك الى تصويب بعض مدافنتنا عليهم وبهذا نضطرهم الى الاذعان
لأوامرنا وثانياً أن نرسل سريعاً الرسل تحمل العلم الايض الى قائد القوات
التركية لاجباره بأن المدينة ستسلم اليه في خلال يومين بدون اراقة دماء .
وفضلاً عن ذلك يتعين ايجاد كتائب من غير الارمن لقمع الاضطرابات بالقوة
والحيلولة بين الارمن وبين ذبح الاتراك .

ولما ذهبت في الصباح ومعى الكابتن بولسكفتش لمقابلة الكولونيل موريل
قابلت بالقرب من مستودع ذخيرة المدفعية الملازم انثانى الارمني المسمى
باجرتونيان وهو الضابط الخفر في ذلك المستودع فأخبرني بأنه سينسف
المستودع عند وصول امر الانسحاب فهو اذاً ينتظر رثيها تصل اليه الاوامر
مني . فدهشني قوله هذا لان المستودع كان تحت ادارة الكولونيل دولوخانوف
ولم يصدر أمر ما بنفسه . فقلت لهذا الملازم الارمني أن نسف المستودع ربما
نشأ منه ضرر كبير للضباط الروس وللإهالي المملكين ونصحت له بالعدول عن
تلك الفكرة وفي النهاية نجحت في اقناعه وانقذت الذخيرة .

وما كدت اقترب من مركز الكولونيل موريل حتى رأيت كل انسان
مجداً في الهرب كما رأيت النار تشتعل في دار القنصل الاميركي الواقعة أمام
مركزه بل رأيت الكولونيل موريل نفسه والكولونيل توركوم على ظهري
جواديهما متحضرين للفرار وان متاعهما قد حمل على سيارة عدا المركبات العديدة
الاخري . وكانت الساعة السابعة في الصباح فتساءلت عن السبب في كل ذلك
فقيل لي - ان اوامر الانسحاب قد صدرت في الساعة الخامسة صباحاً .

واستغرب القوم عدم علمي بها . ولعمري ان ذلك هو نفس ما كنت اخشاه
فان الارمن قد تمكنوا من الهرب تحت حماية الضباط الروس ومدفيعتهم . غير
انه بينما الضباط الروس كانوا يبذلون وخدم أقصى الجهد في صد هجمات الاتراك
اذا بالارمن قد اتسع لهم المجال في ذبح المسلمين ثم التعلق بأذيال الفرار .
ولولا وصولي الى هنا لما سمع الضباط الروس بشيء من اوامر الانسحاب .
فخطر لي ان اذهب الى قلعة مجيدية واحيي شجعتان الارمن تحية الوداع بصعب
القتال عليهم وهم جادون بالفرار على طول طريق القرظ وقد لبسوا الثياب
الواقية من الرصاص . ولم يعني عن تنفيذ تلك الفكرة الا احتمال وجود بعض
ابرياء الاتراك بينهم .

وقد ترتب أيضاً على خداع التاهبين الارمن وجبنهم ان المدافع لم يمكن
تعطيلها . فلما عدت الى مركزي سمعت في احدي الشوارع المظلمة أنين الالم
والاستغاثة وطلقات رصاص شديدة واذ كنت بقرب منعطف الطريق لم استطع
رؤية ما حدث ولكن اثار الدم فوق الجليد دلتني على ان معركة كانت ناشبة
هناك . فنزلت من مركبي لأواصل السير على الاقدام . فلما رأيت قائد الميليشيا
الارمني وهو على ظهر جواده يبرز من احد الشوارع الخلفية امكنتني تصور
الحادث الفظيع الذي وقع .

ولما عدت الى مركزي اصدرت الاوامر لبطاريات باعلان الانسحاب
في نفس الوقت الذي ينسحب فيه المشاة واعداد المركبات لضباط المدفعية .
ولكنني علمت ان خيالة المركبات قد عجلوا بالفرار في الليلة السابقة وان الفارين
من الارمن - مع انهم مسلمون تماما - أخذوا خيل المركبات طالين النجاة
على ظهرها كل اثنين على حصان . ولقد هموا بسرقة خيولي ولكن السائس

قاومهم فلم يتمكنوا من سرقتها ولكنهم جرحوا واحداً منا برصاصة . فلم
يبق لدينا من الحسنيين مركبة سوى ثلاثة فقط فركبها بعض الضباط . وبعد
ذلك بقليل علمنا ان الجيش العثماني دخل المدينة واذ ذلك أمكننا أن نتبين انه
لم يكن مؤلفاً من عصابات كردية حشدت بطريق الاتفاق كما أوهمنا موريل
بل من جنود نظامية . وانهزت مشاة الارمن البواسل فرصة ارضاء سدول
الليل فأمنعت في الفرار في الطريق بين أرضروم والقرظ . واحسب ان الزوابع
الاطصير ما كانت لتستطيع ان تطهر أرضروم من الرجز الارمني بمثل هذه السرعة
ولم يمكن العنور في الخنادق أو في المدينة على واحد من جرحى الارمن
ولعمري ان هذا الا برهان جديد على (البسالة والجرأة التي دافعوا بها عن
أرضروم) فكل الذين وقفوا في الاسرهم الروس وحدهم . فللارمن اذن أن
يفاخروا بالدور السليبي الذي لعبوه في الدفاع عن المدينة .
وعندما سمعت باحتلال الاتراك للمدينة توجهت ومعي المساعـد
الى دار القيادة لتقديم تقرير عن الحالة .

وكنت اينما سرت في الشوارع يمر بلي الاتراك بطريقة مؤثرة عن
عرفانهم للجميل حيث انقذت حياتهم . وكان شكرهم ذلك موجهاً الى جميع
الضباط الروس اذ لولاهم لما وجدت الجنود التركية التي احتلت أرضروم
تركيا واحداً حياً .

ولا بأس ان اثبت هنا ما ذكره الكاتب الروسي بترونيس عن الارمن
اذ قال : - (انهم آدميون حقيقة ولكنهم في ديارهم يمشون على اربع ارجل -
كما يجب الا اغفل تعني الشاعر الروسي ليرمنتوف بمحامدهم وفضائلهم اذ قال
مخاطباً احدهم : (انك عبد ونذل وجبان لأنك ارمني) .

أرضروم في ٢٩ - نيسان سنة ١٩١٨ .

الامضاء

للفتنتت كواونيل توارد وخيلروف القومندان

الموقت لقاعتي اوضروم وديني يونيو

وقائد الاورطة الثانية لمدفعية الحامية

بأرضروم

والآن ايها القراء المنصفون ماذا عساكم انتم قائلون في انسانية الارمن؟
كلا ! كلا ! اني اناشدكم الله الاتجوروا في الحكم على هذين الشعبين !
فلم يكن الذنب ذنبهم وانما الذنب ذنب السياسة الروسية التي حرصتهم
بعضهم على بعض . فالسياسة الروسية كان انصى غايتها ذبح التركي حتى اذا
قضيت على ذلك المجد الوطني القديم الذي ينيف على الف عام سلبت التركي
تراثه . تلك السياسة التي كان اشهى شيء لها السباحة في بحر الدم وتجريض
الارمن على الاتراك . فاذا كانت نتيجة ذلك كله ؟ ! كانت النتيجة ان
الاتراك قد رسخت في افئدتهم هذه العقيدة وهي « يلزم ذبح الارمن على
بكرة ايهم لنا من على حياتنا » بينما الارمن قالوا لانفسهم : - (لتخلص مما
نحن فيه ينبغي ان نخلق الاتراك قاطبة حتى تمود لنا الاغلبية) . ذلك هو الذي
مهده الطريق للحوادث المفجعة التي شاهدناها . والتي ذهب ضحية لها ٦٠٠٠٠٠
ارمني و١٥٠٠٠٠٠ تركي وكردني . والآن أقول : - ان السياسة الروسية
واذناهاا البلهاء امسال مورجنتاوا ومن على شاكلته هي التي تحاول بلا خجل
وبلا حياء القاء اللوم كله على طابق الاتراك بما تملأ به صحف العالم من السخائم
والاحقاد وتودلو اتسح لها القضاء على ذلك الشعب المجيد .

ان ماندلستام يؤكد ان الارمن فيها عدا ولاية (وان) لم يحاولوا
بناتاً الشروع في الثورة ! ولقد قلت آنفاً : - انني لاعلم لي بما وقع من الحوادث
في ولايات الاناضول الشرقية ولا في مؤخرة جيشنا في القوقاز . ولكنني من
جهة اخرى كنت على علم تام بما جريات الاحوال في المنطقة التي كانت تحت
قيادتي فالحوادث التي وقعت في نصف سنة ١٩١٥ في جهتي الزيتون واورفه لم
تكن سوى عصيان ارمني مسلح . ولم تكن القلاقل التي حدثت في جهة
موسى بابا الا جزءاً من تلك الثورة المنظمة . وعندني ان الامور التي لا تقبل
جدلا هو انه في الوقت الذي بلغت فيه حملة الدردنيل منتهى الشدة نزع الارمن
الى الثورة بناء على اوامر القائدين العامين الانجليزي والفرنسي في شرقي البحر
المتوسط ولا ريب في انها حسب ان الثورة الارمنية اذا بدأت من رين الخنزير
في خليج الاسكندر رونة وانتشرت الى دورت يرل ومن ثم الى موسى بابا
وحلب وعينتاب واورفه وزيتون فلا بد ان تقضي حتما الى سلخ سوريا من آسيا
الصغرى ا وفضلا عن ذلك ان الارمن الذين اعدوا معدات الثورة في تلك
الجهات قبل ذلك الوقت بزمن طويل لم يقدمهم عن تنفيذ خططهم الا انتظار
وصول التعليمات اليهم بالشروع في العمل .

فهل في استطاعة السلطات المسؤولة في الحكومتين المذكورتين الادعاء
بان اقوالى هذه لا اساس لها ؟ وانني ارى بحد ان وضعت الحرب اوزارها ان
من الشجاعة ان توضع الحقائق الخاصة بهذا الموضوع كما هي امام الجمهور .

واذا كان ماندلستام لا يزال مصراً على رأيه من ان تلك الحوادث لم
تكن مطلقاً محاولة للشروع في الثورة بل انها كانت مجرد مقاومة والتجاء الى
السلاح للدفاع المسوغ عن النفس فلانمدوحة لي من ان اؤكد له ان حلفاء

الضباط الانجليز والفرنسيين الذين دبروا تلك الثورة سيعتبرون كلامه هذا مجرد لغو وهذيان ! ذلك هو رأي واعتقادي في المذابح الارمنية . على ان الحرب اذا كانت انتهت بفقد المملكة التركية لسورية والعراق وشبه جزيرة العرب وهي اثنان درر التاج العثماني فان تركيا تستأنف الجهاد من جديد لاجلولة دون ضياع الاناضول تلك الاراضي المقدسة التي أصبحت كل ما تبقى للشعب التركي . فان كان ثمة تعزية لتركيا البائسة على ما ضحته في خلال الحرب العالمية من الضحايا التي تنيف على ثلاثة ملايين فهذه التعزية هي ان القيصرية عدوتنا الوراثية قد تلاشت من الوجود وامحى اثرها .

وعلى اثر ما وقع في القوقاز نشهد اليوم بين الدول التي انشئت حديثاً تكوين جمهورية ارمنية . ولكننا واثقون من جهة اخرى ان الارمن الاتراك وعلى رأسهم صافن افندي بطريك الاسنانة لن يقفوا عند حد لانه خواطر الاتراك الذين لا يعارضون بحال ما في انشاء جمهورية ارمنية مع اتخاذ اجسادزم واريقان قاعدتين لها على شرط بقاء الجمهورية المذكورة في صفاء تام مع جمهوريتي اذربيجان والكرج التي تكوينا من العناصر الوطنية المختلفة في جنوبي القوقاز وكذلك مع المملكة العثمانية بصفتها المالك الوحيد لآسيا الصغرى الذي لا جدال في ملكيته وعدم التطلع بعين الطمع الى ما هو ملك ثابت لتلك المملكة وفوق كل شيء . اني انصح للارمن الاتراك اذا اردوا العيش في سلام وهناء وعلى الاخص لمصلحة الاتراك ان يعدلوا نهائياً عن تلك الاماني المستحيلة التي طالما عللوا بها نفوسهم وهي ان تصبح ولايات أرضروم وتبليس ووان وديار بكر ومعمورة العزيز يوماً ما جزءاً من ارمينيا .

ففي اليوم الذي يقوم فيه الدليل على أن الأرمن عدلوا فعلا عن تلك

الاماني المستحيلة يستطيون العيش في صفاء ووثام مع مواطنهم الاتراك
والاكراد . ولعمري ان الطريق دائماً مفتوحة لمن يريد منهم التجنس بالجنسية
الارمنية فقط على شرط أن يبقى في الجمهورية الارمنية بالقوقاز . أما الذين
يؤثرون منهم التوطن في تركيا فليس لهم أن يرهقوا قبل كل شيء . على انهم
عثمانيون صادقون وأن يحجموا عن القيام بالمساعي التي قد تثير الشكوك في ولائهم
ولا معنى كذلك من الآن فصاعداً لوجود جمعية الدشنقزيتيين - أو جمعية
الحنجاق أو الجمعيات الاخرى بن أرمن تركيا . لأن وجود مثل تلك التشكيلات
في نظري مضر بار من القوقاز .

والآن أرى ان واجب جمهوريات القوقاز الثلاثة والمملكة العثمانية
كذلك هو ان تعاون كل منهن الاخرى وأن يوجه الجميع اهتمامهم الى تعمير
الاراضي الخربة واعادة تنظيم الادارة وتوطيدها . ثم واجب آخر امام تلك
الدول الاربع - الا وهو اتخاذ كل الوسائل اللازمة لمنع السيل الروسي من غمر
جبال القوقاز وهو ما يمكن صده اذا عقدت هؤلاء الولايات بينهم تحالفاً دائماً
وان صافن أفندي بطريك الارمن ليعلم اكثر من أي شخص آخر مقدار ما
اكنه في صدرى من شعور الصداقة حيال الأرمن .

وبهذه المناسبة اذكر ان صافن أفندي جاء الى زيارتي في قندق سراي
بيرا عند عودتي الى الاستانة في كانون الاول سنة ١٩١٥ وسلمني مذكرة من
البطريركية شكرتني فيها باسم الامة الارمنية باسمها .

واني وقد نمت الي انه مسموح لنفسه بأن يستعمل كآلة في الدسائس التي
يدسها البطريرك اليوناني في الاستانة أناشده بصفتي صديقاً للارمن أن ينعم
النظر في النصيحة التي ذكرتها هنا فقد تمنعه دراسته للمزايا التي تعود على



114

الارمن من تنفيذ اقتراحاتي هذه من أن يصبح العوبة في أيدي ذلك البطريرك
 فإذا لم نعد - كما قلت آنفا - نحن أمم الشرق الأدنى الاربع مخالفة
 دعاية رسمية ضد روسيا وإذا لم تتعاون في انشاء جمهورية في شمال القوقاز
 وضمها الى تحالفنا فلا ريب في أننا سنقع تحت نير روسيا التي ما فتئت منذ
 سنين تمني نفسها بوضعنا تحت سلطتها .

وما يدرينا لعل اليوم الذي يفلت فيه العرب والفرس النساء الذين
 وقعوا تحت سلطان الانجليز والفرنسيين من قبضة حكاهم الحاضرين وينضمون
 الى تحالفنا يكون قريباً ؟

ان أمم الشرق الأدنى لا يمكنهم أن يمشوا احراراً الا اذا أصبحوا
 مطلقي التصرف في مصيرهم .

واني لعلى يقين من ان هذه الامنية السياسية التي أبسطها امام ساسة
 تركيا وأرمينيا والكرج واذربيجان متى تحققت تحول في أقل من عشرين
 عاماً الشرق الأدنى - الذي يعتبر حتى الآن مهد الدسائس والفلاقل - الى فردوس
 من الفرديس وصار في مركز يصبح معه مستقلاً تماماً عن الاجنبى .

وعندي ان هذه الامنية العظيمة الالهية للانراك الذين هم الاغلبية في
 المملكة العثمانية - فإذا أرادت الاقلية الارمنية أن تظل عثمانية فكل ما عليها اقامة
 الدليل على انها - مثل الارمن منذ ٧٠ عاماً ليست مدفوعة الا بشعور الولاء
 والاماني العثمانية الصحيحة . هذه هي في اعتقادي الطريقة المثلى الوحيدة التي
 يمكن اقتراحها لدفن الماضي الملوث بالدماء ولاحياء مستقبل باهر سعيد . واني
 ومواطني لعلى استمداد للمأثرة مع من يشير بتسوية أممنا من هذه .

٢١ شعبان سنة ١٣٤١ - الموافق ٨ نيسان سنة ١٩٣٣ . « انتهى »

MEMORIES

OF

JAMAL PASHA

Al - Saffah

AL-BASRI,s PUBLICATION HOUSE

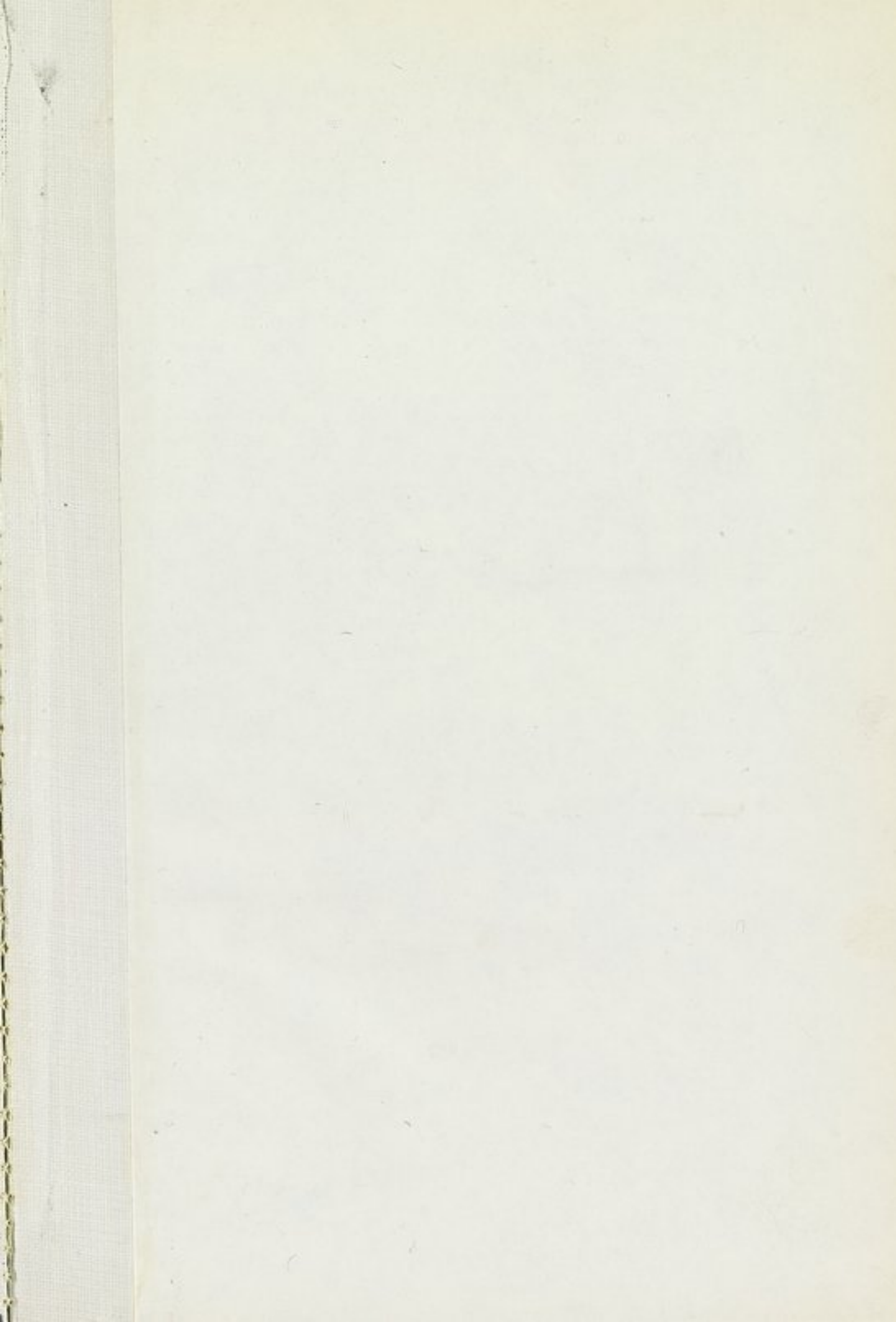
BAGHDAD 1963

AL-BASRI,s PRESS. TEL 89279

PRICE 350 FILS

الشمس ٣٥٠ فلس

مطبعة دار البصري - بغداد (تلفون ٨٩٢٧٩)



LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library



32101 084760477